الموسوعة الشاملة

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الحادي والأربعون

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب
الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته

حوالي
(١٤٨٠ — ١٤٨٣م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثامن والثلاثون
(٢)
دمشق ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته
حوالي
(١٤٨٠—١٤٨٣)

القسم الثاني

المكان الذي قتل فيه الرسول جيمس الأكبر صبراً من قبل هيرود أغريبا

أدرنا عند الزاوية المتقدم ذكرها، ظهورنا إلى كنيسة جبل صهيون، ونزلنا عبر طريق طويل يقود نحو الغرب، وكان ذلك خلال خرائب كثيرة لأسوار عظيمة، ووصلنا أخيراً إلى بيت يشبه البيت الأخير، وهو أيضاً دير، وقرعنا على الباب، وسمح لنا بالدخول، ولدى دخولنا الكنيسة انحنينا بأنفسنا نحو الأرض ونحن نصلي، ثم جاء كهنة الكنيسة إلينا، واقتادونا إلى بيعة قائمة على الجهة اليسارية للكنيسة، فهنا يوجد المكان الذي قتل فيه هيرود أغريبا الرسول جيمس الأكبر صبراً، وهو أخو يوحنا، حسبما قرأنا في الاصحاح الثاني عشر من الأعمال، وكان جيمس الأكبر هذا، أخو يوحنا، قريباً للمسيح، والثالث في الترتيب بين الحواريين، وكان أمين سر ربنا، كما كان الأول بين الحواريين، ممن نال الشهادة، وقد حمل جسده من قبل تلاميذه إلى بحر يافا، ومن هناك عبر البحر بشكل إعجازي إلى كومبوستيلا (في اسبانيا) حيث يزار في هذه الأيام من قبل جميع الناس الذين يؤمنون بالمسيح.

وتلونا في هذا المكان ترنيمة تجاوبية مع بقية القداس المحدد، وتلقينا غفرانات(+)، وهذه الكنيسة عظيمة وعالية، إلى حد أنها أعلى من الكنائس، وليس لها نوافذ، بل يأتيها الضياء من خلال فتحه موجودة في الأعلى، ويملأ الكنيسة، وهناك عدد كبير من البيع من حولها، هي الآن مهدمة ومدنسة، ومعلق في الكنيسة نفسها كثيراً من المصابيح، ومعلق في الوسط مائة وعشرين مصباحاً في ثريا واحدة، ولدى جميع الشرقيين كثير من المصابيح في كنائسهم، وعلى ذلك قناطر السقوف ممتلئة بالحبال والسلاسل، ويوجد في جدار الكنيسة، في الجهة الخارجية، فتحة، أو

نافـذة عمياء، أو مغلقـة، فيها مـوضـوع صخرتين كبيرتين مستـديرتين، جلبتا من جبل سيناء، ويقولون بأن الملائكة قـد جلبوهما إلى العذراء من أجل مواساتها الروحيـة، لأنه لم يكن مناسباً أن تقوم برحلة حج طويلة، أو أن تغـادر القدس، في حين يمكنهـا بوسـاطة هاتين الصخرتين تعبّـد جبل سيناء المقدس، وهذه هي الكنيسة الكاتدرائيـة، ولها رئيس أساقفة، وكهنة تابعين للطقوس الأرمنية، وهم —على كـل حال— يدعون باسم اليعاقبة، ويدينـون بالطاعة لكنيسة روما، ورئيس الأسـاقفة، رجل جاد، ولائق جسدياً، ومحترم أن تنظر إليه، وكـان يسرنا أن نتحدث معه، لكن مـاكان أحـد منا بإمكانه فهم لغـة الآخر، وهؤلاء اليعـاقبة ليسـوا ذوي بشرة سوداء، مثل المسيحيين الشرقيين الآخرين.

المكان الذي التقى المسيح فيه بالنساء بعد قيامه من الموت وقال: سلام لكن

وبعـدمـا فرغنا من رؤيـة الأشياء المتقـدم ذكـرها، خـرجنا من ذلك الدير، وتـابعنا سيرنا على طول الطـريق، ووصلنا على طريقنـا إلى مكان أقيمت فيه صخـرة عظيمة في الطريق العـام، وأقيمت هذه الصخرة على هذا الشكل من قبل المسيحيين القـدمـاء فوق تلك البقعـة، لأنه في هذه البقعة ظهر الرب إلى المريمات الثلاث، عندمـا كن عائدات من الضريح، وقال لهن:«سلام لكن»، وتقدمن نحـوه، وأمسكن بقدميه، وسجدن له، فهـذا مـانقرأ عنه في الاصحـاح الثـامن عشر من انجيل القـديس متى، وبناء عليـه انحنينا بأنفسنا نحـو الأرض، وقبلنا المكان الذي سار عليـه المسيح، وخطا عليه بقدميه، وقبلنا الصخرة أيضاً، وتلقينا غفرانات(+).

ولقـد قام هنا فيما مضى كنيسـة كبيرة، هدمها المسلمـون، مثلما فعلوا بكنائس أخـرى كثيرة، وبعـد هذه الصخـرة، ينزل الطريـق من جبل صهيون إلى ضريح الرب، ولهذا اعتدنـا نحن الحجاج أن نمرّ بهذا المكان

كل يوم، وحدث في بعض الأحيان، أننا كنا نمرّ ست مرات في اليوم الواحد، ومن عادة الحجاج أنهم كلما مروا بأي مكان مقدس —مع أنه لم يكن في برنامجهم أومقاصدهم زيارة أماكن مقدسة— أن يقوموا بتقبيله ومن ثم يمضون في طريقهم، وبناء عليه، كنا كلما مررنا بالصخرة المتقدم ذكرها، نقوم بتقبيلها، غير أن المسلمين الذين كانوا يعيشون في البيت المقابل للصخرة، عندما شاهدوا هذا، ضاقوا به، وغاروا من خشوع الحجاج، فجاءوا بالليل، ولوثوا الصخرة بالغائط، فجعلوها قذرة تماماً، ومقززة لنفوسنا حتى نقبلها، ومع هذا قام واحد من الحجاج الذين لم يتحملوا هذا، فمسح الصخرة بثيابه، ونظف مكانا منها، أمكننا الوصول إليه وتقبيل الصخرة، وعلى هذا أمكننا أن نقدم احتراماً لها ليس أقل من ذي قبل، لابل أكثر، مما سيضايق المسلمين ويزعجهم، وهذا التلويث وإبداء قلة الاحرام فعله المسلمون، في كثير من الأماكن المقدسة في القدس، وفي أماكن أخرى.

برج داوود الذي ينهي جبل صهيون باتجاه الغرب

وعلى مسافة ليست بعيدة، لدى سيرنا باتجاه الغرب، وصلنا إلى زاويةجبل صهيون، وذلك حيث ينتهي باتجاه الغرب، فهناك كان يقوم برج داوود، وهو قائم هناك في هذه الأيام، حيث الموجود هو قلعة حصينة جداً وجميلة، مع موقع حصين، فوق شرف صخري منحدر، ومن حول القلعة هناك دوماً خندق عميق بشكل طبيعي، عنده يتصل جبل صهيون بالمدينة، ففي ذلك المكان كانت ميلو، وهي (القلعة) محصنة من جهة الجنوب، في هذه الأيام، بواد عميق، وتمتلك القلعة أيضاً أسواراً عالية، وعدداً كبيراً من الأبراج، وأبواباً لها حواجز حديدية، وأمكنني في يوم آخر أن أرى القلعة من الداخل، ووقفنا وقتها بدون حراك نحدق ببرج داوود الذي غالباً ماورد ذكره في الكتابات المقدسة، وننظر أيضاً إلى ميلو، وتفكرنا هناك كيف كان شكل القدس

ومنظرها في الأيام الغابرة، لأنها قد تشوهت الآن بما تعرضت له من أعمال حصار كثيرة، وامتلأت وديانها العميقة بأكوام ركام الخرائب التي وقعت فيها.

وعلى مقربة من برج داوود هناك طريق نازل إلى المدينة، وإلى الضريح المقدس، وذلك من خلال شارع طويل.

المكان الذي افترق فيه الرسل أحدهم عن الآخر في أرجاء العالم

وعندما فرغنا من النظر إلى برج داوود، انعطفنا، وأدرنا ظهورنا إلى الغرب، وعدنا عبر الطريق الذي كنا قد أتينا عليه، وذلك حتى الزاوية التي وقفت فيها العذراء المباركة تنتظر، كما تحدثنا من قبل في صفحة ٤٣٢، وسرنا من هذه الزاوية مسافة قصيرة باتجاه الجنوب، ووصلنا إلى مكان يتقاطع فيه طريقان، على شكل صليب، وعلى هذا يستطيع الانسان الذي يقف في وسط الصليب الذي نجم عن تقاطع الطريقين، يستطيع أن يذهب إلى الشرق، أو إلى الغرب، أو إلى الشمال، أو إلى الجنوب، وهذا هو المكان الذي افترق فيه الرسل، ذلك أنهم تحدثوا مع العذراء المباركة في العلية، حول تفرقهم وانتشارهم في أرجاء المسكونة كلها، وذلك وفقاً للأمر الذي تلقوه، حسبما ورد في الاصحاح الأخير من انجيل القديس مرقص، وكان ذلك بعد تلقيهم للروح القدس، فقد بشروا أولاً بالانجيل في أرجاء اليهودية، إنما بعد مضي بعض السنوات أرغموا بوساطة العذاب الذي تلقوه من اليهود، فكان في اليوم الخامس عشر من تموز أن استعدوا —بناء على طلب من العذراء المباركة— للانطلاق نحو الخارج، حاملين معهم لاشيء سوى مبادىء إيمانهم، التي وضعها الرسل الاثني عشر مع بعضهم خلال المجمع الأول الذي عقدوه فيما بينهم على جبل صهيون.

وعندما دنت ساعة رحيلهم، انحنوا بأنفسهم باحترام كبير، أمام

قدمي العذراء مريم الأعظم قداسة، وسألوها المباركة والإذن بالمغادرة، وأنهضتهم العذراء، وعانقت كل واحد منهم، وأعطتهم مباركتها وهي نفسها غارقة بالدموع، وبعثت بهم إلى طريقهم وهي تنتحب، ونزلوا جميعاً من العلية، وساروا، حتى جاء هؤلاء الرجال الذين كانوا على وشك الانطلاق للتبشير بالصليب، ووقفوا في مصلبة ذلك الطريق، وهناك اندفعوا نحو بعضهم بعضا، يتعانقون ويقبل أحدهم الآخر، وافترقوا أحدهم عن الآخر مع كثير من الدموع، وتفرقوا في جميع أرجاء المسكونة، حيث مضى ثلاثة منهم إلى الشرق، وثلاثة إلى الغرب، وثلاثة إلى الجنوب، وثلاثة إلى الشمال، أي إلى أركان الدنيا الأربعة، فقد ذهب متى، وتوما وبارثلميو مع تلاميذهم وأتباعهم باتجاه الشرق، وبطرس، وأندرو، وجيمس الأكبر إلى الغرب مع أتباعهم، وذهب نحو الجنوب جيمس ويوحنا ومتياس مع تلاميذهم، وإلى الشمال ذهب سمعان وثاديوس وفيليب مع أتباعهم، وأخذ كل واحد منهم يبشر في كل مكان، حتى يمكنهم تمجيد أجزاء الدنيا الأربعة بعقيدة التثليث.

وبناء عليه وقفنا في هذا المكان وقدمنا الحمد للرب، الذي بعث من هذا المكان الرسل المقدسين إلى جميع المسكونة، وبتمجيدنا لإيمانه عدنا إلى هاهنا، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا الأرض، وتلقينا غفرانات(+)، وتداعى إلى خاطري في هذا المكان الفراق الحزين، وانشقاق إخواني من دير أولم، الذي كنت شخصيا شاهداً له، فقد حدث في سنة ١٤٧٦ لتجسيد ربنا، في اليوم نفسه الذي افترق فيه الرسل، وكان ذلك بسبب تمسكنا بمولانا البابا، وبالكنيسة الرومانية، ولأننا عددنا ماقمنا به صحيحاً، ومقدساً، وهو بالحقيقة ضروري أن نقوم به، أرغمنا على ترك ديرنا ومدينة أولم، وتفرقنا وتوزعنا على أديرة المنطقة، لأننا لم نكن لنأثم ونتصرف على عكس الأوامر الرسولية، وتمسكنا بالحرمان الذي أنزل على المنطقة، واعترفنا بالأسقف الذي قدمه

البابا وثبته، ولم نعترف بالذي جرى انتخابه من قبل القساوسه ودعمه الامبراطور، وبقينا في المنفى لمدة ثلاثة أشهر، ثم إنه بعدما أعيد عقد السلام ثانية، عدنا مع مجد عظيم واحترام كبير، ولذلك رسمنا، أنه مادام الدير موجوداً، ينبغي الاحتفال بعيد افتراق الرسل احتفالاً مزدوجاً، ليبقى ذلك ذكرى دائمة لهذا الأمر، ولكي يتعلم الذين سيأتون من بعدنا، ولكي يعرفوا أن عليهم عدم رفض إطاعة الأوامر التي صدرت عن الرسل خوفاً من أية محنة، وأن نؤثر الذهاب إلى المنفى، لابل أن نؤثر حتى لقاء الموت، ولقد تحملنا أشياء كثيرة في أيام المحنة، التي استمرت حوالي السنتين. لكن في هذا كفاية.

مزار القديس يوحنا الانجيلي حيث أقام قداساً وعمل قرابين لمريم العذراء

وإثر مغادرتنا للمكان المتقدم الذكر، وصلنا بعد ذلك إلى مكان مقدس جداً، حيث قام فيما مضى مزار، فيه أقام القديس يوحنا الانجيلي قداساً يومياً، وكان ذلك طوال الوقت الذي بقيه في القدس، بعد صعود ربنا، وعمل قرابين لمريم العذراء المباركة جداً، التي عُهد بالعناية بها إليه من قبل ربنا، وهو على الصليب، وقد تلقت القربان يومياً بأعظم خشوع، لأنه مع أن القرابين العائدة للشريعة الجديدة جرى تحديدها، ورسم بأن يتلقاها جميع الناس، آثرت المليئة بالنعمة أن تتلقاهم على يدي يوحنا كاهنها، في أثناء أسقفيته، التي كانت هناك، وأخذت العذراء القربان: (١) بسبب تواضعها، و(٢) لتجنب إثارة المضايقات، و(٣) لتنفذ الأوامر، و(٤) بسبب عقيدة النوافل، و(٥) لمضايقة الهراطقة الذين أعلنوا أنها ملاك، وليست من بني البشر و(٦) لتقدم مثلاً عن الذين صنعوا كاملين.

ومع ذلك شاركت يومياً، وفق طريقة خاصة، في قربان التوبة،

وتسلمت يوميا —وفقاً لبعض المرويات— قداس القربان المقدس في هذا المكان من يدي القديس يوحنا، ومع أنها كانت بريئة من كل ذنب، غالباً ماعملت قداس الاعتراف، دون أن تتهم نفسها بأي ذنب، وليس لاعلان نفسها أنها غير ممتنة للمنافع التي أضفيت عليها، وهو الاعتراف المتداول الذي يقوم به الرجال المقدسون الذين أمضوا حياتهم من دون جريمة، بل جاء اعترافها بأن فضائلها غير كافية حتى تكون جديرة بمثل هذا القدر من النعمة التي أضفاها عليها الرب، وللمكافأة التي لم تستحقها أبداً de condigno، ولايمكن أن يستحقها أي مخلوق، مع أنها تستحقها De congruo .

** ** **

وهكذا وقفنا في هذا المكان المقدس، وصلينا بخشوع، وانحنينا بأنفسنا نحوالأرض، وقبلنا مكان الخطوات، وتلقينا غفرانات، ولايوجد الآن أي بناء قائم فوق تلك البقعة، باستثناء أن هناك جدار جاف حولها، ويقوم في وسطها حجرة كبيرة، فيها مكان مجوف بآلة معدنية، فيها اعتاد القديس يوحنا على حفظ كأس القربان.

المكان الذي كان فيه بيت مريم العذراء المباركة والذي فيه فارقت هذه الدنيا

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، وصلنا بعد مسافة قصيرة إلى مكان آخر، محاط بجدار أعلى، من الحجارة الجافة، وتقول المرويات، بأنه هاهنا كان يقوم بيت العذراء المباركة، حيث عاشت فيه حياة عادية لمدة أربعة عشر عاماً، وعلمنا من قرآن محمد (صلى الله عليه وسلم) بأنها عاشت هناك خمس سنوات فقط وأنها عمرت ثلاثاً وخمسين سنة، وهذا ماقاله أيضاً نيقولا دي كوسا في السفر الثاني — الاصحاح ١٥، ويقول بعضهم بأنها عاشت مدة أطول، ويقول آخرون بأنها عاشت مدة أقصر، بعد

صعود ربنا، وعندما دنت نهاية حياتها واقتربت، رجت يوحنا الذي قدم لزيارتها مع بقية الرسل، أن يعمل لها قداس حماس عظيم، مع أنها لم تكن ضعيفة، أو مريضة، أو فاقدة لقوتها، أو مرهقة بتقدم السن، وكذلك لم تكن ملزمة بتلقي مثل هذا القداس، لأنه كان يعمل للمرضى فقط، ومع ذلك تركت نفسها لهذا الامتياز، بالبراءة من الضعف، وأخفت ذلك حتى وصلت إلى نهاية حياتها، مثلما اختارت أن تخفي امتياز عذريتها عندما عملت طقوس الطهارة التي فرضتها الشريعة.

ولهذا قامت وهي متمددة هناك مع أكثر الحب إلهاباً، ومع أعذب مشاعر الضنى، فتلقت بتواضع هذا القربان المحدد كما هو معلوم للمذنبين، ولاحظ هناك التعبير عن إنجاز نصرها في الماضي، وعن كمال مجدها في المستقبل، فقد تسلمت في مكان الإعفاء من الذنب العرضي الوقاية من جميع الآلام، وفي مكان التخفيف من آلام المرض، المجد لجسدها كله، وماأن تسلمت القربان حتى عهدت بروحها وأسلمتها إلى يدي الرب، وغادرت هذه الحياة، بينما وقف من حول فراشها جماعة الرسل المجيدة، وعصبة المائة والعشرين عذراء اللائي كن بلادنس، مع كثير من الأرامل، لهن تركت جسدها من أجل الدفن، وبناء عليه انحنينا في هذا المكان المقدس بأنفسنا نحو الأسفل، وصلينا، ورتلنا تراتيل الحمد المعينة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

وهذا المكان متميز، لأنه موضع تقديس من قبل كل من جميع المسيحيين، ومن قبل كثير من المسلمين، ومع ذلك لايوجد هناك بناء، باستثناء جدار من الحجارة الجافة، ويبذل الرهبان الفرنسيسكان جهودهم مع السلطان، للحصول على إذن لبناء بيعة، وإقامة مذبح في هذا المكان، لأنهم لايتجرأون على وضع أية حجارة مع ملاط من دون إذن من الملك والسلطان، وهم يأملون بالحصول على الإذن، ولقد سمعت أنه بعدما حصل هؤلاء الرهبان على إذن كامل وإجازة من

السلطان، لتنفيذ مـارغبوا به، وبعدما أنفقـوا كثيراً على بناء مزار، اقتحم المسلمون الهائجـون هياجاً عظيماً المزار، وسـووه على الفور مع الأرض، وكـــذلك فعلوا بالبنـاء كله، ولهذا إن المكان الآن في هذه الأيـام كماهو عندما رأيته.

المكان الذي اختير فيه القديس متياس من قبل الجميع ليكون رسولاً بدلا من يهودا

وليس بعيـداً عن هذا المكان، وصلنا، ونحن ذاهبون إلى كنيسـة جبل صهيـون إلى صخـرة حمراء، في المحل الذي جـرى فيه اختيـار القـديس متيـاس رسـولاً، وذلك حسبما قـرأنا في الاصحـاح الأول من الأعمال، وجاء اختياره ليحل محل يهوذا الخائن، فقـد جرى اختياره في هذه البقعة ليكون خليفـــة له، وانحنينـا بأنفسنا في هـذا المكان للصـــلاة، وتلقينا غفـرانات، وغنينا التراتيـل المحـددة، وبدا هذا المكان بالنسبـة لنا أكثـر قـداسة، وقـريباً منا، لأن جسـده المبارك محفـوظ بيننا في ألمانيا في مـدينة ترفس Trèves.

المكان الذي رسم فيه جيمس الأصغر أسقفاً للقدس

ولدى مغــادرتنـا لهذا المكان تابعنا سيرنـا، ووصلنا إلى ســور مقبرة الرهبان، ويوجـد في السور حجـرة بيضاء معلمة بصليـب، فهناك يوجد المكان الذي انتخب فيه جيمس الأصغـر، ومن ثم رسم أسقفاً للقدس، وحيث أيضاً جرى إقامة قـداس من قبله، فلأن هذا الرسول كان رجلاً فـائق القداسـة، أضفى عليـه الرسل، بعد صعـود ربنا، شرف أن يكون الأول فيما بينهم في إقامة القداس، وذلك بحضـور الرسل، وقد رسموه أسقفـاً للقـدس، معتقــدين أنه سـوف يكون أكثـر قبـولاً لدى شعب القدس، من أي واحد آخر، فبسبب قداسة حياته الفائقة العظمة، سمح له بالدخـول إلى قـدس الأقـداس، الأمـر الذي لم يسمح القيـام به لأي

واحد آخر من الرسل، ولقد كان ناصرياً من رحم أمه، لم يشرب خمرة أو شراباً قوياً، ولم يأكل لحما، ولم يمر الحديد على رأسه، ولم يدهن قط بالزيت، ولم يستخدم الحمام، وارتدى دوما الكتان، وركع للصلاة بشكل متواصل، حتى أصبح الجلد على ركبتيه قاسيا مثل الجلد على كعبي قدمي الانسان، وكان محترما كثيراً من قبل الناس، بسبب قداسته الفائقة، حتى أنهم اعتادوا على التصارع أحدهم مع الآخر للمسه من ثوبه، وكانت خاصية القديس جيمس أنه كان لوحده يشبه ربنا، في جميع مظاهر جسده، وفي طريقة حديثه، وفي وجهه وفي حياته، فلقد كان مثل يسوع، وكأنه أخوه التوأم، ولذلك حدث بعد صعود ربنا أن جاءت أعداد كبيرة من الناس إلى القدس من مختلف أجزاء العالم حتى يتمكنوا من رؤية الرب يسوع في شخص جيمس، وكان بين هؤلاء اغناطيوس الشهيد، والقديس بولص الرسول، وذلك كما قرأنا في الرسالة إلى الغلاطين: ١٠/ ١٩، ولهذا السبب عرف باسم «أخي الرب».

وهكذا تلونا في هذا المكان صلواتنا، وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي جرى فيه تعيين الشمامسة السبعة للقيام بمهامهم

ومباشرة قدمنا بعد هذا إلى المكان الذي يبجل بالعادة، بسبب اختيار الشمامسة السبعة، الذين قرأنا عن اختيارهم في الاصحاح السادس من أعمال الرسل، لأنه مع تزايد أعداد المؤمنين بعد ارسال الروح القدس، قامت شكاوى حول القداسات اليومية، فبعضهم أثقل بالأعباء، وبعضهم أهمل، ولهذا اختاروا سبعة رجال ذوي سمعة مرضية، وعادات ونعمة، وقد عينوهم للقيام بأعباء الأعمال والقداسات وكان من بينهم القديس اسطفان هو المقدم، لأنه كان مليئاً بالنعمة والشجاعة.

وفي هذا كفاية، فقد قدمنا هنا الحمد للرب، وتلونا الصلوات المحددة، وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي صنف فيه الرسل قانون العقيدة المسيحية في اثني عشر بنداً

ومن المعتقد أنه يوجد إلى جانب مكان الاختيار، المكان الذي اجتمع فيه الرسل في مجمع مقدس، وذلك بعد قدوم الروح القدس، حيث أعطوا الكنيسة اثني عشر بنداً حول عقيدتها، وقد قاموا بنظمهم من أجل أن تبشر الكنيسة بهم، وبالإيمان بهذه البنود أنقذنا جميعاً، وصرنا أبناء الرب بالتبني، ولهذا يستحق هنا المكان أن يبجل كثيراً، وقدمنا فيه اعترافنا بالعقيدة الصحيحة، ومن ثم بادرنا مسرعين نحو أماكن مقدسة أخرى. (انظر ورقة ١٥٢ظ)(+).

المكان الذي يبجل فيه المسلمون ربنا يسوع المسيح بشكل واهم

وهناك على مقربة من جدار الحجارة الجافة الذي يحيط بقاعدة كنيسة جبل صهيون القديمة، أماكن معينة فيها يمارس المسلمون والمسيحيون الشرقيون اهتمامات واهمة، خاصة في مكان قرب موضع تفرق الرسل، وذلك تحت شجرة تين حيث هناك كومة كبيرة من الحجارة، إليها تأتي النساء المسلمات في كل يوم، فيحرقن البخور فوق الحجارة، ويدفن أرغفة من الخبز، ذلك أن المسلمين يؤمنون أنه هنا— وليس في الجلجلة، حيث تقوم كنيسة الضريح المقدس — يوجد ضريح يسوع، وأكثر من هذا، إنهم ينظرون نظرة استخفاف نحو تلك الكنيسة، ونحو الضريح الموجود فيها، ولايرون هناك، بل هنا، موجود ضريح يسوع، ويقولون بأن الذي عانى على الصليب الصلب، والذي عدّه اليهود على أنه يسوع، قد دفن بالفعل هناك بالأسفل، لكن مع ذلك هو لم يكن يسوع، بل كان رجلاً آخر، اعتقل وأعدم عوضاً عنه، وأنه هو قد نجا لأنه كان ابن الرب والعذراء، ولذلك كان قادراً على النجاة، وأنه قد مات بسلام هناك، وقد دفن في هذا الموضع، وهنا يتشفعون به من أجل مساعدتهم،

لأنهم عندما يكونون في ضيق يحملون أنفسهم إلى الرب يسوع وإلى مريم العذراء المباركة، لكنهم لايفعلون ذلك كمؤمنين، بل مع كثير من التصورات الواهمة، وذلك مثلما يفعلون في بعض الأحيان فيرسلون أولادهم الرضع إلى المسيحيين من أجل تعميدهم عندما يكونون مرضى، مفترضين أنهم سوف يشفون، أو يتحسنون بصحتهم الجسدية بوساطة التعميد، غير فاهمين أو مؤمنين بأي شيء حول التأثير الخاص للتعميد، وقد ذهبت مراراً إلى تلك الكومة من الحجارة عندما كنت لاأخشى من وجود أي مسلم سوف يأتي إلى هناك، وكنت أقوم بتفريق الحجارة التي صفت هناك مع بعضها من أجل تلقي النار، وأنبش عن الأشياء التي أخفوها تحت الحجارة، وبذلك أترك علامات انتقامي هناك.

حديقة دير رهبان جبل سيناء

وخلف هذه البقعة، وعلى مقربة من دير جبل صهيون، إنما خلف ساحتها، وعلى جوانبها الجنوبية، والشرقية، والشمالية، وعند نتوء جبل صهيون، يمتلك الرهبان حديقة واسعة اشتروها في العام الماضي من المسلمين — بناء على إذن من السلطان— مقابل كثير من الذهب، ولقد دخلنا إلى هذه الحديقة، ووصلنا أولاً إلى مقبرة الرهبان، حيث يدفنون الموتى من رهبانهم، وهناك صلينا لصالح أرواحهم، ثم أننا لاحظنا وجود عدد من البرك العميقة هناك، وهذه قد أقامها الرهبان بعدما اشتروا الحديقة، وشرعوا في حفرها، وكانت هذه البرك مليئة بالتراب والحجارة، ولكنهم نظفوهن هذه وأعدوا مجاري لجر المياه إليهن، ففي الأنواء الممطرة يجمعون فيهن أفضل أنواع المياه، لأن المياه في البركة الموجودة أمام مطعمهم، التي أتيت على ذكرها في ص٤١١ لم تكن كافية لاحتياجاتهم أثناء الصيف، وفي الحقيقة لم تكفهم عندما كنت أعيش هناك، ولهذا كانت هذه البرك في الحديقة ضرورية جداً بالنسبة إليهم،

لأنهم قبل أن يشتروا الحديقـة اعتادوا على المعـاناة كثيراً من الحاجـة إلى الماء في السنوات الحارة والجافة، لكنهم الآن وقـد امتلكوا هذه الحديقة، لايمكنهم أن يحتاجوا إلى الماء، الذي يعد شيئاً عظيماً في القدس، ويوجد في هذه الحديقة، إلى جـانب البرك كثيراً من الأشجار من مختلف الأنواع من أمثـال التين والرمـان، ومـاشـابهها، وكـذلك حشـائش الطبخ لاستخـدامـات الدير، وهذه الحديقـة مـربعـة، وقـائمـة على نتـوء جبل صهيون، حيث يوجد على جانبهـا الغربي، الدير والكنيسة، وشرف جبل صهيـون الذي هو على سـويتهـا نفسهـا، ويوجـد على أطرافهـا الثـلاثة وديان، وهي محاطة بجـدار من الحجـارة الجافـة، ويوجـد على طرفهـا الجنوبي وادي حق الدم، وجبـل جيحـون، وعلى طرفهـا الشرقي وادي سلوان، وجبل العدوان، وخلفها وادي شعفاط مع جبل الزيتون، وكان على جانبها الجنوبي ميلو والمدينة المقدسة.

ولقد مشينا من حول الحديقة المسورة، ونظرنا من فوق جدارها نحو الأسفل إلى الوديان وعبرهم إلى الجبـال من خلفهم، والمنظر منظر مبهج إلى الانسان الذي يعرف الكتابات المقدسة، فالجدار الذي يحيط بالحديقة قائم فـوق حافة جروف حجـرية منحدرة، ومن الممكن أن يرى في هذا سـور صهيون القـديم جداً، مع أسـاسات أبراجـه، وأشياء كثيرة ممتـدة هناك أمـام أعين الناس، ورد ذكـرها في الكتـابات المقـدسـة، والتي من الصعب فهمها من قبل الانسان الذي يتولى قراءتها، من ذلك على سبيل المثال مـاورد حول ميلو، وحول جيحـون، وحول الوديان، وهكذا، وفي أثناء وقوفنا ونحن نتطلع من حولنا من ذلك الارتفـاع، قام حديث بين فـرسـان من الحجـاج العلمانيين، وهو جـدير بالتسجيل، فعندمـا كنا منحنيين فوق الجدار، ننظـر نحو القدس، ووادي شعفـاط، أهمل هؤلاء العلمانيون كل شيء كـان أمام أعينهم، ووجهـوا أنظارهم وركزوها على المعبـد، الذي اسمه معبـد سليمان، فقـد أعجبوا بـه وكانت لديهم رغبـة

بالدخول إليـه، والنظر إليه، وتناقشـوا طويلاً واحدهم مع الآخـر حول كيف أمكـن لهذا الهيكل البقــاء من أيـام سليمان حتى الـوقت الحالي، وعندمـا كانوا يتكلمـون هكذا أصغيت بصمت، ولكن بعـدما تكلمـوا طويلاً وبشكل غير مفيد، قلت لهم: «سادتي، وأصـدقائي الحجاج، ماهو السبب في أنكم لم تسـألوا أسئلة، ولم تعلقــوا حـول المناظـر المقـدسـة والرائعـة الماثلة حـول أعينكم، وفقط تحدثتم حـول أشياء لاقيمـة لها»؟ وعلى هذا أجـاب واحـد منهـم: «نحن نعـرف هيكـل سليمان هذا من خـلال تقرير عـام، وبالنسبة لنـا لاشيء هو أكثر قـداسة، ولاشيء أكثـر روعـة، ولاشيء أكثــر جمالا أمـام أعيننـا، وبالنسبـة للجبـال والوديان الموجـودة من حولنا نحـن لانهتم بها، كما أننا لانعرفهـا»، وكـان ماقـاله صدقاً، لأن الحجـاج لم يعرفوا شيئاً بعد عن جبل الزيتـون، وعلى ماقاله أجبت: «هيكل سليمان ليس مرئيا، لأنه زال من الوجود منذ زمن بعيد، وهذا الهيكل الذي ترونه الآن هو الهيكل الرابع —الذي بني فـوق تلك البقعـة منذ بنـاء هيكل سليمان، وأنتم مـاهو شأنكـم بهذا الهيكل؟ ففيـه لايعبد المسيح، بل يجدف ضده فيه يوميا، ومحمد (ﷺ) هو الذي يحمد، فهل أنتم قد جئتم إلى القدس من أجل تلك الكنيسة المدنسة والمنحطة؟ وبناء عليه لماذا لاتنظرون عبر الوادي القائم أمامكم، ونحو الجبل القائم هناك مقـابيلكم»؟ وعندما قـالوا بأنهم لايعـرفون تلك الأمـاكن، قلت: «عجباً هذا الوادي هو وادي شعفاط، الذي ستجتمع فيه الدنيا كلها مع بعضهـا في يوم الحسـاب، وذلك الجبل القـائم هناك مقـابيلكم هو جبل الزيتون، الذي منه صعد المسيح إلى السماء.

دعونا نتحـدث عن هذين، فهذين هما الشيئين اللذان لنا عـلاقة بهما، ولاعـلاقة لنا البتـه بذلك الهيكل المشؤوم»، ثم بدأنا حـواراً نافعاً حـول صغر حجم وادي شعفـاط، وحول مواضيع كثيرة ممـاثلة، وعندما أنهينا هذا الحديث، وصلنا إلى نهايـة حجنا إلى الأمـاكـن المقـدسـة على جبل

صهيون، الموجودة على قمته، أما الأماكن الأخرى المقدسة على جبل صهيون، والتي سوف نزورها في يوم اخر، فسوف نتحدث عنها فيما بعد، وهكذا عدنا إلى أماكن إقامتنا، وكل واحد إلى مكانه الخاص، فقد ذهب الحجاج العلمانيون إلى مشفى القديس يوحنا، ورجال الدين إلى دير الرهبان.

مدح جبل صهيون ووصفه

لقد ورد ذكر جبل صهيون مراراً في الكتابات المقدسة، ويقوم جبل صهيون على الطرف الجنوبي للمدينة المقدسة، وهو قائم أعلى من بقية المدينة، لكن ليس أعلى بكثير منها، وقد كان فيما مضى من أيام محاطاً بالوديان من جميع الجهات، حتى من الجانب الذي يطل نحو مدينة القدس، وعلى هذا كان بينه وبين المدينة هوة عميقة، بها انفصلت المدينة عن الجبل، وقد اعتاد الناس على العبور من المدينة إلى الجبل بوساطة جسر خشبي، وحاول ملوك يهوذا طمّ هذه الهوة حتى يكون صهيون والقدس مدينة واحدة، وقد بذلوا جهوداً عظيمة بجلب الأتربة إلى هناك، وبما أن الجبل قائم متوضع فوق صخور منحدرة من كل جانب، كانوا يصبون التربة نحو الهوة من جهة المدينة، ونحو الشرق أيضاً، من أجل أن ترتفع التربة إلى مستوى ارتفاع أسوار الصخرة، وأن تقام حدائق حول جبل صهيون، كما هو الحال في هذه الأيام، وبناء عليه أطلقوا على المكان الذي بذلوا جهودهم لطمه بالتراب، ولرفعه إلى مستوى المدينة، اسم ميلو، أي «الطم»، وقد وردت الاشارة إلى ذلك في سفر صموئيل الثاني: ٥/ ٩، والملوك الأول: ٩/ ٢٤، وأخبار الأيام الثاني: ٣٢/ ٥.

وعلى كل حال لم يكتمل هذا العمل، لأن بعض الأماكن العميقة بقيت دوما بين المدينتين، ويمكن في هذه الأيام للانسان أن يراهم، إذا ماحدق بتمعن وبحث عنهم في حديقة الرهبان، وقرب برج داوود،

ويبدأ هذا الجبل عند باب المياه، أو نبع سلوان في الشرق، ويعمل نصف دائـرة نحو الجنـوب امتداداً حتى الغـرب، حيث كـان برج داوود، وفي هذه الأيام المكان الذي توجـد فيـه القلعة، وخـلال نصف الدائـرة هذه كلهـا هناك صخـور منحدرة، وحـول وتر نصف الدائـرة تلك، يوجـد مايعرف باسم ميلو، وفوق هذا كان جبل صهيون، وفي هذه الأيام هناك متسع كبير يكفي لمدينة بيبريخ Bieberich أن تقوم عليه، وقام على هذا الجبل في العصور القديمة جـداً، قلعة استولى عليها داوود بعد بذل جهود كبيرة، ومنح اسمه إلى مدينة جبل صهيون، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الحادي عشر، من السفر الأول لأخبار الأيام.

وكـان هذا الجبل فيما غبر من أيام، كله لايرام، فكل انسـان قـد قـرأ سفري المكابيين، سـوف يعرف مدى الجهـود والمتاعب التي توجب على هؤلاء الرجال الشجعان تحملهـا، قبل أن يتمكنوا من اقتلاع غير اليهود من قلعة صهيون، وانه بسبب مناعة صهيون أطلق على القدس اسم ابنة صهيون، كما ورد في الكتـابات المقدسـة، لأن الابنة تنال الحماية من قبل امهـا، وتقف عند قـدميهـا، وكـذلك القـدس هي محميـة من قبل جبل صهيـون، وقـائمة تحتـه، وعلى سبيل المثـال عندمـا نواجـه في الكتـابات المقـدسـة: «أخبرك يابنة صهيـون، انظري الملك قـادم» فإن معنى هذا «أخبرك يامدينة القدس».

وكلما واجهنا عبارة «جبل صهيون» في الكتـابات المقدسة، ينبغي أن نحملهـا محملاً حسناً، وليس محمـلاً سيئاً، فهي تعني في بعض الأحيـان حـالة الجمال المتفوق، ورؤيا الخلاصـة السماوية، وأحيانا حشـد الملائكة، وأحيـانا انتصار الكنيسـة، وأحيانا الكنيسـة العسكرية، وأحيانا الوحيـد المنتخب من قبل الرب في الكنيسـة، وأحيانا الذين يعيشـون حياة تأمل، وأحيانا بعض الأشخاص في الطوائف الدينية، وأحيـانا أساقفة، وأحيانا وعاظاً.

إن هذا هو الجبل الذي عنه قيل: «جميل الارتفاع فرح كل الأرض جبل صهيون. فرح أقاصي الشمال تقع مدينة القدس» (مزامير:٤٨/ ٢)، وفعلا القدس قائمة على جانبه الشمالي، وقوله أيضاً: «طوفوا بصهيون ودوروا حولها» (مزامير:٤٨/ ١٢) وأيضاً قوله: «لأن الرب قد اختار صهيون» (مزامير:١٣٢/ ١٣) وقوله أيضاً: «الرب أحب أبواب صهيون أكثر من جميع مساكن يعقوب»(مزامير:٨٧/ ٢)، وأيضاً قوله: «الرب يخلص صهيون» (مزامير:٦٩/ ٣٥)، وكذلك قوله: «ليت من صهيون خلاص إسرائيل» (مزامير: ٥٣/ ٦)، ومجدداً قال داوود عن شخصه وعن المسيح: «أما أنا فقد مسحت ملكي على صهيون جبل قدسي، ولسوف أبشر بالشريعة» (مزامير:٢/ ٦)، وقوله أيضاً: «سمعت صهيون ففرحت»، (مزامير:١٧/ ٨)، علاوة على ذلك قال اشعيا: «صهيون مدينة قوتنا» و«ولسوف يمنح السكينة للذين يبكون صهيون» و«من أجل صهيون لن أهدأ» و«صهيون ملكك هو الذي يحكم».

ولقد طلب منا في أجزاء كثيرة من الكتابات المقدسة أن نصعد إلى جبل صهيون، كما ورد في الاصحاح الثاني من اشعيا قوله: «هلم نصعد إلى جبل الرب» (اشعيا:٢/ ٣)، وقد أخبرنا هو بالذي ينبغي أن نصعد إليه بقوله: «غنيّ للرب الذي يسكن في صهيون» وقوله «سوف يأتون إلى صهيون مع الحمد»، فضلاً عن هذا رغب اشعيا أحيانا أن نقول أشياء عظيمة عن الجبل من ذلك قوله: «ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتاً في رأس الجبال، ويرتفع فوق التلال وتجري إليه كل الأمم» (اشعيا:٢/ ٢)، وتحقق هذا القول بإقامة القداسات الأكثر عمقاً على هذا الجبل، وبتدفق شعوب من جميع أمم الأرض إلى هناك.

ويظهر اليهود حماقة كبيرة فيما يتعلق بهذا النص، ويغطونه بالسواد، بسبب خطيئتهم، لأنهم يبرهنون منه أن يسوع لم يكن المسيح الحقيقي، لأنه لدى قدومه لم يرتفع صهيون إلى القمة فوق جميع التلال، ويقولون

بأنه في أيام المسيح سوف ينقل الرب جبل الطور، وجبل سيناء، وجبل الكرمل، ويضعهم حيث القدس الآن، ولسوف يضع القدس وهذه الجبال الثلاثة واحدها فوق الآخر، ولسوف يضع جبل صهيون على قمة القمة العليا للجبال الأعلى، ولأن المسيح لم يفعل ذلك، يقولون بأنه ليس هو المسيح.

وعلينا أن نرد على هؤلاء الأناس العميان التعساء، أن رفع جبل صهيون، يتوجب عدم فهمه برفع المكان، بل بمجده الفائق، وفي هذا المجال سوف يضع المسيح عليه أعمالاً عظيمة ورائعة، مثل تأسيس القرابين، وارسال الروح القدس، وأعمالاً أخرى، كما هو واضح، ومن هذا بيّن أن جبل صهيون جبل مرتفع كثيراً، وسامياً، وعظيم القوة والقدرة، ووفرة كبيرة وامتلاء، وجمال عظيم، وراحة، وثقة عظيمة، وأمان، وثروة كبيرة، وثراء، وبهجة كبيرة وسرور، واستقامة عظيمة، وعدالة، وطهارة كبيرة وقداسة، وعقيدة عظيمة وصدق، ونبوءة عظيمة وإخبار بالأشياء التي ستأتي.

وهو جبل إكمال العهد القديم وإتمامه، وابتداء العهد الجديد، وهو جبل قرابين المسيح، وجبل أعطيات الروح القدس، وهو جبل العذراء مريم، حيث عليه سكنت، وفوقه علمت الرسل، وألهمت الانجيليين، وبعثت بالرسل إلى العالم، ومن عليه فارقت هي نفسها هذه الحياة، والجبل في هذه الأيام هو في أيدي المسيحيين، فهو ميراث رجال الدين، ودار ضيافة للحجاج، ولهذا يسكن المسيحيون فقط عليه، ولايوجد في هذه الآونة مكان إقامة على الجبل لمسلم أو ليهودي، بل يوجد عليه ديرة لرجال مسيحيين، وبناء عليه سألت في أحد الأيام مسلماً أعرفه معرفة جيدة، لماذا لم يبن لنفسه بيتاً على جبل صهيون، بدلاً من القدس، فأجابني على سؤالي: «لأن جبل صهيون صحراء لخلوه من الماء، ولأن الماء يمكن الحصول عليه بسهولة أكبر وبكميات أوفى في القدس، وهذا

ليس متيسراً في جبل صهيون»، ولعل الرب قد قضى بوجوب عوز المسلمين للماء على هذا الجبل المقدس، في حين يمتلك المسيحيون الذين يسكنون هناك كميات وافية.

وهذا الجبل مرتفع جداً، ليس فقط بالنسبة للجبال التي من حوله، بل بالنسبة للجبال التي هي بعيدة عنه، لأن جبال العربية عندما تشاهد من جبل صهيون، تبدو منخفضة، ومع أن هذه الجبال مرتفعة جداً، فإن جبل صهيون أعظم ارتفاعاً من جبال العربية، ويقوم دير الرهبان الفرنسيسكان في بقعة لطيفة جداً، وجميلة، وفي مكان مرتفع، وقبل أن يقدموا إلى القدس كان هناك دير للكهنة النظاميين، لكن بعد فقدان الأرض المقدسة، اشترى ملك صقلية هذا المكان الموجود على جبل صهيون من السلطان، واشترى أيضاً بيعة العذراء المباركة في وادي شعفاط، والكنيسة في بيت لحم مع الدير هناك، وسدد ثمنهم ذهباً، فقد دفع مباشرة اثنتان وثلاثين ألف دوقية من العيار المعتمد، وجلب هو أيضاً الرهبان الفرنسيسكان إلى جبل صهيون، وعهد إليهم بملكية الأماكن المتقدم ذكرها وبإدارتها، ولذلك اعتاد البابا نفسه على تعيين الوصي على دير جبل صهيون مقدماً على الكنيسة الشرقية كلها في هذ المناطق.

ويتمتع الرهبان بامتيازات عظيمة منحت إليهم من البابوات، وهي لاعلاقة لها بموضوعي حتى أتحدث عنها، وغرفة حفظ الذخائر في دير جبل صهيون مهلهلة كثيراً، والكنيسة صغيرة، والرواق ضيق، والقلايات صغار، والبيت على كل حال صغير، يعيش فيه أربعة وعشرون من الرهبان مع بعضهم، يعبدون الرب في الحياة في ظل نظام موضوع، وبسبب تجاوزات المسلمين واعتداءاتهم، اتخذوا لديرهم باباً من حديد، وذلك إلى جانب كلاب حادة، وشرسة جداً نحو الغرباء، وهم يديمون الحراسة، وبعوائهم يكشفون الذين يقدمون إلى هناك

لاقتراف أي إساءة، سواء أكان ذلك بالليل أو بالنهار. وفي هذا كفاية.

هنا بداية الزيارة إلى الأماكن المقدسة في كنيسة الجلجلة، أي كنيسة الضريح المقدس وإلى الضريح المقدس نفسه

في اليوم الرابع عشر، وبداية اليوم من مساء اليوم المتقدم،لأن المسيرة إلى الأماكن المقدسة جرى تعيينها وفق هذه الطريقة: عندما كانت الشمس بالمغيب، أعطي إنذار إلى جميع الحجاج بأن عليهم الحضور بأشخاصهم مباشرة، وأن يكونوا في الساحة أو الباحة القائمة أمام (باب) كنيسة الضريح المقدس، وأن عليهم لهذا التعجل بتناول طعام عشائهم، لأن السادة المغاربة الذين يحتفظون بمفاتيح الكنيسة المقدسة، كانوا ينتظرون الحجاج هناك، وبناء عليه بادرنا مسرعين، آخذين معنا الأشياء التي نوينا أن نستخدمها، ونزلنا إلى ساحة الكنيسة المتقدم ذكرها، حيث وجدنا حشداً غير منظم من المسيحيين الشرقيين، والمسلمين من رجال ونساء وأطفال، وكان هناك باعة السلع الثمينة، قد جلسوا لبيع ما معهم، وكان بعضهم معه أرغفة من الخبز، وبيض وعنب للبيع، وشرينا بعض ذلك ووضعناه في جعبنا ليكون الوجبة التي ينبغي أن نتناولها في الكنيسة، وفي الحال أخذ السادة المسلمون الذين لهم علاقة بفتح الكنيسة، أماكنهم عند باب المعبد المقدس بشكل جاد وحازم، ويوجد هناك أمام الباب على كلا الجانبين حجارة كبيرة من الرخام المصقول، قد وضعت على شكل مقاعد، عليها جلس هؤلاء الرجال، ووجوههم مدارة نحو الخارج، وكانوا رجالاً ذوي حضور جيد، وقد تقدموا بالسنين، يتسمون بالوسامة، لهم لحى طويلة، وأخلاق جادة، ويرتدون ملابس من الكتان، ورؤوسهم ملفوفة بعدد لايحصى من اللفات بقماش كتاني رفيع.

وعندما اجتمعنا كلنا أمام هذه الأبواب، فتحوا أبواب الكنيسة، بمفاتيحهم، ووقفوا إلى جانبهم، وتركونا ندخل اثنين تلو اثنين، وقاموا

بتعدادنا مثلما فعلوا عندما خرجنا من السفينة إلى اليابسة، حسبما تقدم بنا القول، وأغلقوا علينا باحكام كبير، ولقد قيل عنهم بأنهم على درجة عالية من البراعة في فن الفراسة، وأنهم ما أن يلقون نظرة على أي انسان، حتى تراهم قد أدركوا وضعه في الحياة، وأحواله ورغباته، وقد ذهبنا معهم ونحن نشعر بالخجل والضيق، لأنه مربك كثيراً أنه يأتي الإذن للمؤمن بالمسيح والمتعبد له، بالدخول إلى كنيسة المسيح من قبل واحد كافر بالمسيح، وأن يسمح هؤلاء بالدخول لمن هم أرادوا، لأنهم طردوا من على أبواب الكنيسة كثيراً من المسيحيين ومن أتباع العقائد الأخرى الذين أرادوا الدخول معنا، وقد طردوهم بضربهم بعصيهم وبأيديهم، وأعترف أنني وأنا مار فيما بينهم لدى الدخول إلى الكنيسة، امتلأت بالاضطراب وشعرت بخجل عظيم، ولم أستطع أن أحدق بهم بسبب شعوري بالخجل والارباك، وليس بسبب ربطة الصليب التي حملتها فوق ثيابي، بل بسبب سلطانهم غير الشرعي وغير الديني على الذين يحملون الصليب، وهناك جلس أولئك الكلاب (كذا)، وكأنهم قضاتنا، ولاشك أنهم حكموا علينا بأننا حمقى، بسبب صليب المسيح: بسبب أن اسم الصليب وشارته هما حماقة بالنسبة لهم، مقدر لهما الزوال، وهكذا —على كل حال— قضت الحكمة الربانية، بجلب أتباع الذي صلب إلى المكان الذي وقف فيه الصليب، من قبل الذين نظروا باستخفاف نحو الصليب، حتى يمكن لهؤلاء أن يؤمنوا بحماقة الصليب، وأنهم بذلك يمكن أن يجري خلاصهم.

وماأن أصبحنا جميعاً بالداخل حتى قام المسملون برد أبواب الكنيسة خلف ظهورنا بسرعة وأغلقوها بالمزاليج والأقفال، مثلما اعتاد الرجال أن يفعلوا بعدما يدفعوا باللصوص بعنف في الزنزانة، وغادروا ومعهم المفاتيح، وبذلك تركونا لصوصاً في أروع السجون وأوسعها وأكثرها نوراً، وفي حديقة الضريح الأعظم تقديراً، ألا وهو ضريح المسيح، عند

سفح جبل الجمجمة في وسط الدنيا، آه كم هو سجن ممتع! وكم هو اعتقال مرغوب به! وكم هو حبس بهيج، وكم هو عذب أن يغلق علينا، وأن يبقى المسيحي في الداخل، ومسجوناً في ضريح ربه.

كيف تصرف الحجاج عندما دخلوا أولاً إلى الكنيسة وماالذي حدث مع الراهب فيلكس فابري في حجه الأول

انتبهوا يا إخواني، الصدق يرغمني أن أبدأ باخباركم عن غباء إهمالي، وإثمي العظيم، الذي من أجله ألتمس منكم أن تصلوا إلى الرب لصالحي حتى لايضع إثمي من أجل العقاب في اليوم الأخير، وهذا ماحدث لي، أنا الشقي، أثناء حجي الأول، فعندما أودعنا مغلق علينا في داخل الكنيسة، ولم نعد نخاف من أي انسان، لأن المسلمين لم يعودوا بيننا، عندها بدأنا ونحن نشعر بالبهجة بالركض إلى هنا وهناك، في أرجاء الكنيسة، طالبين الأماكن المقدسة، من دون اتباع أي نظام، وذهب كل انسان إلى المكان الذي أراده بناء على طلب روحه، وأنا لم أسرع، بل مضيت بخطوات بطيئة نحو وسط الكنيسة، سائراً من دون أي هدف معين، وبعدما سرت نحو الأمام مقدار سبع عشرة خطوة وقفت ورفعت وجهي، أنظر نحو القنطرة التي فوقي، وألقيت بناظري على النوافذ العليا بفضول، مثل انسان منحط يحدق بأماكن غريبة وبيوت من دون احترام لأي انسان، وهكذا وقفت مع نفسي بأعين جوالة.

وبينما أنا واقف هكذا من دون تفكير أو انتباه، جاء إليّ سيدتان، كانتا من الحجاج، وكانت أولاهن ألمانية اسمها هيلدغارد Hilde-garde وانكبتا نحو الأرض أمام قدمي، وتمددتا هناك تنتحبان وتتنهدان، وتقبلان الحجرة التي كنت واقفاً عليها، ودهشت، وارتبكت، وقلت بالألمانية لها: «ما القضية ياسيدة هيلد غارد، حتى تفعلين هكذا»؟

فأجـابتني، وهي تكاد لاتستطيع الكلام، بسبب نحيبها: «عجبـاً ياأخي، إن الحجرة التي أنت واقف عليها، هي حيث مدد يوسف ونيقوديموس الجسد الثمين جداً، العائد لربنا، عندما أنزل من على الصليب، وحنطاه، ولفاه بكفنه فوق هذه المنضدة الحجرية».

وعندما سمعت هذا ارتجفت، وسحبت قدمي برعب، وسقطت فوق الأرض أمـام الحجـرة، وكنت الآن مـرعـوباً مـن لمس الحجـرة بفمي، الحجـرة التـي لم أخف من السير عليهـا، من دون احترام ،بقـــدمي، وصليت ودعوت قائلاً: «يارب لاتتـذكر ذنوب شبابي، والذنوب الحالية الصادرة عن جهلي، مولاي وربي، عبدك المختار موسى، جاءه الأمر من قبلك، عندمـا كان في صحـراء مـدين، بأن يخلع نعليـه من قدميـه، لأن الأرض التي وقف عليها كـانت مقدسـة، ولم يتجرأ يشـوع المقدس على الوقـوف متنعـلاً في حقل أريحا، ومع هذا، أنا الفـارغ من كل قـداسـة، والملىء بالآثـام، تجرأت على الدوس بقـــدمـي المتنعلتين، وبدون احترام مطلق على المكان الذي قـدسته بشخصك، وبجسـدك الثمين جداً، وهو عريان ومجروح، هذا ولايمكنني أن أجد عذراً، لأننا قرأنا أن عزّه سقط ميتـاً لأنه وضع يده على العـربة التي حملت تابوت عهـدك، عندما كـان على وشك الوقــوع، وانظر إننا نمتلك هنا تحت أقـدامنـا مكانا لايمكن مقـارنته، فهـو أعظم من أرض/مدين، ومن حقل أريحا، والحجـرة التي هنا جديرة بالاحترام أكثر من عربة تابوه العهد.

وبناء عليه، مـولاي الرب، اغفر لي، ولسـوف أقدم لك كل الاحترام والتقدير في أماكنك المقدسـة، ولسوف أقدم لك كل شيء آخر مستحق، مع جميع الخشوع الذي أنا قـادر على تقديمـه، والذي أنت بذاتك سوف تضفيه عليّ».

وبعدما صليت على هذه الصورة، نهضت، وبحثت عن موالي ورفاقي في الكنيسة، فوجدتهم جالسين مع بعضهم في بيعة العذراء المباركة حتى

تتشكل المسيرة، وقام الآن الأب المسؤول باستدعاء جميع الحجاج، وأطلعهم على أحكام الكنيسة وعاداتها، حيث اختصرها لهم إلى ثلاثة عشر عنواناً:

أولاً: أنه أخبرنا، أنه ينبغي على كل حاج أن يشتري حامل شمعة، حيث يتوجب عليه حملها مشتعلة أثناء المسيرة، ذلك أن عدداً كبيراً من التجار قد دخلوا معنا، وهم يحملون حوامل شموع وأشياء أخرى للبيع.

وثانيها: طلب من الحجاج الانتباه والسير بشكل نظامي في المسيرة، وأن لايقف أحدهم في طريق الآخر، أو أن يتدافعوا ضد بعضهم، وذلك مثلما طلب منا في البند السادس الذي أعطي لنا في الرملة، ولأن المسيرة هنا التي سوف نبدأ بها والمشكلة هنا، هي أكثر قوة، وفيها تدافع أكثر، لذلك قام هنا بتكرار هذا الأمر مع عدة أوامر أخرى أعطيت لنا هناك في الرملة.

وثالثها: ينبغي أن نكرس هذه الليلة للرب، وأن نشارك في القداسات الليلية والقداسات الربانية الأخرى من دون تقاعس أو كسل.

ورابعها: هو أن لانجعل بيت الصلاة بيتاً للتجارة، وألا نجلس ونبدد وقتنا بالنقاش مع التجار المسيحيين الشرقيين.

وخامسها: هو أنه توجه بالرجاء إلى الذين هم رجال دين بالذهاب وإقامة قداسات دون أن يختلف أحدهم مع الآخر، لأنهم اعتادوا على التنازع حول الأماكن، فكل واحد منهم يريد إقامة قداس في الضريح المقدس لربنا، الأمر الذي كان مستحيلاً في يوم واحد.

وسادسها: هو أنه قام بتعيين أربعة مذابح من أجل المقيمين للقداسات، وهذه المذابح هي: أولها في الضريح المقدس، وآخر فوق جبل الجمجمة، والثالث في موضع وضع الحنوط للمسيح الذي تحدثت

عنه، والرابع في بيعة العذراء مريم، وبالإضافة إلى هذه المذابح كان هناك مذابح أخرى كثيرة في أجزاء مختلفة من الكنيسة، لكنها مملوكة من قبل المنشقين والهراطقة، ولذلك لم نقم قداسات عندها.

وسابعها: طلب من جميع الحجاج إعداد أنفسهم للاعتراف، وأن يتناول كل منهم القربان بعد القداس.

وثامنها: هو أنه أعطى الصلاحيات إلى جميع الكهنة من الحجاج، وإلى رهبانه الذين دخلوا إلى الكنيسة معنا، بسماع الاعترافات السرية والعلنية، والتحليل من جميع الذنوب، حتى من الذنوب المحفوظة للكرسي المقدس، لأن الأب المسؤول عن دير جبل صهيون لديه هذه السلطة، مفوضة إليه من البابا.

وتاسعها: منع كل كاهن من القيام بقداس القربان لأي حاج، وهو قائم في المكان الذي يعمل به القداس العام، وأمر أن يتلقى الجميع قداسات القربان، بعد قداس عال، على جبل الجمجمة، وذلك من كاهن معين هناك ومكلف، كل هذا مالم يرغب في منح امتياز خاص لواحد ما.

وعاشرها: حذر الحجاج من الارتكاء والجلوس على الأرض، أو أن يتركوا حاجياتهم، أثناء طوافهم حول الأماكن المقدسة في الكنيسة، وذلك خشية أن يفقدوها، بسبب أن أعمال اللصوصية غالباً ماتقع هناك، مما يثير كثيراً من الريبة والاضطراب.

وحادي عشرها: في حال أن أي انسان يرغب بتقديم صدقات في الأماكن المقدسة، يتوجب عليه في أثناء تقديمهم أن يؤثر بهم الكاثوليك، ولايعطيهم إلى المنشقين، وبين لهم أيها أماكن الكاثوليك وأيها كانت أماكن المنشقين.

وثاني عشرها: حذرنا، كما فعل في البند الأول مما قدمه لنا بالرملة،

بوجوب عدم كسرنا لأي شيء من الأماكن المقدسة، كما ينبغي أن لايرسم أي انسان رنكه، خشية أنهم بعملهم هذا يلوثون الأماكن المقدسة.

وثالث عشرها: رغب إلينا في أن يرتفع كل منا في قرارة نفسه إلى روح الخشوع الحي، وأننا إذا مارغبنا بالإفادة من هذه الأماكن المقدسة، ينبغي أن نبدي نحوها التشريف والاحترام الذي تستحقه.

فيمايلي:

المسيرة حول الأماكن المقدسة في كنيسة الضريح المقدس، وأولها المسيرة إلى بيعة العذراء المباركة، ووصف هذه البيعة نفسها والأماكن المقدسة فيها

وبعدما تلقينا هذه الأحكام، التي كنا سنلتزم بها أثناء وجودنا في المعبد المقدس، ذهب كل واحد منا إلى التجار، واشترى كل انسان منا شموعاً من الشمع الأكثر بياضاً، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، مزينة أم ساذجة، كل واحد حسب رغبته، ولم يكن هناك نقص بالتفاخر العبثي، ذلك أنه حتى في هذا المجال، كان لدى بعضهم شموعاً برمت بشكل غريب وزينت بالذهب، والرسوم، حيث حملوها بمباهاة، ونظروا باستخفاف إلى الذين حملوا شموعاً ساذجة، موجهين اللوم لهم من أجل تقتيرهم، وجلب بعضهم كثيراً من الشموع، التي أشعلوها في بيعة الضريح المقدس، ثم أطفأوها، وبعد ذلك أخذوها معهم إلى الوطن في بلادهم، حيث جعلوا زوجاتهم يحملنها عندما كن في فراش الولادة، علهن يلدن من دون مخاطر، ذلك أنهم يقولون بأن هذه الشموع قد استخدمت من أجل هذه الغاية.

وفي الوقت الذي كنا مشغولين فيه بشراء شموعنا، قام الرهبان مع الأب المسؤول بإعداد أنفسهم، فارتدوا الملابس المقدسة، التي كانوا قد

جلبوها معهم من جبل صهيون، للقيام بمسيرة مهيبة، حول جميع الأماكن المقدسة، وفق النظام نفسه الذي توفر على جبل صهيون، حسبما تحدثنا في ص٤٠١.

وهكذا عندما وقفنا جميعاً مع شموعنا وهي تحترق، بدأ قائد الجوقة الذي وقف على رأس المسيرة، بصوته المرتفع يغني salve Re-gina، التي غنيناها معه، ووصلنا ونحن نرتل هذه الترنيمة في المسيرة إلى بيعة مريم العذراء المجيدة، وإلى المذبح القائم أمام البيعة، ففي هذا المكان —تبعاً لبعض المرويات القديمة— بقيت مريم العذراء المباركة، من الساعة التي أنزل بها ابنها من على الصليب، حتى ساعة قيامته من الموت، ثم إنها لم تدخل إلى مدينة القدس ثانية.

ذلك أنه كان على مقربة من صخرة الجمجمة حديقة، فيها سكن عدد من الناس الفقراء، حتى في هذه الأيام هناك حدائق خارج المدينة، يوجد فيها بيوت، يسكن فيها أصحاب الحدائق عندما يرغبون، إنما في بقية الأيام يسكن الناس الفقراء فيهم، وهكذا بعدما جرى تعليق الرب يسوع على الصليب، عهد بالعناية بأمه ورعايتها إلى يوحنا، ولذلك أبعدت عن الصليب، غير أنها لم تدع نفسها، بأية وسيلة من الوسائل أن تقتاد بعيداً عن صليب ابنها، أو أن تدخل إلى المدينة، لأنها كانت تعلم أنه لايوجد في القدس كلها مكاناً لإقامتها، بسبب عار ابنها الذي كان عظيماً إلى حد دفع الناس إلى الابتعاد عن استقبال أمه في بيوتهم، ولذلك سمحت لنفسها بأن تقاد إلى مكان إقامة ليس بعيداً عن الصليب، حتى لاتبتعد عن ابنها عندما كان يموت ويسلم الروح، بل أرادت أن تشارك في آلامه كلها، علاوة على ذلك لقد رغبت في أن تعرف وأن ترى ما الذي سوف يصنع بجسد ابنها بعد الموت، من أجل أنه إذا ما رمي في العراء —كما كانوا يفعلون بالأشخاص المدانين الآخرين— أن تحمله إلى نفسها، أو أنه إذا ما دفن أن تكون حاضرة لدى الدفن، وأن تقوم

بطقـوس الجنازة والدفن، وهو —في الحقيقـة— مـافعلتـه، لأنها عندمـا رأت يوسف ونيقـوديموس يعـدّان العـدة لدفن ابنها، ركضت نحـوهما بذاتها وهي مليئة بالحزن، وحضرت عمليـة الدفن، وأحضرت بعد ذلك إلى هذا المسكن، ولم تتحرك من هناك ولم تغادر تلك البقعة.

وفي الحقيقـة اعتـادت أمهـات أُخـر مغـرمـات، على فعل مثل هذا لأولادهن المحبـوبين، وكن إذا مـا أصبـن يبقين دومـا يبكين عند قبـور أولادهن الأعزاء عليهـن،حتى مريم المجـدلية كان من الصعـب ابعادها عن قبر أخيهـا لعـازر كما قـرأنا في الاصحـاح الحادي عشر من انجيل القـديس يوحنـا، فكيف أكثـر من ذلك، كـانت وقتهـا مـريم العـذراء الأعظم مبـاركة، التي أحبت ابنهـا بمالايقارن به حب أي أم أو صـديق لمن هم أعـزاء عليهم! وعلى هذا، كـان إلى هذا المكان، أن قـدم المسيح أولاً بعد قيـامته، ويحدثنـا فنسنتوس Vincentius الذي كان من طائفة الرهبان المبشرين، أنه عنـدما قام الرب من الموت، بعث بجبرائيل أمامه ليبشر أمه، أن قدوم ابنها الأعظم مجداً سيكون بالحال، وبعد ذلك ظهـر ابنهـا نفسه، مـرتديا ثيـاباً ناصعـة البيـاض، وبمـلامح مستبشرة، وبجمال، وببهـاء، وببهجـة، وكانـت ندوبه تشع بشكل متألق، وقـد بدا مسروراً، وحيا أمه، بولهٍ عظيم، وكان قد اقتاد من خلفه جميع القديسين الذين أحضرهم من العـالم السفلي، وهنا من الذي هو قـادر أن يخبر بأية بهجة شعرت العـذراء المجيدة؟ ولهذا غنينا في هذاالمكان المقدس تراتيلنا بسرور، وعندما فرغنا من أغـانينا، وانتهينا من القداس المذكور في كتب المسيرة، دنونا من المكان، وجثونا هناك، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

المكان المحفوظ فيه قطعة من العمود الذي عنده جلد يسوع

ومـا أن فرغنا من غنـاء الترنيمة المحـددة، حتى تقـدمنا نحو الأمـام باتجاه اليمين، وكـان يوجـد هناك نوع من الكوى، أو نافـذة مغلقـة، في الجدار، ووقف في هذه الكوة جـزء كبير من ذلك العمـود الثمين جـداً،

الذي إليـه كان الرب يسـوع قـد ربط، وهو عريان، في بيت بيـلايطس، وجلد بشكل وحشي بالأسـواط وبالعصي، وصعدنا واحـداً تلو الآخر، ولمسنا العمـود المقـدس بأيدينا، حيـث أمـررنـاهم من خـلال شبكة حديدية، وهنا أيضاً تلقينا غفرانات مطلقة،(++).

وجلب هذا العمـود في غـابر الأيام، بكامله من بيـت بيـلايطس إلى جبل صهيون، ولهذا قـال القديس جيروم عن باولا: «لقـد أريت (يعني باولا المقـدسـة) على جبل صهيـون العمـود الذي دعم رواق الكنيسـة، وكـان لون هذا العمود أحمر مع دم الـرب، وهو الذي إليه ربط يسـوع، عندمـا أحضر ليجلد»، لكن بعـد دمـار كنيسة جبـل صهيون القـديمـة —كما قلت من قبل— جلب شطر منه إلى هاهنا، وهناك جزء ثالث منه في كنيسة القديس براكسيد Praxede في روما، وقطعة رابعة منه في ليـون في كنيسة القـديس هيرْكـانوس Hyrcanus العدل، كما أن هناك قطعـاً أخـرى منه في كنائس في أجـزاء أخـرى مـن العـالم أيضـاً، والقطعـة القـائمة في هذا المكان هـي حوالي الشبر، وسماكتهـا بالعـرض ثلاثة أصـابع، وأربعـة أشبـار بالارتفـاع ولونها أرجـواني، محلى بنقـاط حمراء، ومـرد هذا إمـا طبيعـة الحجـر، أو كما ارتأى جيروم وبيـد، إلى معجزة.

المكان الذي حفظ فيه الصليب بعد اكتشافه وقبل فقدانه

واستـدرنا في هذا المكان إلى الجزء المقـابـل من البيعـة، وهناك يوجـد أيضـاً فجوة في الجدار، حفظت فيـه قطعـة من الصليب الأعظم قداسـة لمدة مائتي سنة، وكانت مرصعة بكثافة بالذهب، والفضة وبالمجوهرات، وقد تولت ذلك حنة (هيلانه) الواسعة الشهرة، فهي التي عثرت عليها، فهي كانت قـد وجدته كاملاً، فأمرت بقطعـه إلى نصفين، وتركت نصفاً هنا، بينما نقلت النصف الآخـر إلى القسطنطينيـة، وطـوال الوقت الذي وقف فيـه الصليب المقـدس في هذا المكان، ازدهرت الكنيسـة الشرقيـة،

وازدادت، وحوت أكثر الناس قداسة، وانتصرت دوماً على أعداء صليب المسيح، لكن حالما انتزع وأخذ بعيداً، ترنحت الكنيسة، وغدت أكثر غرقاً.

وقد قدمنا الاحترام إلى هذا المكان، مع أنه كان خاوياً، وغنينا هناك ترنيمة الصليب المقدس الموجودة في كتب المسيرة، لأنه وإن كان غائباً، نحن رأينا الأمر وكأنه موجود، لأنه ونحن نفكر هكذا، صدرت روائح جميلة وانتشرت من ذلك المكان الأثري، وكأن هذه الروائح قد تخلفت هناك من قبل الصليب المقدس، وليس في هذا من عجب، لأنه بعد ما يجري صب الخمرة من الوعاء، يبقى الوعاء محتفظاً برائحة الخمرة، ومثل هذا مكان حفظ الذخائر هذا، الذي كان حاوياً الخشبة، التي لديها القدرة الدائمة على انقاذ الحياة، بقي هذا المكان محتفظاً برائحة الخشبة فيه، وفي الحقيقة حتى يكون من الممكن لهذا المكان أن يصبح أكثر جدارة بالاحترام، أقاموا صليبا هناك، ومع هذا الصليب، قطعة صغيرة من الصليب الحقيقي للمسيح، أقحموها فيه، وقد قبلنا هذه القطعة، وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي تبرهن فيه أن الصليب المقدس هو الصليب الحقيقي بإقامة رجل ميت وردّه إلى الحياة

وعندما فرغنا من أعمال تعبدنا في ذلك المكان، انطلقنا، ونحن نغني ترنيمة أخرى، وأتينا إلى وسط البيعة، حيث الموضع الذي إليه جلبت الصلبان الثلاثة بعد اكتشافها، من أجل المعرفة بالبرهان أيها كان صليب المسيح، وجلب لهذا الغرض رجل ميت، ولدى لمسة لصليب المسيح قام حياً، وهنا توجد بيعة للاتين، ومامن أمة لها أي حق هناك فيها، باستثناء اللاتين فقط، وحراس الضريح المقدس، الذين يمثلون اللاتين، ويقومون بوظائف القداسات هناك، ويمتلكون خلف هذه البيعة غرفاً، فيها يطبخون ويأكلون وينامون، ويفعلون مايحتاجون إليه، وجرت

العادة أن يكون للرهبان الفرنسيسكان ثلاثة رهبان يسكنون في ذلك المكان، وقد نمت لساعات طوال في أوقات متفرقة في مهجع الرهبان.

المكان الذي ظهر فيه ربنا إلى مريم المجدلية على شكل بستاني

وبعد زيارتنا لهذه البيعة خرجنا منها على شكل رتل لننزل إلى الكنيسة، بوساطة أربع درجات، وعند نهاية الدرجات وصلنا مباشرة إلى مكان فيه دائرتين في البلاط، وتبعد كل دائرة خمس خطوات عن الأخرى، وهما مصنوعتان من رخام مصقول ومتعدد الألوان، ووقفنا حول هاتين الدائرتين، ونحن ننشد التراتيل الموائمة لهذا المكان، وذلك حسبما جاء في كتب المسيرة، ويقال بأن هذا هو المكان الذي ظهر فيه الرب يسوع إلى مريم المجدلية على شكل بستاني، وقد وقف الرب في مكان الدائرة الأولى، ووقفت مريم في مكان الدائرة الثانية، وهنا ارتمت مريم على قدميه، ولم يسمح لها أن تلمسه، بسبب أنه لم يكن قد صعد إلى ربه بعد، حيث نقرأ عن هذا مطولاً في الاصحاح العشرين من انجيل القديس يوحنا.

ويمكن للحادثة التي وقعت هنا أن تلهم الحجاج بخشوع عظيم، الذين استوعبوا بقلوبهم المثل الذي ضربته مريم، فهي عندما لم تجد الذي بحثت عنه في الضريح، ركضت حول زوايا الحديقة كلها، إلى هنا وإلى هناك، وهي تتحرق بنار الحب، إلى حد نست فيه ضعفها النسائي، ولم تخف لامن الظلام الدامس، ولا من الرعب الصادر عن المعذبين، ولم تعبأ بحراس المكان، بل ركضت نحو الأمام ونحو الخلف، وهي تبكي، وتلهث، وتتأوه، ولاشك أنها لو أخبرت وقيل لها:«عجبا، إن الذي عنه تبحثين، قد عبر البحر الكبير، واجتاز جبال الألب، وأخذ نفسه من الشرق إلى الغرب، وهو الآن في أقصى منطقة باتجاه الغرب»، لقامت على الفور، على الرغم من آلاف المخاطر، فعبرت البحر، واجتازت جبال الألب، وطافت في بلاد الغرب، ولذهبت حتى إيرلندا،

التي هي أقصى جميع البلدان نحـو الغرب، لكن الرب الكريم ظهـر لها هنا، في هذا المكان، وهولذا لن يخفي نفسـه عن الذين قـدمـوا إلى هاهنا من الغـرب، من خلال كثير مـن البلدان المخيفة، ومن البحـار الخطيرة، قدموا يبحثون عن الذي يحبـونه، وذلك دون أن أنسى ذكر الوعد الذي قطع في الاصحاح الثامن من زكـريا في قوله:«هكذا قال ربّ الجنود، ها أنذا أخلص شعبي من أرض المشرق، ومن أرض مغـرب الشمس، وآتي بهم فيسكنون في وسط القـدس، ويكونون لي شعباً، وأنا أكـون لهم ربا» (زكريا:٨/ ٧—٨).

وبناء عليـه انحنينـا بأنفسنا نحـو الأرض عند قـدمـي الرب يسـوع، وقبلنا مكان طبعات قدميه، وتلقينا غفرانات(+).

مكان السجن الذي كان على مقربة من صخرة الجمجمة، حيث سجن فيه المسيح بعدما غادر قاعة المحكمة

وغادرنا هذا المكان، وتابعنا سيرنا ونحن نغني في المسيرة، ودخلنا إلى بيعة مظلمـة منحوتة من الصخر، كـانت بلانوافذ، وفيها مـذبح واحد، ولها بابين صغيرين، وكـانت هذه البيعة في أيام المسيح سجناً، أو حبسـاً قـرب جبل أكـرا، بنيت بقصـد أن يسجن فيهـا الذيـن حكم عليهم بالاعـدام، وتقـرر تنفيـذ الاعـدام بهم، وذلـك ريثما يتم تجهيـز أدوات تعذيبهم، مثل الصلبان، والمشانق، والدواليب، والحطب للنار، وما ماثل ذلك، وكـذلك من أجل أن يتمكنوا من شرب الخمـرة ليجعلوا أنفسهم سكارى هناك، لأن العـادة جرت بجعل الذين سـوف يعاقبـون بالموت سكارى بأقوى أنواع الخمرة، من أجل أن لايخافوا من الموت كثيراً، وأن يتحملوا عذابهم بشجـاعة أكبر، وبناء عليـه حتى يمكنهم الشرب بعمق أكبر، كـانوا يحبسـون هنـاك مع خمرة، حتى يمكنهم أن يسكروا دون أن يشعروا بالخجل.

وبناء عليه عندما جلب الرب يسوع إلى هنا مع صليبه، حبسوه في هذه الزنزانة، وكان ذلك أثناء إعداد فجوات ثلاث في صخرة الجمجمة، من أجل ثلاثة صلبان، وفي الوقت نفسه حتى يسكر، أعطوا الرب «خمرة ممزوجة بمرّ» (مرقص:١٥/ ٢٣)، وقد كانت مرّة جداً، ولهذا رفض الخمرة المعروضة عليه، حسبما جاءنا الخبر في النص نفسه.

وشعرنا في هذه الزنزانة بالحزن، وتفكرنا كيف ان الرب يسوع قد بكى هنا فيها، وانتظر عذاب الصليب برعب يساويه رغبة، ولذلك دخلنا إليها واحداً واحداً، بالآهات وبالتنهدات، وقام كل واحد منا بدوره بالإنحناء نحو الأرض، وقبل أماكن طبعات قدمي مخلصنا، وتلقينا هناك غفرانات(+).

المكان الذي اقترع فيه الجنود على ثياب المسيح واقتسموها فيما بينهم

وتابعنا سيرنا، فعبرنا من سجن المسيح إلى بيعة أخرى، لها ثلاث نوافذ مغلقة، فهناك بعدما جرى ربط الرب يسوع إلى الصليب، وقف صالبوه ورموا القرعة من أجل معرفة الذي يمكن لكل واحد منهم أن يأخذه من ثياب يسوع، ووزعوا بقاياه إلى أربعة أجزاء، آل كل جزء منها إلى جندي، واقترعوا على قميصه الذي لانظير له، لأنه يمكن أن يكون بلا فائدة إذا ماقطعوه، ولهذا جلسوا في هذا المكان ورموا القرعة، مظهرين ازدراء عظيما نحو المسيح، وثارت هنا شفقتنا بسبب تعرية المسيح، وعندما فرغنا من غناء قداسنا، قبلنا المكان، وتلقينا غفرانات(+).

المقعد الذي جلس عليه الرب يسوع أثناء تتويجه الوحشي

وبعدما غادرنا تلك البيعة، تابعنا تقدمنا إلى أماكن بعدها، ونحن ننشد ترنيمة حزينة حول تتويج الرب، وكيف جرى تتويجه بتاج من

شوك، ووصلنا إلى بيعة أخرى مظلمة، كانت نافذتها الوحيدة مغلقة بالحجارة، وقد كان فيها مذبح جميل، غير مكسور، إنما من دون تعليق، الخ، ووقفت تحت هذا المذبح حجرة مستديرة، بدت وكأنها قطعة اجتثت من عمود، وكانت هذه الحجرة قائمة في أيام آلام المسيح في بيت بيلايطس، أمام اسطبل للبغال، وكانت بمثابة مقعد، ذلك أنها أعدت لتكون موائمة للجلوس عليها، وبناء عليه عندما أرادوا تتويج الرب بتاج من شوك، دحرجوا هذه الحجرة من مكانها، وأخذوها إلى دار الولاية، وأجلسوا الرب عليها، وتوجوه بالشوك، وهو جالس على الحجر.

وبعد آلام المسيح، جلب المؤمنون تلك الحجرة إلى هنا، لتكون ذكرى دائمة على ذلك التتويج الساخر والوحشي، ولهذا سجدنا بأنفسنا على الأرض، وبعباده منا للرب لمسنا هذه الحجرة بأيدينا، وقبلناها بأفواهنا، وتلقينا غفرانات(+).

واستحضرنا إلى ذاكرتنا كل ماعاناه الرب، وهو جالس على تلك الحجرة، وكيف جرى إلباس الرب يسوع ثوباً أرجوانيا للسخرية منه، وجعلوه يحمل في يده قصبة عوضاً عن الصولجان، وهو متوج بتاج من شوك، وربطوا عينيه، وبصقوا عليه، وضربوه، ولطموه بأيدي الرجال، وجرحوه بالقصبة، وخاطبوه قائلين:« سلام ياملك اليهود»، وسموه نبيا، وجرحوه بآلاف إبر الشوك، وعرضوه للسخرية العامة، وهكذا أجلسوه على هذه الحجرة، وهو مثقل بالازدراء، أجلسوه مثلما يجلس ملك على العرش، ولاشك أن هذا يظهر بوضوح، أن مملكته لم [illegible] في هذا العالم، ولهذا لم يعترف القديسون بالمسيح ملكاً، إلاّ عندما [illegible] متوجا على هذه الحجرة.

وقرأنا عن القديس مارتن، أن روحاً شريرة ظهرت إليه، وهي لابسة لتاج ذهبي ولثوب أرجواني، ودارت هناك بأبهة، قائلة بأنها كانت هي

المسيح، وأجاب مارتن هذه الروح بقوله:«أنا لاأعرف مسيحاً إلاّ وهو لابس لتاج من شوك، وعليه علامات الصليب»، ولدى سماع الشيطان لهذا ذهل وهرب، وقرأنا مثل هذا عن القديسة كاترين السيناوية، عندما أفتري عليها بشكل معيب من قبل امرأة شريرة، انزعجت واضطربت، فحملت نفسها إلى الرب، وطلبت منه الدفاع عن براءتها، فظهر المسيح لها، وقد حمل بيده اليمنى تاجاً من ذهب يتلألأ بالجواهر. وفي يده اليسرى تاجاً من شوك يخز بإبره، وقال لها:«اختاري ماتريدين، إما أن تتوجي في مسار هذه الحياة بتاج من شوك، وأنا سوف أدخر لك تاجاً آخر ثميناً من أجل حياة أبدية، أو أن تأخذي هذا التاج الآن، وهذا التاج الشوكي سوف يدخر لك لما بعد الموت»، وأجابته العذراء قائلة:«مولاي، لقد اخترت دوماً في هذه الحياة أن أتأسى وأتمثل بآلامك المباركة جداً، ولقد عملت الآن اختياري»، وعندما كانت تقول هذا، انتزعت بيديها معا تاج الشوك من يد المخلص، ووضعته على رأسها بقوة بلغت حداً، أنه بعد إنتهاء الرؤيا، شعرت بألم واضح في رأسها من خلال وخز الشوك.

ومثل هذا فعل الملك المجيد، بلدوين ملك القدس، الذي كان أول ملك لاتيني مسيحي قد حكم هناك، فقد اتخذ شعاراً لملكه تاجاً ليس مصنوعاً من الذهب، بل من الشوك، وذهب وتجول دوماً متوجاً بهذا التاج في أيام الدولة المهيبة، لابل حتى عندما كان ملوك آخرون في حضرته، وكان يقول: إنه من غير اللائق لانسان مذنب أن يسير أمام الناس، كملك للقدس، وهو مزين بتاج من ذهب، في حين جرى تتويج ملك السماء في القدس بتاج من شوك.

وينمو في أحواز القدس شوك حاد جداً، صنعت منه تاجاً، وحملته معي إلى أولم، وينبغي أن لانعتقد أن الشوك الذي استخدم لتتويج المسيح، كان شوكاً بحرياً، بل كان شوكاً عاديا، مما ينمو في أحواز

القـدس، وعلى جبـل صهيـون، وعلى جبل الزيتــون، وفي الوديان، لأن تتويج المسيح لم يكن عملاً مدبراً لامن قبل اليهود أومن غير اليهود، بل كـان عندما أحضر أمـام القاضي، واتهم بـأنه قال بأنه المسيح، وأنه كـان ملكاً، ووقتها جاء إلى أذهانهم فجأة أنه ينبغي تتويجه سخرية منه وتعذيباً له، فكان أن أحضروا شوكـاً من أقرب الحقول، أو ربما وجـدوا الشوك في مطبخ بيت (بيـــلايطس) بين حـــزم الحطب من أجل النـار، لأنني شـاهدت بناظري، أنهم حتى في هذه الأيام ليس لديهم حطبـاً للنار غير الشوك، وأن مطابخهم كانت مليئة بأشواك حادة جداً من أجل احراقها بالنار.

بيعة القديسة هيلانة المكتشفة للصليب المقدس

وعندمـا غادرنا تلك البيعـة، مضينا في طريقنا، وطفنا حول الكنيسـة من الداخل، وَنحن نغني ترنيمـة القديسة هيـلانة، كما جرى تحديدها في كتـاب المسيرة، ووصلنا إلى باب كبير في جدار الكنيسـة، وبما أنه يوجـد خـلال هذا البـاب ممر إلى خـارج الكنيسـة، سرنا من خـلال البـاب في ظلام، انقشع بمصابيحنا، وشعرنا على الفـور بوجود درج حجري تحت أقـدامنـا، وهكذا نزلنا ثلاثين خطوة أو درجـــة، إلى بيعـة اسمهـــا بيعـة القديسـة هيلانة، وهي مـوجودة تحت الأرض، وعندما فـرغنا هناك من ترتيل صلواتنا، جثونا ودعونا، وتلقينا غفرانات(+).

وهذه البيعـة ذات حجم جيـد، وجـدرانها من صخـر، حيث نحتت نحتـاً، ومثل ذلـك الدرج من الكنيسـة في الأعلى، والذي يقــود نحـو الأسفل بين جـدارين من الصخـر، وفي الأعلى هي مقنطرة، وهي تتلقى الضـوء من خلال سقف مقنطـر، وهذه القناطر مدعـومـة بستة أعمـدة رخـامية، ويقـال بأن هذه الأعمـدة كـانت في أيام آلام المسيح —تدعم قـاعـة المحكمـة، التي حكم فيهـا على الرب، وأنها جلبت إلى هاهنا من قبل القـديسـة هيـلانة، وهذه الأعمـدة سـوداء، وهي مصقـولة تتعـرق

بشكل دائم وتنقط المياه منها نقطة نقطة، وعندما يمسح إنسان هذه النقاط بيده أو بثيابه، تتدفق على الفور نقاط جديدة، ويقول عامة الناس بأنها بدأت هذا التعرق الإعجازي، عندما جرى الحكم على المسيح وعوقب في قاعة المحكمة، وماهذا التعرق إلاّ دموعها على يسوع المسيح البريء، وينبغي أن لانرفض كلياً رأي عامة الناس هذا، لأنه من المؤكد ليس جميعه واهم، لأنه إذا أمكن القول بأن الحجارة يمكنها أن تغني أماديحاً إلى المخلص، عندما يكون الناس ساكتين، كما قرأنا في الاصحاح التاسع عشر من انجيل القديس لوقا، فماهو وجه العجب هنا إذا ما بكت الحجارة من أجل موت المخلص، في حين ضحك الناس من ذلك وسخروا؟ فكما حدث في يوم أحد السعف حين صرخ أطفال اليهود مع حواريي المسيح «المجد» وكانت الحجارة صامته، الآن صمت هؤلاء، فصرخت الحجارة بصوت مرتفع، ومثل هذا عندما بكى الناس لبراءته ولموته الوحشي، لم تقم هذه الحجارة بذرف الدموع، إنما عندما لم يبك الناس، ذرفت الصخور الدموع، لابل أكثر حيث أننا قرأنا أنهم تصدعوا وتفتتوا عندما مات المسيح، ولذلك لايوجد عدم امكانية في الاعتقاد التقوي للناس من العوام، الذي يعلن أن هذه الأعمدة قد بكت لدى موته، سوى أن ذلك غير مذكور في الكتابات المقدسة، وفي الحقيقة إنه أسهل على الصخرة أن تبكي من أن تغني للحمد، علاوة على ذلك إنهم يقولون بأن هذه الأعمدة تبكي هكذا باستمرار، بسبب أن الناس يبتهجون ويضحكون، في الوقت الذي يتوجب عليهم فيه الاستمرار بالبكاء والنحيب لآلام المسيح، ولذنوبهم ولشقاء هذا العالم الشرير، ويقولون إذا ماتوقف الناس عن المبالغة بالسرور، ستتوقف هذه الأعمدة عن ذرف الدموع.

ويقول آخرون من بسطاء الناس، ويروون جميعا بايمان عن هذه الأعمدة، في أنه أثناء آلام المسيح خاطبت العذراء مريم هذه الأعمدة،

وهي تبكي وتنتحب لوحـدها وقـالت لهم:«لايوجـد أحـد يشـاركني أحـزاني، فكيف يمكنني أن أصبر على تحمل هـذا الثقل مـن الآلام لوحدي؟ إبـك معي، أيتهـا الأحجـار»، ولـدى تلفظهـا بهذه الكلمات بدأت الأعمـدة تقطر مـاء، ولعل هذه الأعمـدة هي التي أشير إليهـا في الحكمـة:١١ في قـوله:« لقـد منحـوا مـاء من أعماق الصخـر، وأعطيـوا الخلاص من العطش من الصخـر الأصم»، وفي حبقـوق٢/ ١١ قـوله:« لأن الحجر يصرخ من الحائط»، وفي أيوب:٩/ ٦ قـوله:«المزعزع الأرض من مقرها فتتزلزل أعمدتها».

وهذا الذي قلته أعـلاه حول الأعمدة قد سمعتـه من كاثوليكي تقي بسيط، ومن امـرأة تقية لايجوز لي الاستخفـاف بتقـواها، أو التقليل من شأن غيرتها، ومع هـذا إنني أعلم بشكل تـام، أن مـايحدث لأسبـاب طبيعية، ينبغي عـدم عزوه إلى المعجزات، لأن هناك بعضـاً من الحجارة، ونوعـاً من الرخام اسمـه endroson ترشح منه المياه، في أي مكان من المبنى وضع فيه، فبسبـب طبيعته الفائقـة البرودة يقوم بتكثيف الهواء من حـوله، ويحوله إلى مـاء، ومن الطبيعي أن الهواء الذي تحول إلى مـاء على وجه الحجر، أن يرشح ويتقـاطر على شكل نقط من الحجر، ويحكى أن شيئاً من هذا القبيل قـد وقع في القصر القـديم في القسطنطينيـة، في احدى الغـرف، التي كانت فيهـا قشور صخـرية رخاميـة من هذا النوع نفسه، وكـانت هذه القشور تملأ نفسها ذاتيـا بالماء، ثم إنها بعدمـا كانت تفرغ، وتصبح خاوية تمتلىء ثانية، دون أن تملأ من قبل أي انسان، ونظر عـامة الناس نحـو هذا الأمـر باندهاش كـامل، وعدوه معجـزة، مع أن ذلك كـان يحدث بتفـاعل الطبيعـة، وبـالصـورة ذاتها أنا أعتقـد أن هذه الأعمـدة من رخـام الـ endroson ، أي أنها من حجارة هي رطبة بصورة طبيعية، والماء ينقط منها.

ويوجد في هذا الكهف نفسه قشرة حجـرية، عُمّرت في الجدار، قرب

المذبح، قصد منها أن تستوعب ماء مقدساً، وكانت دوما تفرّغ وتصبح بلاماء مقدس، وعندما يضع انسان رأسه في هذه القشرة، ويصغي، تراه يسمع صوتاً مثل الهدير، وانبعاث لهيب النار، أو مثل اندفاع مياه كثيرة، وبشكل خاص عندما يكون انسان لوحده في البيعة، ويرغب في سماع هذا الصوت، تراه يسمع صوتاً مخيفاً مزعجاً، مثلما سمعت ذلك مراراً، وعندما يستمع الناس البسطاء لهذا الصوت، يخافون كثيراً، ويقولون بأنه يوجد تحتها مكان للتعذيب، أو جحيم، وأن هذه الأصوات سببها انزال العقوبات، وهي هدير العذاب وزئيره، غير أنني أعتقد بأن هذه الأصوات سببها هنا، سير الناس ومشيهم حول الكنيسة بالأعلى.

ويوجد على جانبي الدرج كهوف واسعة وعالية، منحوتة من الصخر، وكانت فيما مضى قد كرست بيعاً مع مذابح، وهم جميعاً بلاضوء، وإنه لأمر رائع أن ترى خشوع الأقدمين من الناس في هذه الأماكن وفيما شابهها من القضايا والحالات، وتحتوي هذه البيعة على مذبحين، ويوجد قرب الأكبر بينهما، على جهته اليمنى، كرسي من الحجر، وعلى مقربة من الكرسي هناك نافذة منجورة من خلال الصخر، من خلالها يمكن للانسان أن يتطلع إلى الحفرة التي عثر فيها على الصليب المقدس، ويقولون إنه عندما وجدت هيلانه الصليب المقدس، قامت أولاً ببناء هذه البيعة، وأنها طوال الوقت الذي جلست فيه على هذا الكرسي، كانت ترمي بانظارها بشكل مستمر من خلال هذه النافذة إلى الكهف حيث وجدت الصليب.

وقد جلست هناك باستمرار، حيث كانت تشير إلى البنائين وتدلهم على الشكل الذي عليهم أن يبنوا فيه الكنيسة، وهناك كانت تدفع النفقات، وكان في واحد من هذه الكهوف المظلمة فراشها، وهناك أقامت مع وصيفاتها ليلاً ونهاراً، حتى انتهت عمارة الكنيسة كلها، ويطلق بعضهم على هذه البيعة اسم بيعة القديس جيمس، أي القديس

جيمس الذي كان أول أسقف للقدس، فقد كان عرشه فيها، ولهذا يطلقون على الكرسي اسم عرش القديس جيمس، لكن هذاغير معقول، لأنه في أيام القديس جيمس لم تكن هناك كنيسة، بل مجرد مكان خارج أسوار المدينة، وكان مكاناً سيء السمعة، لأنه على مقربة من جبل الجمجمة.

الكهف الذي عثر فيه على الصليب المقدس من قبل القديسة هيلانة

ومن هذه البيعة، نزلنا ثانية ست عشرة درجة، كانت موجودة على جهة اليمين، وكنا نغني ترنيمة الصليب المقدس، ووصلنا إلى بيعة أخرى، كانت مظلمة تماماً ومحرومة من ضوء النهار، غير أنها كانت مضاءة بكثير من المصابيح، وعند قاعدة هذه البيعة، هناك حفرة مقدار طولها اثنتان وعشرون قدماً، مغطاة بالصخرة، ففي هذه الحفرة، وجدت الامبراطورة المقدسة هيلانة، ذلك الكنز الثمين جداً، الذي أقام مخفياً لمدة تزيد على ثلاثمائة سنة، فقد وجدت هناك الصلبان الثلاثة، وتاج الشوك، والمسامير، واللوحة الصغيرة التي كتب عليها العنوان ووضعت فوق الصليب، والسنان الحديدي للرمح الذي خرق به قلب المسيح، والقصبة مع الاسفنجية، والأدوات التي استخدمت في صنع صليب المسيح مع صليبي اللصين، فجميع هذه الأشياء قد ألقي بها مع الصليبان في هذا المكان، بسبب عدّهم مدنسين.

ووقفنا من حول هذا الكهف المقدس نغني ترنيمة في مدح الصليب وتمجيده، وهو الذي عثر عليه هناك، وأنحنينا بأنفسنا واحداً تلو الآخر نحو الأسفل، وقبلنا الموضع، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

وفي المكان الذي طبعنا فيه قبلاتنا شعرنا برائحة حلوة صدرت من الكهف، وقد انتعشنا بهذه الروائح كثيراً وسررنا، وشعرنا بالراحة،

حيث رأينا أننا وجدنا أهلاً لتلقي آخر آثار تلك الرائحة الطيبة، وهي الرائحة التي انبعثت من ذلك الكهف عندما اكتشف يوداس قورينوس Jodos Quirinus الصليب أثناء حفره هناك، فهذا ماقرأناه في رواية اكتشاف الصليب المقدس.

وهذا المكان مخيف، وهو غارق بعمق بين الصخور، لكن كيف حدث أن الصلبان قد دفنت تحت مثل هذا العمق في قلب الأرض؟ هذا أمر من الممكن فهمه بسهولة من قبل أي انسان فهم وقرأ أوضاع المدينة المقدسة، فقد كانت مدينة القدس القديمة محاطة بهوة عميقة من الجهة الغربية، وذلك حيث جرى صلب الرب، وقد امتدت تلك الهوة من الجنوب إلى الشمال على امتداد طول المدينة، وكانت هذه الهوة مصنوعة بشكل طبيعي، ولم تكن خندقاً معمولاً للمدينة، وقد تشكلت من صخور على شكل جروف متحدرة مقابل بعضها بعضاً على طرفي الهوة، ويقوم فوق الحافة الداخلية للجروف والصخور، سور المدينة، وتقف حواف الصخور من الخارج بمثابة دفاعات المدينة، وبين الكتل الصخرية للحافة الخارجية كتلة كان اسمها أكرا (الجمجمة)، وكان تحتها مكان اسمه الجلجلة، وفوق أكرا جرى صلب الرب مع اثنين آخرين، وعندما أنزلوا من فوق الصلبان، قام الذين نفذوا فيهم الأعدام، برمي الصلبان في الهوة، مع جميع الأدوات التي عادت إلى المصلوبين، لأن أكرا قامت على حافة الهوة، ولم يكن عليهم سوى سحب الصلبان من الفجوات في الصخرة، ورميهم في الهوة، وذلك مثلما اعتادوا على رمي الفضلات الأخرى فيها، ولهذا مالبثت الصلبان أن تغطت، لأنهم كانوا يوميا يرمون بالفضلات من فوق سور المدينة.

وأخيراً عندما هدم تيتوس القدس في السنة الثالثة والأربعين بعد آلام المسيح، أمر برمي الأسوار والأبراج التي كانت قائمة هناك، في تلك الهوة، وبذلك صارت الصلبان يوماً فيوماً مغطاة بشكل أعمق أكثر،

وبعـد مضي سبعة وسبعين عـاماً جـاء الامبراطور اليـوس هادريانوس، الذي قام —صدوراً عن كراهيته للمسيحيين— ببناء معبد مدنس جداً، فوق الجلجلة، وضع فيه تمثـالاً من الرخام لفينوس، وذلك حسبما روى لنا القـديس جيروم، في رسـالتـه إلى بولينا Paullina،وقـــام بالوقت نفسـه، صدوراً عـن كراهيتـه لليهـود فنصب تمثـالاً يشبهه شخصياً في المكان الذي قـام فيه فيما مضى هيكل الرب، وذلك حيث عمل اليهـود مزاراً لأنفسهم، وماأن أدار الامبراطور ظهره للمـدينة حتى أقدم اليهود على تدمير التمثال الامبراطوري.

وعندما سمع هادريان بهذا، عاد، وأخرج اليهود من المدنية وطردهم، وهدمهـا، وسـواها بالأرض ثـم مضى في سبيله، وهكذا جـرى للمـرة الثانيـة رمي الأسوار في الهوة فوق الصلبـان، ولم يمض وقت طويل بعد هذا حتى عاد قيصر، وأعاد بناء المدينة من جـديد، وأصدر أوامره برمي السور الغربي القديم كله في الهوة، وذلك بقصد طمر الهوة وتسويتها مع بقية الأرض، وبذلـك يمكن ادخال معبد فينوس في اطـار سور المدينة، وبذلك صـارت المدينة أوسع، ومرّ بعـد ذلك حـوالي مائـة وثمانون سنة والهوة تحتـوي على الصليب المقــدس، وذلك حتى جـاءت هيــلانة كما حـدثنا... جيروم، وعندمـا جاءت لم تستطع إلاّ بصعـوبة بالغـة أن تجد البقعــة، لأنها دخلت في دائـرة النسيــان، ولذلك قــامت بتنظيف هذا الكهف، وأمـرت بتكريسـه، وبنت بيعتها ومقـر إقـامتها فـوقـه، كما هو الحال في هذه الأيام.

وبناء عليـه وقفنا في ذلك المكان، ونحن سـابحين في عالم الإعجـاب بالصخـور والحجارة التي تحتهـا تمّ العثـور على الصليب، لأن الجروف الصخـرية المتعلقـة فـوق رؤوسنا كـانت تهدد بالسقـوط فـوقنا، وشعـر الحجـاج في هذه الهوة المقــدســة بخشـــوع عظيم، هذا والمسيحيــون الشرقيـون، لابل حتى المسلمـون غـارقـون في أوهام عـابثـة حـول هذا

المكان، حيث يقومون بقطع شظايا من هذه الصخور من أجل التداوي ذلك أنهم يعلنون أنه إذا كان هناك انسان مصاب بالحمى، من الممكن شفائه على الفور، إذا ماشرب بعض الخمرة والماء، فيها موضوع قطعة من هذه الصخور، فضلاً عن هذا، إذا ما عانى انسان من وجع رأسه، كان يقوم بتدبر قص شعر رأسه، ومن ثم ارسال الشعر الذي قصه إلى حراس المعبد، حتى يضعوه فوق البقعة التي وجد فيها الصليب، وعندما كان هذا يعمل، كان المريض يشفى.

ومثل هذا أيضاً كانوا يفعلون، عندما يعاني أحدهم من وجع في الأسنان، فوقتها يحلقون له ذقنه، ومن ثم يرسلون بالشعر إلى الكهف حتى يمكن أن يشفى.... ومن هذا الباب كان السبب في أن جميع الشقوق في الصخور، وبين الأحجار محشوة ومليئة بالشعر، وليس هناك من شك أن هذه ممارسة طقوسية دنسة، وصلت إليهم من كفار العصور القديمة، وقد أخبرنا ديودروس في الفصل الرابع من كتابه الثاني حول التاريخ القديم، أن المصريين القدماء، عندما كانوا ينذرون إلى آلهتهم من أجل سلامة أوشفاء الناس المرضى، اعتادوا على حلاقة شعورهم، ووضعهم في أوعية ذهبية أو فضية، وكانوا يرسلونهم إلى الذين يتولون سدانة الأوثان في معابدهم، وبذلك كانوا يشفون، وهكذا يعمل هؤلاء الناس الأشرار، حتى هذا اليوم.

ويوجد خلف مكان اكتشاف الصليب المقدس حفرة عميقة في الصخرة هي مليئة بشعور رؤوس الناس وشعور لحاهم، هذا ويستخدم المسلمون والأتراك، وإن كانوا غير مؤمنين، هذا المكان مع موضع الجمجمة من أجل أوهامهم، وفي هذا الكهف صدى عجيب، أنا مثله لم أسمع في أية جوقة أو كنيسة، ولذلك عندما كنت وحيداً هناك، كنت غالباً ماأغني بصوت مرتفع تماماً، الترنيمات التجاوبية العائدة إلى اكتشاف الصليب المقدس، وترانيم أخرى.

جبل أكرا العظيم القداسة الذي عليه جرى تعليق الرب يسوع على الصليب

بعد مافرغنا من عمل كل ماينبغي فعله في هذا الكهف المقدس، صعدنا على الفور ثانية، وعاودنا الدخول إلى الكنيسة من بابها، ولدى استئنافنا لمسيرتنا بدأ قائد الجوقة يغني بصوت مرتفع ترنيمة Vexilla regis prodeunt الخ، ووصلنا ونحن نغني هكذا إلى الطريق الصاعد إلى جبل أكرا الأعظم قداسة، ولقد صعدنا إليه بوساطة ثمان عشرة درجة من الكنيسة الموجودة تحته، ودخلنا في الأعلى إلى بيعة مضاءة، وجميلة ومزينة برخام مصقول من مختلف الأنواع، وفيها معلق عدد كبير من المصابيح المضاءة، وقائم فيها ثلاثة مذابح، مزينة برسوم صنعت بأعمال الفسيفساء، وبنيت هذه البيعة بناء مقنطراً، مدعوماً بعمود رخامي في وسط البناء، ويوجد في الجانب الأسفل من القنطرة رسوم لداوود وسليمان، وجاء رسم داوود مع نص:«أيضاً رجل سلامتي الذي وثقت به»(المزامير:١٤/ ٩) الخ، ورسم سليمان مع نص:«الحكمة بَنَت بيتها»(الأمثال:٩/ ١)، وهناك أيضاً صورة للتضحية باسحق، وبنيت هذه البيعة فوق جبل أكرا، وعندما أصبحنا جميعاً في داخلها، ومشاهد أمام أعيننا ومعروض تلك الصخرة الرائعة، تلك الصخرة المرغوبة، مع ثقوبها التي هي موضع الاعجاب، وهي التي أقحم فيها الصليب الأعظم قداسة، وهو يحمل المصلوب، وعندما رأينا هذه الأشياء المقدسة والرهيبة بسبب قداستها الفائقة، سقطنا على وجوهنا فوق الأرض، ولم يعد أحد من الناس يسمع غناء، بل نحيباً، ولم يعد هناك غناء للترانيم، بل عويل وتنهدات، ولم يكن هناك أحد تمكن من حبس نفسه عن البكاء والصراخ، لأن من الذي يمتلك قلباً قاسياً جداً، لم يكن قابلاً للتصدع في ذلك المكان، وذلك لدى رؤيته أمام عينية أقسى الصخور، وقد تصدعت؟ ومن هو الذي لن يبكي بصوت

مرتفع في المكان الذي صرخ فيه ربنا المسيح بصوت مرتفع، وهو معلق فوق الصليب، وأيضاً حيث صلى للذين صلبوه، ووعد اللص بالجنة، وعهد بأمه الحزينة بعمق، إلى عناية يوحنا، وشرب الخل ممزوجاً بالمرّ، وعندما قال بأن كل شيء قد انتهى، أسلم روحه وتركها بيدي الأب، ومات، وأيضاً حيث طعن العسكري جنبه بالرمح، فتدفق منه دم وماء.

اعلموا أيها الحجاج الأتقياء، أنه هنا جرى قتل هابيل من قبل أخيه، كما جرى ربط اسحق ممن أجل التضحية به من قبل أبيه، وأقيم الثعبان البرونزي من قبل موسى، وذبح خروف الفصح وفقاً للشريعة، وقتل الرب من قبل انسان، فيسوع قد صلب في الجسد، ملككم جرى تعليقه على الصليب، وربكم حكم عليه بالاعدام، والحليم، والمتواضع، والبريء، صبغ بالدم، وقدم نفسه ككاهن وكأضحية، ووردت هذه الأفكار، وأخرى تماثلها بطبيعتها إلى أذهاننا في هذا المكان الفائق المهابة، وبقيا لمدة طويلة منحنيين نحو الأرض ونحن نصلي، وعندما أنهينا صلاتنا ذهبنا واحداً تلو الآخر إلى الصخرة المقدسة، المعروضة فوق الأرض، وزحف كل واحد منا بقدر ما يستطيع نحو الحفرة التي أقحم فيها الصليب، وقبّل المكان بخشوع فائق جداً، ووضع وجهه، وعينيه، وفمه فوق الحفرة، التي عنها —وماأقول هو الحق والصدق تماماً— صدرت رائحة طيبة جداً، انتعش بها الناس بشكل مرئي، ووضعنا أيدينا وأذرعتنا في الحفرة حتى أسفلها تماماً، وبما فعلناه وبهذه الأعمال تلقينا غفرانات مطلقة(++).

ويوجد على جهة يسار الحفرة صدع كبير في الصخرة، ممتد من الأعلى حتى الأسفل، من المعتقد أنه حدث بسبب موت المسيح، وصعدنا إلى هذا الصدع واحداً تلو الآخر، وقبلناه، ووضعنا رؤوسنا فيه، وكثيراً من أجسادنا بقدرما استطعنا، فضلاً عن هذا يوجد على جانبي الحفرة حفرتين مماثلتين، فيهما جرى تثبيت صليبي اللصين: دسمه وجسمه،

اللذان صلبا مع يسوع، غير أن هاتين الحفرتين لايمكن مشاهدتهما، لأنه يقوم فوقهما عمودين منخفضين، يوجد فوق رأسيهما مسمارين كبيرين، فوقهما شمعتين، ومصباحين مثبتين، وبذلك صار هذين العمودين بمثابة شمعدانيين، وقبلنا على كل حال العمود الذي وقف على الجهة اليمنى للصليب، وحول هذين الصليبين انظر ماتقدم في ص٣٠٠.

ويوجد على الجدار خلف الصخرة المقدسة، صورة جديدة ثمينة جداً، فيها شكل المصلوب والعذراء المباركة، والقديس يوحنا الانجيلي، ومكثنا على جبل أكرا مع مسيرتنا لمدة تزيد على الساعة، أسلمنا فيها أنفسنا للصلاة وللخشوع، وأقبل الليل، فقد كانت الساعة حوالي التاسعة قبل منتصف الليل، وحدثنا نيقولا دي كوسا حول تصدع الصخرة نفسها في Persuasio ad soldanum، في السفر الثالث — الاصحاح ١٧ من نشرته للقرآن.

وصف جبل أكرا وتراتيبه

لم يرد اسم موقع أكرا في الكتابات المقدسة على أنه جبل، بل جاء ذكره في الحديث العام فقط على أنه جبل، لأنه في الحقيقة ليس جبلاً، بل صخرة أو جرف مرتفع بعض الشيء فوق الأرض، ومع ذلك جبل أكرا لايمتلك هذا التميز، حسبما يمكن رؤية ذلك بوضوح في الشكل، والصخرة والجبل والموقع، كان من البداية جديراً جداً بالاحترام بسبب أن:

آدم، أبونا الأول، مات هنا.

ابراهيم، تمت مباركته هنا من قبل ملكيصادق.

اسحق، جلب إلى هنا من قبل أبيه، من أجل التضحية به.

الثعبان البرونزي تمّ نصبه هنا.

الرب يسوع صلب هنا، وهنا مات.

ولايشغل جبل أكـرا شطراً كبيراً من المدينة، والذي يعنيه مكان أكـرا هو مـوقع الكنيسـة كلها، أمـا صخـرة أكـرا فهي التي دعمت الصليب فقط، وقبل تـوسيع المدينة وقف هذا الجرف مقـابل سـور المدينة، على حافة منحـدر عميق أحاط بالمدينة من الجهة الغربيـة، وهذا ما سلف لي أن قلتـه من قبل في ص٤٨٨، وأكـرا ليس بعيـداً عن سـور المدينة، لأن المنحدر نفسه وإن كـان عميقاً، لم يكن عريضاً، إلى حـد أنه كان بامكان انسـان أن يرمي حجرة من سـور المدينة حتى جـرف أكرا، إنما كم كـان هذا الجرف واسعـاً، هذا مالم يمكن تأكيـده، لكنه واضح إلى حد بعيـد، فمن شكل الكنيسة نفسها، واضح أنها كـانت أوسع مما عليه الآن، لأنها عندما أدخلت في داخل السور الجديـد، كان من الضروري اقتطاع جزء منها.

إنما وإن كان صحيحـاً أن هذه الصخرة كـانت قريبـة من السور، كما قلت، هي كـــانت بعيــدة جـــداً عن الرصيف، مـن حيث حمل الرب الصليب، ومن هناك حمله إلى بـاب القضـاء، ومن هذا البـاب عبر الهوة بوساطة الجسر إلى الصخرة، ولم تكن هذه قائمة في مواجهة الجسر تماماً، بل كانت على مسافة لابأس بها عنه، حيث كان يتوجب على الانسان أن يستدير ويسير صعـوداً على طول حافة الهوة، وتوضع الجرف على حـافة الهوة بشكل، أنه عندمـا جرى صلب الرب فـوقه، كـان ظهره مستـديراً نحـو الشرق، ونحـو المدنيـة، لكنه أدار وجهـه نحـو الغـرب، لكن هل جـرى صلب الـرب على قمـة الجرف أم أدنى من ذلك، فأمــر مـوضع شك، لأنه بسبب الأبنية القائمة فوق الموقع لايستطيع أحد أن يقول كم كـان اتساع الصخـرة في القمة، والـذي أعتقده أن الرب علق بالمسـامير على الصليب عند سفح الجرف، وأنهم بعدما ربطوه إلى الصليب سحبوه مع الصليب إلى القمة، وهناك ثبتوا الصليب بالصخرة.

وكـان مـوضع أكـرا جـديراً بالتقـدير من الأيام الغـابرة، وذلك قبل صلب المسيح، ففيه تمّ العثور على جمجمـة آدم من دون شعر، ومن هذه الجمجمـة صـار يطلق على المكان اسم أكـرا، أو الجمجمـة أو الجلجلة، التي تعني الشيء نفسـه، ويبجل اليهود هذا المكان، منذ أزمـان قديمـة، لأنهم يعتقدون بأن ابراهيم عمل فيه استعـداداته للتضحية بابنه اسحق، كما وصلتنا الأخبار في الكتابات المقدسة، ولهذا من المعتقد أن هذا المكان كان واحداً من الأمـاكن العالية التي اعتاد الناس على تقـديم الأضاحي فيها، لابـل حتى على بناء هيكل العبادة، وغـالباً ما يستشهـدون للبرهنة على هذا بما جـاء في سفري الملوك، حيث جـاء الحديث حتى عن الملوك الأتقياء قـوله: «فعل ماكان صحيحـا بنظر الرب، ذلك أنه لم يستول على الأماكن المرتفعة، لأن الناس مـابرحوا يقدمون الأضـاحي فوق الأماكن العالية».

هذا وهناك بعض الأمـاكن في الأرض المقـدسـة، فيهـا جـرت بعض الأعمال الخالدة من قبل الرب، وفيها جرت العادة على عبادة الرب، قبل بناء الهيكل، لكن بعـد بناء الهيكل جـرى تحريمهـا، وكـان من بين هذه الأمـاكن شيلوه، والجلجـال، وجبل الزيتون، ومـوضع أكـرا، وعلى هذا المكان المرتفع اعتـــاد الناس بشكل خـــاص على تقــديم الأضــــاحي بلاحدود، لأنه فـوقها جرى نصب الثعبـان البرونزي، الذي نقرأ عنه في الاصحـاح الحادي والعشرين من سفر العـدد، وتمت عبادة هذا الثعبـان بشكل هائل من قبل الناس حتى أيام الملك حزقيا، الذي دمره إلى قطع، وذلك كما ورد الخبر في الاصحاح الثامن عشر من سفر الملوك الثاني.

ومــرد الاحترام القـــديم لهذا المكان إلى أنه هنا التقــى ملكيصـــادق بإبراهيم، ومنحه خبزاً ونبيذا، وهنا أيضاً مركز العالم، وهذه أمور سوف أتولى شرحها الآن فيمايلي:

ولقـد حدث أنـه عندما فقـد اليهـود مملكتهم، وآل الحكم عليهم إلى

ملوك غرباء من الشعوب غير اليهود الذين كرهوهم، قام هؤلاء الملوك، على الرغم من اليهود بتحويل موضع أكرا (الجمجمة) والجلجلة إلى مكان لتنفيذ العقوبات بمرتكبي الآثام، الذين كان من بينهم اللصوص، وقطاع الطرق، والقتلة، والمرتدين، فهؤلاء جرى اعدامهم هناك، في سبيل جعل المكان دنساً بالنسبة لليهود، وذلك صدوراً عن ازدرائهم، وبقي المكان محل ازدراء حتى أيام المسيح، لكن بعد قيامته وصعوده، بدأ المكان يحظى بالاحترام والتقديس من قبل المسيحيين، لكن الامبراطور الوثني اليوس هدريانوس لم يكن ليقبل بهذا، فبنى معبد فينوس هناك، ونصب تمثال عاهرة على صخرة أكرا، وبذلك ألقى بالتدنيس على المكان، حيث جعله دنساً بالنسبة للمسيحيين، فهذا ماأخبرنا به القديس جيروم برسالته إلى بولينا، وهكذا بقي المكان دنساً بالنسبة للمسيحيين، لمدة مائة وثمانين سنة، أي حتى قدمت القديسة هيلانه، ونظفت الموضع من جميع الفضلات والأوساخ التي تدنس بها، وجمّلته بشكل رائع، وذلك حسبما سيرد الحديث لدى وصفنا للكنيسة، وبالنسبة لهذا الموضوع، انظر مايلي في صفحتي ٥٤٠، و٢٥٥، وانظر أيضاً قداس القديس برنارد لفرسان الهيكل في الفصل العاشر.

المكان الذي جرى فيه تسمير المسيح على الصليب، والمكان الذي عثر فيه على جمجمة آدم وتصدع الصخرة

وبعدما قبلنا الصخرة المقدسة، نزلنا ثانية في رتل إلى طابق الكنيسة، ودخلنا إلى بيعة موجودة تحت بيعة جبل أكرا،والتي منها انتصبت صخرة صليب المسيح، وهي الصخرة المنتصبة حتى البيعة في الأعلى، وسقطنا في هذا المكان بوجوهنا على الأرض، وقبلناها بخشوع عظيم، وتعبدنا يسوع على الصليب، الذي ضرب فيه بالمسامير في ذلك المكان، لأنه لو كانت الصخرة هنا، كماهي الآن في هذه الأيام، لما كان المسيح قد جرى تسميره على الصليب فوقها، فقد جرى تسميره في أسفل

الصخرة، ولابد أن أسفل الصخرة قد كان موضع التسمير إلى الصليب، هذا ولايوجد —على كل حال— نص في الكتابات المقدسة حول هذه المسألة، كما أنه ليس هناك برهان مؤكد حولها، فيما عدا أن شكل الأرض كماهو يبرهن على ذلك.

وأعدنا في هذا المكان إلى ذاكرتنا، عملية تعرية المسيح المهينة، وكيف أنهم عروه هنا من جميع ملابسه وسرقوها كلها، وكيف أنهم بنزع ثيابه عن جسده، تسببوا بفتح جراحاته ثانية، وهي الجراحات التي كان سببها جلدة وكيف أنه عندما صار عريانا تماما جلس على الأرض، وأنحنى نحو الأسفل لشعوره بالحياء، لأنه كان عريانا بالمرة، ولأنه كان ضعيفا، لأنه كان مغطى بالجراحات.

وعندما صار الصليب جاهزا، وكان صالبوه قد باتوا مستعدين لسحبه ووضعه عليه، هنا جمع قوته كلها حتى يتمكن من القيام، وجثا بركبتيه أمام الصليب يصلي قائلاً:« أيها الأب الأبدي، تلقني، أنا ابنك المحبوب، أنا الذي أقدم لك أضحية من دون مكان، من أجل خلاص بني البشر، ومن أجل الاعفاء من الذنوب»، وعندما أكمل كلامه هذا، كان جاهزا لتسليم نفسه إلى أيدي صالبيه، الذين ألقوه أرضاً فوق الصليب، ومددوه بقسوة ووحشية فوقه، ولدى رؤية أمه الحزينة جداً لهذا، ركضت وجلبت منديلاً لتغطية وسط ابنها، الذي بوساطته بقي مغطى، والمكان الذي وقفت فيه العذراء المباركة مع يوحنا، قد كان عند أسفل الصليب على مقربة من هذا المكان، مع أن المدخل إليه هو خارج الكنيسة، وذلك حسبما سنوضح ذلك ونبينه في موضعه، وهذا في ذهني أيضاً برهان على أن تسمير المسيح على الصليب كان في الأسفل، وأنه رفع فوق الصخرة مع الصليب، وسط السخرية الصاخبة لليهود.

وبعدما قبلنا المكان الذي أعتقد أن المسيح قد ضرب بالمسامير فوق الصليب، عليه، مضينا في طريقنا نحو مذبح قد بني في مواجه صخرة

أكرا، حيث رأينا على جهته اليمنى الصدع في الصخرة، الذي امتدّ من قمتها حتى الأرض تماماً، وتبعاً لعدد كبير من المصادر الموثوقة، توفي آدم، أبونا الأول، في هذا المكان، وفيه دفن، ولايوجد بهذا تناقض مع ماقيل في الاصحاح الرابع عشر من سفر يشوع، من أن آدم قد دفن في حبرون مع أبناء عناق، أي مع العماليق، لأنه قد قيل في ذيل أخبار الأيام، بأن آدم قد مات ودفن على جبل أكرا، وأنه فيما بعد جرى نقل جسده — باستثناء رأسه— إلى حبرون، إلى الكهف المزدوج هناك، فقد تمّ العثور على رأس آدم، بعد ذلك بمدة طويلة، على جبل أكرا، ولهذا السبب اعتاد الرسامون على رسم جمجمة بشرية عند أسفل الصليب، ولهذا أعلن أمبروز، وأثناسيوس وخريسوتوم Chry-sostom، وجيروم في رسالته إلى مرسيلا، وفي أماكن أخرى كثيرة، والحاخامات اليهود، أعلنوا أن آدم قد أذنب هنا، وقد دفن هنا، من أجل أن يتمكن المسيح من عرض جسده في المكان الذي فسد فيه الجنس البشري، ولكي يمكن للصلاح أن يقوم من المكان الذي فيه بذر الفساد، وهذا ماقاله في الغالب أنطونيوس والقديس جيروم أيضاً، علماً بأنه قال في مكان آخر بأن القول بأن آدم قد دفن هنا هو قول ناعم، وقصد بذلك، قول قيل لإرضاء الأذن.

وهكذا قبلنا مكان تصدع الصخرة، ومكان دفن أبينا آدم.

علاوة على هذا، يقول المسيحيون الشرقيون بأنه في هذا المكان جرى دفن ملكيصادق، الكاهن الأول للقدس، الذي قرأنا عنه في الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين، وفي المزمور المائة وعشرة، غير أن هذا لم يتم تلقيه من قبل الكنيسة اللاتينية والغربية، وذلك بسبب كلمات الرسول في الاصحاح السابع من الرسالة إلى العبرانيين، حيث قيل هناك بأنه لم يكن لملكيصادق أب، ولاأم، ولانسب، ولابداية لأيامه، أو نهاية لحياته، ولابد أن المقصد من هذا هو القول بأن ملكيصادق لم يلد ولم

يمت، وأنه وجد من دون أبوين، وذلك حسبما يُعلن هراطقة ملكيصادق، الذين يقولون بأنه لم يكن انسانا مثل... بل ينبغي أن يؤخذ ذلك ليعني في الحقيقة أنه كان له والدين، وبداية لحياته ونهاية لها، ولكن ما انسان يمكنه أن يكتشف ذلك، لأنه كان نموذجاً للكهنوتية الدائمة للمسيح.

ولهذا ندد جيروم بعنف وبشكل رائع حمل في رسالته إلى ايفاجروس Evagrius ضد الذين قالوا بأن ملكيصادق لم يكن انسانا، بل ابنا للرب أو ملاكاً، والذين يرون هذا هم بنظر الكنيسة هراطقة ملكيصادقيين.

ودفن في هذه البيعة الملوك اللاتين، الذين تمكنوا بشجاعة كبيرة، وبجهود هائلة، من استرداد الأرض المقدسة وإعادتها إلى أيدي المسيحيين واستولوا عليها، وهددوا المسلمين وضايقوهم إلى أقصى الحدود، لذلك إنه لأمر مدهش أن المسلمين لم يهدموا الكنيسة بسبب وجود أجسادهم، والملوك الذين دفنوا هناك هم التالية أسماؤهم: أولاً: غودفري أوف بولليون، دوق اللورين، الذي انتخب في سنة ١٠٩٦ لتجسيد ربنا ملكاً على القدس، وكان ذلك بعد الاستيلاء عليها، وجرى انتخابه من قبل جميع أمراء الغرب، وقد دفن بعد موته في كنيسة الضريح المقدس، والثاني: الملك بلدوين الأول، والثالث: الملك بلدوين الثاني، والرابع: فولك، والخامس بلدوين الثالث، والسادس: عموري، والسابع: بلدوين الرابع، والثامن: بلدوين الخامس، والتاسع: غي، والملك الأخير هذا كان جبانا، وقد أهمل المدينة المقدسة، ومملكة القدس، وضده ثار اللورد برتراند (ريموند الثالث) كونت طرابلس، مع أنه كان أيضاً كاثوليكي.

وكان الملك غي ملكاً قويا، ولم يكن بامكان برتراند غلبته اعتماداً على الوسائل والامكانات الخاصة لشعبه، ولذلك استنجد بالسلطان ملك

مصر، واستدعاه لمساعدته ضـد ملك القدس، وأقام تحالفاً مع المسلمين، وبذلك تغلبـوا على غي، ولكن المسلمين والشعـوب الكـافـرة، رأوا الشقاق في المملكة، وأن الصليبيين كانوا منقسمين بين أنفسهم، فجمعوا أنفسهم، واتحدوا مع بعضهم، فـاستـولوا على المدينة المقـدسـة، ومنهـا طردوا الصليبيين، وبالنتيجة فقد الصليبيون الأرض المقـدسة كلها، وقد حكم الملوك الذين تقـدم ذكـرهم في القدس ثمانيـة وثمانين سنة وتسعـة عشر يوماً، وزالت مملكتهم من الوجود، وألحقت بمملكة مصر، كما هو حالها في هذه الأيام.

وانظر إلى أي مدى استطردت وتجولت بعيداً عـن موضوعي، لكنني سـوف أعود الآن إليـه: إن البيعة المتقـدم ذكـرها، والتي هي تحت جبل أكـرا، هـي ملك للمسيحيين النوبة، الذين يمارسـون طقـوسهـم فيهـا، ويقـولون بأن الملك ملكيـور، الذي كان واحـداً من المجـوس (الحكماء) الثلاثة، الذين قـرأنا عنهم في الاصحاح الثـاني من انجيل القديس متى، كان ملك النوبة، وأنه عندما قدم مـن النوبة، وبات قريباً من القدس، لم يدخل إلى المدينة، بل استقبل وأنزل على مقربة من جبل أكرا، وعلى هذا فإن هذا الموضع قـد جـرى تعيينه لهم منذ العصـور القـديمـة. وعندمـا فرغنا من قداس المسيرة، وتلقينا غفرانات، غادرنا هذه البيعة.

المكان الذي جرى تحنيط جسد المسيح فيه ولفه بأقمشة كتانية

وبعدما خرجنا من تلك البيعـة، ومشينا نحو الأمام تسع خطوات في مسيرتنا، ونحن نغني تـرنيمـة آلام المسيح Pange lingua gloriosi proelian certaminis ،وصلنا إلى مكـان ممدد فيـه على أرض الكنيسة حجـرة سوداء محلاة ببعض النقط الحمراء، وهي حجـرة كانت مصقـولة بشكل جيـد، ويقال بأنها كـانت مـوجـودة هناك منذ أيام آلام المسيح، وكـانت ملاصقـة لضريح يوسف الرامي، لأن اليهـود يغسلون مـوتاهم، ويمددون الجسـد على منضـدة إما من الخشب أو من الحجـر،

وهناك كانوا يقـومون بأعمال طقوس الغسيل المعتـادة، والتحنيط، وكان هذا الضريح قد نحته يوسف لنفســه من الصخرة في ذلك المكان، ومثل ذلك تدبر أمر صقل منضدة رخامية من أجله، حتى يمكن غسل جسده عليها وتحنيطه.

لكن بما أنه تخلى عــن ضريحه للمسيح، فعل الشيء نفســـه وتخلى عن حجرة غسله وتحنيطه، ولذلك عندما قام يوسف ونيقوديموس، والذين ساعدوهما بفك جسـد المسيح من على الصليب، حملوه إلى هنا، ومددوه عارياً على هذه الحجـرة المقدسة، حيث حنطاه، ودهنا جـروحه بالمراهم، ولفاه بأقمشة كتانية، وفي أثناء طقـوس الجنازة كانت مريم المجيدة جداً، والفـائقـة الحزن، حـاضرة، وجـالســة ممسكة الرأس المجـروح لابنهـا، ومحتضنة له، ورابطة له بمنـديل، في حين كـانت مـريم المجـدليـة تتـولى بعناية فـائقـة دهن القــدمين المقـدسين، اللذين دهنتهما مـرة في الحيـاة، وبمقتضيات العمل، قلبـوا جسده الثمين جداً فـوق الحجرة، وعلى هذه الحجرة الفائقة القداسة، وقفت —للأسف— وأنا جاهل، وذلك حسبما تحدثت من قبـل في ص٤٦٤، وتحلقنا بأنفسنا من حــول هذه الحجــرة ونحن على شكل رتل، وعندما فرغنـا من الغناء، قمنا واحداً تلو الآخر بالجثـو على ركبنـا، وقبلناها، وتلقينا غفـرانات مطلقــة(++)، فمن هذا المكان حملوا جســد الرب إلى الضريح، الذي كـان يبعد حـوالي الخمسين خطوة عنهـــا، وفـوق هذا المكان هناك حبل ممتــد من الجدار الأول إلى الجدار الآخر، وعليه جرى تعليق عدد كبير من المصابيح المشتعلة، وبعد المسيرة مدّوا لوحاً فوق هذه الحجرة، وأقام هناك كل من رغب قداساً.

المكان الذي قيل بأن فيه نقطة مركز العالم كله

وعندما فرغنا من زيارة جميع الأماكن المقدسة، وذلك قبل دخولنا إلى ضريح الرب، مشينا في المسيرة، منحـرفين جــانبـاً ومبتعـدين عن الممـر الذي حمل عبره جســد الرب يســـوع إلى الضريح، ودخلنا إلى كنيســة

الجلجة، التي هي سـدة المبنى كله، ووصلنا هنا إلى وسط السـدة، فوقفنا وتحلقنا من حول حجرة مستديرة، ومرتفعـة قليلاً فوق حجارة الأرضية الأخـرى، ويوجـد في الوسط هناك حفـرة مستـديرة يمكن لإنسـان أن يضع فيهـا قبضتــه، أي مجمع كف يده، ولقـد قـالـوا بأن هذه الحجـرة موجـودة في النقطة المركزية للعالم كله، ويقول المسيحيـون الشرقيون بأن الرب يسوع وقـف هنا مع حوارييـه، قبل آلامه، وأشار إلى هـذه البقعة باصبعه وقال:«انتبهوا، هنا وسط العالم»، وأيضاً تحدثنا التواريخ القديمة وتخبرنا أنه قبل بناء هذا الهيكل، كان مقاماً في هذا الموضع عمود طويل، من الرخـام، وقد أقيم من قبل الفـلاسفة، فهذا العمـود لايلقي ظلاً في منتصف النهار أثناء الاعتدال الصيفي، لأن الشمس تقف فوقه مباشرة، ورغب أحـد الفـرسان من الحجـاج، وكـان من جمـاعتي في البرهنة على هذا بالتجـربة، وبعدمـا حصــل على إذن من السيـــد ســـاباثيتـانكو SabaThyTanco ،الذي كـان مـدير المشفـى، والذي يعـرف باسم كالينوس الأكبر، صعد مع بعض من رفاقه فوق السقف المقنطر للسدة، وكان عالياً جداً، ويمتلك درجاً يمكن للانسان أن يصعد عليه، ويوجد على أعلى نقطة من السقف مكان مرتفـع، بني من الحجارة بشكل بارع، يمكن للانسان أن يقف عليه من دون خوف، وأن ينظر من حوله، وإلى هذا المكان صعــد ذلك الفـارس في منتصف النهــار، ليرى هل سيلقي جسده أياً من الظلال، وقد أعلن إلينا أنـه بالحقيقة لم ير ظلاً صادراً عن جسده، لأنه وقف مباشرة فـوق ذلك المكان الذي وقفنا من حوله، لأن القبة قد بنيت لتقف فوق ذلك المكان، من أجل أن تتم التجارب هناك.

غير أنني لا أرى الأمـــر صحيحـــا، في أن الشمس وهـي تشع في منتصف النهـار بشكل مباشر فـوق رؤوس الناس، وأجسـادهم لاتلقي أي ظل، أن في ذلك أي صدق وبرهان مؤكد على أن البقعة التي يحدث هذا فيها هي مركز العالم، لأنني قرأت في عدد من الكتب حول كثير من

الأماكن التي لاتلقي فيها أجساد ظلالاً في أوقات محددة، من ذلك ماأخبرنا به ديونيسيوس Dionysius في كتابه الثالث من «العصور القديمة» عن أمور من هذا القبيل، في جزيرة قائمة في المحيط باتجاه الجنوب، حيث مامن شيء مهما كان يلقي أي ظل، لأن الشمس تقف فوق رأسه مباشرة، علماً بأن هذه الجزيرة بعيدة كثيراً عن القدس، وكذلك فعل بطرس ألبانو التوفيقي (كاتب معروف من العصور الوسطى) في كتابه حول التعلم الخ، ص٦٧، حيث قال بأن الشيء نفسه كان يحدث في مدينة أثينا، حيث برهن عليه شخصيا بالتجربة.

وفي مدينة سين Syene (أسوان) أيضاً على النيل، قيل بأن الشيء نفسه يحدث عندما تكون الشمس في المدار الاستوائي في الصيف، وحدد بطليموس أيضاً في خريطتيه الثالثة والرابعة عن أفريقيا عدداً من المناطق تقف فيها شمس منتصف النهار مباشرة فوق الرأس، وأكثر من هذا، وضعت علامات فوق الخريطة نفسها على أماكن، تقف فيها الشمس مرتين في السنة فوق الرأس، دون إلقاء أي ظل، وعلى سبيل المثال، هناك أماكن كثيرة في آسيا، حسبما يمكن رؤية ذلك في الخرائط السادسة، وفي التاسعة، وفي العاشرة، وفي الحادية عشرة، وفي الثانية عشرة، ومعروف بشكل جيد أن هذه الأماكن ليست في وسط العالم، ويرى بعضهم بأن إحدى الجزر هي منتصف العالم، وفي هذه الجزيرة لاتلقي شمس الظهيرة دوما ظلالاً.

والذي —على كل حال— يراه العامة هو أن أي مكان هو منتصف العالم، لأنهم يعتقدون بأن بني البشر منتشرين حول العالم أجمع، ويقفون بأقدامهم على الاتجاه المعاكس لاتجاهنا، وعلى هذا لكل انسان ذروته، وكل انسان يسير بقدميه فوق ماهو بالنسبة له وسط الكرة الأرضية أو العالم، لكن أوغسطين في مؤلفه «مدينة الرب» —الكتاب السادس عشر، الفصل التاسع، أنكر كليا وجود أي أماكن مقابلة، لأنه لا

الكتابات المقدسة، ولا التاريخ، ولا التجارب، علمتنا الاعتقاد بهم، وأنه من المستحيل الوصول إلى الطرف الآخر من الكرة الأرضية، بسبب اتساع امتداد المحيط، الذي من غير الممكن بالنسبة لأي سفينة أن تقطعه، وانظر حول هذه المسائل الفصل العاشر من الكتاب السابع من «Speculum Naturae».

لكن الحقيقة المنزهة للكتابات المقدسة، تبرهن بشواهدها بأن القدس هي في وسط العالم، وعلى كل حال يقول عدد كبير من الناس بأن القدس هي في الحقيقة في وسط العالم المسكون، لكنها ليست في وسط المساحة الكلية للعالم، ولكن بشأن أي من هذه الآراء هوالصحيح، علينا أن نصدق الكتابات المقدسة التي تعلن بأن القدس قائمة في وسط الأرض، وأن مخلصنا قام بتخليصنا في وسط الأرض، وبناء عليه نجد في المقام الأول حزقيال يقول في اصحاحه الخامس:«هذه القدس، في وسط الشعوب قد أقمتها وحواليها الأراضي»، وثانيا نحن نقرأ في المزمور الرابع والسبعين:« قد صنع خلاصه في وسط الأرض»، ولذلك قال هيلاريوس Hilarius «كان المكان الذي وقف فيه الصليب هو نقطة مركز العالم، من أجل أن يتمكن جميع الناس من الحصول على فرص متساوية في الحصول على معرفة الرب»، لأن المكان الذي أقيم فيه الصليب، والصخرة، قائمان إلى يمين هذه النقطة المركزية، ومنها يوجد باب إلى السدة، يقود صعوداً إلى جبل أكرا، ومثلما المسيح هو الشخص المركزي في التثليث، والوسيط بين الرب والانسان، وبما أنه يشغل المركز الوسط في مشروع خلاص العالم، على هذا الأساس اختار النقطة المركزية من العالم لإقامة صليبه فيها، وهناك كما يبدو إشارة لهذا في الاصحاح الثاني من سفر التكوين قوله:«وشجرة الحياة في وسط الجنة»، الذي يعني أن «صليب المسيح في وسط العالم»، علاوة على هذا جاء في سفر التثنية:٧/ ٢١ قوله:«الرب إلهك في وسطك»، وعن كنيسة الضريح

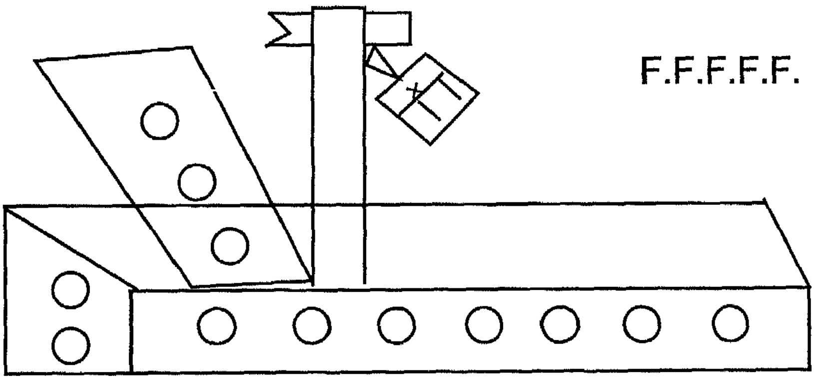
المقدس قال في سفر اللاويين: ٢٦/ ١١ :«سوف أقيم خيمة عهدي في وسطكم»، الذي يعني:« سوف أقيم هيكل ضريحي في وسط العالم».

ولهذا شعرنا في هذا المكان بسرور، وببهجة فائقة جداً، لأننا جئنا من أقصى أجزاء الأرض إلى وسطها سليمين وأصحاء، وبعدما قدمنا الحمد والشكر للرب تلقينا غفرانات(+).

المكان الذي رأت فيه النساء المقدسات الحجر وقد دحرج من على الضريح

وعندما غادرنا هذا المكان، وتركنا كنيسة الجلجلة، مررنا مجدداً خارجين من خلال الباب الذي دخلنا منه إلى كنيسة الضريح المقدس، ووصلنا إلى المكان الذي، عندما قدمت المريمات الثلاث، لتحنيط يسوع، رأوا الحجرة قد دحرت من على فم الضريح، وهي الحجرة التي كن قلقات حولها، عندما كن على طريقهن، حيث قلن:«من الذي سوف يدحرج الحجرة من على فم الضريح لنا»؟ وعندما نظرن شاهدنها وقد تدحرجت، ودخلنا إلى هذا المكان وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وقبلناها، وتلقينا غفرانات(+).

ليكن ملاحظاً، أنه حيثما وجدت هذه الصورة، أو نموذج الضريح المقدس، ومهما كان عدد المرات التي ستجدها فيه كثيراً، لتعلم بقدر



هذه المرات، بأنني راقبت من خلال الليل كنيسة الضريح المقدس، أثناء حجي الثاني، وأنني أمضيت أثناء حجي الأول ثلاث ليال فيها.

كيف جاء الحجاج إلى الضريح الأعظم قداسة للرب يسوع

انهضوا الآن، وقوموا موالي وإخواني الحجاج، وتقدموا مسرعين، وأسرعوا الخطوات لكن لاتقدموا إلاّ وأنتم مستبشرين، ضعوا جانبا كل الأحزان، وامسحوا الدموع من عيونكم، وغنوا جميعاً مع بعضكم أغنية الفصح الجميلة «المجد»، لأنه بعد سبوت اليهود المظلمة، أشع ضوء لطيف على العالم من الضريح القذر والمظلم، الذي نحن على وشك الدخول إليه، ذلك أن العالم تلقى ضوءاً أكثر اشعاعاً من الضوء الصادر عن الأجرام المشعة لقبة السماء، أقبلوا على هذا ببهجة وحمد، وألقوا نظرة على المكان الذي مدّد فيه الرب، وانظروا إلى نهاية حجكم.

وبناء عليه شرع هنا قائد الجوقة يغني بصوت طيب مسرور، ترنيمة الفصح Ad coenam agni providi، الخ، وسرنا نحن في رتل ونحن نغنيها، ووصلنا إلى الضريح الأعلى مكانة العائد للرب يسوع وغنينا قبل ذلك ترانيم فصحنا مع ترداد كبير لعبارة «المجد»، مع سرور عظيم، أو بالحري مع بهجة أعظم مما شعرنا به قط في أي عيد فصح بعد صيام كبير مرهق.

ذلك أننا شعرنا بالألم من أجل ربنا يسوع، ونحن على جبل أكرا، وذرفنا الدموع، لكننا هنا نشعر بالغبطة مع مخلصنا، ونقدم له دموع الفرح الجميلة، وأغاني حية، وهكذا دواليك، لأن مخلصنا يسوع بعد دموعه، وحزنه، وبعد السخرية منه، وجلده، وبعد كؤوسه من الخل والمرّ، وبعد عذابه، وجراحه فوق الصليب، وبعد موته المرعب نفسه، وبعد دفنه المحزن والمؤلم، وبعدما نزل إلى الظلال الدائمة للجحيم، وبعدما حطم الحواجز الحديدية، وبعدما ربط أمير الظلام، وأطلق

سراح جميع البطارقة النخبة، قام مجيداً، ومنتصراً من قبره هذا الذي ننظر إليـه الآن، ومن هذا الكهف المظلم أشع ضـوء لامع، اندفع باشعـاع براق، براق كأنه الثلـج ببياضـه، وهناك حل سـلام مبارك لانظير له، وهناك قـدّم سروراً عظيماً، وهناك انتشر خـلاص عظيم جعل الأرض، والبحـر، والسماء تبتهج مع بعضهـا بعضـاً، ففي هـذا الضريح، وهذا الكوخ الصغير، جدد النسر شبـابه، وأقام الأسد أشباله، وجـدد العنقاء حياته، وخرج يونان دون أن يصـاب بالأذى من جوف الحوت، وتغطى الشمعـدان بالذهب، وأقيمت مجدداً خيمـة عهد داوود التي كـانت قـد سقطت، وأشرقت الشمس بعـدمـا كـانت خلف الغيـوم، وأصبح قمح الطحين، الذي سقط إلى الأرض، ومـات، رشيقـاً، وقـويـت سـوقـه وأعطت سنابلهـا، وحمل شمشوم الأبواب بعيـداً، واقتحم وشق طريقـه بين الحراس، وعاد يوسف من السجن، وهو حليق، مرتدياً بأبهة، وصار سيـداً لمصر، وجـرى تمزيق أثمال يســوع المسيح، وارتدى بسرور، وإلى جانب هذا كله، هنا انتهى حجنـا المرهق، وانتهت جولاتنا، ووصلنا إلى الراحة.(١١٩ـــو).

وهنا على هذا أرجوكم، دعونا نضع جانبـاً مشاعر تفجعنا وخشوعنا الحزين، وسحب أحـزاننا، ودعـونا نتنفس بسرور، وعلى الـذين تبعـوا مخلصنا إلى قبره مع الأسى المشاركة الآن في بهجة قيامته المجيدة، هلموا، بعـد هذا كله، واجمعوا أنفسكم، فـرساناً وحجـاجاً لطفـاء، وادخلوا إلى الضريح الأعظم قـداسة، وانظروا بأعينكـم،واشعروا بأيديكم، والمسـوا بأفواهكم المكان الذي تمدد فيه الرب.

وهكذا دخلنا ونحن نشعر بالسرور، واحـداً بعد الآخر، إلى الضريح الثمين جداً، والعـائد للرب يسوع، وقبلنا النعش الأكثر قـداسة، وتلقينا غفـراناً كـامـلاً ومطلقـاً(++) من كـل الذنوب، وشعـرنا هنا ـــوالحق يقال ـــ بسرور خاص، أعظم مما شعرنا به في الأماكن المقدسة الأخرى.

وعلى هذا قال القديس برنارد في الاصحاح الثاني من قداسه لفرسان الداوية، بأن الضريح المقدس هو المكان الأسمى بين الأماكن المقدسة والمرغوب بها، ويتكون هناك شعور أعظم بالخشوع، لأن هناك المكان الذي تمدد فيه ليستريح، ومشاعر الخشوع التي تحرك الانسان هناك هي الأعظم تحريكاً في حياته، وهكذا فإن تذكرنا لموته يثير شفقتنا أكثر من تذكر حياته، وافترض أن سبب ذلك هو أن موته كان وحشيا، بينما كانت حياته بالمقارنة أكثر لطفاً، ولأن ضعفنا البشري يجذبه الميل نحو النوم أكثر مما يجذبه تعب الحياة بين الناس، والانسان ينجذب نحو الخلاص من الموت أكثر من انجذابه نحو الحياة المستقيمة، وبالنسبة لي إن حياة المسيح قانون لحياتي، وخلاص من الموت، وتلقينا هنا انتعاش روحي، وغفرانات، وخرجنا مع الحبور والحمد، وبذلك انتهت مسيرتنا ساعة واحدة قبل منتصف الليل. (سوف يأتي وصف الضريح المقدس في ص٥٠٣ ظ).

وبعد انتهاء المسيرة، تجمع الحجاج إلى فئات حسب تعدد جماعاتهم، وكان ذلك في مختلف زوايا الكنيسة، وكانت كل جماعة جالسة في مكانها الخاص بها، ذلك أننا كنا متعبين، ومصابين بالانهاك، وقد تناولنا وجبة طعام سريعة، وبعدما أكلنا. سندنا رؤوسنا إلى الجدار لننال راحة قصيرة، وتمددنا نائمين فوق الأرض، ونمت أنا شخصياً مع رهبان جبل صهيون في بيعة العذراء المباركة، الذين منحوني مكاناً هادئاً للنوم فيه، غير أنني لم أستطع أن أغمض عيني لأنام، ولذلك نهضت على الفور، والتحقت بالمستيقظين في الأماكن المقدسة، لأنه —في الحقيقة— كان القسم الأعظم من الحجاج يتجولون حول جميع الأماكن المقدسة المتقدمة الذكر، وذلك حسبما رغب كل واحد منهم، ومضى كل واحد منهم إلى هنا أو إلى هناك حسبما حركته روح الصلاة، ذلك أنه كان من الممكن للحاج أن يدخل إلى الضريح المقدس، أو أن يصعد إلى جبل

أكـرا، أو أن ينزل إلى بيعـة اكتشـاف الصليب، أو أن يذهب إلى أمـاكن أخرى، وذلك حسب رغبته كل وقت.

وفي هذه الزيارات الفردية إلى الأماكن المقدسة، يشعر الناس بخشوع أعظم، وتحرر من قيـود الدنيـا، وذلك أكثر مـايكونون فيـه في المسيرات العـامـة، التي يكون فيهـا كثير مـن التـدافع، والفـوضـى، والازعـاج، والغناء، والبكـاء، في حين في هذه الحالة الأخــــرى يكون هنـاك هدوء وسلام.

وفي أثناء تجوالي حول الأماكن المقدسـة للمرة الثانية، نزلت إلى مكان اكتشاف الصليب، وقـرأت هناك صلاتي الليلية، وشعـرت بسرور عارم في ذلك المكان القائم تحت الأرض، لأنه كـان هناك هدوء، وقد ناسبني ذلك لأن جبل أكــرا، وضريح الرب، والأمــاكن الأخــرى في الأعلى، كانت مليئة بحشد متواصل من الحجاج، وكانت هنالك ضجة وصخب عظيم، وفي الوقت نفسـه كـان موالي وخـدمهم يركضـون هنا وهناك في الكنيســة فـوقي، ويفتشــون في كل زاوية، بحثــا عني، كي أستمع إلى اعترافـاتهم، ولم يخمنـوا أنني مـوجـود في ذلـك المكان، ونزلوا أخيراً إلى حيث كنت، واستمعت إليهم هنـاك وأنا جـالس على كـرسي القـديسـة هيلانه، الذي تقدم ذكري له في ص ٤٨١.

حول الخدمات الطقوسية الربانية في الضريح المقدس والطريقة التي كانت تتم بها والنظام هناك

وعندمـا صـار الوقت منتصـف الليل ركض المؤقت حـول الكنيسـة وبيـده لوح خشبي، وأعطى بصــوت مـرتفع جـداً الاشـارة للصلوات الصباحية، وعندمـا سمعت هذا، صعدت على الفور إلى الأعلى، وعينت للذين لم أستمع بعـد إلى اعترافـاتهم، وقتا آخـر سـوف أستمع إليهم به، ودخلت إلى مكان القـداس، الذي كان متصـلاً ببيعة العـذراء المباركـة،

وارتديت هناك ملابسي من أجل القيام بالقداس (لأن هذه الكنيسة مثلها مثل كنيسة بيت لحم، لها امتياز إقامة القداسات فيها، حتى في منتصف الليل)، وعندما بت جاهزاً، تقدمت، ودخلت إلى الضريح الأعظم قداسة والعائد لربنا، حيث توجب عليّ أولاً، تأمين محل لأتلو فيه القداس، دونما مقاطعة، وتمكنت هناك، بكل راحة، من إقامة قداس من أجل قيامة الرب، وبعد القداس، عملت قداسات قرابين، لعدد من النبلاء، في الضريح المقدس نفسه، بإذن من الأب المسؤول، وجاء من بعدي كهنة آخرون، من أجل إقامة قداس، في كل من الضريح المقدس، وفي أماكن أخرى ثلاثة، وذلك حسبما تحدثت في ص٤٦٦، تحت البند السادس.

وكان الصراع الأعظم بين الكهنة حول تلاوة القداس في الضريح المقدس، لاسيما أثناء حضور عدد كبير من الكهنة، ذلك أنهم كانوا يقفون خارج الضريح، وينتظرون الذي يقيم القداس حتى ينتهي، وكان ما أن يغادر المذبح، حتى يندفع نحوه واحد آخر، ويعلوه، ولدى قيام الذي أنهى القداس، بخلع ملابسه الكهنوتية، يتحلق من حوله خمسة أو ستة من الكهنة، أو أكثر، حتى يأخذوا هذه الملابس وتراهم يتجاذبونها، ويستخدمون كلمات عدوانية أحدهم ضد الآخر، ويصلون إلى حد الضراب، ولقد رأيت كهنة يتنازعون على هذه الشاكلة، أحدهم مع الآخر، حتى أن أحدهم غضب من آخر غضباً عظيماً فقال له: «أعطني الرداء الكهنوتي الأبيض»، فرد عليه الآخر من الجانب الآخر قائلاً: «سوف أحتفظ به وأتمسك، لأنك غير جدير بأن تذهب قبلي»، فأجابه الآخر: «إنك غير جدير بإقامة قداس على الاطلاق، وأنا ذاهب قبلك لأنني أفضل منك»، وقد مضيا هكذا وتابعا إلى حد استخدام لغة قاسية وعبارات نابية، ولعنات، وذلك أثناء تجاذب الرداء الكهنوتي، حتى باتا على وشك تمزيقه.

أية حماقة هذه، وأي سوء اندفاع، وانعدام للنظر! والذي آراه أن أناساً يتخاصمون هكذا، لابد أنهم عميان، وخشوعهم خشوع أحمق، وهو مرفوض من قبل الرب والبشر، وكان الأفضل كثيراً بالنسبة لهؤلاء القوم التحلي بالصبر، وضبط النفس، لابل كان الأفضل بالنسبة لهم عدم رؤيتهم مدينة القدس مطلقاً، فذلك أفضل من تورطهم هكذا وخصامهم بشكل أعمى حول الأشياء المقدسة، ولقد عبرت عن أسفي هذا بنشاط بالتعاون مع الرجال العلمانيين الذين كانوا بين الحضور، والذين كانوا ينظرون بدهشة وشماتة كبيرة تجاه هذا المشهد، ولعله صدوراً عن رغبتي بالتقوى لم أشعر بالاهتمام بتلاوة قداس مثلما فعلوا، وكنت بالحري أوثر مغادرة القدس من دون إقامة قداس، مفضلاً ذلك على القتال من أجل مكان.

ومع ذلك حصلت دوماً —في أثناء حجي الأول، وحجي الثاني— على مكان من دون أية خلافات، حتى في البقعة التي كانت مطلوبة أكثر من سواها، ولقد رأيت بعض الآخرين الذين —في الحقيقة— لم يتصارعوا أو يختلفوا، بل اندفعوا مسرعين، ووضعوا أيديهم على الرداء الكهنوتي، وأخذوه لأنفسهم، بوساطة قوة ذاتية صارمة، وتفوق ورهبة إلى حد أن مامن أحد تجرأ على معارضتهم، وأعتقد أن مثل هؤلاء الرجال كانوا أسوأ الكهنة، لابل أكثر سوءاً حتى من الذين نشبت بينهم خلافات، ونشأ هذا كله من الحاجة إلى نظام، بسبب أن القضية غير خاضعة لأي تنظيم، ففي أثناء حجي الأول كان هناك عدد كبير من الكهنة، وقليل من العلمانيين، ولم تكن القضية خاضعة لأية أحكام، لذلك وقعت خلافات كثيرة من هذا القبيل، وفي أثناء حجي الثاني كان هناك عدد قليل من الكهنة، وكثير من العلمانيين، والأب المسؤول الذي كان رجلاً عاقلاً، قد أعدّ كل شيء اعداداً جيداً، ولذلك تم إجراء القداسات بسلام.

وأسباب كون الكهنة متسرعون هكذا، ويتصارع واحدهم مع الآخر من أجل المكان، هي متنوعة، من ذلك أنك تجد أحدهم مصاب بنوبة من الاستغراق بالخشوع، التي يشعر الناس بها في الأماكن المقدسة، والتي تتعاظم إلى حد تتحول فيه إلى غيرة غير ملجومة، لاسيما بين الذين ليس لديهم تعقل أو تقوى، ذلك أن أمثال هؤلاء الناس تجدهم دوماً خائفين بأنهم لن يمنحوا وقتاً من أجل غفران كامل لخشوعهم، وأمر آخر، أن عدداً كبيراً من الكهنة قد نذروا القيام بقداس أو قداسين في الضريح المقدس، وتجدهم يبذلون جهودهم ويصطرعون من أجل وفاء نذورهم، وهناك سبب آخر، هو أن عدداً كبيراً ممن جاء إلى هنا، قد أرسلوا من قبل آخرين، ليس بإمكانهم شخصيا الوفاء بنذور حجهم إلى هنا، وكانوا عندما يرسلون بهؤلاء الناس محلهم، كانوا يعهدون إليهم بقولهم اعملوا ما استطعتم من قداسات في الضريح المقدس، ويفرضون عليهم أداء ايمان كثيرة بفعل ذلك، ويدفعون لهم النفقات، ولهذا نجد هؤلاء الناس خائفين من أن يخفقوا في الوفاء بما تعهدوا به، ولذلك يتعجلون ويتخاصمون، وهناك سبب آخر، هو أنهم يرغبون أن يكونوا قادرين، لدى عودتهم إلى بلادهم، على أن يقول أحدهم صادقاً:«لقد أقمت قداساً في الضريح المقدس»، ويبدو الأمر بالنسبة لأحدهم إذا لم يستطع تحصيل مكان، سيكون ذلك عاراً بالنسبة إليه، وإهانة عليه من أجلها أن يغادر القدس، وهناك سبب آخر أيضاً هو أن بعض الفرسان الذين يكونون حضوراً أحياناً، يعطون كاهناً دوقية لإقامة قداس لهم في الضريح المقدس، ويقوم هؤلاء الكهنة بالتدافع بكل فعالية.

وعلاوة على هذا كله، هناك بعض الكهنة قد جرى تكليفهم من قبل الأساقفة من رؤسائهم بالقيام بعدد كبير من القداسات في الضريح المقدس، وبعضهم كانوا عندما يفارقون الأعزاء عليهم يعدونهم بأنهم سوف يتلون قداساً من أجلهم في ضريح الرب، وتصطرع هذه الفئات

من الناس كلها باندفاع من أجل مكان، وهناك سبب آخر يمكن أن نضيفه، ولعله سبب خرافي، هو أنه قد قيل بأن كل قداس يتلى في ضريح الرب، يتولى بالحقيقة تحرير النفس من العذاب بعد الموت.

والشيء نفسه قد قيل عن قداسات تليت في catacombeفي روما، وخاصة حول نفوس الذين تحرروا بسبب القداسات التي أقامها الكهنة من أجلهم، فالذين يؤمنون بهذا كنت تراهم يتحركون بسرعة مذهلة، ويجرحون أنفسهم، ويعادون إخوانهم، ويسببون الاهانة للرجال العلمانيين في تلهفهم لمساعدة هذه النفوس.

وهناك سبب آخر، هو أن بعضهم يعتقد أن القداسات التي تتلى في الضريح المقدس، هي ذات فائدة أعظم وتأثير لكل من مقيم القداس، وللشخص الآخر، سواء أكان حياً أو ميتاً، مع إمكانية أعظم بالحصول على النعمة.

وسبب آخر نضيفه هو الشره وانعدام الاحترام لدى بعض الناس، الذين يرفضون إعطاء فرصة لأي انسان، بل يتدافعون للحصول على المكان الأول، ذلك أنهم لايعرفون كيف ينتظرون، وهم صابرين.

وهناك سبب آخر، لعله هو السبب الأول، وكذلك الأخير، وهذا السبب هو أن الحجاج يعلمون تماماً أنه غير مسموح لهم بإمضاء أكثر من ثلاث ليال في كنيسة الضريح المقدس، وأنه ليس لديهم وقت لأكثر من ثلاثة قداسات، ولهذا يبذل كل انسان غاية جهده لأن يكون الأول في التمكن من تلاوة قداسه في الضريح المقدس، وتراه لن يعرف الراحة حتى يتلوه، لأنه يخشى من أن لايساعده الوقت مثلما حدث وخان كثيراً من الناس الذين غادروا وهم آسفين لأنهم لم يقيموا قداساً في الضريح المقدس.

وهكذا —كما قلنا من قبل— أقمنا قداساتنا، وعند اشراق الشمس،

ركض الموقت حول أرجاء الكنيسة مع لوحه الخشبي، وأعطى الشارة من أجل إقامة قداس رفيع في الأول والثالث على جبل أكرا، وبناء عليه صعدنا جميعاً إلى الجبل المقدس، وصعد الأب المسؤول مع مرافقيه بثيابهم المقدسة، إلى المذبح، وبدأ قائد الجوقة يرتل قداس الصليب المقدس، مع صلاة Nos autem gloriari، وشاركنا جميعاً في القداس بصوت مرتفع، وبعد القداس تلقى موالي الفرسان وجميع الحجاج العلمانيين القربان بخشوع كبير، واستمرت أعمال القداس حتى الساعة الثامنة في الصباح، وفي اللحظة التي انتهت فيها هذه الأعمال جاء المسلمون لإخراجنا من الكنيسة.

اخراج الحجاج من الضريح المقدس وزيارتهم إلى الأماكن التي هي حول الكنيسة مما ارتبط به نيل الغفران

وبعدما أنهينا طقوسنا وقداساتنا، قدم السادة المسلمون المغاربة، ففتحوا أبواب الكنيسة محدثين بها جلبة عظيمة، من أجل أن نخرج بسرعة أكبر، ولدى سماعنا هذا ارتعبنا، وانزعجنا لافتراقنا، ولابتعادنا عن هذه الأماكن المقدسة الرائعة، وركضنا من مكان مقدس إلى مكان آخر لتقبيلهم، لكن بما أن الحجاج تأخر خروجهم بعملهم هذا، أصبح السادة المغاربة غضابى، ولذلك قرعوا على أبواب الكنيسة بعنف بلغ حداً أن مفاصلها كادت تنكسر، وركضوا هناك، وهم يصرخون بأصوات مرعبة بين الأماكن المقدسة، وساقوا الحجاج وأخرجوهم بالقوة، وقذفوا بكل واحد منا إلى خارج الكنيسة، وذلك باستثناء الحراس المعروفين هناك، وبعدما فرغوا من اخراجنا، أغلقوا أبواب الكنيسة وذهبوا في حال سبيلهم، حيث تركونا في الساحة في الخارج، وهناك هيأنا أنفسنا لزيارة بعض الأماكن المقدسة، على مقربة من الكنيسة.

المكان الذي وقفت فيه العذراء مريم ومعها يوحنا الانجيلي عند أسفل صليب يسوع عندما عهد لكل واحد منهما العناية بالآخر

وأول ماعملناه لدى مغادرتنا لباب الكنيسة، هو أننا انعطفنا نحو اليمين، حيث يوجد في مقابل جدار الكنيسة سلم درجاته من الحجر، وهي تقود صعوداً إلى جبل أكرا، وكان عند قمة هذا السلم فيما مضى جدار من خلاله يمكن للانسان أن يمرّ إلى صخرة أكرا، لكن هذا الباب مغلق الآن عمارة، وذلك من قبل المسلمين، ويوجد تحت هذه الدرجات باب، يدخل منه الانسان إلى بيعة هي في داخل جدران كنيسة الضريح المقدس، لكنها الآن محاطة من داخلها بجدار، وبذلك لايستطيع الانسان الدخول إلى الكنيسة من خلالها، لأن المسلمين عمرّوا بابها الداخلي أيضاً، وفي هذه البيعة يوجد الموضع الذي وقفت فيه مريم العذراء المباركة جداً، وكذلك القديس يوحنا الانجيلي، فقد وقفا تحت الصليب، عند سفح صخرة أكرا، وعندما رآهما الرب يسوع معا، عهد إلى يوحنا العناية بأمه كما عهد لأمه العناية بحوارييه، وانحنينا في هذا المكان المقدس بأنفسنا نحو الأرض، وسجدنا هناك، فتلقينا غفرانات(+).

وهذا المكان ملك للهنود، وهم الذين يتولون قيادة القداسات فيه.

واستدعينا في هذا المكان إلى ذاكرتنا الحزن اللامحدود للعذراء المباركة، لأنها قد عانت هناك من جميع الآلام والأحزان التي من الممكن أن يعاني جسد بشري منها، وكل الوحشيات التي مورست ضد أجساد الشهداء كان هناك بالنسبة إليها ثلاثة أضعافها، أو بالحري لم تكن آلام الشهداء شيئاً محسوباً إذا قورنت بآلامها، والتي خرقت جسدها بلاحدود ووصلت إلى شغاف قلبها الرحيم، وأخبرنا الانجيلي بأنه قد وقف هناك إلى جانب صليب يسوع، مريم أمه، ليس بدون حركة أو انشغال بأمور عابثة، بل كانت مضطربة بعقلها، وكانت تقول بصوت

متألم:«يابني، يامن كنت سعادتي وبهجتي، أنت الآن حزن بالنسبة لي أمضى من حد السيف، آه، كم هو يوم تعيس هذا اليوم بالنسبة لي ذلك، فمن الذي يمكنه أن يشفي جراح أحزاني، أو يقدم العزاء لشقاء أمك التعيسة، وذلك عندما أرى ابني وكأنه مجذوم، فلقد كنت الأحلى بين أبناء الناس، ومع ذلك عوملت كشقي، وعدّوك مع المعتدين، مع أنك الأقدس بين القديسين؟ وفوق آلامي وأحزاني التي لاتحتمل، هو أنني أراك، كما يبدو لي، قد نسيتني، قد نسيت أمك الأرملة، والآن، مع أنك تموت، لم تقل ولاكلمة لي، فإلى أين سوف آخذ نفسي؟ وإلى من سأطير للالتجاء؟ ذلك أنك أنت أبي، وأنت أخي، وأنت مجدي وفخاري، أيها الهاجرلي، إنني أرى ولدي العظيم يتلاشى على الصليب، ولدي الحبيب والغالي، تحدث إليّ، تحدث إلى أمك،، علني أسمع صوتك، فبسماعي لمجرد كلماتك، يمكن أن أكون أكثر صبراً، حتى أتحمل عقوبتي، التي نزلت بي والتي تعذبني من خلال حبي لك، وذلك خشية أن يغشى علي في وسط هذه الآلام التي لاتحتمل، إنني أتوسل إليك، إلى من سوف تعهد بي وتتركني، أنا يتيمتك»؟ فبمثل هذه الكلمات، وكلمات مناحة مماثلة، ناحت العذراء مريم في هذا المكان، وبكت تعاستها وتعاسة ابنها سواء، وهنا عندما شاهد ابنها هذا قال:« ياامرأة هو ذا ابنك»، وأشفقنا على الأم في هذا المكان، مثلما أشفقنا على الابن في جبل أكرا، ولقد كان حبها العميق الذي شعرت به نحو الانجيلي نفسه، أعظم مما شعرت به نحو الآخرين، ذلك أنه وقف إلى جانبها وهو متأثر كثيراً وبعمق، ولم تقف العذراء المباركة ويوحنا مع الآخرين فوق الصخرة، تحت ذراعي الصليب، بل عند سفح الصخرة، مقابل وجه المسيح.

بيعة الملائكة المقدسين ولماذا توجب أن تكون هناك

وبعدما فرغنا من صلواتنا في المكان المتقدم الذكر، عبرنا إلى بيعة

أخرى، مكرسة للملائكة المقدسين، ويتولى اليعاقبة القداسات في هذه البيعة، وجثونا فيها، وتلقينا غفرانات(+).

وتداول أحدنا مع الآخر، إثر ذلك، حول لماذا جرى بناء بيعة للملائكة المقدسين بجوار هذه الكنيسة الأعظم قداسة، وكان الجواب الذي تلقيناه، بأن هذه البيعة قد بنيت بسبب الحماية الفعالة التي مدّها الملائكة إلى هذه الكنيسة، لأنه لولا أن الملائكة يتولون حراسة هذه الكنيسة بشكل دائم، والضريح المقدس بعناية خاصة، لكانت قد دمرت دماراً كلياً من قبل الكفار، علاوة على هذا ينجو الحجاج الذين يقدمون من مناطق واقعة فيها البحار، إلى الضريح المقدس لربنا، ينجون من كثير من المخاطر، ومن المخاوف المميتة، وذلك من خلال حراسة الملائكة، الذين إليهم يعيدون الشكر في هذه البيعة، ويتوسلون بأن يعودوا سعداء ثانية إلى وطنهم، في ظل الرعاية الملائكية السليمة نفسها.

بيعة القديس يوحنا المعمدان

وعبرنا من هذه البيعة إلى بيعة أخرى، مكرسة ليوحنا المعمدان، وهي ملك للجورجيين (الكرج)، وعندما دخلنا إليها انحنينا بأنفسنا للصلاة، وتلقينا غفرانات(+).

وكان عملاً منطقياً تماماً، أن يكون للذي كان هو الأعظم بين الذين ولدتهم النساء، مكاناً ومزاراً إلى جانب الكنيسة الأعظم بين الكنائس كلها، وأيضاً بسبب أن المعمدان الأعظم قداسة قد أشار إلى المسيح باصبعه وقال:«هو ذا حمل الرب الذي يرفع خطية العالم» (يوحنا: ١/ ٣٩)، ونحن نعلم بأن هذا القول قد تمّ الوفاء به في هذه البقعة، حيث عليها قدم نفسه كأضحية ليزيل ذنوب العالم كله، فضلاً عن هذا امتلك المعمدان بيعة هنا، من أجل أن يكون المسلمون ميالون أكثر نحو إبقاء الكنيسة، لأنهم ينظرون إلى معمدان المسيح نظرة احترام عظيمة.

بيعة القديسة مريم المجدلية في ساحة الكنيسة

وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى بيعة أخرى، كانت مكرسة للقديسة مريم المجدلية، وذلك على جهة اليسار (من الساحة) بجوار برج الناقوس، وكانت هذه فيما مضى كنيسة واسعة مع دير للراهبات مرتبط بها، لكن في هذه الأيام الجزء الأعظم منها مهدم، وتقام الطقوس في هذه البيعة من قبل الإغريق، وكان عملاً صحيحاً جداً قيام الآباء الأقدمين للكنيسة ببناء كنيسة للقديسة مريم المجدلية متصلة بكنيسة الضريح المقدس، وهي الكنيسة الأعظم قداسة، لأنه عندما غادر الحواريون هذا المكان، وتركوا الضريح، بقيت مريم المجدلية لوحدها في الحديقة، تمشي نحو الأمام ونحو الخلف وهي (تبحث عن الرب) ولم يكن بإمكانها تحمل مغادرة المكان، والابتعاد عنه، ولعظيم تقواها استحقت أن يكون لديها بيتاً للصلاة هنا، ولكي تبقى مشرفة فوق هذه البقعة بشكل دائم، وتلونا في هذا المكان الصلوات المحددة، وتلقينا غفرانات، وتابعنا سيرنا إلى أماكن مقدسة أخرى.

المكان الذي كان ابراهيم فيه على وشك تقديم ابنه اسحق أضحية

وتقوم البيع الأربع المتقدم ذكرها حول ساحة أو فناء كنيسة الضريح المقدس، ويمكن للانسان الدخول إليهن من الساحة من دون أي صعود أو نزول، وبعدما زرناهن، كما قلنا من قبل، عدنا إلى الجانب الأيمن من الساحة، ومررنا هناك من خلال باب إلى ممر مظلم، وذلك من بين بعض الأبنية القديمة، ولم يكن بامكاننا أن نرى شيئاً هناك مهما كان نوعه، لأن المكان كان مظلماً، ثم إننا كنا قد دخلنا للتو من مكان مضيء بأشعة الشمس إلى ذلك المكان المظلم، وتقدمنا بضع خطوات نحو الأمام، خلال هذا الظلام، ووصلنا إلى درجات حجرية، حيث

صعدنا عليها، فوجدنا زنزانة صغيرة، وعليّة، سكن فيها بعض التعساء من المسيحيين الشرقيين، وقرعنا على الأبواب هناك، ووجدنا شخصاً واحداً هناك، كانت عبدة سوداء صغيرة الحجم متقدمة بالسن، وعندما رأتنا فتحت البيعة لترى من الذي قدم صاعداً إلى هناك، وكانت في الحقيقة بيعة جميلة، مبلطة برخام مصقول ومنوع، وهي قائمة فوق جبل أكرا، على ذلك الجانب الذي وقف الصليب عليه، إنما خارج جدران الكنيسة، وبنيت هذه البيعة حسب آراء العلماء الكاثوليك من أمثال: أوغسطين، وجيروم مع أحبار اليهود، فوق البقعة التي كان ابراهيم على وشك أن يضحي فيها بابنه اسحق، وذلك تنفيذا لأوامر الرب، ويقول بعضهم بأن هذا قد حدث على جبل سعير، أو صيدنايا، ومرة أخرى يقول آخرون بأن هذا قد حدث فوق جبل موريا، وذلك حيث بنى سليمان الهيكل فيما بعد.

لكن روايتنا كاثوليكية أكثر، وأقرب إلى المنطق، والسبب متوفر في النموذج وفي الحقيقة، فهذا مرجح أكثر بالنسبة للمكان بشكل خاص، فحيث لم يوفر ابراهيم ابنه، حسبما قرأنا في الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين، مثل هذا لم يوفر الرب ابنه الحقيقي، بل قدمه من أجلنا جميعاً، كما جاء في الاصحاح الثامن من الرسالة إلى الرومانيين.

وعلى مقربة من هذه البيعة، في خارجها، هناك شجرة زيتون قديمة، قيل بأنها زرعت في المكان الذي أمسك فيه الكبش من قرنيه في الغابة، وهو الكبش الذي نقرأ عنه في الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين، بأن ابراهيم قد ضحى به بدلاً عن ابنه، وبناء عليه انحنينا في تلك البيعة المقدسة، بأنفسنا نحو الأرض، وبعدما قرأنا الصلوات المحددة، تلقينا غفرانات(+).

وعندما تلقينا الغفرانات، تفكرنا بأنفسنا، وتفاعلنا معجبين بطاعة ابراهيم، التي جعلته يقوم من دون أدنى تردد، بطاعة أوامر الرب،

وأبعد عـن نفسه، ماشعـر به نحو ابنـه العزيز جـداً عليه، وكان جـاهزاً للتضحية بابنه الحبيب بيديه، مع أنـه كان ابنه الوحيد، الذي ولد بشكل اعجازي من زوجتـه الشرعية، التي إليهـا أعطي الوعد بانجـاب صبي، ونضيف إلى هذا كله بأنه كان ولداً جيداً، وتقيـاً، ومطيعاً أكثر من سواه وجميلاً، وبصحة جيدة، ونشيطاً.

وعجباً، كم هو مثـل رائع بالفضائل، في أن نتصور في عقـولنا هذين الاثنين، وهما يجهـدان للصعود فـوق هذه البقعـة بالذات، لتنفيذ المهمـة الأصعب، وكــان ابراهيم رجـلاً عجــوزاً، وكـان اسحـق في الخامسـة والعشرين من عمـره، وكانا معـا على استعـداد لإطاعة الرب وحـده في كل شيء، فقــد قــال اسحق:«أنا بين يديك يـا أبي، افعل بي مــاتريده، واربط يدي وقدمي بالحبـال، وإذبحني طالما في ذلك رضى للرب»، أيها الحجاج، إن الذي عليكم تصوره هو ذلك الرجل العجوز المحترم، وقد قـام بتقوى رائعـة، بربط يدي ابنه وقـدميه، ورفع عـاليـا سيفه المجـرد، ليـذبحه به، مـاهذه الطاعة التي لم يسمع بمثلهـا من قبل الأب والابن، وأية تقــوى عميقـة شعــرا بها، لإطاعـة الـرب، آه، لعل أرواح طاعتنا الفـاترة كثيراً، أن ترتفع فـوق هذه البقعـة، وتعـاود البرهنة والتصحيح، والتقـويم، فقــد أنذرنا الرب، وحثنا الأسـاقفــة، وصرخت الكتـابات المقـدســة لنا، وقـدمـت التجـربة البرهان لنا، والنـذر تربطنا، والأمثلة تعلمنا، ومع ذلك مازلنا نأبى الطاعة! وعلى هذا دعـونا، واتركونا ندعو فوق هذه البقعة البطارقة المقدسين بأسمائهم، لعل النعمة تعطى إلينا من الرب.

المكان الذي لقي فيه ملكيصادق ابراهيم مع الخبز والنبيذ

وعندما خرجنا من هناك، اقتـادونا إلى بيعة أخرى، مماثلة بجمالها، قد بنيت فوق المكان الذي التقى فيه ملكيصـادق بابراهيم، وباركه، ووعده من خلال التنبؤ له بأن المسيح سوف يلد من ذريته، ومنحه خبزاً ونبيذاً،

وكـــان ملكيصـــادق كـــاهن الرب العلي الأعلى، وأول ملك للقـــدس، وأعطاه ابراهيم باكورة الفـواكه لديه، وعشر كل مـاكان عنده، وقبلنا في هذا المكان الأرض، وتلقينا غفرانات(+).

وفعلنا أيضـاً ماطلب الرسـول منا أن نفعل في الإصحاح السـابع من الرسالـة إلى الرومانيين (العبرانيين:٧/ ٤) في قوله:« ثم انظـروا ما أعظم هذا الرجل (ملكيصـادق) الذي أعطاه ابراهيم رئيس الآباء عشراً أيضـاً من رأس الغنائم»، ومن أجل ملكيصادق يمكنك قراءة ماتقدم حوله في ص٤٩٣، وعبرنا من تلك الكنيســة، إلى جـدار سـدة الكنيســة، الذي يستدير نحو اليمين، ونحو الأعلى، وعلى هذا كان بامكاننا أن نلقي نظرة على المدينة بالطول وبالعـرض، وكان أيضـاً باستطاعتنا أن نقـدر بشكل جيد المسافة من الباب الذي اقتيد منه الرب يسوع، وهو حامل لصليبه، حتى جبل أكرا.

الساحة القائمة أمام كنيسة الضريح المقدس التي فيها الأماكن المتقدم ذكرها وفيها أيضاً الأماكن التالية

وبعدما شاهدنا ذلك، نزلنا بوساطة الدرجات أنفسهن اللائي صعدنا عليهن، وأصبحنا في ساحة الكنيسة، ورأينـا على مقربة من الباب حجرة في البلاط، قـد انطبعت عليها علامـات قدمي انسـانين، تماماً مثلما يقف انسـان فـوق مصباح من الشمـع الطري، ويضغط بقـدميه فـوقـه، ومن الواضح أن هذه الآثـار لطبعـات الأقـدام لم تصنع فنيـا في الحجـر، بل صنعت بوساطة معجـزة، مع أنه مامن شيء مؤكد معـروف حول ذلك، ولقـد قالوا بأن هذه كـانت طبعات خطوات الرب يسـوع، الذي وقف هناك عند سفح صخـرة أكرا، وهو ينتظـر صلبه، وانحنينا بأنفسنا نحـو الأرض أمام هذه الحجرة، وقبلنا طبعات الأقدام المقدسة.

وذهبنا من هناك في رتل إلى مكان قـريب إلى الطريق خارج السـاحة،

حيث —قد قيل— بأن ربنا، قد وقع وهو يحمل صليبه الثقيل، وقع تحته بسبب إرهاقه، ولارتعابه لدى رؤيته لصخرة أكرا أمامه، وذلك حسبما تحدثنا من قبل في ص٩٢، وهذا المكان المقدس معلم بحجرة، عليها جرى قطع أعداد كبيرة من الصلبان من قبل الحجاج، وبناء عليه قبلنا هذا المكان، وتلقينا غفرانات مطلقة (++).

قصر ملك القدس المجاور للكنيسة

وخرجنا بعد ذلك من الساحة، ومررنا خلال باب موجود على الجهة اليسارية منها، وذلك وأنت تتطلع نحو الكنيسة، في حديقة مزروعة بالبرتقال والرمان، ومضينا من هذه الحديقة صاعدين إلى بيت كبير فيه الكثير من الغرف، وكان يسكن في ذلك البيت — على كل حال— عدد ضئيل من الفقراء الإغريق فقط، مع أن مائة من الناس يمكنهم السكن فيه براحة، لأنه كما قلت من قبل، هو بيت كبير وعظيم، يحتوي على عدد كبير جداً من القاعات المقنطرة، وهو ملاصق للجهة الغربية من كنيسة الضريح المقدس، وملاصقته بلغت حداً أن في القاعة الرئيسية منه نافذة موجودة في جدار كنيسة الضريح المقدس، من خلالها يمكن للانسان أن ينظر إلى ضريح الرب.

وكان هذا البيت فيما مضى مكان سكنى وإقامة ملوك القدس، الذين عاشوا هناك، من أجل أن يكونوا دوماً على مقربة من الضريح الأعظم قداسة، العائد لربنا، وجرت العادة في أيام الملوك اللاتين أن يعطى كل يوم ثلاثة أرغفة من الخبز إلى الحجاج، وعندما استولى السلطان على المدينة المقدسة، وتملكها، حافظ على هذه الصدقة لسنين كثيرة، لكن هذا قد تلاشى الآن كليا، وبطل استخدامه، والإغريق الذين يعيشون في هذا القصر الملكي، يجدون صعوبة بالغة في التمكن من البقاء في حالة فقرهم، والبيت نفسه مهدد بالسقوط والخراب من كل جانب، لابل إن أجزاء كثيرة منه قد تحولت إلى خرائب، هذا ولايوجد أحد يمكنه أن

يتولى ترميمه، أو أن يقوم بإعادة تعمير الأجزاء المهدمة منه، ويسكنه حجاج إغريق عندما يكون أياً منهم في القدس، وهم يطلقون عليه اسم قصر بطريرك الإغريق.

مشفى القديس يوحنا والأماكن المتصلة به والتي تشكل شطراً من المباني

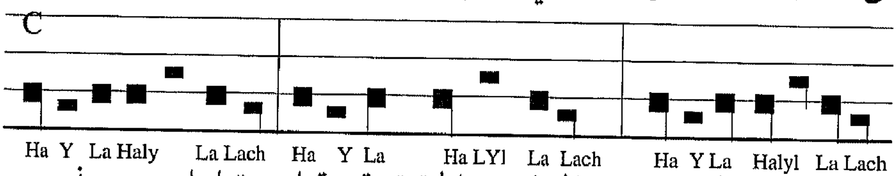
وعندما خرجنا من ذلك البيت، صعدنا إلى مشفى القديس يوحنا، القائم في مقابيله، وهو الذي فيه ينام الحجاج ويأكلون، وبجوار هذا المبنى الذي يقيم فيه الحجاج مؤقتاً، هناك كان فيما مضى قصر كبير، كان مسكناً فخماً للنبلاء من فرسان القديس يوحنا، الذين كانوا أكثر الناس تقوى، وأعظمهم كرماً نحو الحجاج، وجرت العادة أن يدخل إلى المشفى كل واحد من الحجاج، وأن يعطي مديره ماركين بندقيين، وبذلك يصبح بإمكانه شغل حيز فيه من دون جدال مطلقاً، حتى لو بقي في القدس لمدة سنة، وكان ذلك البيت والمشفى واسعاً جداً، وفخماً، إلى حد أنه لو وصل إلى هناك ألف من الحجاج، كل واحد منهم كان سيجد غرفة له من دون ازدحام، فهذا يمكن رؤيته من خلال خرائبه، ومن خلال الجزء الذي مايزال قائماً ومهدماً جزئياً فقط، وهذا الجزء المتبقي متسع بما فيه كفاية لاستيعاب أربعمائة حاج، للعيش فيه.

وفي مقابل المشفى هناك خرائب لجدران واسعة، قد بقيت من بيت فرسان التيوتون، الذي كان الحجاج من النبلاء الألمان يقيمون فيه فيما مضى من أيام، وإلى جانب هذا البيت نفسه كان هناك قاعة أخرى كبيرة، اعتادت النساء الحاجات على الإقامة فيها بشكل مؤقت، ذلك أنه لم يكن مسموحاً لهن بأي حال من الأحوال، أن يعشن مع أزواجهن في البيت الكبير.

هذا وبنى المسلمون إلى جانب المشفى الكبير برجاً عالياً، عظيم

النفقـات، مــزيناً بالرخــام الأبيض المصقـول، وبنوا إلى جــانب البرج (المئذنة) مسجـداً يواجـه كنيسة الضريح المقـدس، ويصرخـون من هذا البرج ويرفعـون أصــواتهم في الليل والنهـار، وذلك وفقــاً لما تقضي به عقيدتهم، والذي أعتقده تماما أن هذا المسجد وهذا البرج قد بنيا صدوراً عن عدم الاحترام للـذي صلب، وبمثابة عمل عـدواني نحو المسيحيين، وإلى جـانب المسجـد، وعند أسفل البرج هناك مـدرسة للأطفـال، فيهـا يتعلم أولاد المسلمين شريعـة محمد (صلى الله عليه وسلـم)، ويصرخون هناك طوال النهار، ويثيرون ضجة عالية جداً.

وفي مناسبـة أخرى عندمـا كنت نازلاً من جبل صهيون وحيـداً، من أجل تلاوة صلواتي في ســاحــة الكنيســة، سمعت الأطفـال يصرخـون فصعدت نحـو باب المدرسة، ونظرت نحـو داخلها، فوجـدت الأطفال جـالسين على الأرض في صفوف، وكـانوا جميعـاً يرددون بشكل جماعي الكلمات نفسهـا بصـوت مرتفع، وكـانوا حـانين لرؤوسهم ولظهـورهم نحو الأسفل، مثلما اعتـاد اليهود أن يفعلوا لدى أدائهـم لصلواتهم، وقد رددوا الكلمات نفسها عـدداً كبيراً من المرات، إلى حد أنني تذكـرت كل من الكلمات واللحن الموسيقي الذي جاء على هذه الشاكلة:



وهذه في الحقيقـة هي المبـادىء الحقيقيـة وقـاعـدة ايمانهم، وهذه هي الأشياء الأولى التي يعطونها إلى أولادهم لتعلمها، ويغرسونها في عقولهم بوســاطـة التكرار المستمـر، ويعلنون على مــآذنهم (أبـراجهم) بشكل متــواصل عن عقيـدتهم، ذلـك حسبما سـوف نرى في ص٩٥ من القسم الثاني، ولديهم مثل ذلك عبارات أخرى يعلمونها إلى أولادهم، لها ألحان مختلفة، وذلك كما سمعت بالغالب.

وإلى جانب المدرسة في داخل المسجد والساحة هناك سجنين عائدين إلى البلدة، فيهما يحبس المجرمون، وهما يشبهان ذريبتان صغيرتان، أو مثل فرنين، ويشكلان بوضعهما عائقاً عظيماً ورعباً للحجاج، وفي الحقيقة غالباً ماحدث لي أنني وأنا ذاهب إلى كنيسة الضريح المقدس لأداء صلواتي أمام باب الكنيسة، كنت إذا مارأيت رجالاً مسلحين واقفين حول هذين السجنين، أقوم بالعودة إلى البيت ثانية، خشية أن يلحقوا بي بعض الأذى، وأنا أعتقد بأن هذين السجنين قد بنيا بالفعل هناك للاساءة إلى الكنيسة والمشفى،. وليكونا مصدر رعب للحجاج.

وهناك من المشفى إلى ساحة الكنيسة طريق قصير جداً، وليس ممنوعاً على الحجاج النزول إلى هناك كم من المرات رغبوا بذلك، مالم يجري منعهم باجتماع الرعاع عند السجنين المتقدمي الذكر، ولم نؤخذ في حجي الأول إلى مشفى القديس يوحنا، بل أخذنا إلى بناء كبير في ميلو، تحت مدينة داوود، ولم يكن بامكاننا النزول إلى كنيسة الضريح المقدس إلاّ تحت حماية بعض المسلمين، والسبب في اسكاننا في مكان آخر غير المشفى، لم أعرفه، والذي أعرفه أنه لسنوات طوال مضت قبلنا، كان يجري انزال الحجاج في ذلك البيت نفسه، لأن جدران القاعات كانت مغطاة برسوم تحتوي على رنوك بعض النبلاء من بلادنا، ومن ذلك عرفت أنهم أقاموا هناك، وليس في مشفى القديس يوحنا، وهذا البيت نفسه كان واسعاً، ويحتوي على كثير من القاعات، وله حديقة جميلة، وهو قائم في ميلو، فيما بين جبل صهيون والقدس.

والآن بعدما فرغنا من زيارة جميع الأماكن المتقدم ذكرها، كما حدثتكم، عدنا جميعاً، كل واحد منا إلى موضعه، فقد ذهب الحجاج العلمانيون من الفرسان إلى مشفى القديس يوحنا، لكن رجال الدين صعدوا برفقة الرهبان الفرنسيسكان إلى جبل صهيون، حيث أكلنا وشربنا، وأرحنا أنفسنا، وهنا انتهى هذا الحج.

وصف ضريح الرب يسوع: كيف كان بالأصل، وماهو شكله في هذه الأيام، الخخ

في عمل أي شيء، طبيعيا واصطناعيا، يبدأون —مع أن لديهم تصور كامل للعمل— بالأجزاء، وأول كل شيء بالأجزاء النبيلة، ثم يتابعون في صنع جزء بعد الآخر، حتى تكون النتيجة، جميع ماعزموا على صنعه، وأعتقد أنه من الأفضل لي أن أسير وفق هذا الترتيب، في عرضي الوصفي لكنيسة الضريح المقدس، التي نويت أن أكتب عنها، وقبل وصفها (ككل) سوف أتولى أولاً وصف أقسامها الرئيسية: أي وصف الضريح المقدس، الذي هو الرأس، والقسم الرئيس في الكنيسة كلها، فمنه نالت الكنيسة كلها اسمها، وسوف أصف بعد ذلك جبل أكرا، الخ.

ومادمت أنا الآن مقبل على تقديم وصف للضريح المقدس، ومع أنها ليست مسألة هامة جداً، مع ذلك لم أجد مصاعب قليلة في أداء هذه المهمة، ومرد ذلك إلى وجود أوصاف كثيرة في الكتب التي صنفت من قبل مختلف الحجاج، ولهذا السبب سوف أكون مسروراً بالقيام بوصف ترتيباته وأوضاعه إلى أخواني الرهبان، وأن أكتب ذلك بوضوح بقدر ما رأيته بعيني، ومع ذلك إن هذا من غير الممكن لأنني لابد سأجد نفسي مضطراً للكتابة عنه أكثر أو أقل مما قد رأيته، وسوف تكون النقاط الرئيسية التي سوف أتحدث عنها هي النقاط الثلاث التالية:

١— ماهو الشكل الذي كان ضريح الرب عليه عندما جرى تمديد جسد الرب فيه؟

٢— ماهو شكل الضريح الذي زرناه وتعبدناه؟

٣— هل هذا الضريح هو نفسه، الذي جرى تمديد جسد المسيح فيه وفي هذا السؤال الثالث تكمن الصعوبة كلها.

وفي معالجة السؤال الأول، لابد من أن تعرف أنه من السهل اعطاء فكرة عما كان عليه شكل الضريح في يوم وفاة المسيح، فكل من رأى الأضرحة القديمة في هذه البلدان، لن يجد صعوبة في هذا المقام، مع أنه من غير الممكن استخراج وصفه بوضوح من كلمات الانجيليين المقدسين، لأن أحاديثهم مختصرة، وموجزة حول هذه المسألة، فقد قال القديس متى في (الاصحاح٢٧):«فأخذ يوسف الجسد ولفه بكتان نقي، ووضعه في قبره الجديد الذي كان قد نحته في الصخرة، ثم دحرج حجراً كبيراً على باب القبر ومضى»، وقال مرقص في (الاصحاح١٥):«فاشترى يوسف كتاناً جيداً، فأنزله وكفنه بالكتان، ووضعه في قبر كان منحوتاً في صخرة، ودحرج حجراً على باب القبر»، وقال في (الاصحاح١٦) عن الحجر الذي دحرجه على باب القبر بأنه:«كان عظيماً جداً، ولما دخلن القبر رأين شاباً جالساً» الخ، وقال لوقا في (الاصحاح٢٣):«وطلب يوسف — جسد يسوع، وأنزله ولفه بكتان ووضعه في قبر منحوت حيث لم يكن أحد وضع قط»، وقال أيضاً في (الاصحاح٢٤):«فوجدن— النساء — الحجر مدحرجاً عن القبر، فدخلن ولم يجدن جسد الرب يسوع» وفي الاصحاح نفسه قوله:«فقام بطرس وركض إلى القبر فانحنى ونظر الأكفان موضوعة وحدها على الأرض»، وذكر يوحنا أكثر من الآخرين، في الاصحاح١٩ وقال:«وكان في الموضع الذي صلب فيه بستان، وفي البستان قبر جديد لم يوضع فيه أحد قط. فهناك وضعا يسوع لسبب استعداد اليهود لأن القبر كان قريباً»، وقال في (الاصحاح٢٠):«فنظرت مريم المجدلية الحجر مرفوعاً عن القبر»، وأخبرت بذلك بطرس ويوحنا الذي «جاء أولاً إلى القبر، وانحنى فنظر الأكفان موضوعة، ولكنه لم يدخل».

وبعد قراءة هذه الروايات، من السهل على الانسان الذي رأى القبور في الأرض المقدسة، أن يفهم كيف كان شكل ضريح الرب، لكنه من

غير المكن أن يكون الآن كما كـان عليه آنـذاك، لأن الكنيسة قـد بنيت فوقـه، وبسبب التزيينات التي سوف نتحدث عنهـا تحت العنوان الثاني، وكــذلك بسبب التغييرات التي لحقـت بالأرض، لأنه فيما مضى كــان هناك مبنى جنائـزي خـارج أسـوار القـدس، لكن السـور بني فيما بعـد ليحيط به، وبنيت عمائـر هناك اتصلت بـه، ولذلك لم يبق شكل الأرض في أي جزء، كما جاء وصفه لدى الانجيليين.

وإذا مـا أردت أن تعـرف كيف كـان شكله بالأصل، تصـور وجـود حديقة خارج سور المدينة وخـارج خندقها، وأنه كان يوجد بين الخندق والحديقـة طريق عـام، له على طرفـه الأول جدار الحديقـة المعمـول من حجارة جافة، ومن الجهة الثـانية السور الخارجي للخندق، أو الصخرة، إذا كـان الخندق كان محيطاً بالصخـرة، كما هو في القـدس، وعلامـة على ذلك تصـور في ذاتك أنه كـان في الحديقـة نفسهـا صخور واقفـة فـوق الأرض في كل مكان، وهـي صخــور كبيرة وصغيرة، وكـــان بين هذه الصخور واحـدة واسعة وعـريضة، وكـانت صماء، غير مقعـرة، منتصبة نحـو الأعلى مثل بيـت صغير، فعلى هذه الصـورة كـانـت الحديقـة التي حـدثنا يوحنا عنهـا، حين ذكـر أنه كانت هنـاك حديقـة على مقـربة من المكان الذي صلب فيه يسوع، لأن يسوع كان قد صلب خارج الحديقة، فوق صخرة الجرف، وعلى هذا كان الطريق العام يفصل فيما بين صخرة الصليب، وجـدار الحجارة الجافـة للحـديقة، وفي الحقيقـة جميع الحدائق القـائمة في أحـواز القدس مليئة بالصخـور، ووجها غير مستـو، بسبب الصخـور المنتصبـة فيهـــا، وبناء عليـه كـان الناس الذيـن كـانت لديهم صخـوراً كبيرة في حـدائقهم، قد اعتـادوا على تجويفهن ونحت أضرحـة فيهن وغرفاً للمـوتى، هذا وإذا كانت الصخرة كبيرة جداً، كـانوا بعدما يفـرغون من نحت غـرفة، كـانوا يقـومون ثانيـة بقطع باب على الطرف الأقصى منها، ويصنعون تجويفـاً آخر، ليدفن فيه بعضـاً من أصدقائهم،

ثم إنهم كانوا بعد ذلك ينحتون غرفة أخرى في الصخرة.

وإذا احتوت الصخـرة على كهف واحد، كانوا يسمـونه كهفاً بسيطاً، وإذا احتوت على اثنين، يسمـونه كهفاً مـزدوجاً، كما قـرأنا في الاصحاح الثـالث والعشرين من سفـر التكوين، من أن ابراهيم قـد اشترى كهفـاً مزدوجاً، وإذا مـا احتوت على ثلاث غرف، كانوا يسمـونه كهفاً ثلاثياً، وإذا أربعـة، كهفاً رباعيـاً، وهكذا، ولقد رأيت في احـدى الحدائق، على مقـربة من الحقل الذي اسمـه حقل الدم كثيراً من الكهوف لها جـدران من الصخـر، كان أحـدها يقـود إلى الآخـر، وكلها منحـوتة واحـد تلو الآخـر من الصخـر الحي، حتـى أنني لم أتجرأ على الذهاب حتى آخـر كهف منهـا، لأنني بعـدما دخلت إلى الكهف الثـالث، ولم يعـد بإمكاني رؤية الضـوء الذي جـاء مـن خـلال باب الكهـف الأول، توقفت وأنا خـائف من الظلام، لأنه بالحقيقة، إذا مـا دخل انسان إلى هذه الكهـوف من الممكن أن يضيع نفسـه، ولايعـود قادراً على العثـور على طريقـه إلى الخارج، لأن الأقدمين قـد نجروا أقبية عميقة في الصخـر، لدفن موتاهـم فيها.

وبناء عليـه، كـان يوسف الرامي، الذي كـان رجلاً جيـداً، وعـادلاً، ومن منبت طيب، وغنيـاً، ومقتـدراً، وحكيماً، قـد اشترى لنفسـه هذه الحديقة على مقـربة من المدينة، وعلى طرف صخرة أكرا، وأمـر بتجويف الصخـرة الصماء التي كانت هناك، إنما عنـدما مـات الرب، تخلى يوسف عن حقـه بهذا المكان، وأعطى كل من الحديقـة والصخـرة إلى المسيح، الذي كـان أول شخص يدفن هناك في الغرفـة الداخلية، فعندمـا أنزلوه من على الصليب، حملوه من صخرة أكرا، عبر جـدار الحجارة الجافة إلى هذه الحديقـة، حيث حنطوا جسـده فـوق حجرة أعـدت لهذا الغـرض، وحملوه إلى الكهف الثاني، لأن الكهف كان مزدوجاً، وكان الباب الأول في الكهف الأول واسعـاً وطويلاً، يقـود إلى وسـط الكهف، ولم يكن

الباب الذي يقود إلى الكهف الثاني مواجهاً للباب الأول، لأنه كان على يسار الانسان الداخل، وكان باباً منخفضاً وصغيراً، وكان على الجانب الأيمن المكان الذي جرى تمديد الرب فيه، وذلك على الطرف الشمالي، لأن النحت هناك مهملاً عن قصد، وبناء عليه كان المنحوت من الصخرة هو مايكفي جسد انسان ممدداً على ظهره، حيث يمكن أن يشغله بالطول وبالعرض، وكان ارتفاع ذلك ثلاثة أشبار ونصف الشبر فوق الأرض.

ولاحظ هنا أن الذين كتبوا عن ضريح الرب، قد ميزوا فيما بين الآبدة والضريح، لأن الآبدة قصد بها الصخرة المجوفة كلها والغرفة كلها، ولكن المقصود بالضريح هو التابوت الحجري أو القبر الذي احتوى على الجسد، هذا ولم تمتلك آبدة الرب على ضريح أو نعش متحرك، بل على ضريح منحوت في الصخرة نفسها، وكان هناك —على كل حال— في الجزء الخارجي مكان مجوف، عمل لتمديد جسد فيه، وهو الجسد الذي وضع في وسط الضريح، وفق طريقة أنه كان مغطى من فوقه بلوح خشبي، ومن تحته قاعدة تركت مرتفعة فوق الأرض، عليها جرى تمديد الجسد، ويبدو أن هذا ما قصده المقدسون من الرجال القدماء، عندما وصفوا ضريح الرب.

وقد نقل مصنف كتاب «التاريخ المقدس» عن بيد المبجل قوله:«كانت آبدة ربنا زنزانة مستديرة، منحوتة من الصخرة، وتحتها، وكان ارتفاعها إلى حد أن انسانا طويلاً قد يلامس قمتها بيده الممدودة، ولها مدخلها على الجانب الشرقي، ووضع في مواجهتها صخرة عظيمة عوضا عن الباب، وفي جانبها الشمالي مكان جسد الرب، وقد نحت من الصخرة نفسها، وطوله سبعة أشبار، وارتفاعه ثلاثة أشبار فوق الأرض، وهو يشبه تابوت حجري وضع فوق قاعدة، والتجويف كان قد نحت في الجدار نفسه مثل التجاويف التي عملت في جدران بيوت

السكن، لتحتوي على أدوات المنزل، والتابوت ليس فوق هذا، بل على الجانب الجنوبي منه، وبناء عليه كانت —حسبما كان وضعها— تجويفاً أو قبراً، موضوعاً على الجانب، وفتحه ليست من الأعلى، بل من الجانب، وقد قيل بأن لون الآبدة والتجويف مزيجاً من الأبيض والأحمر»، وهذا الذي قاله «التاريخ المقدس» المتقدم الذكر، هو الشكل الأصيل لآبدة الرب وضريحه.

وتبدلت هذه الترتيبات من قبل الامبراطور اليوس هدريانوس، الذي أمر ببناء معبد لفينوس على هذه البقعة، وذلك حسبما ذكرنا من قبل في ص٤٨٤، وهو لم يقم بتدمير آبدة الرب، أو صخرة أكرا، بل جرى توجيهه من قبل الرب، فأدخلهما في هيكله، كما هما في هذه الأيام، وقد أظهر احتراماً نحو الموضع من أجل إقامة تمثال لجوبتير في دير ضريح الرب، كما أنه أقام فوق صخرة أكرا تمثالاً لفينوس، فهذا ماقرأناه في رسالة جيروم إلى بولينوس، وفي ظل هذه الوضعية الكافرة والدنسة، بقي المكان المقدس لحوالي مائة وثمانين سنة، لكن في داخل سور المدينة، لأن هادريان المتقدم الذكر قد ملأ الهوة التي كانت بمثابة خندق للمدينة، وبنى سوراً حولها، أدخل بموجبه الهيكل داخل المدينة، كما تحدثنا في ص٤٨٣، وصار المكان منذ ذلك الحين منسيا، وتحول ضريح المسيح إلى معبد ومزار لجوبتير، بينما كانت صخرة أكرا قد تحولت إلى رابية فينوس، وعلى هذا جرى تكريس المكان كله إلى عبادة الشياطين، وامتلأ بآثام الكفار حتى أيام هيلانة المباركة، التي نظفته من معابد الأوثان، وأعادت تكريسة للمسيح الرب.

أوضاع الضريح المقدس في هذه الأيام وماهو شكله

ثانياً: علينا أن نعرف أوضاع الضريح المقدس الآن، من حيث المظهر والشكل، وبالنسبة لهذا الوصف اعتمدت شخصياً فيما يختص بضريح الرب، على الرواية التي كتبها رجل محترم اسمه يوهانس توخر -Jo

hanes Tucher، وكان من أهالي نورمبورغ Nuremburg، وكان قد كتب باللغة الألمانيـة، وقد أمضى أياماً كثيرة في القدس في سنة ١٤٧٩، أي سنة واحـدة قبل زيارتي الأولى، وقـد تفحص ضريح الرب بدقـة متناهية وأخـذ قياساته بيـديه، وقدميه، وذراعيـه وهما ممدودتين، وكانت روايته معـي في القدس، وقد وجـدت جميع ماكتبـه فيما يتعلق بالضريح المقدس صحيحاً، وقـد ترجمتها من اللغة الألمانية إلى الـلاتينية وأقحمتها في كتابي عن رحلاتي وجولاتي، لأنها وصف هو حقاً صحيح، وقد كتب من قبل رجل محترم وصـادق، وخشيـة أن يصعب على أي واحـد فهم استخدامي لـلاصطلاحات المساويـة، ينبغي أن نعرف مقدمـاً أنه في أي مكان استخدم السيـد يوهانس توخـر كلمه Klaftern في كتابه الألماني، وضعت مكانها كلمة «باع Cubit »، ومقياس البـاع كماهو مفهوم هو المسـافة مـابين ذراعي الانسـان وهما ممدودين شروعـاً من نهاية الاصبع الأوسط في اليد الأولى إلى نهايـة الإصبع الأوسط في اليد الثـانية، وحيثما كتب كلمـــة spanne ، وضعت مكانها كلمة «شبر»، ومفهوم هذا القياس هو المسافة عبر الكف الممدود من الابهام حتى البنصر.

وقـد وصف الرجـل المتقـدم الذكـر، أي يوهانس تـوخـر آبدة الرب والضريح كمايلي:« بدت آبدة الـرب من الخارج تشبـه برجـاً منخفضـاً، وليس عالياً، ولهذا البرج اثنتي عشرة زاوية على أطرافه الخارجية، ويقف عند كل زاوية عمود حجـري سداسي، سماكتـه شبر واحد، وتدعم هذه الأعمـدة قنطرة صغيرة فـوق الآبدة، ويبرز من هذه القنطـرة نوع من أنواع الأفاريز، كله مستدير، وهو بارز مقـدار نصف قدم أمام الأعمدة، وقيـاس البناء المستدير كله، مع أعمـدته حوالي الاثني عشر باعـاً كبيراً، وهذا القيـاس يشمـل إطار الآبدة كلهـا من الخارج، لكـن المقيـاس من الداخل هـو أقل بتسعـة أشبـار بالطول، والشيء نفسـه بـالعـرض، والارتفاع من الأرض حتى ذروة القبو المجوف هـو قامة انسان ونصف

القامة.

والضريح أو القبر في داخل الآبدة، موجـود على الجهـة اليمنى من الغرفة الصغيرة، وهو مغطى بألواح مصقـولة من الرخام الأبيض، ومن الممكن إقامة قداس عليه، وعرضـه أربعة أشبار وثلاثة أصباع، ومقياس ارتفاعه من الأرض باليد هو ثلاثـة أشبار وأربعة أصابع، وباب الكهف الذي يدخل الانسان منه، هو أربعـة أشبار ونصف الشبر وثلاثة أصابع من حيث الارتفاع، والجدار — أو الفجوة خـلال الصخرة— هو ثلاثة أشبار من حيث السماكة، وارتفاع الآبدة كلها، أو القاعة، فوق الأرض، مع القنطرة، هو باعين كبيريـن ونصف البـاع، وفـوق السطح المحـدب للقبـو، مبني هيكـل سـداسي الشكل مثل برج، مـع سـتـة أزواج من الأعمدة ارتفاع كل منها باعين، فـوقها يستند سقف الهيكل، بارتفاع باع واحد، والمسافة من سقف هذا الهيكل نحـو الأعلى، مقياسها مباشرة من خلال الهواء حتى الفتحة في سقف الكنيسة، المنفتحة فوق الآبدة، والتي من خـلالها تضـاء الكنيسـة، هو حـوالي سـتـة باعـات، وهذه الفتحـة مستديرة، واتسـاعها هو بقدر البنـاء كله أو الآبدة، إلى حد لو أن الآبدة متحـركـة، ويمكن رفعهـا نحـو الأعلى، لكان مـن الممكن مـرورها من خلال تلك الفتحة.

وعلى هذا من الواضـح تماماً أن آبدة الـرب قـائمـة في الهواء، وتتلقى الأمطار والثلوج من خـلال الفتحـة المتقدمـة الذكـر، والهيكل نفسـه مبني بشكل فني من رخـام مصقـول، وكان فيما مضى مـذهبـاً من الداخل ومن الخارج، وكذلك الأعمدة والسقف سواء، حسبما هو مشاهد في هذه الأيام.

والارتفـاع من أسـاس هذه البيعـة حتى ذروة سقـف الهيكل، فـوق المبنى الأسـاسي هو خمسة باعـات ونصف الباع، في حين إن المسافـة من الأسـاس حتى الفتحة في سقف الكنيسـة هي اثني عشر باعاً، أو أكثـر قليـلاً، وعلاوة على ذلك، وأنت داخل إلى الآبـدة هناك ردهة اتساعهـا

ستة باعات إلاّ شبراً واحداً، والباب الأول إلى البيعة الصغرى (للضريح المقدس) موجود في وسط هذه الردهة، ويبلغ من حيث الارتفاع باعاً واحداً كبيراً وثلاثة أشبار ونصف الشبر، وطول البيعة القائمة قبل كهف القبر —أي الكهف الخارجي— باع واحد ونصف باع، ولها العرض نفسه، وفيها من كل جانب نافذة مربعة صغيرة، ويوجد في هذا الكهف الخارجي نفسه، على بعد ثلاثة أشبار من باب الكهف الداخلي، حجرة مربعة، مرفوعة فوق قاعدة، ومقياسها شبرين ونصف مربع، وقد قيل بأنه فوق هذه الحجرة جلس الملاك بعد قيامة الرب»، وهذه الحجرة هي جزء من الحجرة الكبيرة، التي جرت دحرجتها إلى باب الآبدة، وهي التي ورد ذكرها في ص٥٠٠.

وإليكم الآن هنا وصف آبدة الرب، كما هي قائمة في هذه الأيام، ومن الممكن رؤية صورة الأشياء الموصوفة بالأعين في كتاب الحج الذي كتبه اللورد برنارد فون بريتنباخ Braitenbach، الذي كان رجلاً نبيلاً وبارعاً، وعميداً للكنيسة المطرانية في مينز mainz ، وقد رافقني في حجي الثاني، وقد تدبر أثناء ذلك رسم آبدة الرب بشكل فني، وهذا مافعله مع الأشياء الأخرى، التي سوف يأتي ذكرها في أماكنها، فقد جلب معه رساماً ماهراً، وجيد التعليم، وقد استأجره ليرسم طباع وعادات ومظاهر المدن الرئيسية والأماكن من ميناء البندقية فصاعداً، وقد فعل ذلك ببراعة وبشكل صحيح، وبناء عليه، يمكن لكل من يرغب أن ينظر إلى هذه الصور، ولسوف يفهم بوضوح الوصف المتقدم الذكر.

وآبدة ضريح الرب، قائمة في وسط كنيسة قيامة الرب، مثل الضريح الذي يوضع في الكنيسة، في أولم، في يوم الجمعة الحزينة، غير أن كنيسة الضريح المقدس مستديرة، ومفتوحة من الأعلى، كما سيفهم القارىء.

ويمكن القول بأن الضريح المقدس له ثلاثة مداخل الأول موجود في

الساحة الصغيرة، التي سميتها أنا الكهف الأول، فلهذه الساحة الصغيرة جدار منخفض إلى حد أن انسانا واقفاً فيها، يمكنه أن يستند عليه بمعدته، وينظر إلى الكنيسة من حوله، ولذلك غالباً ماجلست فوق ذلك الجدار، وألقيت نظرة على بضائع التجار التي كانت موضوعة على البلاط في الأسفل، وفي الحقيقة إن المدخل إلى هذه الساحة الصغيرة لايشبه الباب، لأنه لايوجد شيء فوق رأس الذي يدخل إليه، يضاف إلى ذلك هو ليس له أسكفه، بل هو مدخل قائم بين جدارين يواجه أحدهما الآخر، ولوكان هذين الجدارين أعلى، ووضعت أسكفه عبرهما، لكان من الممكن أن يكون هناك بابا.

والباب الثاني هو الذي يقود من الساحة الصغيرة، إلى الكهف الأول في الآبدة نفسها، وهذا الباب مغلق ببوابة، ومقفل بمغاليق، ومفاتيح هذا الباب هي الآن بأيدي الرهبان اللاتين الفرنسيسكان، لكنه كان قبل بضع سنوات مضت في أيدي الجورجيين، والباب الثالث هو الذي يقود من تلك البيعة، أو الكهف الأول، إلى الكهف الثاني، الذي فيه ضريح الرب، وليس في هذا الكهف نافذة، وليس فيه ضوء سوى مايصدر عن تسعة عشر مصباحاً مشتعلين فيه، وهذه المصابيح معلقة فوق ضريح الرب، وبما أن الكهف صغيراً، تعمل نيران المصابيح دخاناً ورائحة قذرة، وهذا يزعج كثيراً الذين يدخلون إلى المكان، ويبقون فيه، وبالإضافة إلى المصابيح، هناك كثير من الشموع المحترقة فوق المذبح، وضعت هناك من قبل الحجاج صدوراً عن مشاعر التقوى، ونتيجة لهذا، وبسبب دخان المصابيح والشموع مع بعضها صار وجه السطح الداخلي أسود بالكامل، مع أن المكان مغلف برخام أبيض مصقول شمل الأرض والجدران والسقف، وفي هذا كفاية.

ما الذي ينبغي أن نفكره حول ضريح الرب، هل هو ضريحه أم ضريح آخر بني بدلاً عنه؟

وينبغي في المقـام الثالـث أن نرى فيها إذا كـانـت هذه الآبدة، وهذا الضريح المتقدم الذكر هو نفسه، الذي فيه جرى تمديد الرب، والذي منه —كما نعتقد— قد قام، وهناك مصاعب كبيرة حول هذه النقطة أكثر مما هو مـوجود حول النقطتين المتقـدمتين، ومن أجل أن نقرر ذلـك سوف أقتبس ماقرأته في كتب الحج القـديمة والحديثة، لأنني لا أرغب، اعتماداً على مسؤوليتي الشخصيـة اتخاذ أي قرار متسرع، يمكنه أن يوقف —أو يضعف— الاحترام الـذي هو منتشر بين النـاس المؤمنين بالمسيـح، تجاه ضريح الرب، عـلاوة على هذا تنبعث هنا مصاعب في هذه القضيـة من الأوصـاف المختلفة والمتناقضـة للضريح المقـدس، والتي كتبت من قبل الأقـدمين والمعـاصرين، وكذلك مـن الأوضاع المتنوعـة لمدينة القـدس، كونها تعرضت مـراراً للدمار، وكذلك نتيجة للتقـوى الكبيرة التي شعر بها الذين زاروا الضريح المقـدس، وبذلوا جهـودهم لأن يحملوا معهم بعض الأجزاء بمثابة آثار مقدسة عظيمة.

وهناك أيضـاً الشكوك التي نجمت عن تغليـف الضريح، لأنه ليس من الـداخل ولا من الخارج، وكـــذلك ليس في الآبـدة، ولا في المكان الذي جـرى تمديد الجسـد فيه، ولاأي من الصخـور أو الحجـارة يمكن رؤيته، بل الجميـع كما تحدثنا من قبل، قد جـرى تغليفه وتغطيته بـرخام أبيض مصقول، الأمر الذي لم يكن أصيـلاً، ودعونا على هذا نرى الذي اعتقده الآخـرون حول هذا الموضوع، ومن ثـم دعونا نتبع الرأي الذي يبدو لنا أكثر احتمالاً.

فقـد قال رجل مقـدس اسمه آركـولف Arculfus، كان قــــد زار الضريح المقـدس، وكان —كما يبـدو لي— في القـدس، منذ زمن طويل مضى قبل أيام الملوك اللاتين، لابل قبل أن يستولي المسلمون على المدينة المقدسة، بعد أيام الامبراطور هرقل، فلقد قال في كتابه:«في وسط القسم الداخلي من الكنيسة المستديرة، هناك قاعة مستديرة، جرى اقتطاعها من

قطعة صخرة واحدة، وفيها يستطيع الناس الوقوف والصلاة، وعلو السقف المقنطر هو حوالي قدم ونصف قدم، فوق رأس انسان ليس صغير القامة، ومدخل هذه القاعة الصغيرة هو نحو الشرق، وجميع الوجه الخارجي فيها مغطى برخام منتخب، والأجزاء العلوية من سقفها، مزينة بالذهب، وتدعم صليباً ذهبياً ليس حجمه صغيراً، وضريح الرب موجود على الجانب الشمالي من هذه القاعة، وهو مقتطع أيضاً من الصخرة نفسها، لكن بلاط القاعة منخفض عن بلاط موضع الضريح.

وهذه القاعة ليست مغطاة من الداخل بأية تزيينات، لكن مرئي على التجويف كله علامات الآلات الحديدية التي صنعها العمال بها، ولون صخرة الآبدة والضريح مزدوج أبيض وأحمر امتزجا معا، وبناء عليه فإن الحجرة نفسها تعطي هذين اللونين، فضلاً عن هذا شكل الضريح المقدس أشبه بمضجع قادر على استيعاب انسان واحد متمدد على ظهره، وهو أشبه بكهف، له فتحة تتطلع نحو الجانب الشمالي من الآبدة من الجانب المقابل، وقد عمل فوقه سقف منخفض معلق فوقه، ويوجد في هذا الضريح اثني عشر مصباحاً، مشتعلاً ليلاً ونهاراً، وهي حسب عدد الحواريين»، ولقد كتب أركولف المتقدم الذكر، بأنه قد رأى هذا ورأى أشياء أخرى كثيرة، ويرينا هذا بأنه قد رأى الأرض المقدسة قبل ألف سنة مضت، وأنا عظيم السرور بهذا الوصف، لأنه يتوافق كثيراً مع الوصف الذي قدمه بيد المبجل، والموجود في ص٥٢٥.

وهناك حاج آخر، كان قد رأى ضريح الرب في سنة ١٢٠٠ لتجسيد ربنا، وقد قال مايلي:«الكهف الذي فيه ضريح الرب مغطى بالرخام في كل مكان من الخارج، لكنه من الداخل صخرة مجردة مثلما كانت في أيام آلام المسيح»، والآن نحن لانعرف عندما قال بأن جميع الجانب الخارجي من الكهف مغطى بالرخام، هل قصد جميع الوجه في كل من

الداخل والخارج، فإذا كان هذا ما عناه، فوقتها كانت أحواله هي نفسها كماهي اليوم، لكنه إذا قصد أن يقول بأن الوجه الخارجي للقسم الخارجي كان مغلفاً بالرخام، وأنه لم يكن هناك شيئا من هذا القبيل في الداخل فوقتها يتوافق وصفه مع الوصف المتقدم، وهذا الذي، كما أعتقد، أنه قصده.

وقال حاج آخر مايلي:« بيعة الضريح المقدس مقنطرة، على شكل نصف دائرة، من دون أية نافذة، وفيها الضريح، المنحوت من صخر أصم، إنما خشية من أن يتشظى من قبل الحجاج، جرى تغليفه بألواح من رخام، وهذه الألواح التي تغطي جزء الواجهة منه، لها ثلاث فتحات، من خلالها من الممكن لمس الصخرة الحقيقية للضريح المقدس وتقبيلها، وهذه الألواح ملصوقة إلى الصخرة ببراعة بلغت حداً أن الانسان قد يعتقد بأن الجميع حجرة واحدة»، وقال هذا الكاتب نفسه:«أعتقد أن مامن كنيسة تحتوي على أي جزء من الصخرة الحقيقية لضريح الرب»، واستطرد يقول:« لأنه لوكان من الممكن حملها ونقلها مع الأيام على شكل قطع وحجارة مطحونة، لكانت نقلت منذ زمن طويل مضى، حتى ولو كانت كبيرة بحجم جبل عظيم»، وقال هذا الرجل نفسه» بأن مامن مصباح مشتعل في الضريح، باستثناء عندما يقيم بعض الحجاج هناك إقامة مؤقتة، فوقتها يدفعون ثمن الزيت».

وهناك حاج آخر، كان موجوداً عند ضريح الرب في سنة ١٤٣٠، وقد ذهب إلى هناك بناء على مبادرة من قبل أحد الكرادلة، ليتفحص هذه المسألة، وقد وصف الضريح المقدس وفق الطريقة نفسها مثلما فعل متقدموه، غير أنه أضاف مايلي حيث قال:«ينبغي أن يوضع في الذهن بأن الآبدة التي بنيت فوق هذه البقعة الأعظم قداسة، هي ليست البقعة التي مُدد فيها بالأصل الجسد الميت للمسيح، لأن الكتاب القدماء قد حدثونا بأن ضريح المسيح قد جرى اقتطاعه من صخرة قاسية واحدة،

وذلك مثل القبور القديمة في هذه البلدان، هذا والضريح الحالي مصنوع من عدد من الحجارة، ليست مـلاطة بشكل بارع، مع بعضها بعضاً، ولم يبق هناك أي جزء من الضريح الحقيقي، بـاستثناء أنه يوجد على الطرف منه، هناك نتوء من جدار البيعـة، هي حجرة بحجم رأس انسان، ولونها أبيض، وارتفـاعها سبعـة أشبـار فوق الأرض، وهي التي يجري تقبيلهـا من قبل الحجـاج، على أنها أثر من الضريح الحقيقي للمسيح». لقد كـان هذا ماقاله.

وقـدم آخـر الحجـاج الذين زاروه روايات متناقضـة عنه في كتبهم، وهكذا حـاول كل واحـد منهم وصف الذي اعتقـد أنه رآه، لأن مـامن أحد تجرأ على مناقضتـه، وقال بعضهم إنه يوجد تحت الألواح الرخـامية صخرة الآبدة، والضريح المقدس مايزال موجوداً بالكامل، وقال آخرون بأن مامن أحـد يعرف بصورة حـاسمة، أو يمكنه أن يؤكـد بأن الموجود تحت الألواح هو الصخرة الحقيقية أو غيرها، وأكد آخرون بوضوح بأنه لم يبق من الصخرة الحقيقيـة ولاحتى قطعة بحجم حبـة دخن، ويقولون بأن مردّ هذا إلى عـدة أسباب، أولها الكراهية التي شعر بها الكفـار نحو المسيحيين، الذين بلغت كراهيتهم للمسيحيين من الحدة إلى درجة تدمير كل شيء يحبه المسيحيون ويحترمونه، وبما أنهم يعرفون بأن ضريح المسيح هو أعظـم أثر محل للتبجيل لدى المسيحيين، فقـد جعلهـم يستشيطون غضباً ضده، ومن ثم دمروه إلى أجزاء.

فضلاً عن هذا، لقـد عرفوا أنه طالما الضريح مـوجود، فإن المسيحيين هم متلهفـون دومـاً لاسترداد مـدينة القـدس، لكن إذا مـا أزالوه من الوجود، سيصبحون أقل اهتماماً بها، ولذلك لم يتركوا أي جزء منه قائماً، لأن المسلمين غالباً ماتعـرضوا لهجمات المسيحيين، وقد قهروا من قبلهم وهزمـوا، وعندمـا انتصر هؤلاء المسلمـون، وطردوا الصليبيين من القـدس، انتقموا (كـذا) من الضريح المقدس للأخطاء والمصـاعب التي

عانوا منها في الأيام الخالية على أيدي الصليبيين، فدمروه، وخربوا كنيسة الضريح المقدس، وجاء ذلك بمثابة إهانة إلى المسيحيين.

وثانياً هناك سبب آخر قدم تعليلاً حول لماذا لم يبق ولاجزء من الضريح المقدس في مكانه هو أنه عندما قهر الصليبيون للمرة الأخيرة وغلبوا من قبل المسلمين وأرغموا على التخلي عن القدس لهم، وغادروها، جاء استسلامهم على شرط أن يسمح لهم بمغادرة المدينة بأنفسهم أحياء فقط، وذلك مع كل شيء أمكنهم أن يحملوه معهم، ووافق المسلمون على هذا، أي على وجوب مغادرتهم للقدس، وهم يحملون معهم كل ماراق لهم، ثم قام بطريرك القدس مع رجال الدين لديه، وملك القدس مع جميع فرسان المدينة المقدسة، بمغادرتها، ومن المعتقد أنهم في أثناء مغادرتهم حملوا معهم كل شيء كان يعدّ مقدساً، وذلك حتى أساساتها، وكان الضريح المقدس بين هذه الأشياء هو المقدم، وفعلوا ذلك لكي لايخلفوا شيئا وراءهم يمكن أن تدوسه أقدام المسلمين، لابل حتى في الأيام الحالية مابرح المؤمنون الذين يزورون هذه البلدان ينقلون معهم، كثيراً من قطع الحجارة والأرض، وبذلك بقدر ما يقدرون، ولو استطاعوا لنقلوا البلاد كلها حتى لا تداس بأقدام هذه المخلوقات، وينبغي أن لايشك أحد في أنهم لو كانوا قادرين على حمل جميع مكان الضريح المقدس، لحملوه، ولذهبوا به، فكيف بنا بالنسبة لصخرة، فقد كان بإمكانهم حملها على شكل قطع، وهناك سبب آخر حول أنهم لم يتركوا شيئاً من الضريح المقدس هو الغيرة الحمقاء المتسرعة وطيش المؤمنين، الذين كان من غير الممكن حبسهم بأي قانون أو نظام ومنعهم من حمل قطع من الأماكن المقدسة، إذا كان ذلك بإمكانهم، وتبرهن هذه الحجة على أن صخرة الضريح المقدس قد جرى نقلها منذ زمن طويل مضى.

وينقض آخرون هذه الحجج، ويجيبون على السؤال الأول، قائلين بأن

عداء الكفار لم يكن معلناً قط وحاداً إلى درجة الاعتداء على الضريح المقدس، المحروس من قبل الرب ومن قبل ملائكته، كما مرّ بنا في ص٥١٢، فنحن نقرأ بأنه عندما قام كسرى الطاغية المتوحش بإحراق القدس، مضى إلى كنيسة الضريح المقدس، ليقوم بتدميرها، ولكن تلبسه رعب شديد عندما اقترب من الكنيسة، ولذلك ابتعد مسرعاً عنها، ولم يستطع الوصول إلى ضريح الرب.

وهم يعلمون أيضاً، أنه طالما الضريح موجود، لن يوفر المسيحيون أية نفقات، بل سيقدمون دوماً لرؤيته، وإنهم لذلك يمكنهم جمع أموال كثيرة من بينهم بالجبايات المفروضة، وأن يربحوا ذهباً وفضة من خلال السماح لهم بالدخول إلى ضريح الرب، ولهذا هم يحافظون على الضريح المقدس كوسيلة للربح والتقدم، وقد زاد الرب محبتهم للمال، حيث يمكن بذلك المال الحفاظ على ضريحه.

كما أنه مستبعد كثيراً، قيام المسلمين، إثر العدوان عليهم من قبل الصليبيين، بطلب الانتقام لأنفسهم من الضريح المقدس، لأن في ذلك خسارة عظيمة لهم، وأنا بالحري أعتقد أنهم سمحوا ببقائه حتى ينظر إليهم المسيحيون بتقدير أكبر، لأنهم يخافون منهم كثيراً، علاوة على هذا ليس من المنطقي تصديق أن المؤمنين، قاموا وهم يغادرون القدس، بحمل الضريح المقدس من هناك، لأنه كان من صخر أصم، نبت من جوف الأرض، ولنفترض أنهم قطعوا الصخرة حتى سووها بالأرض، فإلى أين —أرجوكم— حملوا الصخور التي قطعوها؟ فأنا لم أر قط في كنيستي في أولم قطعة حجر من الضريح المقدس بحجم اصبع الانسان، يضاف إلى هذا أنني كنت ووجدت في كثير من الكنائس الرئيسية للشرق وللغرب.

ولايجوز أن نتصور بأن المسيحيين جميعاً قد جرى طردهم من القدس، فالذين جرى طردهم هم اللاتين فقط، الذين شنت الحرب

ضدهم، وليس المسيحيين الشرقيين الآخرين، وبعدما جرى طرد اللاتين، عمل الشرقيون معاهدة مع السلطان، وأدوا يمين الولاء له، وحصلوا على ملكية الضريح، كما سأبين فيما يلي، لابل أكثر من هذا، لم يذهب اللاتين جميعاً، ولم يغادروا، بل بقيت أعداد كبيرة منهم هناك، حيث تعايشوا بأنفسهم مع المسلمين، وقد جرى حرمان هؤلاء الناس من قبل البابا، وقرأنا أيضاً، أنه عندما جرى قهر الصليبيين من قبل المسلمين، وقبل أن يغادروا القدس، عقدوا معاهدة معهم، بوجوب استقبالهم لجميع الحجاج القادمين من البلدان اللاتينية، وقد وافقوا على ذلك ورحبوا به، ولهذا استمر السلطان يدفع إلى الحجاج الصدقة اليومية التي اعتاد ملوك القدس على تقديمها إلى الحجاج المقيمين إقامة مؤقتة في مشفى القديس يوحنا، وبذلك فعل السلطان ماكان ملوك القدس يفعلونه.

ولهذا لايوجد تساؤل حول نقل الضريح المقدس، ومع ذلك إن ماقرأناه في التاريخ هو صحيح، أي أن كنيسة الضريح المقدس قد جرى تهديمها من قبل، ومعها الضريح المقدس، لكن ليس تهديماً كاملاً، وفيما يتعلق بهذه المسألة عملت التجربة التالية: في أثناء بقائي مستيقظاً في كنيسة الضريح المقدس، أخذت بيدي شمعة مضاءة، وذهبت إلى آبدة الرب، التي تفحصتها بدقة متناهية، علني أجد أي مكان غير مغطى بالرخام، وقد وجدت أن الجهة الخارجية كانت كلها مغطاة بالرخام من جميع الجوانب، وعندما دخلت الباب الأول العائد للبيعة الخارجية، وجدت الجدار على الجانبين مغطى بالرخام، لكنني وجدت الجدار الذي أمام وجهي، أي الذي يفصل الكهف الخراجي عن الكهف الداخلي، والذي فيه الباب الذي يقود إلى ضريح الرب، وجدته عارياً، وعندما قربت مصباحي منه، وجدت الجدار مقطوعاً من الصخر، وليس معمولاً من حجارة منحوتة، بل كله قطعة واحدة، مع علامات

الأدوات المعدنية، التي من الممكن رؤيتها بوضوح عليه، وكان يوجد في القسم العلوي، مابدا كأنه صدع، وقد جرى ترميمه بالحجارة والملاط.

وبدا لي من هذا أن ضريح الرب قد جرى تخريبه في احدى المرات، لكن لم يجر اجتثاثه تماماً، وأن الموجود الآن هو إعادة عمارة، وأنه مابرح قائماً منذ أكثر من مائتي سنة كما هو الآن، سوى أنه الآن مغلف بالرخام بعناية أكبر، خشية أن يقوم الحجاج بالتقاط قطع من الجدران، لاتخاذها آثاراً مقدسة، ولهذا السبب وضعت الألواح المتقدمة الذكر مع الفتحات الثلاث في واجهة الضريح المقدس، لأن الحجاج اعتادوا على الحفر بأدوات حديدية للحصول على قطع منه، وصحيح أن الحجاج بذلوا دوماً جهودهم للحصول على قطع من الضريح المقدس، لم يسمح لهم بفعل ذلك مطلقاً، بل منحوا حجارة أخرى مكان الصخرة الحقيقية، لأن الحراس موجودون دوماً في الضريح المقدس، وهم يوقفون كل من يحاول اقتطاع قطع، وبناء عليه تسقط حجة غيرة وطيش المؤمنين إلى الأرض، لابل حتى إذا افترضنا أنهم امتلكوا هذه الغيرة وهذا الطيش، لم يسمح لهم بالعمل بطيش.

وواضح أيضاً، مما قيل، بأن ضريح الرب، كان الجزء العلوي منه بالأصل مدبباً، وبذلك شابه أعلاه سقفاً له، وكان القبر مغطى بظهر خشن، مثلما اعتيد على صنع أغطية القبور، لكن قام المؤمنون بتسوية هذا الجزء الناتىء، وجعلوا الغطاء مسطحاً، مثل منضدة، حتى يكون من الممكن إقامة القداسات في الضريح المقدس فوق القبر.

ومن جميع ماقيل حول الضريح المقدس، يتوجب على الحاج الهادىء والتقي التمسك بهذه الحقيقة، وهي سواء أكان الكهف كما هو قائم في الأيام الحالية هو صحيحاً وكذلك الآبدة كلها آبدة المسيح، أو فيما إذا كان جزء منه موجود هناك فقط، أو ولا جزء منه هناك مطلقاً، القضية صغيرة سواء من الجهة الأولى أو من الجهة الأخرى، لأن الحقيقة

الأساسية مرتبطة بالمكان المقيم هناك، وهذه الحقيقة لايمكن نقلها من هناك بأية وسيلة من الوسائل ولايمكن إزالتها، والحقيقة المقررة هي أنه هنا مكان الدفن الأكثر قداسة للمسيح، وهو مكان قيامته أيضاً، وعلى كل حال قد يكون غير موجود هناك الضريح نفسه الذي جرى تمديد جسد المسيح فيه، يوجد هنا مع ذلك الضريح الذي تمت عمارته للمسيح، والذي غالباً ماجرى فيه الاحتفال بقداس قربان جسده مراراً.

وهو كهف مزدوج، مثل القبر الأصيل تماماً، وهو مماثل بالقداسة، وبالاحترام، والتبجيل، مثله في ذلك مثل الألواح التي صنعها موسى شبها للألواح الأولى التي كسرها، والتي كانت تحتوي على الوصايا نفسها، وكانت مساوية لها بقداستها واحترامها، ولذلك أودعت في تابوه العهد، على أنها الأعظم أهمية، والآثار الأعظم قداسة وليكن في هذا كفاية حول الضريح المقدس.

ووجدت في بعض كتب الحجاج القديمة، الأشعار التالية التي وجدت محفورة على أحجار الضريح المقدس، وهذه النقوش أنا لم أرها.

وقد كتب على اللوح المسطح للضريح:

«هنا رقد ميتاً، عندما بموته غلب الموت،

هنا نام الأسد الذي أيقظ العالم وجعله مدجنا.»

وكتب فوق باب الآبدة:

«أنت أيها المار بضريحي هذا اليوم،

انظر إلى العلامات حيث تمدد جسدي،

طوال ثلاثة أيام، عندما مات من أجلك.

وغللت بقوة الشيطان، الذي كان حتى حينه حراً.

ومزقت إلى الأبد عصابات الجحيم الجريئة،
وبعثت أولادي، ليعيشوا في الجنة معي.»
وكتب حول قبة الضريح المقدس:
«ماتت الحياة مرة، ودفنت في هذا القبر،
ذلك الموت كان حياة، ومن الموت خلصنا.
لأنه هو الذي حطم قوة الجحيم تحت قدميه،
وبشجاعة قاد عساكره للقاء العدو،
ذلك الأسد جرىء في النصر منذ أن قام،
الجحيم يئن، والموت ينوح، ذلك أنه فقد جائزته».

وضع جبل أكرا ووصف مختصر له

يحتل جبل أكـرا المقام الثـاني بعـد الضريح المقـدس، في السمـو، والقداسة، ومع أن وصفه قـد تقدم في ص ٤٨٨، مع ذلك جرى تكرار هذا الوصف هنا، لأن هنا هو المكان المنـاسب، وهناك بعض النقاط قـد جرى نسيانها من قبل، وجاء ذكرها هنا، وينبغي أن نلاحظ هنا أن جبل أكرا، أو الجلجلة هو مكان موجود على الجهة الشمالية من جبل صهيون، وأن هناك خلافاً، عندما يتحـدث الانسان عن جبل أكرا، وعن صخرة، أو جـرف أكرا، فجبل أكـرا يضم شطرا كبيراً من المدينة، وموضع أكـرا هو جميع المنطقـة التي تحتوي على جميع الكنيسـة، وصخـرة أكرا تحتـوي فقط على صليب المسيح وصليبي اللصين، وجبـل أكـرا هو الاسم الذي أطلق على جميع المنطقـة المرتفعة، الممتـدة من البـاب القديم، وجـزء منه مايزال قائماً، وممتداً حتى كنيسة الضريح المقدس.

وفي الحقيقة هناك طريق جيـد فوق الرابية مـن تقاطع الطريق، حيث

قـال المسيح للنسـاء البـاكيـات:«يابنات القـدس لاتبكين علي»، وهكذا صعوداً إلى مكان الصلب، وهناك في الأعلى، ساحـة واسعة، عليها تقوم كنيسـة الضريح المقـدس كلهـا، وهذه المنطقـة كلهـا هي جبل أكـرا، أو الجلجلة، وعلى هذا الأسـاس، إن كنيسـة الضريح المقـدس قائمـة فـوق جبل أكـرا، لكن صخـرة أكـرا هـي المكان أو القمـة، التي عليهـا وقف الصليب المقــدس مع ربنـا مع صليبي اللصين، كما أوضحنا مـن قبل، وهناك طرق ثلاثة تقــود صعـوداً إلى هذه الصخـرة الأعظم قــداسـة، والطريق الأول هو من كنيسة الجلجلة، من المكان الذي فيه مركز العالم، والطريق الثاني، هو من كنيسـة الضريح المقدس، القائمة تحتهـا، والثالث من السـاحة الخارجيـة للكنيسة، وجرى اغلاق هذا الطريـق الصاعد من قبل المسلمين، مثلما جـرى اغــلاق الأبواب الأخــرى التي تقــود إلى الكنيسـة، حتى لايكون أحد من الناس قـادراً على الدخول إلى الكنيسـة من دون معـرفتهم، وعلى هذا إن صخــرة أكـرا هي صخـرة الصليب، وجبل أكــــرا هو جميـع المرتفع من بيت الـرجل الغني، أو من الطـريق المتقاطع المتقـدم الذكر، ومع ذلك ينبغي عـدم افتراض أن جبل أكرا هو مكان مرتفع، يشرف على جميـع الأماكن من حوله، لأنـه يوجد على كل من الجانب الغـربي، والجانب الجنوبي، أمـاكن أكثـر ارتفـاعـاً منه، وهي تسمى جبـلاً بالمقـارنة مـع الأمـاكن التي يصعـد الانسـان منهـا إليهـا، كماقيل.

وفي هذا كفـاية، ومن أجل روايات أكثر حـول هذا الجبل، انظر ص ٤٨٨ المتقدمة، وكذلك ص٢٥٥ المقبلة .

وصف كنيسة الضريح المقدس وترتيباتها

في وصفنا هيكل أو كنيسـة الضريح المقــدس، سـوف نتفحص أربع نقاط: أولها: من الذي بناها؟ وثـانيها: أي مجد وتشريف تلقت في الأيام الغـابرة؟، وثالثها: مـاهي أحـوالها في الأيام الحالية، ورابعهـا: من الذي

يتولى ادارتها، والفوارق بين مختلف الطوائف التي تعبد المسيح فيها، ولسوف نقدم وصفاً كاملاً نتيجة لفحص هذه النقاط الأربع، وبالتالي تقديم فهم كامل لها جميعاً.

من الذي أسس كنيسة الضريح المقدس وكم من المرات هدمت وأعيدت عمارتها

من الذي بنى كنيسة ضريح الرب؟ إن هذه مسألة مختلف حولها، بسبب اختلاف الروايات التي قدمها الذين كتبوا حول هذا الموضوع، فبعضهم يرى بأن هذه الكنيسة قد كانت هيكل فينوس الذي بناه اليوس هدريانوس فوق مكان الصليب والقيامة، وأن القديسة هيلانة عندما جاءت ألقت بالأوثان، وكرست البناء للمسيح.

ويقول بعضهم بأنها دمرت دماراً كليا الهيكل المتقدم الذكر، وبنت هذه الكنيسة، ونقرأ أيضاً في كتب الحروب بين الصليبيين والمسلمين، بأن كنيسة الضريح المقدس غالباً ماجرى تهديمها (كذا) من قبل المسلمين، وأعيدت عمارتها من قبل الصليبيين، وكان كسرى قد سعى إلى تخريب هذه الكنيسة، لكنه ارتعب بقوتها الربانية، وهرب منها، ويقال أيضاً أنه عندما احتل التتار الأرض المقدسة والقدس (لم يحتلوها) قاموا بتهديم كنيسة الضريح المقدس في الوقت الذي استولوا فيه على المدينة، لكن ليس بعد مضي وقت طويل على هذا جاء امبراطور القسطنطينية إلى القدس، وأعاد بناء الكنيسة وفق الشكل الذي كانت عليه من قبل، وبعد هذا شفى المسلمون غليل غضبهم من المسيحيين بانزاله على هذه الكنيسة، ودمروها كليا، لكن واحداً من أباطرة القسطنطينية أعاد عمارتها.

ومن أجل رواية صحيحة وموثوقة حول هذا الموضوع، انظر ص٢٦٤ظ، وكذلك حول وصف موضع الصليب،

والضريح.

كيف كان الضريح المقدس رائعاً في الأيام الخوالي: آثاره وتزييناته

كـان هذا الهيكل رائعاً جـداً في الأيام الخوالي في بنائـه وخدمـاته، ولم يكن مقـدساً بسبب الأمـاكن المقدسـة التي يحتويها، ولكن أيضـاً بسبب الآثار المقـدسة الثمينة التي كـانت محفـوظة فيه، فقـد كـان محفوظاً فيـه الصليب المقدس، كما أوضحنا في ص٤٧١، مع بقية أدوات آلام المسيح التي عثرت عليها القديسة هيلانة، وكان هناك أيضاً، فيما تقدم من أيام، معروض في الكنيسة سلسلة عظيمة كـانت قد وضعت حول عنق الرب يسوع، عندما جرى اعتقـاله في الكنيسة، وكانت هذه السلسلة هي التي كان الحجاج يضعونها حـول رقابهم عند زيارتهم للكنيسة، وقد تمّ صنع عدد كبير من المعجزات بوساطتها.

وكان فيها كأس كبير من الفضـة، وهو الكأس الذي تشارك به الرب يسوع مع حوارييـه في العشاء الأخير، وهو الذي قال عنه:«هذه الكأس هي العهـد الجديد بدمي» (لوقـا:٢٢/ ٢٠)، وكـان هناك أيضـاً الطشت الذي غسل فيه الـرب يسوع أقدام حـوارييه أثناء العشـاء الأخير، وكان في هذه الكنيسة المنديل الثمين جـداً، الذي ربطته مـريم العذراء الأعظم مباركة حول رأس الرب يسوع عندما أنزل من على الصليب، كما تحدثنا في ص٤٩٦، وقـرأنا عن هذا المنديل في الاصحـاح العشرين من انجيل يوحنا، أن بطـرس عندمـا دخل إلى الضريح رأى الملابـس الكتـانيـة موضوعة هناك، والمنديل الذي كان حـول رأس يسوع لم يكن موضوعاً مع الملابس الكتانية، بل ملفوفاً في مـوضع وحده، وقد بقي موضوعاً في الضريح لبضعة أيام بعد قيامة المسيح.

وحـدث أنه عندمـا انتشرت اشـاعة قيـامـة المسيح، دخل واحـد من اليهود بشكل سري إلى ضريح الرب، فوجـد هذا المنديل ملفوفاً بعناية،

فأخذه وحمله إلى بيته، ذلك أنه كان يهودياً فقيراً وتعيساً، ومن الساعة التي جلب فيها ذلك المنديل إلى بيته، بارك الرب بيت ذلك اليهودي، وصار غنياً ومشهوراً، وعندما أدرك اليهودي هذا، أغلق على المنديل بعناية عظيمة، على أساس أنه كنز ثمين جداً، ومع ذلك لم يتحول إلى المسيحية، وبقي مصراً على كفره حتى النهاية، ووقتها دعا إليه ولديه وقسم بينهما مقتنياته، حيث أعطى المنديل إلى الأكبر، وبقية ممتلكاته إلى الأصغر، وعامل الابن الأكبر المنديل باستخفاف مع أن أبيه قال له بأنه أكثر قيمة من ثرواته الأخرى، وقام بمبادلته وأخيه الأصغر، وهكذا صار المنديل إلى يدي الأخ الأصغر، الذي ازدهر أكثر فأكثر كل يوم، في حين من جهة أخرى تراجعت أوضاع الأكبر وتدهورت يومياً، وعندما تقدم وارث المنديل بالسن كثيراً منحه إلى أكثر أولاده محبة لديه، وحدثه عن فضائله وعن المكان الذي وجد فيه، وقد تسلم المنديل فصار فجأة رجلاً غنياً، وهكذا باستمرار صار يهود هذه الأسرة أكثر غنى واحتراماً، وآل المنديل بحق الوراثة من أب إلى ابن حتى الجيل الخامس، حيث وقتها نشب خلاف بين أخوين حول المنديل، وأصبحت المسألة معروفة، ولدى سماع المسيحيين بذلك حركوا مطلبهم بالمنديل على أساس أنه ملكهم، لكن اليهود كانوا غير راضين باعطائهم إياه بأية وسيلة من الوسائل، وهنا تفجر هياج عظيم في القدس، وقاتل المسيحيون اليهود من أجل المنديل، ولإنهاء هذا الخلاف قرر عقلاء الناس دعوة قاضي وحكم حول هذه المسألة، على أن لايكون مسيحيا ولايهوديا، بشرط التزام الفريقين بقراره، وعندما جرى الاتفاق على هذا، تمّ استدعاء مابيوس Mabius ملك المسلمين لإعطاء قرار حول المنديل، وجرى اخباره بجميع الملابسات من قبل الطرفين، وفي اليوم المحدد جرى استدعاء جميع الناس من مسيحيين ويهود وسواهم، وجلس على كرسي القضاء في مكان عام، وأمر باحضار المنديل إليه، فجلب إليه في صندوق، فأمر بعد ذلك باحضار خشب وبايقاد نار عظيمة بين الناس،

ووقف اليهـود على الطرف الأول للنار، ووقف المسيحيـون على الطرف الآخـر، ووقف المسلمون فيها بينهما، وعندمـا تناول الملك المنديل بيـده، صرخ بصوت مـرتفع: «ياعيسى الناصري، هاهنا منديلك، فقرر أنت إلى أي الفريقين هو»، وما أن أكمل قوله هذا حتى رمى بالمنديل في اللهب، وبعـدمـا رمـاه بقي في النار لـوقت قصير، وظن الجميع أنه قـد احترق، لكن عجباً ارتفع فجأة من النار من دون أن يلحقـه ضرر، وحلق عاليا، وبدأ بالطيران، مثلما يطير الطير بجناحين ممدودين، وبعدما طار واستدار حـول المكان في الهواء لبعـض الوقت، بدأ ينزل بالتـدريج، وهنا وقف الجميع بوجوه متشوقة وأيد مـرفوعة تراقب إلى أي الفئات سوف يطير، وكان هناك مـلاك يوجهه، ولذلك استقر فـوق أذرعة المسيحيين، الذين تسلمـوه وهم جاثين على ركبهم، وحملوه وسط سرور عظيم إلى كنيسـة الضريح المقـدس، وقـد بقي هنـاك لسنين طويلة وكثيرة، وكـان مبجـلاً كثيراً، ولم يكن الأقل مكانة بين آثار الضريح المقدس.

عـلاوة على ذلك، ميز الرب في الأيام الخوالي هذه الكنيسـة بكثير من المعجـزات، من بينها المعجـزة الظاهرة، والتي كـانت تحدث كل أمسيـة عيـد فصح، فعندما كـان يجتمع الناس مع بعضهـم، ويجري اطفـاء جميع الأضـواء، حتى لايبقى في الكنيسـة كلهـا ولاشرارة واحـدة، هنا كـان يحدث فجأة أثناء ترتيل رجال الدين للقداس، والناس يصلون، في لحظة ينزل ضـوء من السماء، وفي لحظة نزوله يعم الكنيسـة كلها، إلى حـد أن مـامن أحـد من الحضور كـان يمكنه أن يحدق بذلك الضـوء السماوي، وبهذا الضوء تشتعل شموع الفصح، وبقية المصـابيح والشموع، وعندما يحدث هذا كان هذا الضوء يغادر، وحدثت هذه المعجزة لسنوات كثيرة، وعندمـا توقفت سقط ضريح الرب على الفـور بأيدي غير المسيحيين، ويقولون أيضاً إنه عندما جرى مـؤخراً استرداد الأرض المقدسة، عادت تلك النار المقدسة، وأضاءت الشموع، لكنها عندما توقفت عن النزول،

جرى طرد الصليبيين، لأنها إشارة واضحة إلى المسيحيين، أنه عندما تظهر نار الفصح، يكونون سكاناً جديرين بالأرض المقدسة، ومتملكين لضريح الرب، وعندما لاتظهر، وإن كانوا بالفعل متملكين للأرض المقدسة، فإن مملكتهم سوف تزول بالحال، وفي هذه الأيام يجتمع المسيحيون الذين هم بالقدس، جميعاً، في الكنيسة، في أمسية الفصح، ويحبس الأرثوذكس كاهنهم في آبدة الرب مع شمعة غير مضاءة، وهو يعيدها مضاءة، مصحوبة بصوت مرتفع، ومنها تتم إضاءة جميع المصابيح، لكنها لاتضاء بمعجزة بل بشكل مصطنع، ومع ذلك يرفع الرعاع أصواتهم إلى السماء، وهم يحمدون الرب، وكأن معجزة قد عملت، ولذلك تصل أصواتهم إلى بين الناس، لابل حتى إلى مابين المسلمين، هذا ولقد سمعت بصدق، المسلمون يقولون:«إذا مااستطاع المسيحيون أن يبرهنوا حقاً، بأن النار قد نزلت من السماء، كما يقولون ويفعلون، ويمكنهم برهنة ذلك لنا، لكنا راغبين بالتحول إلى عقيدة المسيح»، لكن ويا للأسف:«آياتنا لانرى. لانبي بعد. ولابيننا من يعرف حتى متى» (مزامير:٧٤/ ٩)، وبشأن هذا الضوء الاعجازي والنار، وشمعة الفصح، لم يقل جيروم شيئاً في كتبه التي قرأتها، مع أنه قد كتب رسالة بليغة، ومكتوباً جميلاً إلى الشماس بريسيدوس Presidius حول موضوع ضوء شمعة الفصح، ومثل هذا لم يشر غريغوري أوف تور — وهو كاتب كتب حول موضوع المعجزات القديمة — ولا إشارة إلى تلك النار.

وفيما يتعلق بهذه النار، هناك حكاية جميلة موجودة في ص٢٦٤، ويضاف إلى ماأخبرتكم به، جرت العادة على عقد اجتماعات ومناظرات في هذه الكنيسة ضد الهراطقة، وكان الذين يحضرون إما أن يقنعوا بأخطائهم عن طريق المناظرات حول الايمان الصحيح، أو بوساطة المعجزات، من ذلك على سبيل المثال، نجد سيرل Cyril قد أشار في

رسالته إلى أوغسطين إلى بعض قادة فرق الهراطقة الذين أفحموا هناك.

ونقدم هنا وصف كنيسة الضريح المقدس في هذه الأيام وأوضاعها الحالية

والذي بقي لنا هو أن ننظر إلى أوضاع كنيسة الضريح المقدس في هذه الأيام، وهنا علينا أن نلاحظ بأن هذه الكنيسة لها ثلاثة أسماء لأنها كنيسة مزدوجة، وكل جزء منها له اسمه الخاص، ولها كلها مجتمعة اسمها الخاص.

فالكنيسة التي تقوم فيها آبدة الرب، اسمها كنيسة الضريح المقدس، والكنيسة التي فيها مركز العالم، والواقعة على مقربة من أكرا، اسمها كنيسة الجلجلة، وهاتين الكنيستين مع بعضهما اسمهما كنيسة البعث، أو كنيسة قيامة الرب، وهي في الحقيقة كنيسة واحدة، لكن صحنها الذي يحتوى على الضريح المقدس، يطلق عليه اسم كنيسة الضريح المقدس، وتدعى سدة هذه الكنيسة نفسها باسم كنيسة الجلجلة، لأنها قائمة فوق مكان اسمه الجلجلة، وهذه الكنيسة كبيرة وفخمة، ولايوجد هناك أكثر من الصحن، الذي يقوم فيه ضريح الرب، دون أن نحسب السدة، ذلك أن هذه بنفسها تكوّن كنيسة كبيرة، وهذه الكنيسة —دون أن نحسب السدة— مستديرة، مدعومة خلال الدائرة كلها بأعمدة رخامية، وقطرها بين الأعمدة هو ثلاثة وسبعين قدماً، ومن مؤخرة الأعمدة حتى جدار الكنيسة هو ثلاثين قدماً، وتمتد هذه المساحة من حول الدائرة كلها، وتشكل ممراً بين الأعمدة والجدار الخارجي للكنيسة، وهذا الممر ممر مقنطر، ويستند السقف المقنطر من الجانب الأول على الأعمدة المتقدم ذكرها، ومن الجانب الآخر فوق الجدار الخارجي، وكان فوق هذا السقف المعقود فيما مضى ممر عام مستدير، ومذابح، وبجوار باب الكنيسة هناك درج حجري يقود صعوداً إلى هذه الشرفات، وهناك في الوقت الحالي غرف متعددة، وشرف مفصولة احداهن عن الأخرى

بجدران، فيها يمارس المسيحيون من الطوائف الأخرى عباداتهم، وهناك أقواس تمتد من عمود إلى آخر، فوقها جدار صاعد حتى السقف، وفي هذا الجدار نوافذ من خلالها يستطيع الانسان أن ينظر إلى الكنيسة من الشرفة المستديرة فوق العقد، ويمكنه أن يلقي نظرة على ضريح الرب.

وليس للجزء العلوي من هذه الكنيسة المستديرة سقف حجري، بل سقف خشبي معمول من عوارض من الأرز، مرتبه بشكل هو أنهاعوضاً من أن تلتقي في القبة، تلتقي العوارض الصادرة من الجدار احداها مقابل الأخرى في دائرة كبيرة، وتشكل بذلك فتحه مستديرة من خلالها ينتشر الضوء خلال الكنيسة كلها، وتحتها مباشرة، أي تحت هذه الدائرة، تقف آبدة الرب، وهي معرضة للأنواء، وقد تم شرح هذا في ص٥٢٨.

والعوارض والألواح الخشبية مغطاة بالرصاص من جهتها الخارجية، وأعني بذلك الجهة التي تتطلع نحو السماء، إنما من الجانب الداخلي مطليين بمختلف الألوان، والجدران تحت السقف، وتحت الأقواس، مزينة بصور من العهد الجديد، بأعمال من الفسيفساء، لكن الشخصيات الثمينة تساقطت إلى قطع، وليس هناك من يمكنه إعادة الأجزاء الساقطة، ومن حول هذه الكنيسة المستديرة هناك كثير من البيع، كما أوضحنا في الرواية حول المسيرة، وفي وسطها يقوم ضريح الرب، وهناك في الجهة الشرقية سدة واسعة وجميلة، وفيها يتطلع باب الضريح المقدس بشكل مباشر، وكأنهما يقفان باب إلى باب.

ويوجد في وسط السدة قبة واسعة وعالية، معقودة فوق المكان الذي يوجد فيه مركز العالم، وهناك طريق للصعود إلى قمة هذه القبة في الخارج، حيث يمكن للانسان أن يرى بالتجربة أن هذا هو مركز العالم، كما قلت من قبل في ص٤٩٧، وهذه السدة هي ملك للأرثوذكس، وإلى جانب المذبح هناك العرش الرخامي للبطريرك، الذي كتب عليه

بأحرف لاتينية قديمة جداً.

"Cracifxum in carne laudote, et sepultum propter nos gloricate, resurgertemque amortuis adorate"

وقال مؤلف كتاب "Specalum Historiale" بأنه كان مكتوباً فوق المكان الذي أقيم عليه الصليب النقش التالي: خلاصاً Sophias عمل ergase قبل العصور proaenon، ملكنا Basileus Imon، Otheos الرب، en meso في وسط Tisgis، الأرض.

ويوجد في هذه الكنيسة كثيراً من البيع، فوق وتحت، وفي الداخل والخارج، هن الآن مهملات، لكن فيما مضى كانت تشتعل فيهن المصابيح، وكانت مذابحهن تلمع بالذهب، ونوافذهن مزججة، لكن الآن ليس فيهن مصابيح، والمذابح مخربة، والنوافذ مغلقة، ومسكرة بالحجارة، فالجزء الأكبر من النوافذ مسكرة بالحجارة، وكذلك جميع الأبواب مسكرة، باستثناء باب واحد، مفاتيحه محفوظة لدى المسلمين، ومن هذا الباب يدخل الانسان إلى الكنيسة، وعلى الجانب الغربي هناك درجات تقود إلى باب مغلق بثبات، وهذا الباب هو الذي حاولت مريم المصرية، فيما مضى، الدخول منه، لكنها أبعدت، ولم تتمكن من الدخول، حتى تعهدت بتقويم حياتها، وذلك كما جاء الخبر بوضوح في كتاب «حياة الآباء».

ونتيجة لهذا الاغلاق للنوافذ والأبواب، الكنيسة مظلمة، لكن بلاط الكنيسة كلها مستو، وهو من رخام مصقول، وهكذا حتى وإن مشى الانسان في الظلام، إنه لايعثر، وفي أحد أجزاء الكنيسة، خارج الجدار هناك صهريج واسع، يحتوي على ماء رائع لاستخدامات حراس الكنيسة، وفي مكان آخر هناك طريق خارج الكنيسة، يقود إلى ساحة غير مغطاة، محاطة بجدران عالية، وفي هذه الساحة أماكن لائقة للناس

لقضاء حاجاتهم.

وملتصق بهذه الكنيسة برج مرتفع، قد بني من حجارة الرخام الأبيض، فيه كان يعلق فيها مضى نواقيس، والعوارض الخشبية، وأعمال الخشب الذي كانت تدعمهم، من الممكن رؤيتها في الجزء العلوي حيث كانت تعلق، لكن عندما فقدت القدس، ألقيت أرضاً جميع النواقيس، لأن عقيدة محمد (صلى الله عليه وسلم) لايمكنها تحمل النواقيس، لأن لديهم أوامر في قرآنهم بعدم استخدام النواقيس من أجل عبادة الله، كما أنهم لايسمحون باستخدامهم، ومع ذلك قد قيل بأنهم يحبون دقاتهم، والسبب الذي يمنعهم عن استخدامهم هو خشيتهم من تقليدنا، الأمر الذي احتاط محمد (صلى الله عليه وسلم) ضد استخدامه، ومنعه، وهذا البرج هو أول جزء يراه الانسان، عندما يقدم من بيت عنيا إلى القدس، فهذا ما لاحظته دوماً.

والاسكفة فوق باب الكنيسة هي من أنصع الرخام بياضاً، وقد نحت عليها في الجهة الخارجية صوراً تمثل دخول ربنا إلى القدس، راكباً على أتان، وطرده للباعة والشارين من الهيكل، وإقامته للعازر من الموت، لكن هذه التماثيل محطمة بعنف، وأطرافها مشوهة، ويوجد فوق أبواب الكنيسة هذه الأشعار، حيث قيلت لتنقش فوق الحجر، مع أنني لم أستطع رؤيتها:

"Anno millno centeno quoninus uno,

Quindecies nilojan phoebilumino Tacto,

Vitae plus sacrae studio mitigare acre,

Jerusalem Franci capiunt virtute potenti"

ويقف في ساحة الكنيسة أعمدة من الرخام الغالي جداً، وتدعم هذه

الأعمدة سطحاً معمداً، وتزين الرواق، وإذا مارغب أي واحد أن يرى شكل هذه الكنيسة، عليه أن ينظر في كتاب «الحج» الذي كتب من قبل اللورد المشهور، والرجل البارع، اللورد برنارد أوف بريتنباخ، عميد الكنيسة المطرانية في مينز، حيث سيكون بإمكانه رؤية صورة الكنيسة وقد رسمت بوضوح، يراها وكأنه واقف في الساحة وينظر إليها بعينيه.

كيف أن الشفاء عام لجميع المسيحيين، وكيف أنه لايسمح للحجاج بالدخول مالم يدفعوا رسم الكنيسة، والطريقة التي يدخل بها الانسان إلى الكنيسة وأنواع الطوائف في الكنيسة

رابعاً وأخيراً علينا أن نتفحص الذين يسكنون في الكنيسة المتقدمة الذكر، وهم الناس الذين يتولون إقامة القداسات هناك، وبالترابط مع هذا الموضوع سوف نرى مسائل مخيفة ولامثيل لها، فقد عملت هذه الكنيسة على مثال سفينة نوح، التي كان فيها جميع أنواع البهائم، من نظيف وغير نظيف سواء، وذلك باستثناء السمك، وهنا أيضاً لايوجد سمك، أي ليس هناك من هو غارق في مياه عدم الإيمان، ولاوثنيين، ولاواحد ينكر بشكل حاسم المسيح، فما من واحد من هؤلاء يمكنه أن يجد مكاناً فيها، ولايمكنه الحصول على موطىء قدم فيها، تماماً مثلما لاتستطيع الأسماك العيش خارج الماء، وفقط هم أتباع المسيح الذين يعيشون هناك، وذلك سواء أكانوا نظيفين في الإيمان الصحيح أو غير نظيفين، ملوثين بالهرطقة، وسواء أكانوا متحضرين من أتباع الإيمان الكاثوليكي، أو أناساً متوحشين من غابات الردة والانشقاق، فهنا جميع الأجناس التي تعبد المسيح كرب، مهما كان نوع اعتقادها وإيمانها، سواء أرأت فيه خالداً مع الآب ومساو يا له، أ لم تر ذلك، وسواء أعدّته خالقاً أو مجرد مخلوق، أو انساناً حقيقياً أم شبحاً، وسواء اعتقدوا بأنه تألم، أم لم يتألم، وسواءأمات أم لم يمت، وسواء أكان للقربان أية قوة، أو لم يكن، وسواء أكان البابا هو نائب المسيح أم لا، فكل واحد من هذه

الطوائف يمكنه أن يجد شخصاً من طائفته ومعتقده في هذه الكنيسة، ومسموح له بالدخول إليها.

وفي هذه الأيام إذا ما جاءت أية طائفة مدنسة بأية هرطقة فظيعة، ومامن أحد من الذين موجودين في الكنيسة المقدسة يمكن أن يرضى بالسماح لها للدخول وممارسة طقوسها، يقوم السلطان بتعيين سدة لهذه الطائفة نفسها، ومكاناً للاقامة خاص بها في تلك الكنيسة، حتى لو أنها اعتقدت بأن المسيح كان وحشاً ولم يكن بشراً، فالذي يكفي قولها بأن المسيح كان رباً، فليس هناك من هو ممنوع، وليس هناك أحد مطرود ومبعد، فكل من يدفع إلى المسلمين رسم الكنيسة، وهو خمس دوقيات للدخول، يدخل إليها، مهما كان غير نظيف، وهم لايفتحون الكنيسة لأي مسيحي دون دفع للخمس دوقيات، وفي هذا هم لايوفرون حتى رهبان جبل صهيون، حيث لايسمحون لهم بالدخول من دون دفع هذا الرسم، باستثناء الدخول في موسم زيارة الحجاج إلى القدس، فوقتها يمرون مجاناً، وفي الوقت الذي يكون فيه الحجاج بعيدين عن القدس، لايكون بامكان الرهبان تغيير الحرس في الكنيسة، بل إن الذين أرسلوا إلى هناك ليكونوا مسؤولين عن الحجاج ويفوض إليهم أن يكونوا حراساً للضريح المقدس، يبقون هناك دونما تبديل، حتى قدوم الموسم التالي من الحجاج، والرهبان الذين وضعوا في الكنيسة حراساً لايمكنهم الخروج من الكنيسة، كما لايمكن للرهبان الآخرين الدخول إليها مالم يدفعون الرسم، وعليهم أيضاً دفع الرسم إذا ما رغبوا في تغيير الحراس.

وعلى كل حال هم يفتحون أبواب الكنيسة مرتين في السنة، ويسمحون بدخول جميع المسيحين مجاناً، ومواعيد الفتح هذه، هي من الجمعة الحزينة حتى اثنين الفصح، ومن ليلة اكتشاف الصليب حتى العشاء في اليوم التالي، وتكون الكنيسة في هذه الأيام مزدحمة بالرجال

والنساء، من جميع بلدان العالم، ويكون هناك كثيراً من التدافع والفوضى بسبب الحشد الهائل من الناس، ووقتها يسمع الانسان هناك الناس يتحدثون بجميع لغات العالم، وفي تلك الأوقات يعقد سوق في الكنيسة للأشياء الثمينة النادرة، وباستثناء هاتين المناسبتين لاتفتح الكنيسة أبداً، إلاّ مقابل مال حاضر، وقبل ذلك ليس بوقت طويل كانت الأحوال والأزمان مختلفة، فوقتها كان المسيحيون الكاثوليك قادرون على الدخول إليها من دون مقابل، وفي أي وقت أرادوا، ولم يكن مسموحاً بأية حجة من الحجج لأي هرطقي أو منشق، بالدخول إلى الكنيسة، برسم أو بدون رسم، لكن منذ أن جرى الاستيلاء على ضريح الرب من قبل الأعداء، صار الحجاج سجناء، ولم يعد بإمكانهم فعل أي شيء في القدس، باستثناء مارضي به المسلمون.

وقبل عدة سنوات مضت كانت عادة المسلمين قد جرت على فتح الكنيسة عند شروق الشمس وابقاء الحجاج مغلق عليهم بها حتى العشية، ومن ثم اخراجهم عند غياب الشمس،وكان هذا محمولاً، غير أنهم يديرونها الآن بطريقة معاكسة، ذلك أنهم يفتحون لنا الأبواب في وقت متأخر، ويخرجوننا منها في الصباح، وهو أمر مزعج جداً، ومربك، لأننا نحصل على قليل من النوم، أولا ننام في الليالي التي نمضيها في الكنيسة، بسبب الزيارات المتوالية التي تتم إلى الأماكن المقدسة في مسيرات، وبسبب القداسات السماوية المتوالية، وأيضاً بسبب الصرخات والأصوات الغريبة العالية التي تصدر عن المسيحيين الشرقيين الذين يملأون الكنيسة طوال الليل بسبب أصواتهم النشاز، مع صفقات التجارات، وأخيراً بسبب الأعداد الهائلة للذباب، الذين يقفزون فوق البلاط وفي كل مكان، وعندما يحاول أي انسان أن يتمدد للنوم أو للصلاة، يتغطى على الفور بالذباب، ولايمكنه الحصول على الراحة.

ومن أين يأتون، أنا لا أعـرف، إلاّ إذا كانوا يتـوالدون بشكل طبيعي من الرخام، ومن المحتمل أن حرس الكنيسة يتولون تغذيتهم، لذلك أنا لم أقتلهم، وبعد ليلة من التعب هكذا والسهـر، يتوجب علينا في اللحظة التي نخرج بها بالقـوة، أن نكون وقتها مـرغمين على الذهاب إلى أماكن مقـدسة أخـرى، ويجعلنا هذا عـرضة للمعـاناة من مـزيد من الارهاق، وعلى هذا كـان الحجـاج دومـا منهكين تمامـاً، من السهــر، والصــوم، والتعب، ونادراً ما كان يسمح لهم بوقت لتناول وجبات سريعة، وذلك أن هذا النظام يضغط عليهم بشدة في هذا المجال، علماً بأنه من كثير من الجوانب أفضـل من النظام الآخــر، حيـث أنه من الأفضـل الحبس في الكنيسة أثناء الليل منه في النهار.

أجناس الناس المتنوعة التي تسكن في كنيسة الضريح المقدس

بما أن المخلوقات المتنوعـة تزين العالم، وتظهـر الكمال الرائع للخالق، كذلك الأمم المختلفة، والطبائع واللغـات، والطقوس، التي تتعبد بكثرة الكنيسة الكاثوليكية، يمكنها أن تظهر روعة كمال مخلصنا، لو أن العناد، والاصرار على الآثام المقيتـة من قبـل الكفـار، والهراطقـة، والمنشقين، لم توجـد بينهم، مع أن حتى وجــود هذه الأمـور يبرهـن بأن الرب رائع وكـــامل، وهكذا فـإن كنيســة الضريـح المقــدس أكثـر جمالاً من جميع الكنائس الأخرى في العالم، ومنشأ ذلك من تنوع الأمم التي تحمد الرب فيهـــا، مع أن الذين يدخلـون إليهـا يثيرون التقــزز والانزعــاج الكبير بآثامهم المقيتـة، واعتاد المسيحيون من جميـع أجزاء العالم، والذيـن كانوا يتحدثون بمختلف اللغات، على الدخـول إليها، في الأيام الطيبة الخالية، وكـانوا يدخلونها رغبة في عبـادة الرب من دون أية ذنب، أو خيـانة، أو أوهام، بينما كـــان الأنـاس المحــرومين كنسيـــا، والمنشقين، والهراطقـــة المنبوذين، الذين مع الأسـف، الكنيسة الآن مليئة بهم، وأبنيتها المقـدسة قد تلوثت بهم، كانوا غير مسموح لهم بالدخول.

ويوجد —على كل حال— هناك سبعة أنواع مختلفة من المسيحيين في هذه الكنيسة، لكل منها طائفتها، وطقوسها الخاصة بها، وسدتها، مع أخطاء مميتة ومتنوعة، لابل يتناول بعضها حتى أسس العقيدة، وسوف نحتاج إلى وقت طويل للحديث عن هذه الأخطاء، لكن إذا مارغب أي انسان أن يحصل على فكرة في داخل هذه المسألة، عليه قراءة كتاب الحج، تأليف مولاي عميد مينز، الذي كتب إليه من قبل العالم المبجل المختص باللاهوت، الأب مارتن روثRoth، الذي هو من دير الدومينيكان في فورزهيم forzhaim ، والذي بحكم اختصاصه، قد أضاف إلى كتاب الحج ذاك، رسالة مطولة وصحيحة حول الأخطاء العقائدية للساكنين في القدس، ولهذا لن أقارب هذا الموضوع مطلقاً، أو سألامسه فقط، بشكل خفيف، والذي سوف أتناوله فقط هو باختصار موضوع الأماكن التي تشغلها في الكنيسة المقدسة هذه الأقوام.

اللاتين الكاثوليك

إن المسيحيين اللاتين هم في المقام الأول، وهم كاثوليك حقيقيون، ويطلق عليهم اسم الفرنجة من قبل المسلمين، وهم يسكنون في هذه الكنيسة، وهم محافظون بإيمانهم، ورهبان أتقياء محترفون، ورجال الدين، من طائفة الفرنسيسكان هم الذين يمتلكون —كما قلنا من قبل— ديراً على جبل صهيون، فيه عدد كبير من الرهبان، يبلغ تعدادهم أربعة وعشرين راهباً، وهم يعيشون تحت أحكام نظام طائفتهم، ويتلقون الدعم والصدقات من الحجاج الأتقياء الذين يأتون إلى هناك من جميع بلدان المسيحية، وكذلك من قبل بعض الأمراء المؤمنين، الذين تدفعهم تقواهم نحو الأماكن المقدسة ونحو التقوى المسيحية، إلى عدم التوقف عن إرسال عطايا صدقاتهم السنوية إلى هناك، وفي الحقيقة قام فيليب دوق بيرغندي، صاحب الذكرى المباركة برسم دفع مبلغ ألف دوقية سنويا للأماكن المقدسة، مادام حياً، وذلك في سبيل خلاص نفسه،

ودعماً للرهبــان الذين يتعبــدون الرب هناك، ومثلـه كـذلـك فعل ابنه شارل، طوال وجوده في هذا العـالم، وكذلك يفعل مثله خليفته في الأيام الحالية، اللورد الواسـع الشهرة وصاحب المكانة السـامية مـاكسيميليان، دوق النمســا وبيرغندي، الذي هو الآن الملـك الأعظم مجداً، والمنتخب ملكاً للرومان حيث يأخذ بمثل أسلافه في دوقية بيرغندي، ويقلدهـم في ارســال المعـونة المقــررة للرهبــان سنوياً، ومن أجل بيــان عن هؤلاء الرهبـان، ووصف لـديرهم، انظر زيارتنا للأمـاكـن المقـدسـة على جبل صهيـون، وفي إطار ذلك الدير، في اليـوم الثالث عشر من هذا الشهـر، خاصة على صفحتي٣٩٨— ٤١٠.

ونيــابـة عن المسيحيين اللاتين يبقي الـرهبــان على الأقل ثـلاثة من عـددهم، في كنيســة الضريح المقـدس وذلك كحـــرس للآبدة الأعظم قداسـة، ويبقى هؤلاء الرهبان هناك ليـلاً ونهاراً، ويمثلون كتلة الكنيسة الرومـانيـة اللاتينيـة كلهـا، وتسلم أغـذيتهم ومـؤنهم إليهم من خـلال فتحـات في باب الكنيسـة، من قبل رهبــان جبل صهيـون، وهم لديهم أفضل الأمـاكن وأعظمهـا قداسـة في الكنيسـة، لأنهم يمتلكون مفـاتيح الضريح الثمين جـداً، وكهف الرب يسوع، وهم يفتحـونه في كل وقت يرغبون، ويعملون قـداسات فيه عندما يختـارون ذلك، ولايتجرأ الكهنة الآخـرون على إقامـة قداس هنـاك، إلاّ بعد الحصول على سماح مؤكـد وإذن من اللاتين.

ويحتـاج الأمر إلى وقت طويل للحـديث كيف حـدث ووصلت هذه السلطة المدهشــة على الضريح المقــدس للرب إلى أيدي اللاتين، فقــد حـدث هذا ليس بعـد مـدة طويلة من الأيام التي كـان الكرج يمتلكون فيها السلطة على ضريح الرب، وفي الحقيقة إنه لأمر مدهش كيف سمح المسيحيــون الآخـرون مـن الطوائف الأخــرى للاتين باستحــواذ هذا الامتياز، آخـذين بعين التقدير أنه لا يوجـد بين الطوائف المسيحية التي

تقطن بالقدس أقل عدداً من اللاتين، ثم إن طريقتهم بالحياة، وعاداتهم، وملابسهم، تختلف عن طرائق المسلمين وعاداتهم وملابسهم، أكثر من اختلاف طرائق وعادات وملابس الطوائف المسيحية الأخرى.

علاوة على ذلك إن ثلاثة من المصابيح المشتعلة دوماً في الضريح المقدس، هي ملك للاتين، وهم الذين يزودونها بالزيت والنار، وتعود المصابيح الستة عشر الأخرى إلى بقية الطوائف، ويمتلك اللاتين أيضاً بيعة العذراء المباركة، التي تقدم وصفها في ص٤٦٩، ويتلون هناك القداس وساعاتها، ولديهم خلف هذه البيعة مكان واسع من أجل نومهم، وطبخهم، وأكلهم، وصنع حاجياتهم، وفي تلك البيعة ثلاثة مصابيح مشتعلة بشكل دائم.

ويمتلك اللاتين على جبل أكرا مذبحاً خاصاً بهم، وثلاثة مصابيح مشتعلة فوق صخرة المسيح، وفي مكان اكتشاف صليب المسيح، لديهم مذبح واحد، ومصباح واحد مشتعل في الكهف الذي وجد فيه صليب المسيح، ولديهم أيضاً مصباح مشتعل واحد في المكان الذي جرى فيه تحنيط جسد المسيح، بعد انزاله من على الصليب.

ومازال البوهيميون متحدون مع اللاتين في القدس، وعندما جاءوا إلى القدس، سكنوا مع اللاتين، وشاركوا في طقوسهم، مع أنهم تخلوا عن كنيسة روما، وتزداد هرطقتهم شدة كل يوم، ومثلهم الغلاغولي Glogolar الذين يسكنون بيننا، وهم على كل حال لايتلون القداس باللاتينية، بل بلغتهم الأم، لأنهم يتلقون مهامهم المقدسة في روما، وهم ليسوا هراطقة.

أي جزء من كنيسة الضريح المقدس ملك للاغريق

ويمتلك الاغريق المكان الرئيسي في الكنيسة المقدسة، أي السدة، ورأس القيامة كلها، وكان هؤلاء الاغريق في الكنيسة الأولى مشهورين

وممجدين في العقيدة، وكان لديهم كثيراً من المدن الجميلة، وأربع كنائس كاتدرائية فخمة، هي التي كانت ملكاً لبطارقة: أنطاكية، والقدس، والاسكندرية والقسطنطينية الذين كانوا منذ زمن بعيد في طاعة الكنيسة، غير أنهم فيما بعد تخلوا عنها وتركوها، وسقطوا في أعظم الأخطاء، وبلغ بهم الأمر إلى حد التجديف ضد الروح القدس، وضد نظام القرابين، وسلطات كنيسة روما، واقتنعوا مراراً بالمنطق، فعادوا إلى صدر الكنيسة، غير أنهم بدلوا اثنتي عشرة مرة، وهم مصرون الآن على أخطائهم، وهم يعيشون مع الأتراك والمسلمين، وهم يعذبون اللاتين بدون شفقة في كل طريقة ممكنة، وماكان ممكنا للأتراك وللمسلمين أن يزدادوا قوة، لولا أن الاغريق كانوا خونة، وكان من الممكن للمسيحيين الشرقيين الآخرين أن يعودوا إلى الاتحاد مع الكنيسة، وكان من الممكن بسهولة أن يعودوا في هذه الأيام، لولا أن هؤلاء الاغريق المتكبرين قد منعوهم، وضللوهم مرة ثانية حتى لو أنهم قد عادوا، ومع ذلك على الرغم من هذه الآثام، لديهم الوقاحة بالتجرؤ على دخول كنيسة ضريح الرب الأعظم قداسة، وقام هؤلاء المعتدون بشكل ظالم بجعل أنفسهم رأساً للكنيسة، ويمتلكون في هذه الأيام السدة والمذبح العالي، ويحتفظون بعدد كبير من المصابيح مشتعلة أمامها، كما أنهم يمتلكون سجن الرب، الذي تقدم ذكره في الصفحة ٤٧٤، ولديهم هناك مذبحاً، ومصباحاً مضاء، ولديهم على جبل أكرا مذبحين، لأن الكرج الذين يمتلكون الجبل من طائفتهم، ولديهم تحت الأرض في بيعة القديسة هيلانة، مصباح مضاء واحد، ومثل هذا يمتلكون مكان توزيع ثياب المسيح، وهناك يوجد مذبح واحد، ومصباح واحد مضاء، ويكفي ماقلناه عنهم.

الكرج: أي نوع من المسيحيين هم، وأية أماكن في كنيسة الضريح المقدس عائدة إليهم

الكرج (الجورجيون) ويعرفون أيضاً باسم النوبيين، ويشتهرون بشكل عام أكثر باسم سنكتشر Cincture، وقد جاءوا من مناطق بعيدة جداً عن الأرض المقدسة، وهم محاربون، حتى أنهم يدربون نساءهم على القتال، وهم مسيحيون، لكنهم موصومون بشكل عام بأخطاء الاغريق نفسها، وهم يمتلكون في الأرض المقدسة جبل أكرا، ولديهم دوما حديقة الصخرة المقدسة، ملحقة بالكنيسة، ولم يكونوا يمتلكون هذا المكان المقدس منذ زمن طويل، بل امتلكوه منذ خمس عشرة سنة خلت، لأنهم قدموا هدايا إلى ملك مصر وسلطانها، الذي طرد الأرمن منه، ووضع الكرج في مكانهم، وهم أيضاً يمتلكون مكان وكهف اكتشاف الصليب المقدس، وثلاثة مصابيح فيهما، مع أنهم نادراً ما يشعلونهم، وهم أيضاً يمتلكون البيعة تحت جبل أكرا، المدفون فيها ملوك القدس اللاتين، وذلك حسبما ذكرت في ص٤٩٤.

اليعاقبة الهراطقة

ويوجد هناك في الكنيسة يعاقبة، هم الذين يمتلكون في بلدانهم في المشرق ممالك كثيرة، وهم هراطقة بشكل شاذ، ويخطئون بشكل مقيت بشأن نقاط كثيرة، وهم يحافظون على عقيدة الختان، ويمارسون طقوس القرابين لكلا النوعين من الأطفال، وهم على صدور أمهاتهم، ويعملون في ظل أخطاء مضاعفة حول رجولة المسيح، ويمتلك هؤلاء القوم بيعة صغيرة ملاصقة لآبدة الرب، حيث لديهم فيها مذبحاً ومصباحاً، ومثل هذا هم يمتلكون المكان الذي جرى فيه تحنيط الرب، ولديهم هناك سبعة مصابيح مضاءة.

الهنود المسيحيون أو الحبشان

ويمتلك الحبشان (كذا) أو الهنود المسيحيون —الذين يعيشون في ظل حكم راعي دير— شطراً من كنيستنا كنيسة الضريح المقدس، وهم

رجال ذوي حياة صارمة جداً، وكذلك فقراء للغاية، وممتلئين بالأخطاء، وفي اجتماعاتهم يتقاطرون جميعاً بحماس من أجل القداس في أيام الأعياد، وهناك تجدهم كلهم، من الجنسين، حيث يبدأون بغناء الأهازيج، وهم يقفزون بأرجلهم ويصفقون بأيديهم معا ويتجمعون مع بعضهم بعضاً في دوائر ستة أو سبعة، أو ربما تسعة أو عشرة، ويغنون أحياناً وفق طرائقهم طوال الليل كله، لاسيما في ليلة قيامة المسيح، ففي تلك الليلة لايتوقفون عن الغناء، والركض نحو الأمام ونحو الخلف حتى فجر النهار، وينفذون هذا بحماس منقطع النظير، حتى أن عدداً كبيراً منهم يقع مريضاً من خلال جهودهم التي بذلوها، لكن مع أنهم يمارسون هذه الأعمال، ويرعون هذه الأيام المقدسة، تراهم ملوثين بأكثر الأخطاء خبثاً، وهم هراطقة ممقوتين من قبل الكنيسة المقدسة.

وهم يتبعون اليهود والمسلمين واليعاقبة في تطبيق ماليس مفيداً، لابل هو من الطقوس الملعونة، وأعني بذلك الختان، ويسمون أولادهم على الوجه بقلم من الحديد المحمى، ولايعبأون بشأن تلقي المعمودية بالماء، ويمتلك هؤلاء القوم بيعة، يوجد فيها تحت المذبح ويقوم الحجر التي جلس عليه ربنا، عندما جرى تتويجه بتاج من شوك، ولديهم مصباح ومذبح، وبيعتهم ومذابحها وذلك حيث يقيمون يوميا طقوس عباداتهم، موجودة على جهتك اليسرى وأنت داخل إلى الضريح المقدس، بين أعمدة الكنيسة، وهي مغلقة —عوضاً عن الجدران— بأقمشة وحصر، ومعلقات أخرى مربوطة بحبال.

المسيحيون السريان

يعيش المسيحيون السريان في وضع عبودي تعيس تحت حكم عدد متنوع من الأمراء غير المسيحيين، وهم موصومون بأخطاء الاغريق، الذين يتولون تقليدهم، وهم هراطقة وبلا ايمان، وخونه، ولصوص، وغيورين على نسائهم وزوجاتهم مثل المسلمين، وهؤلاء الناس هم معنا

أيضاً في كنيسة الضريح المقدس، ويمتلكون بيعة القديسة هيلانة، حيث يمارسون طقوسهم، وهم يعيشون إلى جانب الهنود في خيمة محاطة بأقمشة وماشابه ذلك.

المسيحيون الأرمن: من أي نوع هم

ويشاركنا الأرمن في هذه الكنيسة أيضاً، وقد جاءوا من أرمينية، وهم أعداء بلاهوادة للإغريق، ومع ذلك تراهم غير مهتمين بتجنب آثامهم، كما أنهم ليسوا متحررين من هذه الآثام، فهم عندما يقيمون قداساً لايمزجون الماء مع الخمرة، مثلما يفعل الاغريق، ويأكلون اللحم في يوم الجمعة، ولايرعون يوم ميلاد الرب كيوم عيد، بل إنهم يصومون في ذلك اليوم، ويقدمون تعليلاً لتصرفهم على هذه الصورة، بأن الرب قد ولد في وسط تعاسة حياتنا، لكنهم يحافظون على عيد الغطاس ويحتفلون به بشكل مهيب، وذلك بسبب عمدانية المسيح، ويطلقون على هذا العيد اسم «ميلاد المسيح الروحي»، وفي هذا هم يخطئون أيضاً.

وكنت لدى حديثي عن الكرج، قد ذكرت بأن هؤلاء الأرمن كانوا يمتلكون جبل أكرا، لكن عندما فقدوه، اشتروا من السلطان مكاناً في الشرفة العليا من الكنيسة، وهناك كرسوا لأنفسهم سدة، وعملوا غرفاً للاقامة بها، ولايختلف الأرمن عنا كثيراً، مثلما تختلف الطوائف المتقدمة الذكر، وفي الحقيقة لقد سمعت بأن الأرمن غالباً مايلتقون مع الذين ليس لديهم كهنة إلاّ من الرهبان الدومينيكان الذين يعدون بالنسبة إليهم أساقفة، ورعاة أبرشيات، وكهنة، وهؤلاء هم أفضل الكاثوليك، ذلك أنهم تحولوا إلى الايمان الصحيح على يدي راهب من طائفتنا، كان قد ترجم إلى لغتهم كتاب Summa theologia لتوماس الأكويني، وكتب أخرى من تأليف علماء كاثوليك، واعتاد هؤلاء الأرمن على أن يزوروا من وقت إلى آخر المقدم العام لطائفة القديس دومينيك، حيث كانوا يظهرون أنفسهم أنهم أبناء له في الطاعة، وهم يزورون بخشوع

عظيم ضريح أبينا القديس دومينيك، وقد أخبرني بهذا عدد من إخواني الرهبان الذين رأوهم، وسمعوهم يتحدثون مع المقدم بأفضل طريقة ممكنة، لأنه لايوجد لاتين لديهم، وهم لايعرفون اللغة اللاتينية.

وبقي المسيحيون الذين تقدم ذكرهم، في القدس، عندما استولى المسلمون على المدينة، ووقتها جرى طرد اللاتين، والبطريرك، والملك من القدس، مع جميع أتباعهم، وجرى تسليم كنيسة الضريح المقدس إلى هؤلاء المسيحيين المتبقين على شرط واحد، هو شراء الأماكن التي يرغبون فيها في داخل هذه الكنيسة وهذا مافعلوه حقاً، وهكذا بدأت فوضى هذه الحشود المزيجة في الكنيسة في سنة ١١٨٧ لتجسيد ربنا، وكان ذلك في الحادي عشر من تشرين الأول، ومنذ ذلك الحين، عاشت جميع الأمم المتقدم ذكرها في القدس كرعايا ودافعين للجزية للمسلمين وبقيت المدينة المقدسة لسنين طوال من دون مسيحيين لاتين، حتى اشترى روبرت ملك صقلية بعض الأماكن المقدسة من السلطان، مقابل الكثير من الذهب، وسلم هذه الأماكن إلى الرهبان الفرنسيسكان، الذين مابرحوا يتملكونهم حتى هذا اليوم، وبشأن هذه الأماكن، انظر ما تقدم في ص٤٦١.

وإلى جانب الأمم التي تقدم ذكرها من قبل، هناك شعوب أخرى كثيرة في القدس، لاتؤمن بالديانة المسيحية، نذكر من هؤلاء: المسلمين، واليهود، والأتراك، والسامرة، والمماليك، الذين عنهم جميعاً هناك عرض واضح قدمه اللورد برنارد بريتنباخ العظيم، المتقدم الذكر، الذي لم يبخل بنفقة على تصنيف كتاب رحلته بشكل صحيح، أو لنقل كتاب حجه، حيث حصل على ذلك الاستاذ المحترم، واللاهوتي المتنور، والملهم المنعم عليه، وأعني به الأب مارتن روث (كذا)، المنتمي إلى طائفة القديس دومينيك، فهو الذي كتب كتاب الرحلات للورد المتقدم الذكر، بشكل مزين، وبأسلوب علمي، وقد وصف بوضوح مختلف

الشعوب التي سكنت في القدس، مع جميع أخطائها، ومشاكساتها، وعاداتها، موجها اللوم إلى هذه الشعوب بسبب أخطائها، وقدم عرضاً لاهوتياً ثميناً جداً واختصاصيا، مع حلول لكثير من النقاط الصعبة، كما أنه استأجر رجلاً فناناً، رسم له الموانىء البحرية، والمدن، والأماكن على اليابسة، وبشكل خاص في الأرض المقدسة، وملابس الشعوب المذكورة للحياة، وجعل صورة موائمة لكلمات النص، وعلى هذا إن الذي سيختار قراءة هذا الكتاب، يمكنه أن يجد فيه كل ماتجاوزته، ولسوف أتابع الآن السير قدما مع جولاتي.

زيارة إلى الأماكن المقدسة في مدينة القدس وكذلك إلى الأماكن من حولها

وفي اليوم الخامس عشر، الذي هو عيد تفرق الرسل، وفي بداية النهار، أي في الأمسية المتقدمة، أرسلت رسالة إلى جميع الحجاج، أنهم ينبغي أن يتسلقوا عند غياب الشمس قمة جبل صهيون، لأن معلمينا أي دليلينا، يرغبان في أخذنا في ذلك المساء نفسه إلى بيت لحم، وعندما وصلنا جميعاً إلى المكان المكشوف على جبل صهيون، وجدنا حميرنا واقفة هناك مع سائقيها، ولذلك ركض كل واحد منا هناك وهو يصرخ ناشداً سائقه وباحثاً عنه، حسبما تقدم لي وصف ذلك في ص٣٥٠ المتقدمة.

وبعدما حصلنا على حميرنا، وقفنا هناك، وانتظرنا بعض الوقت وصول دليلينا، ووقفنا هناك، وانتظرنا لوقت طويل قدوم دليلينا، اللذان قدما أخيراً عند غياب الشمس، قدما وهما آسفين، وأخبرانا بأن البدو المدينيين، والأعراب قد جاءوا إلى بيت لحم من سدوم، ومن القفار حول الأردن، وهم كامنون هناك بانتظارنا، من أجل الانقضاض علينا، وأسلحتهم في أيديهم، وذلك بغية سلبنا، ولذلك يتوجب علينا في هذا الوقت الاقامة في القدس، حتى يغادر هذا الحشد من اللصوص بيت

لحم، ولذلك أخذت الدواب منا إلى أماكنها، وقمنا نحن بجولة على الأماكن المقدسة في جبل صهيون، وصلينا لوقت طويل في مكان افتراق الرسل، الذين كان عيدهم قريباً في متناول اليد، وحول هذا المكان انظر ما تقدم في ص ٤٤٦.

وعندماغابت الشمس نزل الحجاج عائدين إلى مشفاهم للاستراحة، لكن عدداً كبيراً منهم بقي معنا فوق جبل صهيون، ومكثوا ساهرين في الأماكن المقدسة، وفي منتصف الليل استيقظنا معا مع الرهبان من أجل صلوات البلاد الصباحية، وبعدما شرعنا بتلاوة قداسات خاصة، كل واحد منا في المكان الذي اختاره، تابعنا ذلك حتى بداية الضوء، وعندما بدأ فجر اليوم الخامس عشر من تموز، وقبل شروق الشمس، نزلنا نحن الذين كنا في فوق جبل صهيون إلى المشفى، وأيقظنا إخواننا من السادة الحجاج، لنقوم بزيارة حج، وعندما صاروا جاهزين، خرجنا من المشفى مع بعض رهبان جبل صهيون، وكالينوس الفحل، الذي أمّن لنا بعصاه ممراً آمناً، ومنع الأطفال من رمي الحجارة علينا، وذهبنا أولاً إلى ساحة كنيسة الضريح المقدس،ومددنا هناك أنفسنا فوق المكان الذي سقط فيه المسيح تحت الصليب، كما تقدم بنا وصف ذلك، وتلقينا هناك غفرانات مطلقة(++).

الباب الذي اقتيد الرب يسوع إلى خارجه من أجل الصلب

وخرجنا بعد هذا من الساحة إلى شارع يقود من جبل صهيون إلى جبل أكرا، ويقود من هناك نزولاً إلى المدينة، من خلالها جميعاً، وطول المدينة الأعظم هو من الشمال إلى الجنوب، وعرضها الأدنى هو من الشرق إلى الغرب،وبعدما قطعنا بعض المسافة نازلين نحو البلدة، على الطريق الذي صعد عليه الرب يسوع إلى جبل أكرا حاملاً صليبه، وصلنا إلى باب قديم مهدم على الجهة اليمنى، لم يبق منه سوى جانب واحد، ممتداً من الأرض إلى منحنى يدعم القوس، ذلك أن بقية كل

شيء قد ذهب، لابل حتى الجزء المتبقي قد بني الآن على شكل عدة بيوت، ولذلك تعذر علينا الوصول إليه، ولذلك وقفنا على بعد مقابيله، ونظرنا إليه.

وتبين لنا بشكل جلي من خرائبه، بأنه كان بابا عاليا، بني بشكل جيد من حجارة مربعة منحوتة، وكان هذا الباب، يعرف باسم الباب القديم، قبل توسعة المدينة من قبل إليوس هدريانوس، لأنه كان موجوداً هناك في أيام اليبوسيين، وأطلق عليه فيما بعد اسم باب القضاء، لأن المحاكمات كانت تتم هناك وفق الطرائق القديمة، والذين كانوا يحاكمون هناك ويحكم عليهم، كانوا يرسلون إلى خارجها لاعدامهم، وهذين الاسمين معا هما واحد، وبالاسمين معا، أي: الباب القديم، وباب القضاء، قد ورد ذكرهما في الاصحاح الثالث من سفر نحميا.

وإلى خارج هذا الباب، جرى اقتياد الرب، من أجل صلبه، اقتيد وهو يحمل صليبه، ولذلك قيل عن هذا الباب في الرسالة إلى العبرانيين الاصحاح الثالث عشر: «لذلك يسوع أيضاً لكي يقدس الشعب بدم نفسه تألم خارج الباب»، فلنخرج إذا نحن الحجاج البشر إليه إلى خارج الباب، حاملين عاره، فمن يمكنه —أرجوكم— يستطيع الخروج إلى هذا الباب إلاّ بخشوع وتقوى؟، فمن هنا ذهب هابيل إلى حقل عفرون (عفريم) حتى يقتل، ومن خلال هذا الباب نفسه حمل اسحق الحطب، حتى يمكن التضحية به فوق الجبل، وهنا شوهد عنقود العنب الذي حمل على العصا، ورددنا عند هذا الباب الصلوات المحددة في كتب المسيرة، وجثونا على ركبنا، وتلقينا غفرانات.

السقائف على الطريق إلى جبل أكرا حيث كان جري انعاش الذاهبين إلى موتهم

وتابعنا سيرنا من هناك، ووصلنا إلى المكان، الذي كان فيه، عندما

أخرج المسيح، إلى خارج الباب، خياماً منصوبة، حيث عندما كان يؤتى بالمحكوم عليهم بالموت إلى خارج الباب، كان هناك بعض الناس اللطفاء قد دفعوا ثمن خمرة من أجل أن يشربها المحكوم عليهم بالإعدام، وكان هؤلاء يعطون هناك خمرة قوية يشربوها في ذلك الموضع، على أمل أنهم بشربهم للخمرة يزول عنهم الكدر ويصبحوا مسرورين، فقد وصلنا خبر في الاصحاح السادس (كذا) من اسدراس يقول:« تقلب الخمرة فكر كل انسان إلى السرور والمرح، وبذلك يغدو الانسان غير قادر على أن يتذكر لا الأسى ولا الدين، وتجعل الخمرة كل قلب غنياً» (أسدراس: ١/ ٣/ ٢٠—٢١)، وكانوا يحملون من هذا المكان الخمرة أيضاً في كؤوس ودنان إلى مكان التعذيب، من أجل أن يجعلوا الناس هناك سكارى أيضاً، وذلك حسبما تقدم بنا القول في ص٤٧٤.

ومثل هذا أمر التلمود الناس أن يفعلوا، فقد فرض اسكار الناس الذين على وشك الاعدام، وذلك يجري تنفيذا لما أوصت به الكتابات المقدسة في قولها:«أعطوا مسكراً لهالك، وخمراً لمري النفس، يشرب وينسى فقره، ولايذكر تعبه بعد» (الأمثال:٣١/ ٦).

وحدث أنه عندما وصل الرب يسوع إلى هذه الخيام مع صليبه، واللصين اللذان كانا سيصلبان معه، أسرعوا نحو الأمام مع الرب يسوع، لكنهم توقفوا مع الاثنين الآخرين، وجلبوا إليهما خمرة، وجلبوا إلى الرب يسوع خمرة ممزوجة بالمرّ، وجلبوا ذلك من الحانة التي قامت عند مكان الصلب، وقدموا ذلك إليه، لكنه رفض قبول ذلك، وذلك حسبما قرأنا في متى:٢٧، ولم نقرأ بأن الاثنين الآخرين قد حملا صليبيهما، بل حملها لهما رفاقهما، وقد حمل ربنا يسوع صليبه، بسبب أن جميع رفاقه قد تخلوا عنه، ووقف الذين يعرفونه بعيداً عنه، وكانوا مستعجلين كثيراً مع الرب يسوع، أكثر من تسرعهم مع الآخرين، لأن بيلايطس أعطى

قـراراً بدون ارادة، ودفع بالحاحهم نحـو التنازل والقبـول بمطلبهم، وكـانوا يخشـون من إمكانيـة نقض القـرار غير العـادل الذي كـان قـد أصدره، ولهذا كله كانوا متسرعين.

ووقفنا حـول هـذا المكان، وصلينا، ذلـك أننا كنـا ممتلئين بالحب والتعاطف.

بيت القديسة فيرونيكا

ووصلنا ونحن نازلين من ذلك المكان إلى مـوضع فيرونيكا Veron-ica، التي يقال بأنها كانت هـي المرأة التي استمر الدم يخرج منها لاثنتي عشرة سنة، وقـد لمست بلمسـة خاصـة طرف ثيـاب الرب، وهي التي دعـاها «ابنة»، وأوصى بها كثيراً من أجل إيمانها، وذلك حسبما قـرأنا في الاصحـاح التـاسع من انجيل متى وقـال بعضهم بأن تلك المرأة كـانت مـرثا، لكن يوسيبيـوس قـال في الكتـاب السـابع من مصنفـه «التـاريخ اللاهوتي» بأن التي شفيت من قبـل الرب، وغدت مـن أتباعـه، كـانت فيرونيكا، وكانت سيده ذات تقوى خاصة وتواضع.

وكانت قد سمعت أصوات الناس الذين كانوا مارين من قرب بيتها، مع الذين كـانوا سيصلبـون، فهـرعـت خـارجـة من البيت وهي تبكي، وقابلت الرب يسوع، وهو مجهد تحت حمله للصليب، ورأت وجهه وقد تغطى بالبصـاق وبالدم، فتناولت منديلهـا، ومسحـت وجـه المخلص، وبقيت صورة وجهـه مطبوعة على منديلهـا، وكأنه قد رسم هناك رسماً، واحتفظت تلك المرأة بالمنديـل، واستمـدت منه عـزاء عظيماً، وصـارت صـورة الوجه تلك مشهـورة جداً، بسبب آيات ومعجـزات صنعت من قبلها، وتعاظمت شهرتها، وقـد استدعيت هذه المرأة مع منديلها وحملت إلى رومـا، بنـاء على أوامـر القيصر تايبيروس، مـن قبل الجنـدي فـوليوسيـانوس Volusianus لأن القيصر كـان مصاباً بمـرض ثقيل،

وقد شفي من هذا المرض في اللحظة التي رأى فيها تلك المرأة القديسة، ولمس الصورة، وبعدما قامت بعملية الشفاء هذه، تابعت السكنى في روما حتى موتها، وهي موضع احترام عظيم من أجل قداستها، وصلاحها، حيث كانت واحدة من مؤسسي كنيسة الرب، مع الرسل بطرس، وبولص، وكليمنت، وبإرادتها تركت الصورة نفسها المطبوعة على قطعة القماش الكتاني، إلى البابا كليمنت وخلفائه، والمنديل في هذه الأيام محفوظ في كنيسة القديس بطرس، وهناك يزار من قبل الناس الذي يؤمنون بالمسيح، مع التبجيل الأعظم، وحافظ هذا المنديل على اسم المرأة حتى اليوم الحالي، حيث اسمه المعروف به هو فيرونيكا، ولقد رأيت هذا «الفيرونيكا» في روما في يوم الصعود لعام ١٤٧٦.

ومن وقت إلى آخر نظم كثيرون، وكتبوا أغاني جميلة للمدح، والأغنية الرئيسية بين هذه الأغاني والمنتشرة بشكل واسع على أفواه الناس، هي التي تسير كمايلي:

«مرحباً أيتها الطبعة المقدسة لوجه مخلصنا،

التي تشع منها نعمة الرب الرائعة.

مطبوعة على منديل أبيض كالثلج

وأعطى فيرونيكا، حبه ليرى».

وعلى هذا رأينا هذا البيت، بيت القديسة فيرونيكا، وتطلعنا إليه بروح مشرقة، عاكسة كيف أنه بوساطة تلك التي سكنت في هذا البيت، تلقت كنيسة روما كلها المجد والشرف، بحصولها منها على تلك الصورة للمخلص، وكيف أن جميع الناس المؤمنون في كل العالم يسعون إلى روما لرؤية هذا الوجه الثمين، الذي مامن مسيحي يمكنه أن ينظر إليه، ويستطيع منع نفسه من البكاء، ووقفنا أمام البيت، وقبلنا الباب، وتلقينا غفرانات(+)، وحدث على كل حال أنه بعد سفر الحجاج

ومغادرتهم للقدس، أن سمح لنا نحن الذين بقينا خلفهم، بالدخول إلى ذلك البيت، من قبل المسلمين الذين يسكنون فيه.

بيت دودروكس الغني الغلوتوني الذي لبس الأرجوان، الخ

وتابعنا من هناك سيرنا نازلين خلال المدينة، ووصلنا إلى بيت قديم، لكنه كان جميلاً، وهو الذي يقال بأنه كان بيت الغني الغلوتوني glut-ton، الذي كان اسمه دودروكس Dodrux، ولم يتلفظ الرب باسمه في الانجيل، عندما ذكر اسم الرجل الفقير، وسبب ذلك أعطاه غريغوري في قداسة حول ذلك المثل (لوقا:١٦/ ١٩—٣١)، فقد كان دودروكس هذا غنيا ومترفاً، ولم يرض بإعطاء الفقير المتسول لعازر حتى الفتات الذي سقط من مائدته، ونظرنا إلى هذا البيت وتطلعنا إليه باحترام، بسبب فضائل ذلك الرجل الفقير، وتلقينا غفرانات(+).

علاوة على هذا، تلقينا نحن الحجاج جميعاً من غني وفقير، هذه الأمثلة، من أجل أن نقوّم حياتنا، حيث تعلم الغني انكار الذات، وأن الرحمة واجبة من الرجل الغني المتنعم، وأن الرجل الفقير الذي قد مات قد دفن، في حين تعلم الفقير دروس الأمل والصبر من الفقير لعازر، الذي كان مليئاً بالقروح، فقد حمل إلى حضن ابراهيم، وجاء تعليمنا حول هذين الرجلين: الرجل الغني والمتسول في انجيل لوقا — الاصحاح السادس عشر.

مفترق الطرق حيث أرغموا سمعان على حمل الصليب خلف يسوع الأمر الذي فعله

وتابعنا من هناك سيرنا متقدمين، ووصلنا إلى مكان تتداخل فيه الطرق أحدها بالآخر، وتشكل بذلك تقاطع يستطيع الذي يقف في وسطه السير في أي اتجاه يريد، وعندما وصل المسيح إلى تقاطع الطرقات هذا كان منهكاً بحمله لصليبه، ووضعه أرضاً حتى ينال راحة

قصيرة، وليسترد أنفاسه، لكن اليهود الأشرار كانوا على عجلة كبيرة من أمرهم، الأمر الذي شرحته تحت عنوان «السقائف، وعندما كان واقفاً هناك قدم رجل اسمه سمعان القيرواني، الذي كان واحداً من تلاميذ المسيح بالسر، وضغط على هذا الرجل وأرغم على حمل الصليب خلف المسيح، وذلك حسبما قرأنا في لوقا — الاصحاح الثالث والعشرين، وحمل صليب معلمه وهو كاره لذلك كثيراً، لأنه كان مايزال جاهلاً بأسرار ذلك، وبالخلاص، ولهذا ركضنا إلى هذا المكان، وأشفقنا على المسيح، وابتهجنا معه: أشفقنا عليه بسبب أنه لم يكن هناك من يساعده، إلاّ سمعان هذا، الذي ساعده وهو كاره على حمل الصليب، وابتهجنا معه، لأنه الآن لايوجد فقط مجرد رجل فلاح وحيد، جاء من أقرب القرى، ليحمل صليب يسوع، بل هناك الآن عدداً كبيراً من البارونات، والنبلاء، والرجال الأعيان، هم الآن موجودين، قد جاءوا من مدن نائية، وقلاع بعيدة، قد جاء كل واحد منهم إلى هنا برغبته من بلاد واقعة فيما وراء البحار، وكل واحد منهم على استعداد لحمل صليب ربهم، وانحنيا في هذا المكان بأنفسنا نحو الأرض، وبعدما تلونا الصلوات المعينة، تلقينا غفرانات مطلقة(++).

وقام فيما مضى على هذه البقعة كنيسة، هي الآن مهدمة بشكل كامل.

المكان الذي قال المسيح فيه للنساء الباكيات «يابنات القدس» الخ

ولدى متابعتنا السير قدماً على ذلك الطريق المتعب جداً والمرهق، أي على طريق الرب، الذي عبر عليه أثناء آلام الصليب، وصلنا إلى البقعة التي عندما كان حاملاً لصليبه، سمع ورأى صرخات النحيب التي صدرت عن النساء اللائي كن يتبعنه، فصرف ناظريه وأشاح بوجهه عن الرعاع الغاضبين، وتوجه نحو النساء اللائي أحببنه، وكن ينتحبن من

أجله قائلاً:«لاتبكين يابنات القدس علي» الخ، وألقينا في هذا المكان المقدس بأنفسنا على الأرض، وقبلنا طبعات قدم مخلصنا، وتلقينا غفرانات(+)، وهنا أيضاً قام فيما مضى كنيسة، لم يبق —على كل حال— منها أثر يمكن رؤيته.

المكان الذي سقطت فيه العذراء المباركة شبه ميته رعباً

وتابعنا السير قدما على هذا الطريق المقدس، والمحزن، لكن ليس من دون كثير من الدموع من الحجاج الأتقياء، ووصلنا إلى مكان فيه على الجهة اليمنى من الطريق رابية صغيرة، وقفت عليها العذراء مريم وهي في الحزن الأعمق، واستمر ذلك منذ الصباح الذي كان فيه ابنها في قاعة القضاء، أمام القاضي، وذلك بغية أن تعرف إلى أين سيقودونه حتى تتبعه، لكنها عندما شاهدت ولدها يسير بين اللصين، وهو حامل لصليبه الفائق الثقل، ولابس التاج من شوك فوق رأسه، ووجهه مغطى بالدماء وملوث بالبصاق، ومحاط بعساكر من الرجال المسلحين، عندما شاهدته بهذه الحال سقطت أرضاً وهي مرعوبة، وأغمي عليها.

وتوقفنا هنا وعقولنا مليئة بحزن متجدد، وبعدما تلونا الصلوات المعينة، انحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا الأرض في هذا المكان المقدس، وهنا تلقينا غفرانات مطلقة، وقد قام فيما مضى في هذا المكان كنيسة فخمة، كان اسمها كنيسة القديسة مريم المغمى عليها، لأنه أغمي عليها وتلاشى وعيها هناك، وقد دمر المسلمون هذه الكنيسة، وتركوا جدرانها قائمة، ذلك أنها بنيت بقوة من حجارة مربعة، وهي ماتزال قائمة حتى يتمكن واحد من المسلمين من بناء بيت لنفسه فوقها، ذلك أنها قائمة في وضع جيد ومرتفع، لأنه من موضع أكرا، وطوال الطريق حتى بيت الرجل الغني، هو طريق نازل من الرابية، ومن المكان الذي أرغم فيه سمعان على حمل الصليب خلف يسوع، ترتفع الأرض طوال الطريق حتى هذه البقعة، حيث تقف جدران الكنيسة من دون بيت

قائم فوقهم.

وهناك القصة الغريبة التالية قد حكيت حول هذا المكان، وفيها أن عدداً كبيراً من المسلمين قد حاولوا أن يبنوا لأنفسهم بيوتاً فوق هذه الجدران القديمة، لكن مامن واحد منهم قد تمكن قط من إكمال عمارته، إنما بعد تعبه كله، وبعد الذي أنفقه، كان يسقط كل ما أقامه بشكل مفاجيء، وقد حدث هذا مراراً، إلى حد أن مامن أحد يحاول الآن بناء أي شيء فوق هذه البقعة، بل تركوا خرائب الجدران قائمة من دون استخدام، وفي هذا دليل على قداسة هذا المكان، وأن كنيسة سوف تبنى هناك، ولقد قيل بأنه حتى الحجارة لايمكن أخذها ونقلها من هناك.

المكان الذي حكم فيه على ربنا بالموت، والذي اسمه جباثا أو البلاط

وتابعنا السير من هناك قدماً، على طول الطريق، حتى وصلنا إلى المكان الذي كان في أيام آلام بالمسيح، مقعد القضاء، وكان اسم هذا المكان في العبرية جباثا، وفي الاغريقية **Lychostratus**، وفي اللاتينية «تلة الأحزان»، لأنها كانت تلة أحزان عظيمة على من صدر عليهم الحكم، وقد ورد ذكر هذا المكان في الاصحاح التاسع عشر من انجيل القديس يوحنا، ويقوم في هذا المكان قوس مرتفع، بني من حجارة مربعة، ويمتد من الطرف الأول للطريق إلى الطرف الآخر، وبذلك يغطي الطريق كله وكأنه قوس باب، وقد بني فوق القوس جدار بارتفاع جسم الانسان، وبني في هذا الجدار حجرتان بيضاويتان مربعتان، وهن من الرخام المصقول، مفصولتان احداهن عن الأخرى، تريان من خلال التطلع في الطريق وكأنهن وضعتا في الجدار من أجل التزيين، فقد كان مكان الـ **Lychostratus**، هذا في أيام آلام المسيح، مبلطاً بألواح من الرخام، وفي ذلك البلاط حجرتان بيضاوتان مربعتان

مصقـولتان، مـرتفعتان عن البقيـة، كـانت أولاهن تحت مقعد القضـاء، ولذلك عندما كان القاضي يجلس على ذلك المقعـد كان يريح قدميه على الحجرة، في حين كـانت الأخرى في وسط البـلاط، وعليها كـان يوضع الرجل الذي سـوف يحاكم، ومـن حـول هاتين الحجـرتين كـانت هناك مقاعد للقناصل والقضاة.

وعلى هذا قدم بيـلايطس إلى هذا المكان، مكان جباثـا، ليصدر الحكم بالموت على يسـوع، حيث جلس على كـرسي الحكم، وأراح قدميـه على الحجر، ووقف الرب يسوع الذي سوف يعـدم فوراً، وقف فوق حجرة الاتهام والمتهمين، وأخـذ المؤمنون هاتين الحجـرتين، وبنوهن في الجدار، فوق هذا القوس، لتكونا ذكرى دائمة لهذه الأعمال، وبناء عليه جثونا في هذا المكان فوق ركبنا، وبعدما عبدنا الرب، تلقينا غفرانات، وأعدنا هنا إلى ذاكرتنا التهم الظالمة التي قدمت ضد المسيح من قبل اليهود، والحكم المعلن غير العـادل، ورعب وظلم القـاضي، وصمت المسيـح، وأشيـاء أخرى كثيرة كانت قد حدثت في هذا المكان.

قاعة المحاكمة، وبيت بيلايطس حيث جرى جلد الرب، وتتويجه واهانته بطرق مختلفة

وعندمـا أنهينا صلواتنا في المكان المتقـدم ذكـره، نهضنا، وعبرنا من خـلال القـوس المتقدم الذكـر، ووصلنا إلى بيت بيـلايطس، الذي فيـه، يعرف كل مسيحي، أي عذاب تحمله الرب، وفي هذا البيت كانت هناك قاعـة القضاء، التي إليها اقتيـد الرب يسوع، وهو مربوط بأغـلال قوية، مع وجـود سلسلة حـديدية حـول رقبته، وتـواجه مع قـاضيـه، وسمع التهمـة، وفحص، وبعث إلى هيرود، وأعيـد ثـانيـة إلى هـذا البيت، فاستجـوب، وجلد، وتوج بالشوك، وسخـر منه بطرق مختلفة، وعنـدما غطي بالاهانات، عرض على الناس حيث شاهدوه.

ولهذا انحنينا بأنفسنا نحـو الأرض أمام مـدخل هذا البـاب، مع كثير من النحيب، وتلونا الصلوات المحددة في كتب المسيرة، وتلقينا غفرانات مطلقـة(++)، وعندمـا نهضنا قبلنا حجـارة الجدران، وكنا راغبين في الدخول إلى البيت، لكن الساكنين فيه لم يفتحوه لنا، وبناء عليه وقفنا في الخارج، مثلما وقف اليهـود عندمـا سلموا المسيح إلى القـاضي، فهم قـد فعلوا ذلك، لأنهم لم يرغبوا في الـدخول، خشية منعهم أن يتـدنسوا وأن يكونوا غير قادرين على أكل طعـام الفصح، بينما تشوقنا نحن بقلوبنا إلى الدخول، حتى يمكن أن نتطهر مـن دنسنا، وقذاراتنا، ونصبح مقدسين، وعلى كل حال لم يسح لنا في هذه المرة بالدخول، وبعدمـا غادر الفرسان القدس، تدبرت أمـر دخولي إليـه ببراعة، حسبما سأتحدث عن ذلك فيما بعـد في ص ٢٣١ظ، مع أن هذا البيت، مع البيـوت الأخـرى، تعـرض للهـدم من قبل تيتـوس، لكن مع ذلك بقيت بعض الجدران، وعلى هذه الجدران، أعيـد بناء بيـت جـديد، وبذلك ذهب مظهــر البيت الأصيل وزال من الوجود.

وعلى كل حال، الباب المقنطر، الذي دخـل منه الرب وخرج، مايزال قـائماً، مع أن المدخل إلى البيت الآن ليس تحت ذلك القــوس، لكن في مكان آخر، والباب القـديم مع أنه مايزال قائماً، لكنه مغلق عمارة، وعلى تيجـان الأعمـدة والقـوس الحجـري للبـــاب القـديم، محفـور دواليب، ومـربعات، ومثلثـات، وكأن ذلك عـلامـات فلكية، والذي أعتقـده أن القدماء حفـروا هذه العلامات لأسباب خـرافية واهمة، وكان هذا البيت في أيام آلام المسيح واسعـاً، واحتوى على عدد كبير من الغـرف، غير أنه صغير من الداخل بما فيه الكفاية، علماً أن مكان الجلد مغطى بقبو، وأنه دائماً كان كذلك.

وفي هذه الأيام، رمى سكـان البيت بجميع الفضـلات والأوســاخ، وبقـايـا البيت في هذا المكان المقـدس، ووقـف في هذا البيت فيما مضى،

الأعمـدة السبعـة المتعرقـة، التي تقـدم ذكـرها على ص ٤٧٩، وجـرت العادة بالدخول إليه بالصعود على ثمان وعشرين درجة رخامية، وعندما كان الرب مسحوباً مجروراً وألقي به هناك سجينا بغضب وعنف، سقط على الدرجة الحادية عشرة على وجهه المقدس، وجـاء سقوطه شديداً إلى حـد أن الدم تدفق من أنفـه ووجهه، وجـرى على الدرج، وتبعـاً للآثار الإخبارية جرى نقل هذه الدرجـات من القدس إلى روما، ووضعت في كنيسـة القديس يـوحنا في اللاتيران، وصار هذا الـدرج يقود إلى قـدس الأقداس، وكل من صعد على درجاته، سوف يتلقى غفرانات مطلقة.

وقـدمنا أعظم احترام يمكن إظهاره إلى هذه الدرجـات، مع أنه ليس سليما للحجاج السير عليهن إلاّ على ركبهم العـارية، وعندما وصلوا إلى الدرجة الحادية عشرة، تمددوا هناك على الأرض بأنفسهم، وصلوا هناك لوقت طويل، حيث علامـات الدماء المسفوحة كـانت مشاهدة، ومكانها محمي بحـواجـز حـديدية، وليـس فقط الناس غير المتعلمين والبسطاء الذين يفعلون هذا، لابل كـرادله عظام، وأناس متعلمون يتسلقـون على هذه الدرجـات، بـالطريقـة المتقـدمـة الـوصف ليحصلوا على الغفـران، وليقولوا بأنهم وقفوا مرة في بيت بيلايطس.

بيت الملك هيرود حيث فيه جرت السخرية من المسيح واهانته

وغـادرنا البيت المتقـدم الذكـر، وتابعنا سيرنا على طـول الطريق، فـوصلنا إلى طريق يذهب منه صعـوداً، وهنـا تركنا الطريق الذي قـدمنا عليه لدى نزولنـا من جبل أكرا، وصعدنا على هذا الطـريق، فوصلنا إلى بيت كبير، هو الـذي كـان بيت الملك هيرود، الذي إليـه جلب الرب يسوع من بيت بيلايطس، وذلك عبر هذا المرتقى، فهنا جرى الاستهزاء منه بوسـاطة جيش هيرود، وسخر منـه بوساطة ثوب أبيض، وتعـرض لمختلف أنواع العذاب، وذلك حسبما أخبرنـا من قبل الانجيليين، ويقال بأن الثوب الأبيض للمسيح، الذي سخر به منه في بيت هيرود كان على

شكل الثـــوب الفضفـــاض الـذي يرتديـه الرهبـــان الـدومينيكان والكارثوسيان Carthusians.

وانحنينا بأنفسنا نحـو الأرض، وصلينا أمـام هذا البيت، وبعـدما تلقينا غفـرانات(+) نهضنا، وفي أثنـاء حجي الأول، لم أكن قـادراً على الحصـول على إذن بالدخـول إلى هذا البيت، لوجـود مدرسـة لأطفـال المسلمين فيه، فيهـا كان الأولاد يتعلمون، وفي حجي الثـاني أبعدنا فجأة عن البيت، لأن حـاكم القـدس حفظ محظيـاته فيـه، ولهذا السبب، فإنه حتى بعد مغادرة الحجاج، لم نستطع الحصول على إذن بالدخول إليه.

بيت سمعان الفريسي الذي فيه تابت المرأة المذنبة

ومسرعين تركنا بيت هيرود، حتى لانغضب الحاكم، ونزلنا ثانيـة إلى طريقنا السـالف، حيث فيـه توقفنـا أمـام باب بيت، ويقـال بأنه في هذا البيت عاش الفـريسي الذي رغب في أن يأكل يسوع معه، وعندمـا كان هناك، قـدمت امرأة من المدينة كـانت مذنبـة، وقدمت له خـدمة رائعـة صـدوراً عن توبة وعن خشـوع، وذلك حسبما قـرأنا في انجيل لوقـا — الاصحـاح السـابع، وهكذا فإن دمـوع تلك المرأة المذنبـة —كما قـال غريغـوري — كانت ستلين حتى القلب الحجري، نحو التـوبة، فهي قد جعلت من جمالها كله كثيراً من الأضـاحي، وحـولت ذنوبها الكثيرة إلى كثير من الفضـائل، حتى إذا كـان أي جـزء منهـا قـد أغضب الرب في ذنب، فإن طاقاتها كلها توجهت نحـو استغفار للرب، وتمددنا بأجسادنا أمام باب هذا البيت، وتلقينا غفرانات(+).

ويبـدو أن هناك تعـارض بين الانجيليين بشـأن هذا البيت، فلوقـا في روايتـه، كما يبـدو، قـال بأن ذلك قـد وقع في القـدس، ولكن مـرقص —الاصحـاح١٤، ويوحنا— الاصحـاح١٢، ومتى— الاصحـاح٢٦، قالوا بـأن ذلك قد حدث في بيـت عنيا، في بيت سمعان المجـذوم، ومن

هذا المنطلق فإن بعض العلماء اللاهوتيين، من ذلك مثلاً جيروم (الفصل٤٦ من Contra Jovinianum) قد قال بأن لوقا الانجيلي قد تحدث عن امرأة أخرى، وليس عن مريم المجدلية، التي ورد ذكرها عند الثلاثة الآخرين، والتي قدمت خدماتها في بيت عنيا، في حين كانت امرأة أخرى هي التي قدمت خدماتها في هذا البيت، والمكانين اللذين شوهدا كمكانين مقدسين، يتوافقان مع هذا، بسبب أننا رأينا هنا بيت سمعان الفريسي، ورأينا في بيت عنيا بيت سمعان المجذوم، مالم —وأنا شخصياً أميل إلى الاعتقاد بأنه الصحيح — يفضل الانسان أن يقول، بأن مريم المجدلية قد جاءت إلى هذا البيت عند مستهل تحولها، وغسلت قدمي الرب بدموعها، ثم كان فيما بعد، عند اقتراب موعد آلامه، صبت العطور على رأسه، وهو جالس إلى الطعام، وأن الذي فعل ذلك جميعاً كان امرأة واحدة، هي المرأة نفسها.

مدرسة العذراء المباركة حيث تعلمت الكتابة، مع مناقشة لمسألة هل تعلمت الكتابة أم ما

ونهضنا من صلاتنا في البيت المتقدم الذكر، وبادرنا مسرعين بالتقدم على طريقنا، ووصلنا إلى بيت آخر واسع، قد بني من حجارة مربعة منحوتة، ومن حجارة منحنية، وهذا البيت ملاصق لساحة هيكل الرب، وقد قيل بأن هذا البيت قد كان بيت العذراء المباركة، حيث تعلمت الكتابة، عندما قدمت من قبل والديها للخدمة في الهيكل، حتى تكون موقوفة على خدمة الرب، ونظرنا إلى هذا البيت بإعجاب، وقام الشك في نفوسنا، حول هل تعلمت العذراء المباركة القراءة والكتابة من أي انسان، وأي يهودي كان استاذها، حيث أننا قرأنا في الاصحاح السابع من كتاب الحكمة:«الخالق للأشياء جميعاً قد علمني الحكمة»، وبما أن رب الأشياء كلها قد أحبها، لذلك كانت هي نفسها «معلم لطرقه» (الحكمة:٨).

ويبـدو من هـذا أنها لم تتعلم من انسـان، فضـلاً عن هذا أخبرنا دام Damm بأن العـذراء المباركـة كانـت متفوقـة في علمها على أي واحـد عظيم في الكنيسة، وفي الحقيقة كـان هناك بعض الناس المقدسين، الذين لم يتعلموا من قبـل أي انسان، بل من خلال كشـف يسوع المسيح، مثلما أخبرنا القديس بولص كيـف أنه تعلم، كما ورد في الاصحاح الأول من الرسـالة إلى الغـلاطين، وتعلم سليمان أيضـاً الحكمـة مـامن انسـان، بل بوساطة وحـي رباني، وجميع الرسل الآخرين صـاروا معلمين للعالم من خـلال الالهام الـرباني، زد على هذا قـال تومـاس الاكـوينـي بأنه تعلم بالصـلاة أكثـر مما تعلمـه بالقراءة، ومثل ذلـك أيضاً تعلمت القـديسـة كـاترين السيناوية من قبل الـرب يسوع، وصـار بقـدرتها قـراءة أسفـار الكتـابات المقـدسـة، مع أنها لم تعـرف اسم أو قـدرة أي واحـد من الأحـرف، ولا كان يمكنهـا أن تميـز «أ» عن «ب» أو «ب» عن «ت» مما يبرهن على أن تعلمها قد جاء بشكل إعجازي، ومثل هذا تعلمت مريم المصرية الكتـابات المقدسـة، عندما كـانت في الصحراء، بوسـاطة وحي رباني، «ولهذا، وعليـه أيها الأخ المحبوب المتسـاءل، هلا أريتني المدرسـة التي تقول حضرتك تعلمت فيها مريم العذراء المباركة القراءة والكتابة؟ فلطالما أنها كـانت متفـوقـة في العلم على أعظم اللاهوتيين، كيف أمكن تعلميهـا من قبل أي انسـان، وأمـا وقـد رأينا آخـرين قـد نالوا معـرفـة الكتابات المقدسة بالالهام، فما الذي يمكن ليهودي أن يعلمها إياه، وهي قـد امتلكت منذ بداياتها حكمـة خـالدة»؟ «توقف أخي المحبـوب، ولاتحاول بأية طـريقـة من الطرق أن تستخف بهذا البيت، بـل آمن أنه كان مدرسـة العذراء المباركة، مع أنها كـانت جديرة في أن تكون معلمة للرجـال، ومع ذلك، تفضلت، في سبيل التـواضع أن تكون تلميـذة، وذلك مثلما تعـرضت للتطهير وفقـاً للشريعـة، على أن ذلك لم يكن ضروريا، بل فعلته صـدوراً عن التواضع، ومثل هذا، نجـد الرب يسوع مع حكمتـه الأبـدية، قـد جلس مع اللاهـوتيين يستمع إليهم، ويسألهم

أسئلة، هذا ومعلوم أنه لا بالإصغاء إليهم، ولابتوجيه الأسئلة إليهم، كان من الممكن أن يضيف شيئاً إلى معلوماته»، ولذلك صعدنا نحو جدار ذلك البيت، وقبلناه، وتلقينا غفرانات(+)، وتلونا الصلوات المحددة.

هيكل الرب الذي اسمه هيكل سليمان

وانطلقنا متقدمين من هناك، فوصلنا إلى مكان، يوجد فيه على الجهة اليمنى ممر مقنطر، وكان هذا الممر مطليا باللون الأبيض، ومعلق فيه مصابيح مضاءة، ووقفنا خارج هذا الممر، ونظرنا من خلاله نحو ساحة الهيكل، ورأينا الهيكل نفسه أيضاً، الذي اسمه هيكل سليمان، وهكذا جثونا على أقدامنا، وتعبدنا الرب الحقيقي لذلك الهيكل، وتلقينا هناك غفرانات مطلقة(++).

ومع أن الهيكل يستخدم في هذه الأيام مسجداً، ويعبد فيه (إله)(١) محمد (صلى الله عليه وسلم)، كان فيما مضى كنيسة مقدسة جداً، وذلك حسبما ستكون كذلك مرة ثانية في يوم من الأيام، ولسوف تتقدس بكثير من المعجزات سيعملها هناك مخلصنا، ولذلك السبب حصلنا على الغفرانات على الرغم من محمد (صلى الله عليه وسلم)، لأن الكنيسة قائمة فوق موضع مقدس جداً، وقد بنيت وكرست للمسيح منذ زمن طويل مضى، وبشأن هذا الهيكل، ووصفه، ومن الذي بناه، وطرازه، سوف أخبركم به في ص ٢٥٧و، وفي الصفحات التالية، أما بالنسبة لجامع المسلمين، الذي يسميه رجال الدين «المسجد» انظر الكتاب الرابع والعشرين من «Speculun Historiale »، الفصل ١٣٢، وأيضاً الصفحة ١٠٤ من الجزء الثاني من هذا المصنف.

١— استخدم المؤلف عبارة نابية جداً، أبدلتها هكذا كي يستقيم المعنى، علما أن الأبحاث الأثرية لم تكشف وجود هيكل في القدس لا أول ولا ثاني ولا ثالث، ولاغير ذلك، ذلك أن حكاية الهياكل ومملكة الملك سليمان هي مجرد حكاية اسطورية منحت غلافاً دينياً

موضع ولادة مريم العذراء المباركة فوق بركة الضأن

ومـالبث أن أبعـدنا عن متـابعـة مشـاهدة الهيكل، لأن المسلمين لايمكنهم أن يتحملوا بصبر أن نقوم بالنظر إلى هذا الهيكل، أو حتى أن نقترب منه تحت أي حجـة من الحجج، ولذلك ابتعـدنا عنه، وسرنا على طول الطريق، فدخلنا شـارعاً آخر على اليسـار، حيث وصلنا إلى كنيسة كبيرة ملتصق بها دير جيـد، مع جميع مكـاتب الموظفين، التي هي أيضـاً مـرتبطة ضمن مكان مغلق، وقد عـاش هنا فيما مضى راهبات تابعـات لطائفـة القـديس بندكت، وقـد كـن ثريات وتقيـات، وإلى جـانب هذه الكنيسـة هناك موضع ولادة مـريم العذراء المبـاركة، لأن هناك قـام قبر واكيم وحنه، وحـوّل المسلمـون هذه الكنيسـة إلى مسجـد، ولذلك لم يسمحـوا لنـا بالدخـول إليـه، ولهذا وقفنا أمـام باب الكنيسـة، وتلونا الصلوات المعينة، وتلقينا غفرانـات مطلقة(++)، وعلى كل حال، بعـدما عاد الحجاج إلى الوطن، تمكنا نحن الـذين بقينا في القدس، من الدخول إلى تلك الكنيسـة، ولكن بشكل سري، ومع صعـوبة كبيرة، كما سيكون ذلك موصوفاً في ص ٢٣٠ظ، حيث هناك وصف للمكان وللدير.

وينبغي أن نلاحظ أن المسلمين بـذلوا جهـوداً خـاصـة، لإزالة هذه الكنيسة حتى مـن ذاكرة المسيحيين لأن في ذلك برهان على عـدم صحة القـرآن، لأن القرآن قـد قال بأن العـذراء مـريم كانت ابنة مـريم أخت هرون وموسى، وهذا تصور خاطىء تماماً، وهذا مايمكن رؤيته في نص القـرآن،الكتـاب الأول —الفصل الأول، والكتـاب الثـالث — الفصل ١٧ (كذا).

بركة ضأن بيت صيدا حيث شفي الرجل المقعد

وجرى اقتيادنا على طول زقاق ضيق، قريب إلى جانب الكنيسة تلك، وقـرعنا على باب بيت كـان يسكـن فيـه بعض المسلمين الفقـراء، الذين

فتحوا الباب، لكن ماكانوا ليسمحون لنا بالدخول مالم ندفع بعض الفلوس، وبعدما فعلنا ذلك، ودخلنا، صعدنا فوق بعض الدرجات الحجرية إلى داخل ساحة صغيرة، أو صحن مكشوف،كان فيما مضى مغلقاً بجدران، ومازال بعضه كذلك، ومن حول الصحن هناك أبواب مقنطرة فقط،وكان في هذه البقعة، في أيام المسيح بركة الضأن، التي اسمها بالعبرية بيت صيدا، حيث شفي الرب يسوع الرجل المريض، الذي كان مقعداً، حسبما ورد الخبر عند يوحنا:٥، وكانت هذه البركة تحتوي المياه، التي كانت تجري في أيام الأمطار من أسقف الهيكل، وفيها كانت تتم أعمال غسل الأغنام والحيوانات الأخرى، التي كانت تقدم أثناء التضحية في الهيكل، علاوة على ذلك تسبب سليمان في اغراق جذع شجرة في أعماق هذه البركة، وهي الشجرة التي تنبأت له العرافة وأرته أن المسيح سوف يتألم عليها، وقد بقيت ممددة، مخبأة هناك حتى أيام آلام المسيح، فوقتها انبعثت إلى وجه الماء، فأخذت من هناك واستخدمت في صنع صليب المسيح.

ويفترض أنه بسبب الاحترام الذي تستحقه هذه الشجرة، والجديرة به، أن ملاكاً نزل من السماء وحرك الماء، وبعد هياج الماء شفي الرجل الأول الذي دخل إلى البركة، وشفى الرب واحداً، كان قد انتظر تحرك الماء لمدة ثمان وثلاثين سنة، وذلك حسبما جاء الخبر في يوحنا:٥.

ولاتحتوي هذه البركة في هذه الأيام ماء، بل الموجود في وسطها هو نوع من أنواع الخزانات، صنع لحفظ مياه المطر، وبناء عليه تلونا هنا صلواتنا، حسبما هو محدد في كتب المسيرة، وتلقينا غفرانات(+)، وقبلنا الأرض،وصعدنا السلالم ثانية، وعدنا من جديد إلى طريقنا المتقدم، ودخلنا طريقاً آخر، في الجهةالمقابلة له، فوصلنا إلى بركة كبيرة مليئة بالماء، قد كانت موجودة في الأيام الخالية، وكان اسمها في الكتابات المقدسة «البركة الداخلية»، وقد عملت من قبل حزقيا، ملك يهوذا،

وكان قد جلب إليها الماء من المجرى الأعلى لجيحون، وذلك بالاضافة إلى مياه الأمطار، حيث حفر قناة بالحديد خلال الصخر، وذلك حسبما قرأنا في الالهيات: ٤٨/١٧، وفي الملوك الثاني: ٢٠/ ٢٠ (أخبار الأيام الثاني: ٣٢/ ٣٠).

وفي الحقيقة عملت البرك منذ قديم الزمان في القدس حتى هذه الأيام، بعناية كبيرة، لحفظ المياه التي تجري إليها من الأسقف في الشتاء وفي أيام سقوط الأمطار، وذلك بهدف سقاية المدينة في أيام الصيف، لأن المدينة المقدسة لاتمتلك مياها خاصة بها، وتشرب فقط من مياه الأمطار، أو من مياه جلبت من بعيد، وأتصور أنه في هذه الأيام، تبذل الجهود أكثر من ذي قبل بشكل مطلق، من أجل تزويد المدينة المقدسة بالماء، لأن المسلمين معتادين على الاغتسال اليومي، وعلى تبليل أنفسهم بالماء، أكثر مما اعتاده اليهود، ولهذا لديهم كثيراً من أماكن الاغتسال، وهم يجلبون الماء إلى القدس ببراعة مدهشة، وهذا ما سأوضحه في الصفحة ٢٤٩و.

فيما يلي:
الحج في وادي شعفاط

وبعـدما رأينا تلك البركـة، تابعنا السير على طريقنا، ووصلنا إلى نهاية المدينة على الجهة الشماليـة، عند الباب الذي كـان يدعى فيما مضى باسم باب افرايم، لأن الطريق إلى جبل إفـرايم يمضي من خلاله، لكنه يعرف الآن باسم باب اسطفـان، لأنه اقتيـد من خلالـه إلى خارجـه، ورجم في الوادي عبره، ومن خـلال هذا البـاب يمـر طريق شكيم، والسـامـرة، ومنطقـة الجليـل، ولذلك خـرجنـا من هذا البـاب ومـا أن أصبحنا في الخارج حتى تركنا الطـريق الشمالي، الذي يتطلع البـاب عبره، وانعطفنا جانباً باتجاه الشرق، نحو جبل الزيتـون، حيث كانت المدينة المقدسة على يميننا ونحن نسير، وعندما وصلنا إلى زاوية السـور، حيث اتصل السور الشمالي بالسور الشرقي، صرفنا وجـوهنا عن الشرق، وتطلعنا على طول السـور بـاتجاه الجنوب، حيث رأينا بابا كبيرا آخـر للمـدنيـة في الجهـة الشرقية، وحيث كان هناك برج مرتفع قد أنزل أرضاً وهدم، واسم هذا الباب هو البـاب الذهبي، ومن خلاله دخل الـرب يسوع المدينة في يوم أحد السعف، وهو على ظهر أتان، وتحتـه التقى واكيم وحنه معا، إطاعة لأمـر متقـدم، لأنهما كـانا قـد أخبرا بهاتف رباني، أنه منهما سـوف تلد العذراء مريم.

عـلاوة على ذلك، هنا وقعت المعجزات الرائعـة التـالية: بعـدما قهـر الامبراطور هرقـل أعـداءه، واسترد الصليب الـذي كـان الفـرس قـد استولـوا عليه، أراد أن يركب على ظهـر الحصان، ويمر من خـلال هذا البـاب في الوضع الامبراطوري، وحـدث أنه مـا أن وصل إلى البـاب، حتى جمعت الأحجـار أنفسهـا مع بعضهـا، وغـدت جـداراً قـوياً، فلم

يستطع الدخـول حتى وضع جانبـا جميع الأبهة الدنيـوية، وعندما صـار أخيراً، حافيا متواضعا، متذللاً سمح له بالدخول مع جيشه كله، حاملاً صليب الرب.

ومن هذا البـاب اقتيـد الرب في مـوكب نصر، وكـان ذلك من جبل (الزيتـون) حتى الهيكل، مع سعف النخيل والأغصان الخضراء، وقـرأنا كذلك في الاصحاح الثـالث عشر، من سفر المكابيين الأول بأن سمعان قـد دخل من خلال هذا البـاب، وفي السفر الثـاني والاصحاح العـاشر، قـــرأنا عن أغصـــان خضراء وعن سعـف، ولم يسمح لنا المسلمــــون بالاقتراب من ذلك الباب، ولم نتمكن بأية طريقـة من الحصول على إذن بالذهاب إليه، لأن في خارجه مقبرة المسلمين، التي لايسمحون لمسيحي بالسير فوقها.

وعلى كل حال جثونا على ركبنا، ونحن نتطلع نحوه عن بعد، وبعدما عبدنا الرب، تلقينا غفرانات مطلقة(++)، وتمنح هذه الغفرانات إلى كل واحد يقف في مـواجه هذا الباب عـن بعد، ويتعبده، بقـدر مايمكنه من مـرات، ومن المعتقد بأن تلك الأسـوار المهدمـة، القائمـة هناك، هي في الحقيقـة خرائب البـاب الذهبي الحقيقي، الذي من خـلاله دخل الرب، وهو جالس على ظهر أتان، لأن تيتـوس عندما هدم القدس، ترك بعض الأبراج قـائمة للدفـاع مع أبراج للمـراقبة، وكـان من بينها برج البـاب الذهبي، وقد ترك قائماً مـع أعماله الخشبية، وهذه الأعمال الخشبية مغطاه في هذه الأيام بـألواح من النحـــاس المذهبـة، ويقطـع المسلمـون قطعـــاً وشظايا من هـذه الألواح وكـذلك بعض المســـامير، ويبيعـون ذلك إلى المسيحيين، لأن عـــدداً كبيراً من المسيحيين يبـــذلـون جهـــوداً عظيمـــة للحصول على قطع من البـاب، وغالباً مايغامـرون بحياتهم بالذهاب إلى هناك في الليل وانتزاع قطعة صغيرة منه، ويبذل بعضهم المال عوضاً عن ذلك، ويرشـــون بعض المسلمين لاجتثـاث قطعـة صغيرة مـن البـاب،

ويعطونهم نحاساً أو خشباً في مقابل ذهب أوفضة، والسبب في أن الآثار المقدسة من هذا الباب غالية جداً هو أنهم قالوا (لا أدري إن كان ذلك وهماً عابئة أم لا) بأن كل من يحمل قطعة صغيرة من ذلك الباب معه، سيكون في ذلك حماية له من السكتة الدماغية، أو الوقوع في المرض والوباء، وفي الأيام الخالية عندما كان المسيحيون يمتلكون القدس، كان يحتفل عند هذا الباب بعيد عظيم في يوم أحد السعف، وفي السبت المتقدم، أو ليلة إحياء أحد السعف، كان جميع رجال الدين يذهبون إلى بيت عنيا، ويبقون مستيقظين طوال الليل في كنيسة القديس لعازر، ويذهبون في الفجر المبكر في مسيرة من بيت عنيا إلى بيت فاجي، حيث يضعون واحداً من الأساقفة الكبار، وهو يرتدي الألبسة الكهنوتية، على ظهر أتان، ويذهبون في مسيرة إلى المدينة المقدسة.

ولدى نزولهم من جبل الزيتون، يخرج المتبقي من رجال الدين وأعضاء الطوائف الدينية، مع جميع سكان المدينة، يخرجون في مسيرة لمقابلتهم، وهم يحملون سعف النخيل، ووفق الطراز الذي جرى الحديث عنه في الانجيل، وكانوا يقطعون أغصاناً من أشجار الزيتون، ويوزعونهم في الطرقات، وينشرون ملابسهم الكهنوتية في الطريق وهم يصرخون «المجد» الخ، وعندما كانوا يصلون من الوادي نحو الباب، يكون الباب في العادة مغلقاً، وهناك شباب قد وقفوا على البرج وهم يغنون «المجد» الخ، وبعدما يكملون غناء هذه الترنيمة، كانوا يجلبون الأسقف إلى داخل الهيكل وسط سرور عظيم.

وبعد فقدان المدينة المقدسة، وطرد اللاتين منها، تابع الأرمن الاحتفال بهذا العيد مع أسقفهم لسنوات طوال، وذلك حتى أثار الشيطان (المسلمين) للشروع بدفن موتاهم هنا، حيث أغلقوا الباب بعد ذلك، ولهذا يسرعون في هذه الأيام خلال أحد السعف وفق الطريقة التالية: ففي اليوم نفسه، وبعد القداسات الربانية، وبعد تناول

الطعام، يذهب رهبان جبل صهيون إلى بيت عنيا، ويسيرون من هناك وهم يغنون إلى بيت فاجي، حيث يضعون واحداً من الرهبان، وهو في ملابسه الكهنوتية فوق ظهر أتان، ويرافقونه نحو المدينة، وهم يغنون أغاني المديح، وعندما ينزلون من جبل الزيتون، يسعى المسيحيون الشرقيون إلى مقابلتهم مع سعف النخيل، ومع نشر للملابس في الطريق، ويقودونه حتى بركة قدرون، حيث منتهى المسيرة، فهم لايتجرأون على الصعود نحو المدينة وهم يغنون أناشيد المديح وفق هذه الطريقة، خشية من أن يقوم المسلمون بتفريق مسيرتهم برميهم بالحجارة، ومن العجيب أنهم يسمحون لهم بهذا القدر، لأنه قبل مضي مائة أو خمسين سنة، لم يكونوا يسمحون بهذه المسيرة، وقبل عشرين سنة لم يكن المسيحيون يمتلكون من الحرية كما يمتلكون الآن، جعلها الرب أعظم، في سبيل مدحه، كي لاتغلق هذه الأفواه التي تغنى حوله في هذه الأماكن العالية القداسة.

المكان الذي حفظ فيه شاؤول ملابس الذين رجموا القديس اسطفان

ومررنا مسرعين بالقرب من الباب الذهبي، ووصلنا نازلين عبر طريق وعر وحجري إلى مكان تقوم فيه حجرة، رأسها مسطح، وعلى هذه الحجرة وضع السفاحون ثيابهم، وهم الذين كانوا قد استعدوا لرجم الرائد الشهيد المقدس اسطفان، وبذلك عبروا عن استعدادهم لرمي الحجارة وقتل القديس برميات أشد، وكان شاؤول شاباً، وقد شهد هذه الواقعة، ولأنه كان ممتلئاً بالحماسة الشديدة لليهودية، وقف يحرس الملابس، من أجل أن يتمكنوا من رمي الحجارة بدون معيقات، وبذلك كان أكثر فائدة لهم من أي انسان آخر، وعلى هذا جلس شاؤول فوق الملابس على هذه الحجرة، وهو يتحرق كراهية ضد اسطفان، وكان يجدف ضد المسيح، ولهذا قبلنا هذا المكان، وتلقينا

غفرانات(+).

المكان الذي رجم فيه القديس اسطفان

ونزلنا من هناك قليلاً، نحو بركة قدرون، ووصلنا إلى المكان الذي رجم فيه اسطفان، وهو المكان الذي صلى فيه، وهو راكع من أجل راجميه، وتلقى حجارتهم بسرور، ولهذا قالت الترنيمة عنه: Lapides torrentis illi dulces Fuerunt، وقد أخبرنا القديس أوغسطين كم كانت غالية صلاة القديس اسطفان، وقال:«لو أن اسطفان لم يقم بصلاته، لفقدت الكنيسة بولص»، ولهذا قبلنا في هذا المكان الحجارة نفسها، وتلقينا غفرانات(+)، وفي الحقيقة المكان مليء بكثير من الحصا النقي من البركة، وهنا قام فيما مضى كنيسة مبجلة، لايمكن تتبع آثارها في هذه الأيام إلاّ بصعوبة بالغة، مع أنه على جهة اليسار ماتزال بعض الجدران قائمة، وهذا المكان فائق القداسة، لأنه في هذا المكان كان اسطفان الشهيد الأول في التسديد لموت المخلص، وهو الموت الذي تفضل المخلص أن يعانيه في سبيل جميع الناس.

وادي شعفاط وجدول قدرون

وتابعنا سيرنا من هناك، فنزلنا إلى وادي شعفاط، وذلك حتى جدول قدرون، ولهذا الوادي اسم آخر هو Cela ، وذلك تبعاً لجيروم، وكان أيضاً اسم قدرون هو كريناروس Chrinarus ، وهو يعرف الآن باسم وادي شعفاط، لأن الملك شعفاط أمر بنحت ضريح ملوكي هناك لنفسه، أنا مقبل على وصفه في ص٦٤٠، ويعرف قعر هذا الوادي باسم جدول قدرون، وهو جدول يجف في فصل الصيف ويختفي، لكنه يسيل في الشتاء بالماء من الثلج الذائب، ويحكى أنه في الأيام الخالية زرعت أشجار الأرز Cedars على طول ضفتي هذا الجدول، وبسبب هذه الأشجار أطلق عليه اسم Cedron أو جدول الأرز،

ويأتي هذا الوادي وهذا الجدول من جهة الشمال، ويمتد سائراً نحو الجنوب، وهما يفصلان جبل المدينة، والهيكل وتلال صهيون، وجيحون، عن جبل الزيتون وجبل العدوان، وهما يستمران بوادي سلوان، ووادي حرمون، اللذان ينعطفان نحو الشرق، ويمتدان حتى سدوم، وبناء عليه كلما احتوى جدول قدرون أية مياه، يقوم بارسالها نزولاً إلى البحر الميت، بواسطة مجرى متعرج طويل، وذلك خلال واد وعر ومتشعب، وذكر بعضهم أن جدول قدرون كانت مياهه في الماضي تتدفق باستمرار، وأنه يمتلك في هذه الأيام قناة تحت الأرض، لأن بطن الوادي فيه صدوع وشقوق بسبب تهديم المدينة المقدسة مراراً، ويقولون إنه تحت هذه الخرائب يستمر الجدول بالجريان، ولا أعتقد أن هذا صحيحاً، لأنني سرت على طول هذا الوادي، كأن تقول نزولاً حتى سدوم، وذلك بعيداً عن القدس، من خلال قعر عميق جداً، وجرفي، حيث ليست هنالك خرائب مرمية مطلقاً، ومع ذلك لم أستطع رؤية نقطة ماء واحدة من ذلك الماء المتدفق بشكل مستمر، بل رأيت مجرد قعر جرفي جاف، تسيل فيه المياه بشكل متواصل في موسمها، ومامن أحد يمكنه أن يشك لو أن هذه القناة كانت فيها مياه جارية باستمرار، في العصور الخالية، من نبعها، لما سكتت الكتابات المقدسة حولها، ولو أنه كان هناك جريان دائم تحت الأرض، لقام أهالي القدس بطلب عون جميع المشارقة، ولحفروا عميقاً حتى ضفتيه، مقدرين كيف أن الماء ثمين جداً في القدس، والناس دوما في حاجة إليه، وفي الماضي البعيد كان لابد من اختراع أسلوب ما، بوساطته يمكن حمل هذه المياه مباشرة إلى المدينة، مثلما حدث بالنسبة لمياه سلوان، التي قال عنها نيقولادي ليرا بأنها تدفقت مرة في المدينة فوقهم، الأمر الذي بدا بالنسبة لي غريباً جداً، لأن ذلك النبع واقع عميقاً عند سفح جبل صهيون.

وهذه الوديان المتقدمة الذكر، وهذا المجرى الجرفي، وكذلك نبع

سلوان، والجبال الذين جرى الحديث قليلاً حولهم فيما مضى، سوف يأتي ذكرهم فيمايلي، ولقد رأيت من المناسب عمل هذه التوطئة المختصرة هنا، من أجل فهم أفضل لما سيأتي، والآن عندما وصلنا إلى قعر الوادي، عبرنا فوق الجدول بوساطة جسر حجري، قد بني فوق قناطر، ووصلنا إلى سفح جبل الزيتون، وعندما صعدنا عليه، وابتعدنا قليلاً عن الجدول، وصلنا إلى بئر التنين، الذي عنه نقرأ في الاصحاح الثاني من نحميا، وتحدثت في هذه المكان لموالي الفرسان حول غيرة نحميا وحماسه، وكيف جاء إلى القدس من بلاد بعيدة كان مأسوراً بها، وركب حول المدينة في الليل ليرى خرائبها، ووقف إلى جانب ذلك البئر،مقدراً كيف يمكنه إعادة بناء أسوار القدس بعد رحيل الملك ارترا اكسرس، Artaxerxes ، أي الأسوار التي هدمت، وكذلك الأبراج، والأبواب التي سويت بالأرض، وأيضاً البيوت المشعثة، والهيكل المحروق.

وعمله هذا فيه ملامة لأمرائنا، الذين لايولون أمر استرداد المدينة المقدسة مايستحقه من اهتمام، وكأننا لسنا بحاجة إليها، وأنا لاأتذكر أنني قرأت في أي مكان، لماذا أطلق على هذا البئر اسم بئر التنين، وأفترض أن سبب ذلك بأنه كان فيه فيما مضى مياه جرت إليه من أحد الينابيع، وأن المياه قد جلبت إلى هذا الصهريج من خلال تنينات أو أنابيب ملتوية تشبه الثعبان، فمن مثل هذا منطقة التنينات (الطرخونية) قد نالت تسميتها، لأنه لم يكن فيها ماء، إلا ماجلب من خلال التنينات، أي من خلال الممرات الملتوية مثل الأفاعي، والموجودة تحت الأرض.

كنيسة مريم العذراء الأعظم قداسة في وادي شعفاط

ثم إننا تابعنا سيرنا من هناك، غير أننا استدرنا نازلين نحو جهة اليسار، إلى كنيسة العذراء الأعظم قداسة، التي هي منجورة من خلال صخور حجرية، وذلك عميقاً في بطن الأرض، ويقول بعضهم أنه

عندمـا شرع ببنائهـا، لم تكـن تحت الأرض، بل فـوقهـا، وأنها تغطت فيمابعد بالأتربة التي جلبتها ميـاه الأمطار من جبل الزيتون، وكذلك من امتـلاء الوادي، وفـوق المدخل هناك بناء عمل على شكل بيعـة، وأمـام الباب هناك ساحة مبلطة بألواح مربعة من الرخام.

ونزلنا إلى هذا الكهف، وبادرنا مسرعين نحو مدخل الكنيسة، ولكن عندما وصلنا إلى الكنيسـة وجدنا البـاب مغلقاً، وليس هناك من يحرس الكنيسة، وأخبرنا —على كل حال— أحـد المسلمين، وكان جالساً هناك عند الباب، بأن الحارس سـوف يحضر بالحال، وفي الحقيقة كـان حارس باب هذه الكنيسـة مسلماً، كان قـد ورث هذا العمل من أبيـه، الذي أنا ذاهب للحديث عنـه، فقد كان هذا المسلم، وأعني بـذلك والد حارس البـاب الآن، قـد تلقى من السلطان هديـة هذه الكنيسـة، وذلك مقـابل خـدمـة كان قـد عملهـا، وجـاءت هذه الهدية له، حتى يتمكن من جمع بعض المال من الحجـاج الذين يزورونها، وعلى هذاعندمـا صـار متملكاً للكنيســة، ورأى أن المسيحيين متحمسين بشكـل فـائق لـزيارتها، رفع مقدار المبلغ الذي اعتاد الداخلون إليهـا على دفعه، فجعله ليس أقل من ثلاث دوقيـات، ونتيجة لهذا العبء الثقيل تخلى الحجـاج عن زيارة هذه الكنيسة، ولم يعـد أحد يدخلها بعـد ذلك، وأصبح المكان تقريبـاً منسياً، لكن العذراء المبـاركة، ظهرت في المنام في احـدى الليالي إلى ذلك المسلم الجشع، ووجهت اللوم إليه بكل شدة قائلة:«يا عدو الرب، خسرت كل من العقل والجسـد، وخـرقت الشريعـة وعطلتهـا، بأن أزلت التشريف المستحق لي، كيف تجرأت أنـت وأقـدمت على اغـلاق أبوابي في وجـه عبيـدي الحجـاج؟ انهض على الفـور، وافتـح أبواب ضريحي إلى جميع الحجاج من دون مـال، ومن دون سعر، وإلا فإن جسـدك سوف يمتلىء تماماً بالحشرات، ولسـوف يصبح بيتك مشعثا مهجوراً»، ومـا أن فرغت من مقالتهـا هذه حتى اختفت، وقام المسلم، وهو مرعـوب تماماً، وأخبر

أسرته وهو يرتجف بكل ما سمعه من كلمات، وحرم عليهم منذ ذلك الحين منع أي مسيحي من الدخـول إلى الكنيسة، وطلب منهم فتحها للجميع من دون أخذ أي رسم دخول، ورسم باستمرار ذلك بين ذريته من بعده، ولذلك مازال هذا معمولاً حتى هذه الأيام.

وفيما نحن وقوف أمام باب الكنيسة، قدم إلينا رجل مسلم، متقدم بالسن، وكان هو ابن الرجل المتقدم الذكر، الذي إليه ظهرت العذراء المباركة، وفتح لنا الباب، وسمح لنا بالدخول قائلاً بلغته لكل واحد «اذهب واعبد الرب، وامدح العذراء مريم»، وبعدما دخلنا من الباب، نزلنا على درج رخامي مؤلف من اثنتين وخمسين درجة، ووصلنا إلى كهف عميق، وعندما كنا نازلين شرع قائد الجوقة بصوت مرتفع يغني ترنيمة «O gloriosa domina» الخ.

وتبعناه ونحن نغني بسرور عظيم، ووصلنا إلى ضريح العذراء المباركة كثيراً في وسط الكنيسة ودخلنا إليه واحداً تلو الآخر، وقبلنا القبر المقدس بخشوع عظيم، ومع تقديم الشكر تلقينا غفرانات مطلقة(++).

وبعد ترنيمة «O gloriosa domina» الخ ، غنينا «Salve regina» وترانيم أخرى، وكنا مسرورين جداً في هذا المكان المقدس، وغنينا بنشوة، وأنا لم أسمع قط غناء بمثل هذه العذوبة مع الموسيقي والصدى، وكذلك في كهف اكتشاف الصليب، الذي تقدم لي ذكره، ولقد حضرت مراراً إلى هذه الكنيسة وكنت فيها لوحدي لمدة ساعة أو ساعتين، حيث صليت وغنيت كما رغبت، ذلك أن صوت رجل واحد يغني هناك، لايمكن سماعه في الأعلى، ولقد لاحظت مراراً، والذي لاحظته حدث مراراً في تلك الكنيسة، أن الحجاج يكونون فيها أكثر نشوة وبهجة، منهم في الأماكن المقدسة الأخرى، وحقاً يفعلون ذلك، لأنه من هذا المكان صعدت العذراء المجيدة إلى السماء، حيث هي

ممجدة بلاحدود، وتحكم مع المسيح عالماً بدون نهاية، وعن هذه البقعة قال جيروم: «من على هذا المكان انتشلت ملكة العالم وأبعدت عن هذا العالم الشرير، ولذلك ابتهج، لأنك متأكد من مجدها الذي لايزول، ذلك أنها ذهبت من هنا إلى قصر الجنة، ونقلت مجدها من هذا العالم الحالي من أجل أن تتمكن باطمئنان من التوسط من أجل ذنوبنا، ومامن شك أنه في لحظة صعود العذراء المباركة جداً، ابتهجت القدس السماوية كلها وشعرت بسعادة لاحدود لها، وقدمت آيات الشكر وهي في غاية السرور، وأعتقد بأن المخلص نفسه قد جاء إلى هنا مسرعاً ومعه جميع جنود مملكة السماء، وأعادها إلى الحياة، بإعادة توحيد جسدها مع روحها، وبسرور أجلسها إلى جانبه على عرشه».

هذا وينبغي أن لانعتقد بأن مريم العذراء المباركة جداً قد اختارت بالصدفة موضع ضريحها في وادي شعفاط، بل عن قصد، حتى يتمكن المذنب الذي يخاف، من الوقوف في هذا الوادي في يوم الحساب المخيف، الذي سوف يأتي، فالآن يمكنه أن يتخذ سلفاً مكاناً في هذا الوادي، ويصلي إلى الأم، ويظهر طاعته لها، وبذلك يتوقف عن الخوف من استدعائه ثانية إلى هذا الوادي، مادام قد حصل على رضى أم الذي سيتولى الحساب، وخلفت العذراء المباركة من أجل مواساتنا منديلها وثوبها، اللذان جرى نقلهما إلى القسطنطينية بناء على أوامر من الامبراطورة هيلانة، والذي تولى عملية النقل هو جوفيناليس Juven-alis، بطريرك القسطنطينية.

وصف كنيسة العذراء المباركة وضريحها في وادي شعفاط

ويطلق على كنيسة العذراء المباركة في وادي شعفاط اسم كنيسة صعود مريم، وكان إلى جانبها فيما مضى دير للرهبان من طائفة القديس بنت، مع راعي دير متوج، وفي هذه الأيام من غير الممكن رؤية حتى خرائب هذا الدير، حيث هناك بساتين زيتون وأشجار تين حول

الكنيسـة، والكنيسة نفسهـا —كما قلت— موجـودة تحت الأرض الآن، مع أنها في الأيام الخاليـة لم تكن كـذلك، كما هو واضح عندمـا يلقي الانسـان نظرة على الجدران، حيث ماتزال النـوافذ باقيـة، لكن من دون ضـوء، لأن فيضـان مياه الأمطار الذي جلب التراب من الجبـال قـد غطاها، وهي لذلك لاتتلقى ضـوءاً إلاّ من الطرف الشرقي، حيث هناك فتحة معمولة نحو السماء، ومن خـلال هذه الفتحة يدخل الضوء إليها، ويضيء زاوية واحـدة من الكنيسـة، وهذه الفتحـة محاطة في قسمهـا العلوي بجدار مستدير، وكأنها بركة.

وبنيت هذه الكنيسة وفقـا لجيروم، في قداسـه حول صعـود العذراء، بشكل رائع، من ألواح الرخـام، لكـن من الجانب الواقع إلى الشمال من الضريح، هذا الجانب غير مغلف بالرخـام، بل من الممكن أن يرى هناك الصخر الأجرد الذي نجر الضريح منه، وهذه الكنيسة عالية، ومقنطرة، وتحتوي على كثير من المذابح، ويقف ضريح العـذراء في وسط الكنيسة، وهو غـرفـة صغيرة، مثل ضريح الـرب، مـزين بشكل فخـم، ومضـاء بمصابيح شـاعلة، عددها أكثر حتـى من مصابيح الرب نفسه، وللغـرفة مـدخلين، أولهما مفتوح من الغـرب مـواجـه للقبر المقدس، القـائم على الجانب الأيسر منه، ذلك أن الرأس متجه نحـو الجنوب، والقدمين نحو الشمال، وهناك باب آخـر على جهة الشمال،ويـدخل الانسان من خـلال البـاب الأول، ويخرج من خـلال البـاب الآخـر، وتتلى القـداسـات في الضريح نفسه، مثل تلاوتها في ضريح الرب، وعملت أنا شخصيـا عدداً كبيراً من القداسات هناك، ويمكن لجميع المسيحيين من أي الفرق كانوا أن يفعلوا ذلك، ذلك أنه مسموح لهم إقامة قداسات هناك، فهذا المكان ليس ملكاً لأيـة طائفـة، ذلك أن المذابح الأخـرى المنتشرة في أرجـاء الكنيسة هي ملك لمختلف الطوائـف، حيث أن المذبح الذي هو الأقرب إلى القبر هو ملك للأرمـن، والثـاني الموجـود تحت القـوس المظلم، هو

ملك للجورجيين، والثالث الذي هو تحت النافذة في النهاية الشرقية للسدة، هو ملك للاغريق، والرابع الموجود في الزاوية عند الجهة الشمالية هو ملك للاتين، والخامس الموجود قرب الدرجة الأولى من السلم هو ملك للهنود.

وهناك قبر باهظ التكاليف معمول من رخام أبيض مصقول، مدفون فيه الملكة المحترمة ميليساند، التي بنت هذه الكنيسة، ويوجد على كل جانب من جانبي السلم قبر مزين، ويقول بعضهم أنه مدفون في الأول حنه، أم العذراء المباركة، ومدفون في الآخر واكيم والدها، ويوجد في الكنيسة نفسها صهريج عميق يحتوي على ماء بارد نقي، والذين يقولون بأن جدول قدرون له مجري تحت الأرض، يقولون أيضاً بأن هذا الماء يأتي من هذا الجدول الموجود تحت الأرض، وعندما يكون الانسان وحيداً في تلك الكنيسة ويصغي بأذنه فوق فم ذلك الصهريج، يخيل إليه سماع صوت خرير ماء تحت الأرض، ويقول آخرون بأن هذا النبع يحتوي على ماء يجري من الجنة، تشريفاً للعذراء المباركة، ومن أجل راحتنا، وفي جميع الأحوال، من غير الممكن أن تكون المياه مياه أمطار، لأن الصهريج عميق جداً في باطن الأرض، ويكفي ماقيل هنا حول هذا الموضوع، وإذا مارغبت بالمزيد، انظر رواية أوفى حول هذه المسائل تحت عنوان يوم صعود العذراء.

المكان الذي تسلم فيه القديس توما الرسول زنار العذراء المباركة

وعندما فرغنا من تقديم صلاة شكرنا في تلك الكنيسة المقدسة، صعدنا فوق الدرجات ثانية، وأعطينا بمبادرة منا بعض الفلوس للمسلم المتولي حراسة باب الكنيسة لتشجيعه، حتى يترك الحجاج المسيحيين يدخلون إليها، وبعدما غادرنا ساحة الكنيسة، صرفنا وجوهنا

نحو جبل الزيتون، وصعدنا إلى جانبه، وبعدما صعدنا قليلاً، وصلنا إلى المكان الذي يقال وقف فيه القديس توما ساعة صعود العذراء المباركة فلدى سماعه لتراتيل الحشد السماوي، نظر نحو الأعلى، فشاهد أم الرب صاعدة نحو السماء، وكان ذلك بجسدها وروحها، وقد طوحت بزنارها له حتى تقوي إيمانه، وقد تلقاه ببهجة صامتة، وأراه لرفاقه الرسل، وبذلك أقنعهم بحقيقة صعودها في الجسد والروح أيضاً.

فهو بلمسه لجراح المسيح في المجد ثبت إيماننا بقيامته، وبعمله هذا أيضاً ثبت خشوعنا نحو صعود مريم، وبناء عليه قرأنا في هذا المكان الصلوات المعينة، وقبلنا الأرض، وتلقينا غفرانات(+).

مكان صلاة المسيح وتألمه على جبل الزيتون وكيف صلى الحجاج هناك

وتابعنا سيرنا من هناك قليلاً، بين جدران حجرية جافة عائدة للبساتين على جانب الجبل المقدس، ووصلنا إلى فم كهف في الصخور، ودخلنا إليه فوجدنا قبواً جميلاً وواسعاً، لم يصنع فنياً، أو نجر من الصخر بأيدي البشر، بل تشكل وأعدّ من قبل الخالق منذ البداية، لكي يكون مكاناً للاجتماع للصلاة، والتأمل، والتفكر، وموائماً لانسان واحد يرغب بالعزلة، وغالباً ماترك الرب يسوع المدينة في الليل ودخل إلى هذا الكهف حيث أمضى الليل في احياء مقدس مع الصلوات.

وإلى هذا الكهف قدم نيقوديموس في الليل لزيارة الرب يسوع، وعقد معه جولة حوار حول أعمق المسائل اللاهوتية، حفظها لنا يوحنا الانجيلي في الاصحاح الثالث من انجيله، وهذا المكان عرفه يهوذا، لأن الرب غالباً ما جاء إلى هنا مع حوارييه، وذلك حسبما جاء في الاصحاح الثامن عشرمن انجيل يوحنا، وهكذا جاء يسوع في الليلة التي تلت ليلة العشاء الأخير، من المدينة عبر جدول قدرون، حيث كانت هنالك

حديقة، وفيها كهف، إليه دخل، وجثا على ركبتيه، وانحنى نحو الأسفل وهو يصلي، وقد تمدد وسجد بنفسه، وأخذ يقول بصوت متهدج:«يا أبا الآب كل شيء مستطاع لك، فأجز عني هذه الكأس، ولكن ليكن لاما أريد أنا بل ما تريد أنت»، وبعدما قدم هذه الصلاة ثلاث مرات، وكان متألما، صلى بحرارة أعظم، وتعرق دماً من خلال حزنه، وأساه، ورعبه، وظهر له هناك ملاك من السماء وقواه.

سادتي وإخواني الحجاج، ماالذي سوف نفعله هنا؟ كيف سنري أنفسنا لمخلصنا في هذا المكان المقدس والمخيف؟ وبأية مبادرات، وبأية حركات، وبأية أوضاع سوف نصلي؟ مؤكد ليس بغير ما أظهره مقدس هذا المكان نحووالده السماوي، ومن الواضح لكل واحد يقرأ الأناجيل بعناية، أن المسيح اتخذ بصلواته الثلاث، ثلاثة أوضاع مختلفة: أولاً ارتمى على وجهه ومدد جسده كله، كما روى متى، وفي الثانية ارتمى على الأرض، واستند على مرفقيه، كما ذكر مرقص، وصلى في المرة الثالثة لمدة أطول، واعتمد على ركبتيه كما قال لوقا، وفي المرة الرابعة، نهض واقفاً على قدميه، وردد أجمل الصلوات، وعندما رفع عينيه نحو السماء قال:«أيها الأب قد أتت الساعة مجد ابنك» —يوحنا:١٧، هذا ويقول بعضهم بأنه فعل ذلك في الحديقة عند الانتهاء من صلواته بحضور جميع حوارييه.

وبناء عليه اتخذ الحجاج هذه الأوضاع، وصلوا لوهلة طويلة في هذا المكان الفائق القداسة، وبكوا بحرية أكثر مماكانت عادتهم، لأن هذا المكان موائم بشكل رائع لإثارة دموع الذين يصلون، لأنه بدا أن هناك هبوب روائح غريبة في حلاوتها، التي عندما تستنشق تلين كيان الانسان مهما كان، وتجعل قلبه لطيفاً، ولاحاجة للتعجب من هذا، لأننا نعرف يقينا أن هناك ذرفت أطيب العطور حلاوة من خلال عرق جسده الثمين جداً، الذي بوساطته ينبعث الأموات ويعودون إلى الحياة، ذلك

أن ألبيرتوس قد أخبرنا بأن الدم الذي سـال من خلال ثيابه، سقط على الأرض، من أجل أن يجري نحـو رمـاد الأمـوات ويلقي عليهم القـدرة على القيامة.

وبعدما قرأنا الصلوات المحـددة، وقبلنا المكان الذي جثا عليه يسوع، نظرنا باحترام إلى صخرة ناتئة في الكهف، من المعتقد أن الملاك قد وقف عليها، وهو الملاك الذي قوى الرب، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

وهذا الكهف شكله مستـدير في الداخل، وحجمه كبير، ويوجـد على جهتـه اليسرى كهـوف أخــرى عمقهـا لابأس به، فيهـا غـالبـاً مـانام الحواريون، أثناء قيام المسيح بالصلاة، لكن ليس في الليلة الأخيرة فقط، فقد كـانوا في الكهف معه، لكنه ابتعـد عنهم مسافة رميـة حجر تقـريباً، ويوجد عند رأس الكهف نتـوءات خارجة من الجدار من صخـر شديد القسـاوة، عليهـم وقف الملاك الذي ظهـر للمسيح، ويوجــد تحت هذه الصخرة مذبح، عليـه يقرأ القداس أحياناً، وكـانت جدران هذا الكهف في الأيام الخالية مطليـة، فهذا مايمكن اكتشافـه في هذه الأيام من خلال الفحص الـدقيق، وكـــان فيما مضى من الممكــن هناك رؤية آثـار ركب الرب يســـوع على الأرض، حيث أنها انطبعت بشكل اعجـــازي على الصخـــر الأصم، لكن هـذه الآثار لم تعــد الآن مــرئيــة بسبب أعمال التخـريـب التي تسبب بها الحجـاج، الذيـن كـانوا اقتطعـوا شظايا من الأمـاكن المقدسـة، ومندفع من الأرض صخـرة واقفة مسـاحتهـا قامـة ونصف القـامة، وهذا الكهـف مضاء بما فيـه الكفـاية من خلال البـاب الذي يدخل منه الانسان، ومن شق واسع مـوجود على الجانب الأيسر، وذلك في الصخرة التي تغطيه.

المكان الذي بدأ به الرب يصبح حزيناً ومهموماً، وقال:«نفسي حزينة جداً» وحيث وقع الحواريون الثلاثة نياماً

واقتيد الحجاج إلى مواضع آلام المسيح، وفق نظام يمكنهم فيه لقاء ربهم، والذهاب للقائه وهو قادم نحوهم، ولو أن الأدلاء اقتادونا على طول ممرات المسيح وفق النظام نفسه الذي اقتيد به الرب فوقهم، لكان من السهل وصفهم، وتقديم وصف مفيد لهذه الأماكن المقدسة، لكن المسيرة مشت باتجاه معاكس، من الصعب وصفه، ودعونا على هذا نسير نحو الأمام للقاء المخلص.

وخرجنا من الكهف المتقدم الذكر، وابتعدنا عنه حوالي رمية حجر، على طول طرف جبل الزيتون، لأن مقدار هذه المسافة ابتعد المسيح وانفصل عن تلاميذه، عندما ذهب إلى المكان المتقدم الذكر، حسبما ورد الخبر في انجيل لوقا:٢٢، ففي هذا المكان وقف الرب يسوع مع تلاميذه الثلاثة، وبدأ يصبح حزيناً، وخائفاً، ومهموماً، ولجوجاً، وقال:«نفسي حزينة جداً حتى الموت، امكثوا هنا واسهروا معي، بينما اذهب وأصلي»، ثم سار قليلاً ودخل إلى الكهف، لكن التلاميذ الثلاثة ناموا وقتها.

وانحنيا في المكان بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا مواضع الخطوات الأعظم قداسة للرب يسوع، وصدوراً عن الخشوع، جلسنا أيضاً في المكان الذي نام فيه التلاميذ، لأنه يوجد في ذلك المكان بعض الصخور المرتفعة قليلاً فوق الأرض، حيث يمكن لانسان جالس على الأرض أن يسند ظهره وذراعه عليهم ويريح نفسه، وبناء عليه تلونا هنا الصلوات المعينة، وتلقينا غفرانات مطلقة (++)، وتعلمنا من الأمثلة كلها، لأنه بالحقيقة تفيد الصلوات قليلاً فقط وللغفرانات قيمة قليلة، لابل أكثر من هذا تعب الحجاج كله بلا فائدة، إذا لم يتأمل الانسان في هذه الأماكن العظيمة القداسة ويتفكر بهذه الأمثلة التي واجهها، ولم يدخلها إلى قلبه حتى يقوّم حياته ويصلحها.

ويعلمنا حزن المسيح العظيم هذا أن نتخلى عن مسار هذه الدنيا، لأن سرور العالم في كلمات غريغوري (الكبير) هي شروره غير المعاقبة، وكل

الذين يبتهجـون مع الدنيـا في الشرور غير المعـاقبـة يبرهنون على أنهم أنفسهم شركـاء في ذلك، ونوم التـلاميـذ هو برهان على ضعفنا، وعلى التعـاسـة في طبيعتنا، وقـد قطعنا على أنفسنا عهـوداً كثيرة، لكن صرنا متراخين عندما حلّ الوقت بالنسبة لنا لتنفيذهم.

المكان الذي ذهب الرب إليه للقاء الذين جاءوا لاعتقاله، واعتقاله

وتابعنا سيرنا، ووصلنا إلى البستـان الذي إليـه جـاء الرب يسـوع إلى مقابلة الذين أرادوا اعتقاله، فسجد ثلاث مرات، وسلم أخيراً نفسه عن طواعيـة، ووضعهـا بين أيديهم، وترك يهوذا يقبلـه، وهذا المكان محاط بجدار من الحجـارة الجافة، وله قـداسة خـاصة، وهو قـائم على منحدر الجبل، لكن ليس منحـدراً كثيراً، حيث هنالك حقـل واسع يدعى باسم «بستـــان الـورود»، ويزار هـذا المكـان من قبـل المسيحيين الشرقيين والغربيين سـواء مع خشوع عظيم، لكن المسلمين يقومـون، صدوراً عن غيرتهم لنا بتلويث المكـان، بالروث، ويلوثون الصخـور بالنجـاسـات، وهي الصخور التي اعتاد الحجاج على تقبيلها.

والذي حـدث في هذا اليـوم، هو أننـا عندمـا وصلنا إلى هذا المكان، وجـدنـاه قـد لوث حـديثـاً، بشكل مخجل، ولم نكن هنا غـاضبين من المسلمين بقدر مـاكنا غاضبين من أنفسنـا، عارفين من جهة أخـرى، أنه نتيجـة لذنوبنا سمح الرب بفعل هذا، وأنه حـرك بشـدة المسلمين لفعل هذه الأشيـاء، من أجل تلويث الأمـاكن المقـدسـة أمام أعين الفـرسـان الحجاج والنبلاء، الذين بهذا يمكن أن يقوموا ويتحركوا لتحرير الأرض المقـدسـة، ولينتقمـوا للشرور التي سببت مثل هذه الاهانات العظيمـة، ولاشعـال غيرتهم نحـو الأمـاكن التي صنع فيهـا خـلاصنا، وأن يكون الرب قـد أثار بقوة المسلمين للعمل هكذا، مبرهن عليـه بأن هذا المكان

بعيد عن موضع تردد الناس، وأن هذه القاذورات المجمعة لابد أنها قد نقلت بأوعية من المدينة، أو من الأجزاء المنخفضة من جبل الزيتون، حيث يوجد هناك بيوت، والأماكن التي نتعبدها ملوثة بكل دقة، وهو عمل وحشي لايمكن لانسان القيام به مالم يكن متأثراً بشيء أعظم من الارادة الانسانية المجردة، وكان هذا مفيداً، وجاء موضحاً أنه حتى بهذا العمل القذر، أنهم قد أدركوا مدى اهتمامنا بهذه الأماكن، وأننا مسيحيين متشددين، ولاسيما عندما يرون أنهم على الرغم من تلويثهم نحن نحترم هذه الأماكن المقدسة ونقبلها، وكأنها غير ملوثة، ولاشك أن هذا مربك لهم.

وبناء عليه قصدنا هذا المكان، ومسحنا القذارات بأرديتنا، وحيث أننا أثرنا بالشعور بالشفقة، فقدبتنا نشعر بخشوع أعظم وبمزيد من الاحترام، فقد ركعنا وسط هذه القذارات وتعبدنا تلك الأماكن المقدسة، وتلقينا غفرانات(+)، وزيادة على هذا فإن الذي رأى الحشد متمدداً في الوحل، لابد من أن يرمي نفسه مباشرة في الوحل، دون اهتمام بتلوث ذاته، فالمهم لديه كان انقاذ المقدسات من المهانات.

المكان الذي قطع فيه بطرس أذن مَلْخُس الشرير

وتابعنا من هناك سيرنا قليلاً، نزولاً على طول سور تلك الحديقة، فهناك توجد صخرة، هي علامة على المكان الذي وقف فيه القديس بطرس، عندما رأى خادماً اسمه ملخس، لطم الرب على وجهه بعنف، فاشتعل غضباً، ووجه ضربة بسيفه نحو ملخس الذي كان مقبلاً نحوه، عازما على شطر رأسه إلى نصفين، لكنه تجنب الضربة، فقطع بطرس أذنه، وقام الرب على الفور بتوجيه اللوم له، وحظر عليه القتال بالسيف، واقتيد الرجل الجريح إليه، فشفاه بحضورهم جميعاً. وقبلنا هذا المكان، وتلقينا غفرانات(+).

مزرعة جيسماني التي إليها جاء يسوع

ونزلنا الآن من الرابية على مقربة من الجدول، وقدمنا إلى مكان اسمه جيسماني، فهناك كان ثمانية من الحواريين قد بقيوا نائمين، في حين ذهاب الرب مع ثلاثة إلى المكان الذي صلى فيه، وتلونا هنا الصلوات المعينة، وتلقينا غفرانات(+).

وكان في هذا المكان، في أيام المسيح مزرعة، ومسكن ملك للاويين، حيث جرى حفظ المواشي المقرر التضحية بها في الهيكل، وبعد انتصار المسيح، بنى المسيحيون هنا كنيسة كبيرة مع دير لعدد كبير من الرهبان، وجرى اجتثاث جميع هذه الأبنية وتسويتها بالأرض، لكن هناك بعض الآثار من الجدران من الممكن رؤيتها.

الصخرة المشاهد عليها علامات رعب الرب يسوع

وتقوم هذه الأماكن الأربعة المتقدمة الذكر داخل إطار صغير، واحدها قريب من الآخر، وهي في قطعة الأرض نفسها، وفي قطعة الأرض هذه كانوا قد أخذونا أيضاً إلى صخرة كبيرة، قائمة فوق الأرض، وتشكل بوضعها الحالي، جداراً عريضاً، لكن ليس عالياً جداً، وليس قائماً تماماً بل مائلاً، وعند أسفل هذا الجدار الصخري قطعة من الأرض المنبسطة، كان الرب يسوع واقفاً عليها، عندما أقبل اليهود لاعتقاله واتخاذه سجينا، ولم يتمكن الرعاع من الاحاطة به تماما، لأن الصخرة وقفت على الجانب الشرقي منه، وعندما كانوا على وشك الانقضاض عليه، صار خائفاً، فاستدار بنفسه نحو الجدار الصخري، وهو راغب بالنجاة من هجومهم الشديد، وقد مدّ ذراعيه، وسقط فوق الجدار الصخري ليس رغبة منه بالفرار، بل الانزياح فقط من أمام عنفهم الوحشي، وهكذا سقط مقابل الجدار، وانزاحت الصخرة أمام جسده الفائق القداسة، وجعلت نفسها لينه، وصار الجدار وكأنه مشكل

من شمع لين، وهكذا تلقى في نفسه طبعات جسده مع جميع أطرافه، وفق الشكل ذاته عندما وقع عليه، وهذه العلامات التي انطبعت بالصخرة على هذا الشكل، تري بشكل كامل شكل يديه وذراعيه، والرأس والقبعة، والصدر والثياب، ومن المستحيل أن يتشكك الانسان أن تكون هذه العلامات قد نحتت بشكل اصطناعي، بوساطة أية أدوات، بل كان ذلك في اللحظة التي انزعج فيها الرب واضطرب في عقله، وركض نحو الجدار، فتلقى هذا الجدار ضغطاً فاق أي شيء اصطناعي أو فني يمكن ان يعمله، وكأن الطبيعة قد أضفت هذا الشكل على الصخرة منذ البداية.

وعلاوة على هذا، فإن هذه الصخرة كانت قاسية إلى حد بدت فيه، أنه لايمكن نجرها، وأن مامن قطعة منها يمكن فصمها بوساطة أية أداة حديدية، وهكذا انحنينا وقتها بأنفسنا أرضاً حول هذا الجدار الصخري، وبعدما تلونا صلواتنا، ذهبنا واحداً تلو الآخر نحو المكان، ومددنا أجسادنا بقدر ما نستطيع في المكان المقدس للطبعات، ووضعنا أذرعتنا، وأيدينا، ووجوهنا في التجويف، وقسناه بأصابعنا.

والرب شاهد عليّ أنني رأيت هذا الذي كتبت عنه خلال حجي الأول، وأنني مددت نفسي في هذه العلامات، التي أشارت إلى رجل أطول مني بكثير، وقد أشير إليها من قبل الراهب بوركاردوس، الذي كان من طائفة الدومينيكان، والذي أمضى مدة طويلة في الأرض المقدسة، قبل مائتي سنة مضت، وكان وقد وصف بوضوح وتمييز جميع الأرض المقدسة، وقد رأى هذه الصورة معلمة على الصخرة، التي أنا أتكلم الآن عنها، وقدم الوصف نفسه.

لكن الآن، أنا لا أعرف ما الذي سأقوله، وأنا مرتبك، ومتعجب، ومندهش، ولا أستطيع أن أتصور ما الذي حدث لتلك الصخرة، لأننا في أثناء حجي الثاني هذا، أخذنا إلى جميع الأماكن المتقدمة الذكر، فلم نر

الصخرة، ولم نسمع أي ذكر لها، وعاد موالي الفرسان إلى الوطن مع الحجاج الآخرين، ولم يسمعوا شيئاً حول تلك الصخرة، وبعدما عادوا، وعندما صار بامكان الانسان القيام بزيارة أكمل وأهدأ إلى الأماكن المقدسة، ذهبت وحيداً عدة مرات إلى جبل الزيتون، وبحثت بتيقظ عن تلك الصخرة في موقع جيسماني، وذلك صعوداً ونزولاً، وقريباً وبعيداً، لكنني لم أستطع بأية وسيلة العثور عليها.

وأخذت في أحد الأيام اللورد هنري أوف سخومبيرغ Schum-berg وهو فارس ورجل نشيط، وكان راغباً تماماً في معاونتي في أبحاثي مهما كانت، لأنني كنت متشوقاً كثيراً لرؤية تلك الطبعات، وقمنا معا بالبحث عنها صعوداً ونزولاً، غير أننا لم نستطع العثور على أي أثر منها، وقام فرسان آخرون بناء على تحريضي فبحثوا حول الرابية، وفتشوا عنها، لكن تعبهم تبدد بدون فائدة، وأخذت أيضاً معي راهبين من جبل صهيون، وقد بحثا معي باخلاص، لكننا لم نستطع انجاز شيء، وفي الحقيقة أعلنا أنهما لم يسمعا عنها من قبل، وذهبت أيضاً إلى الأب المسؤول، وإلى الأب بول غرنغلنغر Gringlinger، والأب بيرغرين بولانوس Peregrine polanus، والراهب جون أوف بروسيا، وإلى رجال ذوي سن وتجربة، وإلى رهبان مسنين، وإلى رجال دين اتقياء، ورهبان علمانيين، لكن مامن واحد منهم استطاع أن يخبرني شيئاً، وبدوت بالنسبة لهم أنني أهرف، حتى أريتهم وصف الراهب بوركارد، الذي كان معي، وذلك مع كتاب جولاتي السالفة.

وبذلت جهداً كبيراً وأنا أبحث فوق الجبل سعياً وراء هذه الطبعات، لأنني متأكد تماماً أنه من غير الممكن بالنسبة لتلك الصخرة، أن تنقل من مكانها إلاّ بمعجزة، ذلك أن مامن بناء جديد قد أقيم هناك، والذي انقضى فقط عامان على رؤيتي لها أولاً، وإلى هذا اليوم مازلت منزعجاً لاضاعتي ذلك المكان المقدس، ولو كنت أعرف مكان وجود الراهب

أنطوني أوف فلاندرز، الذي هو من طائفة الفرنسيسكان، والذي كان في ذلك الوقت الدليل إلى الأماكن المقدسة، لو عرفت أين يسكن الآن، لذهبت إليه — إذا ماحصلت على إذن — حتى ولو كان في انكلترا، ذلك أنه وإن لم يقل الانجيليون شيئاً عن تلك الصخرة، ولم تأت الكتابات المقدسة القانونية على ذكرها، مع هذا سأكون مسروراً لرؤيتها، مثلما رأينا، وتعبدنا أماكن أخرى كثيرة، لم ترد إشارة واضحة إليها لدى الانجيليين.

وبالاهمال، أخذت أم النسيان هذا المكان المقدس منا، لكنني لا أستطيع أن أمحو المشهد الذي رأيته في ذلك المكان، أو أمنع ظهوره باقياً متجدداً في عقلي، وتولى بيد المبجل وصف معجزة مشابهة قد وقعت في الناصرة، قرب المكان الذي كان الرب سيرمى منه، الموضوع الذي قرأنا عنه في الاصحاح الرابع من انجيل القديس لوقا، فقد قال بأن الرب بعدما نجا من أيدي اليهود، وكان نازلاً من قمة الجبل، رغب بالالتجاء تحت إحدى الصخور، وفجأة لدى لمس ثيابه الصخرة تقلصت، وذابت وصارت مثل الشمعة، وتجوفت في داخلها حتى نستطيع استقبال جسد الرب، حيث من الممكن في هذه الأيام رؤية جميع أشكاله، وطيات ثيابه، وطبعات قدميه في الصخرة، وذلك استناداً إلى شهادات الذين رأوا ذلك، ومثل ذلك فعل دي ليرا في تعليقه على قوله: «أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم» —يوحنا:٨/ ٥٩، ومن الممكن القراءة عن معجزات مشابهة صنعت من قبل عدد كبير من القديسين، إليهم منحت قدرات ربانية، حيث انزاحت صخور من طريقهم، أو أصبحت لينة، كما حدث في مسألة القديسة بربارة.

المكان الذي رأى منه يسوع المدينة وبكى عليها

وغادرنا المكان الذي اعتقل فيه الرب وجعل سجينا، وأخذنا طريقنا نحو قمة الجبل، حيث تسلقنا طريقاً منحدراً ووعراً، كان يقود إلى بيت

عنيـا، لأن هذا هو الطريق الذي يسير عليـه الذاهبـون من القـدس عبر باب اسطفان إلى بيت عنيا، لكن هناك طريق آخر يقود إلى بيت عنيا من جبل صهيـون، وهو ينقسم إلى قسمين: طريق عـالي، وطريق منخفض، كما سيظهرا في مكانهما، وصعدنا عبر هذا الطـريق الذي سار عليه الرب على ظهر أتان في يوم أحد السعف، وفي طريق صعودنا وصلنا إلى مكان على الطريق، حيث هناك صخـرة واسعة، تمتد عبر الطريق كلـه، جاعلة الطريق مخيفاً بالنسبة للحيوانات التي تعبره، لأن الصخرة ناعمة إلى حد كبير، وكأنها مصقـولة، وتسير الدواب فـوقهـا وهي خـائفة، ومـرعـوبة خشية السقوط، خاصة لدى نزولها من الرابية.

ووقـف الرب في هـذا المكـان مع الأتـان، وألقـى نظرة على المدينـة، وتطلع إليهـا، وبكى عليهـا، وبكثير من الحزن ناح على سـلامهـا الحالي آنذاك، وتنبأ بمستقبلها المضطرب، وذلك حسبما قرأنا في لوقا:١٩، وبناء عليـه انحنينا هناك بأنفسنا نحـو الأرض، وصلينا، وتلقينا غفـرانات مطلقـة(++)، ووقفنا لوهلة طويلة في مكان دموع المسيح هذا، وحـدقنا بالمدينة المقـدسـة، لأنه من هـذا المكان يستطيع الانسـان أن ينظر بشكل جيد إلى القدس ويتعرف إليها، ذلك أن منظر الهيكل وجبل صهيون من هناك هو منظر قوي يحرك الأرواح التقية نحو البكاء، ولهذا ذلك المكان متميـز، فيـه —كما قـرأنا— بكى الرب، هذا وتمثل القـدس، على الرغم من وضعها التعيس في هذه الأيام، منظراً جميلاً وبهياً من هذه البقعة.

المكان الذي أخبر الملاك فيه العذراء المباركة بموتها قبل حدوثه

ومن هناك صعدنا إلى رابية، فوق جبل الزيتون، وبعدما قطعنا مسافة جيدة ونحن صاعدين، انعطفنا جانباً من الطريق العالي إلى جهة اليسار، ومضينا صاعدين من خلال أشجار زيتون كثيفة من الشمال إلى الجنوب، وذلك عبر جرف، فوقه استدرنا نحو الشمال، وفي أثناء سيرنا على القمة وصلنا إلى صخـرة، تصـورنا أنها مكان فـائق القـداسـة، ذلك أن جميع

الأماكن المقـدسة، لها ممرات مطروقة تقود إليهـا، وذلك نتيجة الزيارات المتواليـة إليها من قبل المسيحيين، وهذه الأماكن معلمـة بصخور، وهذه الصخـور قـذرة من كثـرة تقبيلهـا، ولأنها تلمس دومـا بشفـاه وأفـواه الحجـاج، بقي من شفـاههم على الصخـور التي قبلوها نوعـاً من أنواع الدهن.

وفي أحـد الأيام، بعد مـازارت العـذراء المباركـة الأمـاكن المقدسـة، استراحت هناك، وجاء الملاك جبرائيل إليهـا، وسلم عليها للمرة الثـانية وقال: «حييت» —وبشرها فأعلمها بمـوتها الوشيك، والانتقال من هذا العالم، إلَى الأب وقال: «أقبلي أيتهـا السيدة المجيدة، إلى الذي ولد منك، وتسلمي ثانيــة عهـد رحمك، والتعــويض عن طبيعتك، وســداد ثمن حليبك وطعامك، ونفقات تعبك، وجائزة أحزانك، فأنت سوف تكوني مجد القديسين، والسفينة الذين تقرر خـلاصهم، وجسراً للذين تتقاذفهم الأمـواج، والعصا التي يمكن للرجل الضعيف أن يتكىء عليهـا، وسلماً للذين يـودون الصعــود إلى السماء، وتوبة للمــذنبين، ومعينـاً لكل من يتوجه بالدعاء إليها».

وعندمـا أكمل الملاك مقـالته هذه أعطى العـذراء سعفـة نخيل جميلة جداً، أرسلـت من الجنة، لتكون برهاناً على انتصارها الكامل على عـدو الجنس البشري، وعلى الآلام، وعلى رعب الموت، وأمــر بحمل سعفــة النخيل هذه أمـام نعشهـا، عـلاوة على هذا خلع عليهـا ثيـاباً جنائـزية، إعجـازية رائعة، فيهـا كانت ستمـوت، وستدفن، وستصعـد إلى السماء، وبعــدمــا عملـت هذا كله صعــدت إلى السماء، وتلونـا في هذا المكان الصلوات المحددة، وقبلنا الأرض، وتلقينا غفرانات.

جبل الجليل الذي هو جزء من جبل الزيتون، حيث ظهر الرب لتلاميذه بعد قيامته

ثم كـان أن غادرنا مكان تقـديم سعفة النخيل، وسرنا متقـدمين على جرف الجبل نحو الشمال، وعند زاوية جبل الزيتـون، عندما يتوقف عن الامتداد نحـو الشمال، وصلنا إلى حافـة الجبل، حيث وجدنا أكـواماً من الحجـارة ومكاناً للصـلاة، وقـد قيل إنـه في أيام المسيح كـان هناك بيتـاً ريفياً، اسمه الجليل، فيه وعد الرب أثناء آلامه، أنه سوف يظهر لتلاميذه في يوم قيامته، ذلك أنه قال في الاصحاح السادس والعشرين من انجيل القديس متى: «ولكن بعد قيامي أسبقكم إلى الجليل»، وقال بعضهـم بأن الرب قد وعد بأنه سوف يظهر نفسـه إلى حوارييه في الجليل بعد قيامته، وقال بعضهم الآخـر بأنه قصد أحياناً قرية الجليل هذه، وأحيـاناً أخرى المنطقـة المعـروفة باسم الجليل، لأنـه ظهر في المكانين، وورد ذكـر قـرية الجليل هذه في متى: ٢٦، وفي الاصحاح الثـامن والعشرين من الانجيل نفسه، وقد أمر الملاك المرأة أن تخبر تلاميذه بوجوب الذهاب إلى الجليل، حيث سيرونه، وتغني الكنيسة أيضاً كلمات المسيح.

"In die resurrectionis mede, Praecedom vos in Galilacam" الخ...

ونحن نعـرف الآن أنه ليس قبـل مضي عـدة أيام على قيـامـة الرب، ذهب التـلاميـذ ونزلوا إلى الجليل، ولم يكن ذلك في يوم القيـامـة، وقـد تحدث القـديس متى الانجيلي عن منطقـة الجليل، في الاصحـاح الثـامن والعشرين، حيث قـال بأن أحـد عشر مـن تلاميـذه ذهبـوا إلى الجليل (المنطقة) حيث ظهر لهم على كل من الجبل، وبجوار بحيرة طبريا، وعلى هذاإذا ما فهم الانسان الكتـابات المقدسة بأنها تنطبق على الجليلين فما في ذلك صعـوبة، لكن إذا مـا طبق ذلك على منطقـة الجليل وحـدها، ففي ذلك صعـوبة كبيرة، عـلاوة على ذلك فإن المعلقين والشراح وأوغسطين في موائمته بين الانجيليين، قـد بذلوا جهوداً كبيرة لشرح النصوص التي تحدثت عن الظهـور الموعـود بأن يتم في الجليل، لأنهم فهمـوا مقـاطعـة

الجليل وحدها، وليس القرية التي سنتحدث عنها، وأنا لم أجد واحداً من علماء اللاهوت القدامى، قد فهم هذه النصوص إلاّ بأنها أشارت إلى منطقة الجليل، لأن الظهور الذي حدث هناك، كان ظهوراً عاماً، وقد كان على الجبل، وأقصد بذلك جبل الطور أمام، أكثر من خمسين من الإخوان، حسبما جاء الخبر في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس: ١٥، ولذلك يتحدث الناس عن الظهور الذي وقع هناك، في منطقة الجليل، دون سواها.

وقد قيل بأن يوسبيوس، قد تحدث عن قرية الجليل، في كتابه «تاريخ الكنيسة»، مع أنني لا أتذكر أنني قرأته، والذي فهمه لودولفوس Ludolhus أيضاً في كتابه «حياة المسيح» بأن بعض الظهور قد وقع في قرية الجليل، الموجودة في اليهودية، وبعضها الآخر في منطقة الجليل، وبناء عليه تعبدنا في ذلك المكان، الذي قيل بأنه ظهر فيه إلى الأحد عشر، وتلقينا غفرانات(++). لأن أعظم الغفرانات مرتبطة مع هذه البقعة، ولأن جميع هذه الغفرانات مرتبطة بهذه الأماكن المقدسة، والمسلمون لن يسمحوا للحجاج بزيارتها، فقد جمعت كلها في هذه البقعة، ثم لأن هناك أماكن كثيرة فائقة القداسة في القدس، من الممكن الحصول فيها على غفرانات مطلقة، إليها لم يسمح لنا بالدخول، مثل هيكل الرب، ورواق سليمان، والباب الذهبي، وقاعة قضاء بيلايطس، وبيت هيرود، وبيت القديسة حنة، الذي هو مكان ولادة العذراء المباركة، وقد حصلنا في هذه البقعة على الغفرانات الممنوحة لهذه الأماكن.

وبناء عليه بعدما حصلنا على هذه الغفرانات، تسلقنا فوق أكوام الحجارة، وتطلعنا بالطول والعرض فوق البلاد، فباتجاه الشرق، عبر الأردن والبحر الميت، رأينا جبال العربية، وأرض مآب وعمون، وجبال جلعاد، وهكذا دواليك، وباتجاه الشمال رأينا جبال منطقة الجليل،

وجبال جلبوع ولبنان، وباتجاه الغرب، كان لدينا في المقابل المدينة المقدسة، ورأينا عبرها جبل شيلوه، وجبل إفرايم، وبلاد الفلسطينيين، وذلك امتداداً حتى البحر الكبير، وباتجاه الجنوب رأينا روابي بيت أوليا قرب بيت لحم، وجبال حبرون، واليهودية وأدوم.

وبعد هذا حملنا أنفسنا وشغلناها في أعمال تفحص المكان نفسه، وهذا المكان، كما سلف وأخبرتكم هو نهاية جبل الزيتون، وهو مكان مناسب لبناء قلعة، وفي الحقيقة انه قد كانت هنالك بعض الأبنية فيما مضى، فضلاً عن هذا يوجد في قمته صهريج، والمكان كله مكان رائع، وتقول تواريخ ملوك الشرق، أنه عندما اقترب الملوك الثلاثة من القدس، غطى الظلام الأرض، ولذلك لم يستطع سكان المنطقة أن يدخلوا القدس، وأمضى الملك بلتزار Baltzar وجنوده الليل على هذا الجبل، في حين أقام الملك ملكيور Melchior فوق جبل أكرا، حسبما سلف لي وحدثتكم في ص٤٩٥، وأقام الملك كسبر Caspar على جبل جيحون، وعند الصباح دخلوا جميعاً إلى القدس مع بعضهم بعضاً.

مكان صعود ربنا، والكنيسة التي بنيت هناك وطبعات قدمي مخلصنا

وبعدما أرحنا أنفسنا على جبل الجليل، عدنا على طول الطريق على قمة جرف جبل الزيتون، وسرنا باتجاه الجنوب فوق أرض مرتفعة نحو كنيسة عظيمة نصف مهدمة، وعندما وصلنا إليها صعدنا فوق بعض الدرجات الحجرية إلى رواق مقنطر، كان قائماً أمام باب الكنيسة، وأجلس مسلم نفسه هناك أمام باب الكنيسة، وبيده عكاز، وماكان يسمح لأي واحد بالدخول مالم يعطه مدنوس Madinus، كل خمسة وعشرين منه تساوي دوقية، ولدى دفع المدنوس تركنا ندخل، هذا ويقوم في وسط هذه الكنيسة هناك بيعة كبيرة، جميلة ومستديرة،

ومقنطرة، يوجد في داخلها المكان العظيم القداسة، وهو مكان طبعة قدمي الرب يسوع المسيح، وهي الطبعات التي تركها على الصخرة، عندما صعد من ذلك المكان إلى السماء.

ووقفنا أمام هذه البيعة، وبصوت مرتفع بهيج غنينا الترانيم والصلوات المحددة في كتب المسيرة، من أجل موضع صعود الرب، ودخلنا إلى قلبها، وكان فيها العدد الذي يمكن أن تستوعبه في مرة واحدة، وارتمينا على وجوهنا، وقبلنا طبعات قدمي مخلصنا، الفائقة القداسة وتلقينا غفرانات مطلقة (++).

وبعد هذا، حملنا أنفسنا لمشاهدة المكان، فالكنيسة قائمة فوق قمة عالية من قمم جبل الزيتون، عند النهاية الجنوبية منه، مثلها في ذلك مثل موضع الجليل المتقدم الذكر، عند النهاية الجنوبية للجبل، ومكان الاعلان عن وفاة العذراء مريم، هو تحت الجرف، في منتصف الطريق بين الجليل، وموضع الصعود، ويقوم في هذا المكان المقدس، كنيسة مستديرة عظيمة، بنيت على شكل أن أعلاها ليس مغطى بقبة بل يوجد في السقف المقبب فتحة كبيرة، صنعت عن قصد، وتحت هذه الفتحة تقوم بيعة صعود الرب، مثلما فعل بالنسبة لبيعة ضريح الرب.

وحدثنا المؤرخون، أنه عندما كان المؤمنون يبنون الكنيسة، فوق مكان صعود الرب، وأرادوا تغطيتها بقبة معقودة، لم يتمكنوا بأية وسيلة من الوسائل وضع الحجارة مع بعضها لبناء القناطر، وكانوا ما أن يضعوا مثل هذه الحجارة، حتى كانت تسقط مباشرة، وعندما رأى المؤمنون هذا فهموا أن إرادة الرب قضت بعدم اغلاق مكان صعود الرب من الأرض إلى السماء بجدران أو بقناطر، بل بالبقاء مفتوحاً، ولذلك عندما قاموا بأعمال البناء، جعلوا القبة المعقودة مستديرة، مستندة فوق جدار مستدير، لكنهم لم يكملوها، بل كما قلت من قبل، تركوا فتحة كبيرة فيها، غلفوا حوافها على طول الدائرة بقطع من الحجارة المصقولة.

وعندما كان المعماريون على وشك للشروع بتبليط الكنيسة بألواح رخامية، وأرادوا تغطية مكان وقوف قدمي المسيح، عند صعوده طارت الحجارة التي وضعوها على ذلك المكان مباشرة عائدة نحو وجوه المعماريين، وتكرر حدوث هذا كلما حاولوا تغطية ذلك المكان، وكان فيما مضى ملاصقاً لهذه الكنيسة ديراً كبيراً لرهبان (بندكتيين) سود، تحت قيادة راعي دير متوج، ومنذ أوقات مبكرة جداً، سكن في هذا المكان، رجال مقدسون وأتقياء، بناء على سلوكهم وتصرفاتهم كتب جيروم كتاب «حياة الآباء»، وذلك حسبما يمكننا أن نقرأ في توطئة ذلك الكتاب، وفي تلك الأيام الذهبية جرى اشعال أعداد كبيرة من المصابيح في هذه الكنيسة، بقيت مضاءة من قبل المؤمنين، من أجل إضاءة جميع جبل الزيتون وكان اشعاعهم يصل حتى أقصى طرف من وادي شعفاط، ويضيء باب مدينة القدس الموجود هناك.

وكان في مواجهة هذه الكنيسة، مايزال معبد سليمان، الذي مثل هذا مشتعل فيه كثير من المصابيح والمشاعل، تنير جانب جبل الزيتون هناك، وبوساطة اشعاع الأضواء الصادرة من هاتين الكنيستين، فإن جميع وادي شعفاط كان مضاء، وكان جبل الهيكل مضاء بوساطة الكنيسة الموجودة على جبل الزيتون، وكان جبل الزيتون مضاء بوساطة الكنيسة المقامة على جبل الهيكل، علاوة على ذلك كانت هذه الكنيسة القديمة منعم عليها بالمعجزات التالية، التي تعرضت إليها وعلمت بها، من خلال كتاب حج لرجل مقدس كان حاضراً وشاهداً لها.

كان من عادة المسيحيين الأقدمين، قدوم جميع سكان القدس إلى جبل الزيتون، في يوم صعود الرب، وذلك بعد القيام بالقداس، وكانوا يبقون هناك بصلوات مستمرة، ينتظرون ساعة الظهيرة، التي حمل فيها الرب يسوع إلى السماء، وفي تلك الساعة، كانت تهب ريح عنيفة جداً، وتقبل مندفعة من السماء، وتصب قوتها كلها من خلال الفتحة الموجودة في

سقف الكنيسة، إلى حد أن الجبل كله كان يهتز من وقع الصدمة، ويسقط جميع الذين يكونون هناك على وجوههم نحو الأرض، حتى تعبر هذه العاصفة البهيجة، لكن المرعبة أيضاً، وجرت العادة بوقوع هذا في يوم الصعود من كل سنة، ولكن عندما استولى المسلمون على الأرض المقدسة، خرقوا حرمة هذه الكنيسة المقدسة، واتخذوا مسجداً منها، وعلى الرغم من جميع أوامر الحظر، يقوم الحجاج المسيحيون بزيارة هذه الكنيسة، وقد اعتادوا على الدخول إليها، في الليل خلسة، حتى يتمكنوا من تقبيل طبعات قدمي المخلص، وبناء عليه لم يسمح المسلمون لنا بالاحتفاظ بهذا المكان، كما أنهم لم يحفظوه لأنفسهم، بل قاموا بتهديم الجانب الشرقي منه، ونزعوا عن الجدران، ومن الأرض جميع ألواح التغليف الرخامية، كما نقلوا الأعمدة الثمينة، وتركوا على كل حال دون لمس، بيعة مكان طبعات قدمي المسيح، والصخرة التي تحتويهم، لأنهم هم أيضاً يحترمون الطبعات المقدسة للقدمين.

ومن الممكن رؤية طبعتين لقدمي الرب يسوع على هذه الصخرة، علماً بأن طبعة القدم اليمنى هي الأوضح بين الاثنتين، ويجري تقبيل هاتين الطبعتين من قبل المسيحيين والمسلمين سواء، واستثير الآن واحد من الحجاج وتحمس بروح الخشوع اللطيفة، وكان معه قارورة من الخمرة العظيمة الحلاوة، فصب بعضها في الفراغات المشكلة بطبعتي القدمين، وقام الآخرون بلحسها كلها أثناء تقبليهم للطبعات، وبسرعة عندما فرغ المكان صب المزيد.

ويوجد على الجهة الشمالية من هذه الكنيسة فتحه في الجدار عالية، يكاد بصعوبة ان يصل الانسان إليها وهو ماد ذراعه، ورفع الحجاج أنفسهم إلى هذه الفتحة، ووضعوا أيديهم عليها، حيث أعلنوا أنه يوجد في الجدار بعضاً من الصخرة ذاتها التي وقف عليها المسيح، عندما صعد إلى السماء، لكن من أين جاءتهم هذه الفكرة، لست أدري.

وكـان بالعادة يوجـد في النهاية الشرقيـة صخرة كبيرة، عليهـا جلس الرب، عندمـا وجـه الملامـة إليهـم لنقص الايمان وقسـوة القلب،وذلك حسبما قـرأنا في الاصحـاح الأخير من انجيـل القـديس متى، غير أن النهاية الشرقيـة مهدمة تقـريباً، وفيها هنـاك مكان إقامة لفـلاحين وباعة ماعز، لوجود بيت ريفي ملاصق للكنيسة في الجهة الشرقية، واسم هذا البيت بلغتهم:..

وهناك على كل حـال، جدار مبني عبر وسط الكنيسة، يفصـل النهاية الشرقيـة —حيـث يعيش هؤلاء الريفيـون— عن الجزء الغـربي، حيث هناك بيعـة صعود الرب، وكما أخبرتكم من قبل، تقف هذه الكنيسـة في مقابل هيكل الرب، لكنهـا أعلى من الهيكل، مع أنه مثلها هو قـائم فوق جبل، ومن الممكن رؤيتـه عن بعـد كما ورد الحديث في ص٣٩٨، وهي مباشرة إلى الشرق من هيكل الرب، الـذي يسمونه هيكل سليمان، وبنا عليـه نجـد أثنـاء الاعتـدالان أن الشمس مقبلـة على الاشراق من هذه الكنيسـة، ولسوف تصعـد منها، كما راقبتهـا مراراً تفعل ذلك، وعندمـا رأيت هذا لم أعد أعجب من قيام الكنيسة بالغناء في ويوم صعود الرب، «بالغناء إلى الرب، الذي صعـد فـوق سماء السمـوات في الشرق»، وعن هذا الموضـوع سـوف أتحدث بشكل أطـول في ص ٦٢١، وهناك من مـدينة القـدس إلى موضـع الصعود ثلاثة أميـال ايطاليـة جيـدة، وذلك بوساطة الطريق الذي ذهبنا به إلى هناك.

مدح مكان صعود الرب ومعه سوف نقدم أيضاً وصفاً له، وكذلك لوادي شعفاط، ولجدول قدرون ولوادي توفت، ولوادي هنوم الذين موقعهم جميعاً عند سفح جبل الزيتون

إن مكان صعود الرب هو مكان له قـداسة خاصـة بين جميع الأماكن المقدسة للأرض المقدسة، ويتحرك الحجاج هناك بوساطة حماسة عجيبة، لأن المكان مشرف بسبع فضائل خاصة، ولأنه:

١— كـان مبجلا غـاية التبجيل، لأنه في العصـور الخالية كـان هناك موضع مشهـور مرتفع، إليـه صعد داوود للصـلاة، وذلك حسبما جاءنا الخبر في الاصحاح السادس عشر من سفر الملوك الثاني، وما سنذكره في الصفحـة ٦٢١ من هذا الكتـاب، ولأنه هناك عليـه، تم جعل الحواريين سادة جميع البلدان، لأنهم أمروا بقـوله: «اذهبوا إلى العالم أجمع، واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها» (مرقص: ١٦/ ١٥).

٢— لأنه مكان ينبغي أن يحب، لأنه من هنا صعـد إلى السماء، وأرانا الطريق إلى مملكة السماء.

٣— لأن المكان رائع، وبسبـب الدمـار الفـائق الوحشيـة للمسيح الدجـال، لأن اللاهوتيين — ومنهم على سبيل المثـال ريكاردوس، في نهاية كتابه الرابع — حدثونا بأنه في هذا المكان سوف يجري قتل المسيح الدجال على يدي الرب يسـوع،حيث إنه تبعاً لرؤيا دانيـال: ١١، سوف يأتي المسيح الدجال إلى قمة جبل الزيتون، الذي قال النبي عنه بأنه جبل رائع ومقدس، فهو سينصب عرشـه فوق المكان الذي صعد منه المسيح، وسوف يتخيل نفسه أيضاً، أنه سوف يصعد إلى السماء، وله سوف يقتل الرب يسـوع بالنفخ من فمـه، مصـدراً صوتاً مـرعبـاً، ولدى سماع هذا الصـوت سـوف ينهض ميكائيل ضـد المسيح الدجـال، حيث سيضربه بصاعقة، وسيغرقه في قعر هوة عميقة.

٤— وهذا المكان مـرعب بسبب مقعـد وعـرش الحسـاب الأخير، حيث إنه في هذا المكان سـوف يقيم الرب يسـوع ويضع مقعـد حسـابه الأخير، ولهذا قـال الملائكة في الاصحـاح الأول من أعمال الرسل: «إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتمـوه منطلقاً إلى السماء، وسوف يعود بقوة عظيمة ليحكم الأحياء والأموات».

٥— وهذا المكان مخيف، بسبب رمي المذنبين في الجحيم، لأن المذنبين

المدانين سـوف يقفون في وادي شعفـاط، الوادي الذي قلت من قبل في ص ٥٨٧، بأنه متصل بـوادي هنوم الملعـون أو جهنم، الذي يمتــد من هناك خلال ممرات مهجورة مخيفة إلى بحـر الشياطين، الذي يعرف أيضاً باسم البحـر الميت، وفي اللحظة التي سوف تسمع فيهـا الكلمات المرعبة التالية، التي سـوف يتفوه بها القاضي قائـلاً: «اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية» (متى:٢٥/ ٤١)، وهناك سـوف يكون تصـدع من الجانب الشمالي لهذا الوادي، وسيكون هناك نهر مـن نار يجري بسرعـة فـائقـة، ســوف يطوق جميع الأشرار، وســوف يلفهم بعنـف، وذلك على طول وادي شعفاط ومنه إلى وادي توفت المرعـب، ووادي هنوم، وحول هذا الموضوع عـد إلى النص المتميز في إشعيـا: ٣٠، ومن هناك سوف ينقلون بوساطة النهر، من خلال الوادي إلى البحر الميت، الذي اسمه أيضاً بحر الشيـاطين، ففيـه سوف يتلقـى اليهود محمـولين بالنهـر الناري، ومـا أن يصب هذا النهر في هذا البحر، حتى يشتعـل البحر كله بنار ذلك النهر، وتحت البحر سـوف تكون جهنم فـاغره فاهـا، الذي لاحدود لعـرضه، ولسوف تبتلع الجميع.

وفي الحقيقـة والواقع، إن وضع المكان هو كمايلي: يمتد جبل الزيتـون مسافة طويلة باتجاه الشرق، فهـو يمتد من الشمال باتجاه الجنوب، وذلك حتى يتصل على الجانب نفســه بجبل العـدوان، الذي مثـل ذلك يمتـد مسـافـة طويلة، وعلى الجانب الغـربي هناك جبل المدينة المقـدسـة، الذي يلتقي بجبل صهيـو ن وفوقـه الذي خلفه يقع جبل جيحـون، وذلك في مقـابل جبل الزيتـون وجبل العـدوان، ويـدعى الفـراغ فيما بينهم باسم وادي شعفـاط، الذي في قعـره جـدول قـدرون، ويبـدأ وادي شعفـاط وجـدول قــدرون من مـوضع رجم اسطفـان، وينتهـي عند سفح جبل صهيـون، في المكان الذي تلتقي فيه ميـاه سلوان بالجدول، وهناك يطلق على المكان اسم وادي سلوان، الذي يمتد حتى بئر روجل.

ويبـدأ من هذا المكان الوادي الذي اسمـه «الوادي الظليل»، ويدعى وراء هذا باسم وادي هنوم، أو توف، أو تـوفت، ومن هناك أخـذ اسم جهنم، ويحتفظ بهذا الاسـم طوال مجراه بين جبـال وعــرة، ومـروراً بجروف منحدرة، وذلك وصـولاً حتى البحر الميت، وهو البحر المضل، وذي الرائحة المقيتـة الملعونة الذي تحته —كمايقال— مفتـوح على وسعه فم هوة الجحيم.

وهكذا بعدما يكون الأشرار قـد حكم عليهم ، سوف يمتلىء جدول قدرون حتى الفيضان بنهر من نار، ينفتح متدفقاً من طرفه الشمالي، فمن هناك يبـدأ بالانفتـاح والتـدفق، لأنـه «من الشمال ينفتح الشر على كل سكان الأرض» (ارميـا:١/ ١٤)، ولسـوف تطوقهم النيران، وتقـودهم على طول الوديان المتقدمـة الذكر، التي يتصل أحـدها بالآخر، من دون وجود جبـال تغلق سبلها، وذلك وصـولاً حتى البحر الميت، وعلى هذا سـوف يكون وادي شعفـاط هو المكـان بالنسبـة للأنـاس الذين يحكم عليهم بالادانة، والذين سوف يقفون في جدول قدرون، بمثابة مدنسين، لأن هذا المكان كـان دومـا مصب جميع القذارات، أو بالحري البـالوعـة التي تجري من خلالها جميع القاذورات إلى المصب، أي إلى البحر الميت.

فقد قرأنا في سفر الملوك الأول: ١٥، بـأن الملك آسا قد دمّر المأبونين وأزالهم، ودمـر التمثـال القذر جـداً العـائـد لأمـه، وأحرقـه في جـدول قدرون، مع جميع نجاسات الأوثان، ومثل هذا جاء في سفر أخبار الأيام الثـاني: ٢٩/ ١٦ قـوله: «ودخل الكهنـة إلى داخل بيت الرب ليطهـروه، وأخرجوا كل النجاسة التي وجدوها في هيكل الرب.... ليخرجوها إلى الخارج إلى وادي قـدرون»، فضـلاً عن هـذا جـاء خبر في أخبـار الأيام الثـاني بأن بني اسرائيل اجتمعوا في القـدس، وحطموا المذابح، ودمـروا كل شيء أحـرق عليـه البخـور للأوثان، ورمـوهـم في جـدول قـدرون، عـلاوة على هذا حطمـوا الأوثان والمذابح إلى قطع، ورمـوا بطحينهـا في

جـدول قدرون، فضـلاً عن هذا، جرت العـادة على جر جميع قـاذورات المدينة إلى جـدول قدرون، وعندمـا كان الجدول يفيض، كـان يحمل كل شيء ويجرفه ليلقيه في البحر الميت.

وهناك سبب آخر لنجـاسة الوادي ولكونه ملعـوناً، هو أن الشياطين كـانت تعبد فيـه، والأعمال الشيطانية كـانت تمارس فيه، حسبما قـرأنا في أخبار الأيام الثـاني: ٢٨، ففيه جاء بأن الملك آحاز، قـد أوقد البخور في وادي هنوم، وطهر أولاده بالنار هناك، وفق طريقة الأمم، ووادي هنوم هذا هو وادي شعفـاط نفسه، وكـذلك يعـرف هذا الوادي نفسه أيضـاً باسم Cela، في حين يدعى جـدول قـدرون باسم Chrinarus، ومن الرائج والمتـداول تعليمـه الآن والاعتقـاد به، أن جميع أصـول الأرض سـوف تجتمع مع بعضها في هـذا الوادي، ولهذا اعتاد الناس على سـؤال الذين ذهبوا إلى الأرض المقدسة، عن سعة هذا الوادي، وهل هو واسع بما فيه الكفاية حتى يتمكن جميع الناس من الوقوف فيه في يوم الحساب.

ولايهتم الناس البسطاء بشيء آخـر، وتراهم منشغلين حـول حجم وادي شعفاط، وكان يحدث أحياناً، ومازال يحدث، أن الحجاج يقومون بتكويم بعض الحجـارة من أجل أنفسهم في هذا الوادي، رغبـة منهم في تأمين مكان لأنفسم قبل يوم الحسـاب، ليجلسوا عليـه في يوم الحساب، ويعطي في بعض الأحيـان بعض الأناس البسطاء مـالاً إلى حجـاج على وشك الانطلاق نحـو القـدس، ليعملوا لهم مكاناً بوسـاطة الحجـارة في وادي شعفـاط، فـإلى ذلك المكان، يعتقـدون أنهم سـوف يأتون في يوم الحساب، وعندمـا يسأل أحدهم الآخـر عن حجم الوادي، كـان الآخر يجد نفسـه مرغماً على الاجـابة بكل لطف وتهدئـة بأن الوادي ليس كبير الحجم، وأنه في وضعـه الحالي، يستطيع بصعوبة استيعـاب أمة واحـدة، ذلك أن جميع السـوابيين الأحيـاء الآن بالفعل، سيجـدون من الصعـوبة إيجاد مكان لكل واحد منهـم فيه، وذلك دون أن نذكر الذيـن كانوا فيما

مضى والذين سوف يكونون في المستقبل.

لكن في يوم الحساب سيكون شكل ذلك الوادي مختلفاً، مثلما سيكون شكل الأرض أيضاً، لأنه قبل يوم الحساب، سوف يحترق العالم كله، وسوف يتحرر من النجاسات، وكذلك من جميع كل ما ليس مستوياً، ذلك أن الأماكن الضيقة سوف تكون عريضة، وسوف تتحول الأماكن الوعرة والمتصدعة إلى أماكن منبسطة تماماً، وكون هذا الوادي سوف يتوسع هذا واضح من زكريا: ١٤ حيث جاء الخبر في سفر زكريا: ١٤، بأن جبل الزيتون سوف ينشطر من الشرق إلى الغرب، وأن الشطر الأول من الجبل سوف ينقل ليكون فوق الجهة الجنوبية، وأن الشطر الآخر سوف ينقل ليكون فوق الجهة الشمالية، وأن هذا الصدع في الجبل سوف يكون عميقاً إلى حد أن يكون فيه استمراراً لوادي شعفاط من الغرب.

ولسوف ينشطر جبل الزيتون انشطاراً آخر، من الشمال إلى الجنوب، وبذلك يتلاقى الانشطاران مع بعضهما بعضاً على شكل صليب، ولسوف ينقسم جبل الزيتون على شكل صليب، والذين سوف يحاسبون سيقفون في الواديين اللذان تشكلا بهذا الصليب، وعندما تحدث هذه التقسيمات، ينبغي أن لايكون أحد قلقاً حول السعة، حيث ستكون هناك سعة كافية للعالم كله حتى لو بقي على شكله الحالي، لأن الشق في جبل الزيتون، يمتلك عبره باتجاه الشرق، سهلاً واسعاً جداً في منطقة أريحا، وكذلك فيافي الأردن الشاسعة، التي يمكنها استيعاب جميع شعوب الدنيا.

ومثل هذا ينبغي على الانسان أن يرد عليهم — وفي الحقيقة هذا هو الجواب الأفضل— بأن الذين أمضوا حياتهم بشكل جيد، ومستقيم وأخلاقي هنا على الأرض، سوف يجدرون جميعاً أماكن جيدة ليقفوا عليها، قد أعدت لهم من قبل ملائكتهم، لكن الأشرار والمذنبين سوف

يجدون أماكن سيئة ووضيعة، وسوف يقفون وسط شقاء عظيم، ولذلك سوف يبدو العالم كله بالنسبة إليهم صغيراً جداً، ولسوف يقولون للجبل «اسقط علينا»، وللروابي «غطينا»، وبناء عليه أنت لست بحاجة لتأمين محلك سلفاً، على أساس إذا ما كنت رجلاً جيداً، فسوف يعد لك ملاكك مكاناً جيداً لك، ولن يجعلك في أي مكان آخر، إلاّ في مكان تشريف، وإذا ما كنت شريراً، وأقمت حجارة من أجل ذاتك، فإن تلك الحجارة سوف تصرخ ضدك، كما أن فاعلي الشرور لن يجدوا مكاناً ليرتاحوا عليه لأن المستقيمين سوف يقفون بشكل اعجازي ومجيد في الهواء، لكن غير المستقيمين سوف يقفون على الأرض في النار،والشنار، والشقاء، وهم يصرخون ويولولون، ومن أجل رواية حول هذا الوادي وأسمائه انظر ما سيأتي في الجزء التالي.

ولنعلم مما قد قيل، أنه من الواضح، كم هذا المكان لابد أن يكون مرعباً بالنسبة للآثمين.

٦— وهذا المكان مرغوب به، بسبب مواساة النخبة، لأنه من هذا الجبل سوف ينزل الرب الموت، وسوف يحطم وجه الغطاء الملقى على جميع الناس، والحجاب المنشور فوق جميع الشعوب، وفي هذا الجبل سوف يعمل رب الجنود حفلة إلى جميع الناس، فيها يجري تقديم جميع الأشياء السمينة، مليئة بالنقي، الخ (اشعيا:٢٥)، ذلك أن جميع الأشياء التي جرى الحديث عنها في ذلك الاصحاح هي عائدة بشكل صحيح إلى جبل الزيتون، مع أن بعضهم يوضح أنهم يعودون إلى جبل صهيون، وكل من يرغب ليقرأ هذا الاصحاح والاصحاح الذي يليه، ولسوف يرى براهين كثيرة حول ماقيل أعلاه، وهذا المكان مرغوب به، لأنه من هناك — بعد انتهاء الحساب — سوف يصعد الرب إلى السماء مع جميع النخبة الذين كانوا كذلك منذ بداية الدنيا.

٧— ويمكن اتخاذ هذا المكان درساً، بسبب أمثلة التقوى السامية،

التي ضربت هنا، فهنا وقفت مريم العذراء الفائقة القداسة، وهي منتشية ببهجة لايمكن وصفها، وهي ترى صعود ابنها إلى السماء، وهنا وقف الرسل، وأكثر من خمسمائة من الإخوان، بوجوه مرفوعة نحو الأعلى، تحدق بشغف في الغيوم، ومع خشوع وتأمل، كانت راغبة في اللحاق بالرب، ومثلهم كانت الملائكة حضوراً، وقالوا معهم: «أيها الرجل الجليلي، لماذا أنت واقف تتطلع نحو الأعلى...»؟، ولهذا قرأنا في الاصحاح الأخير من انجيل القديس لوقا بأنهم عادوا إلى القدس مع سرور عظيم، ولقد أخبرنا أيضاً — وهذا أثر تقوي — أن العذراء مريم، كانت بعد صعود ابنها، تزور هذا المكان المقدس، في كل يوم، وتسلم نفسها إلى تأمل خشوع خاص، وكانت تحاول بكل قواها العقلية التحليق بنفسها نحو تصور الأشياء السماوية.

وقد روي أيضاً أن فارساً حاجاً، بعدما زار الأماكن المقدسة التي عمل فيها المسيح خلاصنا، قام بالأخير فتسلق إلى هذا المكان، وخرّ على الأرض وهو يصلي، وصاح بأعلى صوته: «يا يسوع الرب لقد بحثت عنك وطلبتك بدقة وتقوى بقدر ما أستطيع، في جميع أرجاء الأرض، ولا أعرف أين أطلبك بعد هذا المكان، لأنك من هنا تركت العالم، وعدت إلى الأب، إنني أتوسل إليك أيها الرب أن تأمرني بالقدوم إليك، حتى أطلبك، فأجدك على يمين الأب»، وعندما أنهى هذه الصلاة، لفظ أنفاسه بوجه مشرق على مرأى من رفاقه الحجاج، وبموته وجد في الجنة الذي طلبه في حجه خلال الأماكن المقدسة.

جبل الزيتون، أسماؤه، وقداسته

لقد كونا من الذي تقدم قوله فكرة عن شكل جبل الزيتون، وبات ذلك مفهوماً، لكنني رأيت من الأفضل إضافة مايلي، حتى يكون معروفاً بشكل أوضح أكثر، وفي الاصحاح الحادي عشر من سفر دانيال أطلق عليه اسم «جبل بهاء القدس»، وأكثر من هذا هو معروف باسم

جبل الزيتـون، ومع هذا ان اسمـه الحقيقي هو جبل الضيـاء، لأن هذا الجبل هو الذي يضـاء أولاً بالشمس، ففي الفجر يضـاء مباشرة بأشعـة الشمس قبل الجبال الأخـرى، ومنه تعبر الاشعاعات إلى المدينة المقـدسة وإلى الهيكل، لأن هيكل سليمان قد بني وبابه يتطلع نحو الشرق، ووقف المذبح وتابوه العهد في الجزء الغربي من الهيكل في مقابل الباب، وعندما تشرق الشمس، وتمر عبر قمة جبل الزيتون، تـدخل أول اشعاعاتها التي ترسلهـا من حـافـة الجبل نحـو المدينة، إلى بـاب الهيكل الخارجي، من خـلال باب الهيكل الداخلي، ومن خـلال الباب الداخلي للهيكل تأخـذ طريقها حتى تابوه العهد، الذي يضاء بأول حزمة من أشعة الشمس.

أما بالنسبة لكنيسة صعـود الرب، فإنها تتلقى دوما أول الاشعاعات، كما تحدثنا عـن ذلك أعـلاه في ص٦١٢ ، وتعبر من هنـاك إلى هيكل الرب، وإذا كـان لها بابين، أحـدهما مقابل الآخـر، أي واحـد في الجدار الشرقي، والآخـر في الجدار الغربي، فوقتهـا في أثناء الاعتـدالين، سوف ترسل الشمس المشرقـة أشعتهـا من خـلال هذين البـابين، حتى إلى بابي هيكل الرب، وإلى تـابوه العهـد، وإلى كـرسي الرحمة، وإلى الكروبيين، ولهذا أطلق عليه اسم جبل الضياء.

وثانيـاً، أطلقت عليه هذه التسميـة، لأنه في الليل يكون الجبل مضـاء من الجهة الغـربية بأضواء هيكل الرب، لأنه كـانت هناك مصابيح كثيرة مشتعلة في هيكل سليمان، وهـذه المصـابيح تضيء الجبـل المقـابل لهم، حسبما تقدم بنا الحديث في ص ٦١١، وإلى هـذه الأيام ينتشر الضوء من الهيكل فوق هذا الجبل، لأنه قـد قيل بأن لدى المسلمين سبعمائة مصباح مضاءة دوماً فيه، وثمانمائـة في الكنيسة إلى جانب الهيكل، وكنت مرة على جبل الزيتـون ليـلاً، ورأيت من خـلال نوافـذ الهيكل، وكأن ناراً مضيئة مشتعلة فيه، أو كأن هناك مصباحاً مليئاً بلهب واضح.

وثالثـاً، كان يعـرف باسم جبل الضيـاء، لأن كهنة الشريعـة القديمـة

(العهـد القـديم) كانـوا قد اعتـادوا على اشعـال نار عظيمـة كل سنة في مكان صعـود الرب، وكانوا يجلبـون معهم عجلة حمراء، مع جميع شعب اسرائيل وراءهم، وكانوا يحرقـونها هناك مثلما كانوا يحرقـون القربان إلى الرب، وكانوا يجمعـون رماد العجلة، ويصنعون مـاء التطهير بمزج هذا الرماد معه، وبرش هذه المياه كانوا يطهرون الناس من كثير من الذنوب ضد الشريعـة، وكان هذا يعمل مع اجـراءات مهيبة كثيراً، وذلك حسبما قرأنا في سفـر العدد:١٩، وقد عملـوها على الجبل، كما حدثنا جيروم في «حياة وموت القديسة باولا»، ولم يجتمع شعب اسرائيل قط خلال السنة على نار في خارج الأسـوار، إلاّ في احتفال احراق قربان البقـرة الحمراء، ولهذا أطلقـوا الاسم على الجبل من خـلال تلك النار وذلك الضـوء، أو من خلال الرماد وماء الطهارة الذي حفظ هناك.

هذا وإنه بالإضـافـة إلى أسرار المسيح وآلامـه، هناك سببين من أجل التضحية بالعجلـة الحمراء: الأول من أجل غفران الذنـب الذي اقترفوه بعبادتهم العجل في القفـار، وكان ذلك العجل أحمر اللون، لأنه كـان قد صنع للتـو من أفضل أنواع الذهب، الذي كـان أحمر اللون قبل تنعيمـه وصقله، والسبب الثاني هو أن بني اسرائيل قد تعلموا هذا الاحتفال من الوثنيين في مصر، وبما أن الرب كـــان رحيماً تجاه ضعفهم، لم يقم بتغيير هذا الاحتفـال، علماً بأن معناه ومقصـده بـالنسبـة للمصريين هو قـديم جداً، ويتطلع على ملكهم أوزريس وينظر إليـه بمثابة رب — لابل إنهم اعتقدوا أنه رب — وكان هذا الرجل قـد قتل من قبل أخيه تيفون Ty-phon، وكان تيفـون هذا صاحب شعـر أحمر، غير تقي، ورجلاً شريراً، حيث قـام بتقطيعـة إلى ست قطع، وبعث بهم إلى أتبـاعـه في أمـاكن متنوعة، وحـدث أن ايزيس زوجة الذي قتل، كانت عملاقـة وامرأة لها قـدرات فـائقة، فضبطت مملكة زوجهـا، وجمعت أعضـاءه مع بعضهـا، ووضعتهم في صندوق ذهبي، وبنت هيكلاً، وضعت فيـه كهنة، وقضت

بتقديم ضحايا لأوزيريس، وأمرت بسبب كراهيتها المقيتة لجريمة تيفون صاحب الشعر الأحمر باحراق الناس والحيوانات ذوي الشعر الأحمر عند قبر أوزيريس، وذلك بمثابة قرابين حرق.

وبناء عليه عندما صارت عبادة أوزيريس معروفة في جميع أرجاء بلدان العالم، فإن الناس رغبوا بالتضحية له، وفق الطريقة نفسها، وكانوا يجلبون إما رجلاً له شعر أحمر، أو ثوراً أحمر، أو بقرة حمراء من أجل الذبح، ولهذا حدث أنه لم يبق في الوجود بين الأحياء رجل له شعر أحمر، وذلك في جميع بلاد مصر، وفي الوقت نفسه نظر في البلدان الأخرى إلى الرجال ذوي الشعر الأحمر نظرة كراهية من قبل الذين عبدو أوزيريس وايزيس، وبسبب تيفون قاتل أخيه، ولشروره، نظر إلى كل رجل ذي شعر أحمر نظرة ريبة بأنه شرير، ولهذا السبب، ولمثل ذلك يرسم المسيحيون يهوذا الخائن على شكل تيفون، ويسيئون معاملة الرجال ذوي الشعر الأحمر، ويهينونهم، حتى وإن كانوا أتقياء جداً، وهكذا يدفع الناس الأبرياء من ذوي الشعر الأحمر عقوبة جريمة هم لم يقترفوها، وقد كتبت اسطورة أوزيريس وايزيس وتيفون في الفصل الرابع من الكتاب الأول، وفي الفصل الرابع من الكتاب الثاني، من «التاريخ القديم» لديودور الصقلي.

ورابعاً إنه عرف باسم جبل الضياء، لأنه كان يضاء بمصابيح وأضواء الكنائس التي قامت عليه، فقد كانت هناك كنيسة صعود الرب، مليئةبالمصابيح، وذلك حسبما تحدثنا في ص٦١١، والكنيسة في الجليل، وكنيسة القديس مرقص، وبيعة بلجيا، وكنيسة المسيح في الآلام، وكنيسة ضريح العذراء المباركة، وكنيسة دموع المسيح، والكنيسة في جيسماني، والكنيسة في بيت فاجي، وكنيسة القديس جيمس، وكنائس أخرى كثيرة، فيها جميعاً استخدمت مصابيح للاشعال، وبناء عليه، ليس جبل الزيتون، ولكن أيضاً جبل الهيكل، والمدينة المقدسة في مقابلته،

كانوا جميعاً مضائين.

وخـامساً،إنه عـرف باسم جبل الضيـاء، بسبب أن الزيت، الذي هو غذاء المصـابيح، تنمو أشجاره هناك بكثافـة، ولهذا أطلق عليه اسم جبل بساتين الزيتون، أو الزيتون، الذي تنمـو أشجاره هناك بأعداد كبيرة من قبل ذاتها، ومن دون أن يزرعهـا أحد، والزيت الذي ينتج، يستخـدم في هذه الأيام لتغذية المصابيح في هيكل الرب، وهنا أشجـار زيتون ضخمة جداً، وقـديمة كثيراً، إلى حـد أنني أعتقد أن بعضهم مـوجود هناك منذ أيام المسيح، ومستمر حتى أيامنا هذه.

وقال القـديس أوغسطين في تعليقاته على انجيل القـديس يوحنا، بأن جبل الزيتــون هو جبـل المسح بالزيت والدهـن به، وهو جبل الغـــذاء السمين، والشبع، والنقـاء والشفاء، وقد قـال هذا بسبب أعـداد أشجار الزيتـون التي تنمـو هناك، والتي ثمارها دهنية، وأرضيـة، وطيبـة لذيذة، ذلك أن ايزودورس قـال بأن زيت الزيتـون يصبح من خــلال مـرارة جذوره غذاء للمصابيح، ودواء للجرح، وإنعاشاً للجائع.

وسادسـاً، عرف باسم جبـل الضياء، لأنه أعلى من الجبـال الأخرى، ومنه يمكن للانســان أن يرى بنور عينيــه المنطقــة من حــوله بالطول وبالعرض.

وسـابعــاً، إنه عـرف باســم جبل الضيـاء، لأنه بهيج أن تنظـر إليـه، وباعث على سرور الذي يتطلع إليه من الرابية المقـابلة، لأن عليه بساتين الزيتون، وأشجار التين، والرمان، وفواكـه أخرى، وفي العصور القديمة نمت أشجـار الأرز والصنوبر، والكروم، وكل مايحتـاجه الانسـان، على سفـوحـه. ويكفي مـا قلناه عنه، وورد ذكـر جبل الزيتـون هذا، ووادي شعفـاط لدى القـديس برنارد في قـداسـه لفـرسـان الهيكل، الاصحـاح الثامن.

كهف القديسة بلجيا المذنبة والتائبة

وعندما فرغنا من عمل كل ما ذهبنا إليه ومن أجله، في كنيسة صعود الرب، خرجنا منها، ونزلنا بضع درجات إلى طريق يقود نزولاً من خلال مكان منحدر إلى الوادي، وبعدما نزلنا قليلاً خلف الدرجات، وصلنا إلى بيعة مظلمة بعض الشيء هي بيعة القديسة بلجيا، حيث فيها أنجزت أعمال توبتها، وفيها أيضاً أنهت حياتها، ووقف أمام باب الكهف مسلم، منعنا من الدخول، حتى دفعنا له بعض المال وبعد حصوله على المال سمح لنا بالدخول، وعندما دخلنا إليها، قرأنا الصلوات المحددة، وتلقينا غفرانات(+)، فضلاً عن ذلك، تأثرنا كثيراً واستفدنا من درس توبة القديسة بلجيا، فقد كانت —حسبما ورد الخبر في حياة الآباء — امرأة طموحة وعابثة في المجتمع القيادي لأنطاكية، وكانت فضلاً عن هذا شهوانية وغير خلقية، وبعد كثير من الجرائم وأعمال القتل التي اقترفت من أجلها، تحولت وقالت: «أنا بلجيا، بحر من الذنوب، يتدفق بأمواج من الشرور، وأنا بؤرة من الفساد، وأنا شرك، ورسن للأرواح، وخادعة لنفسي، وغاشة للآخرين، لكنني الآن أرتعد أمام هذه الأشياء كلها»، واعلم أن هذه الحكاية قد جرى عرضها بشكل جميل جداً في تاريخ أنطونينوس Antoninus، القسم الأول، المجلد السابع، الفصل التاسع والفقرة السادسة.

وهكذا بعدما اعترفت بذنوبها، حملت نفسها إلى الكنيسة، وبعدما تلقت التعليمات من قبل أسقف أنطاكية، باعت كل ممتلكاتها، وأعطت المال إلى الفقراء، ولم ترغب بإعطاء ممتلكاتها إلى الكنيسة والكهنة، بل إلى المحتاجين فقط، عادة نفسها أنها غير جديرة بممتلكاتها، لأن هذه الممتلكات ينبغي أن تتحول إلى استخدامات مقدسة.

وبعدما فعلت هذا، غيرت ملابسها، وغادرت أنطاكية بشكل سري، وأخذت طريقها إلى جبل الزيتون المقدس، ثم حملت نفسها إلى هذا

الكهف، حيث عاشت حياة دينية كاملة، تعجب منها جميع سكان المنطقة، ولم يعرف أحد من الناس بأنها كانت امرأة، حتى ماتت، وكان ذلك أثناء غسيلها بحضور الكهنة المقدسين والأساقفة، الذين تولتهم الدهشة تجاه ما رأوه، فدفنوها في زنزانتها، حيث من الممكن رؤية ضريحها حتى هذه الأيام.

وهناك ممر ضيق بين ضريحها والجدار القريب منه، وعليه كل من يود المرور من خلال هذا الممر يمكنه فعل ذلك بصعوبة بالغة، وعليه أن يجر نفسه من خلال عمل حجري، وهناك حكاية رائجة بين الناس أن مامن انسان حي مذنب، يمكنه المرور من خلال هذا الممر، وأعدّ أنا هذا أسطورة، لأننا مررنا جميعاً من خلاله، هذا ولست أدري فيما إذا كنا جميعا في حال النعمة، الرب وحده يعلم.

المكان الذي صيغت فيه أحكام العقيدة الاثني عشر من قبل الرسل

وبعد مغادرتنا لكهف القديسة بلجيا، نزلنا على محاذاة طرف الجبل، ومررنا بالطريق الذي يقود إلى بيت فاجي، وبيت عنيا، وتسلقنا على جدار من الحجارة الجافة إلى بستان، ووصلنا إلى خرائب كنيسة كبيرة، كانت تعرف باسم كنيسة القديس مرقص الانجيلي، وكان في هذه الكنيسة فيما مضى غفرانات، مثلما هو موجود في هذه الأيام، وحصلنا على هذه الغفرانات بتلاوتنا للصلوات(+).

ويقال بأن هذه الكنيسة قائمة في المكان الذي صاغ فيه الرسل المقدسون أحكام العقيدة، فهنا اجتمعوا مع بعضهم لوحدهم، حتى يكونوا بعيدين عن ضجيج الناس، وبوحي من الرب صاغوا أحكام العقيدة، وبعد صياغتهم لهذه الأحكام انتقلوا إلى جبل صهيون، ودعوا إلى عقد أول مجمع مقدس للكنيسة المسكونية، وعرضوا أمام المجمع

الأحكام، والعقيدة، التي تناقشوا حولها، ثم أعطوا كل ذلك إلى الكنيسة لنشرهم في الخارج في جميع أرجاء العالم، وذلك حسبما تحدثنا من قبل في ص ٤٤٦، واعترفنا في هذا المكان مجدداً بالعقيدة نفسها، وتلونا الأحكام.

المكان الذي علم الرب فيه تلاميذه التفوه بالصلاة الإلهية

ولدى مغادرتنا للبستان الذي فيه الكنيسة المتقدمة الذكر، نريد الطريق الذي يمضي نزولاً على الطرف المنحدر للرابية، وصلنا ونحن نازلين إلى الوادي، ثم نزلنا وسرنا مسافة قليلة إلى مكان نحن فهمنا أنه قد قام فيه فيما مضى كنيسة أو مزار، وكانت هذه الكنيسة تعرف باسم «بيت الخبز»، وقد تلونا هنا الصلوات المحددة، وتلقينا غفرانات(+)، ويقال بأن هذه الكنيسة قد بنيت فوق المكان الذي نقرأ عنه في الاصحاح الحادي عشر من انجيل القديس لوقا، أنه عندما كان يسوع يصلي في أحد الأماكن، قال واحد من تلاميذه له: «يارب علمنا أن نصلي»، فهنا علمهم الصلاة الربانية، التي هي الأعظم قبولاً لدى الرب، لأنها قصيرة وعظيمة الفائدة، هذا وكان قد تفوه بهذه الصلاة من قبل فوق أحد الجبال في منطقة الجليل، في قداس طويل، حسبما قرأنا في الاصحاح الخامس من انجيل القديس متى.

وعندما صلى الرب لوقت طويل في هذا المكان، تعجب تلاميذه من صلاته، وسألوه ان يتعلموا هذه الصلاة، فأعطاهم وقتها الصيغة نفسها للصلاة التي تقدم له التفوه بها في قداس عام، وهذه الصلاة متفوقة على الصلوات الأخرى، لأن التفوه بها جاء من فم المخلص نفسه، حيث كثف فيها وجمع كل صلواتنا البشرية في جملة صحيحية واحدة، وبناء عليه قلنا هنا الصلاة الربانية بخشوع أعظم من الخشوع المعتاد، وقبلنا هذا المكان مراراً، والذي أعتقده بأن هذه الكنيسة قد عرفت باسم كنيسة خبز الرب، لأنه مطلوب منا ان نسأل هناك من أجل الخبز، وأن

نسأل أيضاً من أجل الجسد وكذلك من أجل الروح، ويوجد في هذا المكان في اليوم الحالي، بركة عميقة، لكن من دون ماء.

المكان الذي وعظ المسيح فيه حول المباركات الثمانية

وتركنا بيت الخبز، وتابعنا طريقنا نازلين من الرابية، حتى وصلنا إلى مكان كان فيه طريق واسع مغطى بحجارة ملساء، أي كأنه قد رصف بالرخام، ويقولون بأن المسيح قد جلس في هذا المكان، وردد المواعظ لتلاميذه ثم تناول القداس الوعظي ثانية حول المباركات الثمانية، وهو ما كان قد وعظ به من قبل على جبل بالجليل، وكذلك في منطقة منبسطة، كما اتضح لدينا من قضية الصلاة الربانية، وهذه المسألة — على كل حال— لايمكن تجميعها من الانجيليين، ففي الاصحاح الخامس من انجيل القديس متى بأنه وعظ حول المباركات الثمانية (أي كرر قوله طوبى، ثماني مرات حول ثمانية مواضيع) على جبل، وجاء في الاصحاح السادس من انجيل القديس لوقا، بأنه كرر القداس نفسه على منبسط من الأرض عند سفح جبل في منطقة الجليل.

وعندما جاء فيما بعد إلى اليهودية، من المعتقد أنه وعظ بها مرة أخرى في هذا المكان، وهذا ليس موجوداً في الانجيل، ولكنه أثر قديم روي عن القديسين، فيه أن هذا القداس الوعظي الثمين جرى التفوه به في هذا المكان أيضاً، ذلك أن كل واعظ لديه موضوع جيد ومفيد، غالبا سيتولى الوعظ حوله مرات عديدة، في المكان نفسه، وفي أماكن مختلفة. وقمنا في هذا المكان بالانحناء بأنفسنا مصلين، وتلقينا الغفرنات المحددة(+).

المكان الذي تنبأ الرب فيه إلى الحواريين حول الحساب الأخير

وتحت المكان المتقدم الذكر، وصلنا إلى المكان الذي جرى الحديث عنه في الاصحاح الثالث عشر من انجيل القديس مرقص، وذلك حيث

جلس يسوع مع تلاميذه، وحيث أخذوا يسألونه حول تدمير المدينة والهيكل، الذي رأوه بأعينهم، وأخبرهم بأشياء كثيرة حول العذاب الذي سينزل بهم، وحول المسيح الدجال، والحساب الأخير، والعلامات في الشمس، والقمر، والنجوم، التي نقرأ حولها في الاصحاح الحادي والعشرين من انجيل القديس لوقا. وقبلنا في هذا المكان طبعات القدم المقدسة وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي اعتادت العذراء المباركة على استرداد أنفاسها فيه والاستراحة أثناء قيامها بحجها

وعندما نزلنا أكثر قليلاً من المكان الذي جلس فيه المسيح، وصلنا إلى المكان الذي اعتادت مريم العذراء المباركة أن تجلس فيه وترتاح أثناء حجها اليومي، ونعلم من كتابات الآباء، ومنهم جيروم في رسائله، وكتابات أوغسطين، وأنسلم، وبرنارد، وكتابات القديس يوحنا الدمشقي في قداسه حول صعود العذراء، حيث ذكروا بأن مريم العذراء المباركة، كانت تقوم يومياً بعد صعود ابنها بزيارة خاشعة تماماً إلى جميع الأماكن التي جرى فيها صنع خلاصنا، ومع أنها كانت بالروح، إنها طوال بقائها بالجسد حية، تحركت بوساطة المشاعر الجسدية، ولذلك كانت تنتعش بزيارة هذه الأماكن، وكانت يوميا تلتهب بمشاعر قوية جديدة، هي مشاعر الحب، وبذلك كانت تشرق بقوة أكثر بوساطة زياراتها المقدسة.

ودعونا على هذا ننظر إلى هذا الحج الذي هو في غاية الخشوع، أي حج مريم العذراء المجيدة، على أنه عمل للممارسة التقوية، فقد عاشت العذراء المجيدة، تبعاً للاعتقاد الرائج، أربع عشرة سنة بعد صعود ولدها، وقد أمضت هذه السنوات كحاجة، تنتقل بالفعل بالجسد من مكان إلى آخر، وكانت قد نذرت القيام بثلاث حجات، ما دامت حية

في هذا العالم، والحجة الأولى كانت سنوية، وكانت الثانية شهرية، والثالثة حجة يومية، ففي الحجة السنوية، من المعتقد، أنها نزلت كل سنة من القدس إلى الناصرة، وزارت هناك بخشوع عظيم، المكان الذي جرى فيه تحيتها من قبل الملاك، متذكرة، ومستعيدة في عقلها جميع البهجة التي شعرت بها لدى حملها بابن الرب، وعادت شاكرة للرب، من أجل المنافع الهائلة التي أضفيت من قبله، على العالم أجمع من خلالها، في ذلك المكان المقدس.

وكانت بعد انجازها لهذا تعود بوساطة الطريق نفسه، الذي سارت عليه بعد حملها بابن الرب، حين بادرت مسرعة إلى جبال اليهودية، وحيت اليزابت، وبتواضع تولت خدمتها عندما ولدت يوحنا، وذلك حسبما ورد الخبر في الاصحاح الأول من انجيل القديس لوقا، وعندما كانت عائدة عبر هذه الطريق، تجدد في قلبها أحلى أنواع البهجة، خاصة عندما وصلت إلى المكان الذي أشرقت فيه روحها، عندما غنت تلك الترنيمة الحلوة، وهي ترنيمة Magnificat ، التي بسببها انتشى الطفل ببهجة في رحم أمه، وقفز، وابتهج ابتهاجاً عظيماً، وبعدما زارت هذا المكان عادت إلى القدس.

وثانيا، من المعتقد أنها ارتحلت من القدس إلى بيت لحم، مرة كل شهر، وأنها كانت تدخل هناك إلى الكهف الذي انتشر منه النور الأبدي فغطى عالمنا، وهو نور ربنا يسوع المسيح، فمن هو الذي يمكنه أن يصف النشوة التي شعرت بها في هذا المكان، فعوضاً عن الغفرانات المطلقة من أجل مسح الذنوب، الأمر الذي يناله المذنبون في هذا المكان، هي حملت معها بالإضافة إلى زيادة عزلتها، إشراقاً مطلقاً وراحة في عقلها، وعليه كم هو نافع وجميل هذا التبادل.

وثالثا، كانت حريصة في كل يوم على زيارة الأماكن الأعظم قداسة في القدس وأحوازها، ففي الصباح الباكر، ومع اقتراب الفجر، وبعد

تلقيها القربان من القديس يوحنا على جبل الرب، جبل صهيون، كانت تمضي مع وصيفاتها، وتدخل إلى تلك القاعة الكبيرة، التي جرى تجهيزها من أجل العشاء الأخير، حيث تأملت حول الهبة الهائلة التي أضفيت هناك على الجنس البشري، كما كانت قد نظرت في أعمق الأسرار، وقبلت المكان الذي جلس عليه ابنها، ومن هناك كانت تذهب إلى بيت حنان (عناس) الذي كان الكاهن الأعلى، وبعد صلاتها هناك كانت تدخل إلى قاعة قيافا (كيفاس)، وتتأمل ملياً، لكن ليس من دون أسى، وتفكرت بالعذاب الذي تعرض له ابنها في ذلك المبنى. وكانت تنزل من هناك، من جبل صهيون في خارج المدينة، وتتقدم إلى صخرة الصليب، التي كانت تعانقها، وتقبلها بحنان، مشفقة على ذلك الذي جرى صلبه هناك، ومع ذلك كانت تبتهج تجاه تقواه الثمينة وتعلقه بالذين تولى خلاصهم.

وكانت من هناك تدخل إلى بستان قبر الرب، ومن ثم تتوجه إلى المكان الذي جرى فيه تحنيط جسد ابنها الذي هو الرب، ودهنه وحفظه بالعطور، فهناك كانت تركع وتقبل الحجرة، وبعد هذا كانت تقوم بسرعة وتنهض من هناك، وتأخذ طريقها إلى ضريح الرب، فتدخل إلى كهفه، وتحتضن ضريحه، وهي ممتلئة في تلك البقعة ببهجة لايمكن وصفها، واثر مغادرتها لهذه الأماكن كانت تنزل من رابية أكرا، باتجاه باب المدينة، وتسير على طريقها، إنما وهي متفكرة بابنها، ومتذكرة كيف أنه اقتيد خارج المدينة، وسار على طول الطريق وهو مثقل بحمله للصليب الثقيل، وكانت تجثوفي الأماكن التي رأت ابنها فيها، عندما سقط تحت ثقل الصليب، أو عندما تعرض لحملة قاسية من الإهانات والأذى.

وبهذه الوسيلة كانت تدخل إلى المدينة من خلال باب القضاء، فتصعد إلى قاعة قضاء بيلايطس، وتقبل الأماكن التي جلد ابنها فيها

وتوّج، مع تقديم الشكر، ولدى مغادرتها لذلك المكان، كانت تذهب إلى بيت هيرود، وتقبل أماكن طبعات قدم ابنها هناك، ومن هناك كانت تمضي إلى هيكل الرب، وبعد الصلاة هناك، كانت تغادر الهيكل من الطرف الآخر، وتأتي إلى الباب الذهبي، حيث كانت تستعيد مشهد دخول ابنها في يوم أحد السعف.

وبعد مرورها من هناك، أي من ذلك الباب، كانت تنزل إلى وادي شعفاط، حيث هناك كانت تصلي لصالح جميع الجنس البشري، من أجل أن يكون جديراً بالوقوف هناك غير مقيد في يوم الحساب الرهيب، لأنها عرفت أن مامن صلاة كان لها وزنها في ذلك اليوم، حتى صلاتها هي ذاتها، ولذلك توجهت مقدماً وسلفاً بالخطاب إلى القاضي، فوق تلك البقعة، وكانت بعد هذا تعبر الجدول، وتبين لمرافقاتها مكان ضريحها، وكانت تدخل إلى الكهف، ولدى دخولها له كانت تمتلىء ببهجة لايمكن التعبير عنها، لأنها كانت تعرف أنها سوف تتسلم في هذاالمكان أولا بهجة كمال ثمار عملها، أي أنها سوف ترتدي ثوب مجد لكل من الجسد والروح، ومن ثم سوف تنتشل من هذا العالم الشرير، ولسوف تمجد فوق جوقة الملائكة، وبعد هذا، كانت تغادر مكان ضريحها، وتمضي إلى الأعلى قليلاً، وتدخل إلى الكهف الذي صلى فيه الرب يسوع ثلاث مرات عندما كان في آلامه العظمى، وهنا أيضاً كانت تقوم وهي متفكرة بآلامه بالجثو بركبتيها على طبعات قدم ابنها، وتبقى مثابرة في صلواتها أطول من المعتاد، وبخشوع أعظم من أي مكان آخر، وتقبل الأماكن التي اعتقل فيهاابنها.

ولدى مغادرتها لهذا المكان، كانت تبتعد عن الوادي، وتذهب إلى الكنيسة على جبل الزيتون، وذلك حيث وقف يسوع ونظر نحو المدنية، وبكى، فهنا أيضاً كانت تلتفت بوجهها نحو المدينة وتبكي سوء حظها بتنهدات كلها عاطفة وشفقة، وصعدت من هناك فوصلت إلى الجليل

والبيت الريفي، حيث تأملت حول مجد قيامة ابنها، وبهجة تلاميذه، واثر اكمالها لصلاتها هناك جاءت تسير على حافة الجبل نحو المكان الذي قابلها فيه الملاك في اليوم الأخير من حجها، وأخبرها وأعلن بأن وقت مغادرتها (لهذه الحياة) بات وشيكاً.

وصعدت من هناك وتابعت سيرها، ووصلت إلى مكان صعود ابنها، حيث قبلت بخشوع مطلق طبعات القدمين المقدسة، والظاهرة بوضوح على الصخرة، وبما أن هذا المكان موائم بشكل خاص للصلاة، أرادت أن تغادره متعجلة، حتى تمتلك وقتاً أطول فيما بعد لتمضيه هناك فقد رغبت بالنزول وهي مشرقة النفس إلى الطرف الآخر من جبل الزيتون، وأن تمضي خلال بيت فاجي، وبيت عنيا، من أجل زيارة معارفها هناك، والأماكن التي انوجد فيها ابنها، مثل بيت مرثا، وقبر لعازر، وبيت سمعان المجذوم.

وبعدما أكملت زيارتها هناك، طلبت ثانية المنطقة المرتفعة، وتوجهت صعوداً، وهي نحيفة وضعيفة، كأنها اكليل من دخان، ذلك أنها صارت متلاشية بسبب أعمال توبتها المتنوعة، وكانت تحترق في داخلها بلهيب الحب التقوي، وهكذا نشدت بمظهر مشرق، وبشوق لايمكن وصفه القمة المقدسة لجبل الزيتون، ومن هناك نزلت، بغية العودة إلى مكان صعود الرب، حيث ذهبت وكأنها هي شخصيا كانت على وشك الصعود مباشرة ولقاء ولدها، وعندما كانت هناك عانقت طبعات الأقدام المتقدمة الذكر مع قبلات كثيرة، وكانت ترفع أحياناً عينيها وأحياناً أخرى ذراعيها إلى السماء وكانت فوق هذا المكان يتولاها شعور بالبهجة العظيمة، لدى تفكيرها بأنه هناك أضفي على ابنها أعظم تشريف ممكن وعليها نفسها، عندما أخذ ذلك الجسد الذي ولد منها، ورفع من هناك، ومجد فوق جميع السموات.

ولدى مغادرتها لهذا المكان، كانت تأخذ طريقها عائدة إلى البيت،

وتسير وهي نازلة من الجبل، حيث كانت ستمر بالمكان الذي وضع فيه الرسل مع بعضهم العقيدة، التي علمتهم إياها شخصياً، فهناك كانت تقف بعض الوقت، وتصلي من أجل الذين اعتنقوا العقيدة، ومن هناك كانت تمضي إلى المكان الذي علمهم الرب فيه أن يقولوا: «أبانا»، حيث كانت تقف، وتتلو تلك الصلاة، وكانت تقدم الشكر، وهي سائرة في المكان الذي جرى الوعظ فيه بالمباركات الثمان.

ومن هناك كانت تنزل إلى المكان الذي جلس فيه المسيح مع تلاميذه، وأخبرهم بالحكاية المتعلقة بيوم الحساب الأخير، حيث كانت تقدم هناك صلاة من أجل أن يكون رحيماً في قدومه الثاني، ومن ثم كانت تتابع سيرها حتى تصل إلى المسكن، ذلك أنني قد قلت بأن نهاية حج مريم العذراء المباركة، قد كان مكان استراحتها واستردادها لأنفاسها.

وفي الأيام التي كانت فيها العذراء مريم حية، قامت هناك أماكن للسكنى شغلها فلاحون جيدون، كانوا يراقبون بدون توقف مرور العذراء، فكانوا يدعونها للجلوس وانعاش نفهسا في الظل، وغالباً ما كانت بدورها تخرج عن الطريق، وتجلس وتريح أطراف جسدها، وعلى كل حال هي لم تكن تشعر بالاجهاد والتعب من خلال العمل، لكنها كانت تخفي هذا الامتياز صدوراً عن التواضع، وذلك مثلما أخفت امتياز كونها عذراء في طقوس طهارتها، وامتياز التحرر من الألم، عندما كانت على حافة الموت، فقد أخفت هذا الامتياز، برقودها في فراشها، وكأنها ضعيفة تعاني من المرض، وذلك حسبما تقدم الوصف في ص٤٤٨.

وبعدما استردت قواها، التي لم تفقدها، بل كانت معطلة في المكان المتقدم الذكر، نزلت من سفح الجبل إلى الوادي، حيث بعدما زارت أضرحة بعض الأنبياء، وصلت إلى قبر قرينها الطاهر جداً، أي يوسف الذي دفن هناك على حافة الصخرة، فقد كانت تقف أمام هذا الضريح

وتتـــذكــره بسرور، ومن هناك كـــانت تعبر على الجسر فـــوق الجدول، وتصعد ثانيـة إلى جبل صهيون، وعندما تصبـح هناك، كانت تذهب إلى المكان الذي تلقت فيـه هي نفسها مـع التلاميـذ، الروح القدس، وكـان ذلك في يوم عيد الحصاد، وهناك ثانية كانت تمتلىء ببهجة جديدة.

ومن هناك كـــانت تنزل، وتقصـــد ضريح النبي داوود، الذي كـــان جـدها، وبعد هذا كـانت تذهب إلى مكان اعتكافها، الذي كـان قريبـاً، ومن المعتقـد تقويـا، أنه كان لديها هناك أثريـن مقدسين، هما عبـارة عن حجرتين كبيرتين، جلبتا لها من جبل سيناء بوساطة الملائكة، فقد جلبت أولاهن من المكان الـذي فيـه رأى مـوسى العليقـــة تحترق من دون نار مستهلكة، فأمـام هذه الحجرة كانت تقـدم صلاة شكر مناسبـة من أجل الحفاظ المجيد على عذريتها، أمـا الثانية فقد جلبت من قمة جبل سيناء، حيث أعطيت الوصايا العشر إلى موسى، وأمـامها كانت تدخل في تأمل حول روعة هذه الوصايا، وتقدم الشكر للرب، أنه من خلالها أعطى إلى العـالم، الذي من خـلاله، ســوف تكتمل الشريعـة في كل نقطة وفي كل عنوان، وذلك حسبما قـرأنا في الاصحـاح الخامـس من انجيل القـديس متى، وبوجود هاتين الحجرتين لديها كـان بامكانها زيارة صحراء سيناء، لأنها كانت في الحقيقة حاجة، ومن أجل رواية عن هاتين الحجرتين انظر مـاتقـدم في ص٤١٢، وبعـد فـراغهـا من صلواتها في هذا المكان كـانت تنهض لتعود إلى بيتهـا، وبذلك كانت تصل بحجهـا إلى النهاية في ذلك اليوم.

ومن أجل رواية عن بيت العذراء مريم الأعظم قداسة، وذلك حيث سكنت انظر مـاسيأتي فيما بعد، وحول مـوضوع هذا الحج الذي قـامت فيه العـذراء مريم الأعظم قـداسة، قـال أوديليو Odilio ، الذي كان لاهوتيـا قديماً للكنيسة: «إذا مـا أردنا أن نعـرف ما الذي فعلتـه العذراء المبـاركة بعـد صعـود الرب، فبـدون شك، زارت مراراً أمـاكن الميـلاد،

والآلام، والقيـامـة، والصعـود، وبكت هناك وطبعت عليهم قبـلاتها بفمها الأعظم قـداسة»، وتحدث القـديس جيروم في قداسـه عن صعود العـذراء وعن هذا الحج، كما يلي: «ربما قـد نفترض من خـلال عظمـة حبها، كانت ستسكن في المكان الـذي ولد فيه ابنها، وتوفي، ودفن، فبين هذه المواضع كان حبها سيتغذى بانعكاسات تقوية، حيث من المعتقد أن في ممتلكات الحب، من الممكن دوماً العثور على ما هو متشوق إليه».

وتحدث عن هذا الحج أيضـاً أنطونيـوس في الـ Summa، الجزء الرابع، المجلد ١٥، والفصل ٢٣، والفقـرة الثـانية، وعلى كل حـال رأى هذان الكاتبان أننا ينبغي أن نؤمن بأن حج مريم العـذراء المباركة، هذا، كان بالحري بالروح أكثر من أن نقدره بالشعور الفعلي، مع أنهما لم ينكرا هنا أنها قـامت بالفعل بهذا الحج، وبـذلك حصلت على فضيلة عظيمـة، ولقد حصلت على الفضيلة في كل عمل عملته عن طواعية، وبالتالي عن كل عمل عملتـه في حيـاتها، والسبب في هـذا هو أن الذكـاء دومـاً على صواب، مالم يمزج نفسـه مع تخيلات عبثية، ومن ثم يضل بهم، ولنعلم أن ذكـاء العذراء المبـاركة كـان واضحاً إلى حـد عدم فـائدة التخيـلات والفرضيات، وبناء عليه حصلت على الفضيلة بوساطة حجها.

والسبب الثـاني هو هذا: أينما كان العقل غير معـرض للخطأ في اتخاذ قـراره، لايمكنه وقتهـا اختيـار أشيـاء كثيرة، بل اختيـار الشيء الأخير والأفضل بينهم، وهذه الشروط جميعاً حاضرة في قضية العذراء المباركة، ولهذا كتب في الاصحـاح العـاشر من انجيل القـديس لوقـا: «اختـارت مريم النصيب الصالح».

وثالثا قال (بولص) الرسـول في الاصحاح العاشر من الرسالة الأولى إلى أهل كـورنثـوس: «فـإذا كنتم تأكلون أو تشربـون أو تفعلون شيئاً فـافعلوا كل شيء لمجد الرب»، ولم يستطـع أي قديس الحفـاظ على هذا المبدأ كاملاً إلا مريم العـذراء الأعظم مباركة، التي وجهت دوماً بشكل

فضيل حـركــات إرادتها الحرة، وحصلت على المثوبة بفعلهـــا كـذلك، ولذلك قال أوديليـو: «شيء واحد نعرفه بشكل مـؤكد هو أن كل عمل من أعمال مريم، قد صنع دوماً، وتفكير الرب مـاثل أمام عينيها»، وقال جيروم في قداسـه حول صعـود العذراء: «أنا أفترض أنه إذا مـا أخذت قلوب البشر كلها، مع جميع القوى العقلية مجتمعـة لما كانت كافية لتفهم فهماً كليـاً كيف أنها استطـاعت أن تستـوعب الحب المقـــدس في قلبهـا، وكيـف أنها تحركـت بـواسطـة الأسرار السماويـة حتـى تمتلىء بـالـروح القدس، أثناء تقليبها في عقلها لكل ماسمعته، ومارأته، وما عرفته».

وواضح من هذا، أنها عندمـــا كـانت كحـاجــة من مكان إلى مكان، كانت العـذراء مريم الأعظم مباركة، مع أنها كـانت تقوم بعمل فضيل، كــان مع ذلك من الممكن، لا بل من المتـوجب، فعل ذلك واستخدامـه بشكل أحسن، حيث قال الرسول في الاصحـاح الثاني عشر من الرسالة الأولى إلى أهل كـورنثوس: «لكل واحـد يعطى اظهار الروح للمنفعـة» وقال في الاصحـاح الرابع من الرسالة الأولى إلى تيمـوثاوس: «الرياضة الجسدية نافعة لقليل، ولكن التقوى نافعة لكل شيء».

وعلى هذا من الممكن أنها أهملت هـذه الرياضـة الجسـدية، وكـرست نفسهـــا كليـاً إلى الممارســات التقـوية في التأمـل النقي والسكون، ومن المعـــروف بشكل جيـد أن الـذين يتجـولـون بالجسـد يضلـون بالروح، وجواباً لهذا يمكن أن نقـول بأن مريم العذراء الأعظم مباركـة لها امتياز خـاص، هو أنها على انفـراد، وفي الوقت نفسه يمكنهـا أن تعيش حيـاة عمل، وحيـاة تأمل، الامتياز الـذي لم يمنح لأي انسان آخـر، فلبعضهم منحت حياة عمليـة، وللآخرين حيـاة تأملية، وبعضهـم — الرسل على سبيل المثال — عاشوا الحيـاتين، لكن في أوقات مختلفة، لكن الذي منح إلى مريم العـذراء الأعظم مباركة هو أن تعيش الحيـاتين معاً في اللحظة نفسهـــا، وعلى هذا كـــان بامكان الطفل أن يتغـــذى بوســاطة عملهـــا

الظاهري، وتأملها الربـاني كان يتغذى بوضعهـا الداخلي، وكان بإمكانها التحـرك من مكان إلى مكان، لكـن —مع ذلك — لم تبق عقلهـا مثبتـاً دونها حركة على هدفه المحدد، وتخبرنا التقوى الممدوحة للعذراء المباركة أنها بقيت دومـاً في تقـوى جـزلة، الحالة التي عـدد قليل من القـديسين وصل إليها، للحظات خـاطفة، على سبيل المثـال خلال مـراحل متقطعة وطويلة جداً.

وإلى جــانب هذا أخبرنا ألبيرتوس، أنها أسهمت يـوميـاً في قــداس القربان، حسبما تقـدم الوصف في ص٤٤٨، وبذلك امتلكت عقـلاً مثبتاً بحيث مامن شيء رأته أو سمعته كـان يمكن أن يشغلها ويضللها، ففي كل يوم، كـانت قبل انطلاقهـا وخروجهـا لحجها، تستمع إلى القـداس، وتتصل بالتقوى الأعظم التهـاباً، وبذلك كانت تتحرك بحمى روحـانية عائدة للرب، وليست عائدة لها نفسها.

ويبـدو أن هناك سببـاً آخـر حـول لماذا تـوجب عـدم خـروج مـريم العـذراء الأعظم مبـاركة وظهـورها يوميـاً، هو خشيـة امكانيـة تسبيب الدمـار لأي انسـان، لأننا ينبغي أن نعتقد أنها كـانت الأجمل في الجسـد وكذلك بالروح، ذلك أن الروح القدس قد قال لها: «أنت جميلة من كل جانب، ليس فيك مايمكن أن يـلام»، كما أن السن ومتاعب الحياة التي انقضت تحت الأحكام الديرية لم تؤثر عليهـا، والجواب على هذا هو، إن رؤية العذراء لايمكن أن يقود أي انسـان نحو الذنب، وأخبرنا القديس بونافنشر Bonaventur ، أنه أخبر صـــدقـاً من قبـل يهود، أنه لدى رؤية العذراء مريـم المباركة، ومع أنها كانت جميلة جـداً، مامن أحد أثير بشهوانيـة شريرة ملحة، بل إن جميع المشاعر من هذا القبيل كـانت تخمد لدى الناظر إليهـا، بمظهرها الرباني، وكأن ندى عـذريا لطيفاً صـدر من عينيها، أو أشرق من عقلهـا اللطيف جداً، وذلك على عكـس ما يحدث لدى الاثارة برؤية امرأة شهوانية خاطئة.

علاوة على ذلك، يبدو أن الظهور اليومي للعذراء مريم العظيمة المباركة أمام الناس، كان من الممكن أن يعطي فرصة لمزيد من الغيرة بين اليهود الشاعرين سلفاً بالغيرة، لأنهم بسبب الابن كانوا يشعرون بكراهية عظيمة تجاه أمه، وعندما كانوا يرونها تمرّ خلال المدينة كان الممكن استثارتهم إلى حد الاعتداء عليها ثورة وغضباً، وأجيب أنا شخصياً على هذا بكلمات جوابي المتقدم، وهو إنه طالما أن منظرها كان يطفىء النيران الشهوانية، كذلك كان يخمد ألهبة الغيرة، والغضب والكراهية، وهكذا كان من ينظر إليها يفقد الحمية الوحشية والغضب، ويصبح تقياً ومحترماً تجاهها، ولهذا كانت محترمة من قبل الجميع، وينظر إليها على أنها قوية، وأخلاقية، وأمينة، وسيدة فاضلة، وهكذا نقرأ في الاصحاح الرابع والعشرين من الحكمة «تعبدت في الهيكل المقدس أمامه، وبذلك تأسست في صهيون، ومثل هذا أعطاني في المدينة المحبوبة راحة، وفي القدس كانت قوتي، وتجذرت بين شعب شريف، لابل حتى بين حصة ميراث الرب».

وبناء عليه، حتى وإن كان اليهود قد امتلأوا حقداً ضد ولدها الفائق العذوبة، مامن واحد أساء التصرف مع العذراء، وعلينا عدم تصديق الرسامين الذين مثلوا يسوع، وهو مقاد يحمل الصليب وأناس يضربون رأس العذراء، ويركلونها بأقدامهم، وينبغي أن نضع في عقولنا حكمة هوراس:

«العالم كله يعرف، أن مامن شيء مطلقاً

لم يتجرأ الرسامون على رسمه، أو الشعراء على غنائه»

ويكفي ما قلناه عن حج العذراء المباركة جداً، الذي هو بشكل خاص رأيت أنه موائم لاقحامه في كتاب حجي وجولاتي، وذلك حتى تكسب جولاتي تسويغاً أفضل، وبناء عليه جلسنا في المكان الذي

اعتادت مـريم العذراء المبـاركة جـداً على انعاش نفسهـا فيه، واستردنا أنفـاسنـا وأرحنا أنفسنا، وكـان ذلـك بعـد تلاوتنا لصلـواتنا وتلقينا غفرانات(+).

اهرام شعفاط الذي منه نال الوادي اسم وادي شعفاط

ولدى مغادرتنا الموضع الذي اعتادت مريم العذراء المباركة جداً على الاستراحـة فيه، نزلنا إلى سفح جبل (الـزيتون)، وعندمـا بتنا عند سفح الجبل نزلنا إلى (الـوادي) وذلك باتجاه الجنوب، جـاعلين جبل الـزيتـون على يسـارنا، وجـدول قـدرون على يميننا، وفـوقـه، على الطرف الثـاني للجـدول، توجـد المدينة المقـدسـة، ومتـابعين لنزولنا وصلنا إلى الجسر القـائم فـوق الجدول، الذي اجتـزناه، وخلفناه وراءنا، وفيها نحن نسير كـذلك، وصلنا إلى ضريح عظيم النفقـات، منجـور على شكل برج من الصخـر الأصم، الذي تشكل منه الجبـل، وقـد اقتطع البناءون له الجبل بشكل هادف، حيث تركـوا واقفاً منه مـاهو كاف وكأنه كـان محتوى في الهرم، وقطعوا الصخر من حوله، بشكل بدا فيه الهرم واقفاً بذاته، وكأنه بني هناك بشكل بارع من قبل عمال، والبناء قـد قام من الأسـاسات، في حين هو بالحقيقة جزء من الجبل، وهو قائم هناك منذ بداية الدنيا.

ومقاييس هذا الهرم هي ستـة عشر باعاً كبيراً من حيث الإطار، وربما هو ثلاثة باعات من حيث الارتفاع، وله في قمتـه قمة حادة الشكل، مع سقف وكأنه كـان أبراجـاً، والذي تحت السقف مفـرغ، وهنـاك نوافـذ مقطوعة فيه، وعلى هذا يستطيع انسان أن يجر نفسه خلف الهرم ومن ثم يدخل إلى داخل الهرم من خلال النافذة، كما فعلت أنا نفسي ذلك عندما كنت هناك لوحدي، حيث رغبت في أن أرى الذي كان بالداخل.

وقـد أقيم هذا الهرم من أجل قبر واحد من الملوك العظماء، والرجـال الأقويـاء، هذا وهناك حكايات متنوعة حـول من هو الرجل الذي عمل

له، فبعضهم يقول: أمر الملك سليمان بأن ينحت من أجل زوجته الأثيوبية، التي كانت ابنة فرعون، وقد دفنت فيه، وتشريفاً لها، قام أيضاً بنظم نشيد الانشاد، ولها بنى هياكل أوثانها العائدة لمولوك وشمس، وكذلك فعل أشياء أخرى كثيرة، تعامل فيها مع الرب دون احترام، من أجل حبه لها، وآخر شيء فعله هو نجره لهذا الضريح الفخم من أجلها.

ويقول آخرون — وهذا هو الرأي المقبول بين المسلمين، والمسيحيين الشرقيين — بأن أبسالوم بن داود، هو الذي تسبب بنجر هذه الصخرة، حتى يدفن فيها، وهذه الحكاية مؤسسة على الاصحاح الثامن عشر من سفر صموئيل الثاني، ولكن نظراً لإثارته الحرب ضد أبيه وخوضه لها، فقد مات بشكل تعيس، في مكان آخر، عبر الأردن، ولهذا السبب هناك عادة قضت بقيام جميع الأطفال الذين يمرون بهذا الهرم، سواء أكانوا من يهود، أو مسلمين، أو مسيحيين، بالتقاط حجارة من الأرض، ورميهم على الهرم، ولدى رمايتهم لهم يلعنون أبسالوم، ويشمتون منه لموته الشرير، ويأتي ذلك بمثابة تعبير عن كراهيتهم لعدم طاعته لأبيه، فضلاً عن هذا، إذا كان لدى أي واحد في القدس ولد غير مطيع، كان يقوده إلى هناك، ويرغمه بالتهديد، ويعريه ليرمي حجارة على القبر، وليقوم بلعن أبسالوم، وكان يحكي لولده حكاية شرور وموت أبسالوم، وهذه طريقة فعالة جداً في تقويم الأطفال في القدس، ونتيجة لقيام أعداد كبيرة من الأطفال برمي الحجارة عليه، فقد تجمعت الحجارة في أكوام كبيرة إلى جانبه، ولولا أنها تنظف من وقت إلى آخر، لتغطى بالحجارة منذ زمن طويل.

ويقول آخرون بأن شعفاط، ملك القدس، تسبب ببناء هذا الهرم حتى يمكن دفنه فيه، وأنا لا أعتقد ذلك، لأنه كان رجلاً صالحاً، متبعاً لأوامر الرب، مثل جده داوود، وبما أنه لم يكن منفصلاً عنه في حياته، لم يقصد الانفصال عنه في دفنه، وبناء عليه ورد في الاصحاح الأخير من

سفر الملوك الأول أن شعفاط عندما مات، دفن في ضريح أبيه في مدينة داوود، وبناء عليه ينبغي رواية الحكاية بشكل آخر، بأن شعفاط كان صاحب أفكار فخمة، وقد عمل أعمالاً رائعة، كان من بينها تسببه بنحت هذا الاهرام ليري عظمته، وليكون موضع إعجاب بين الناس، وبذلك حصل على شهرة عظيمة بلغت حداً، أن الوادي كله الذي كان يعرف من قبل باسم وادي Cela، صار فيما بعد يعرف بسبب هذا الهرم باسم وادي شعفاط من قبل جميع الناس حتى في هذا اليوم، ولاتوجد غفرانات مرتبطة بهذا الهرم، وعلى هذا، كان بعدما نظرنا إليه، أن ذهبنا إلى بقية (الأماكن المقدسة).

قبر يوسف زوج مريم العذراء وقبر الشيخ سمعان المقدس

ويوجد على الجانب الأيمن للهرم حفرتان في جدار الصخرة، يقولون بأنهما ضريحين، مدفون في الأول منهما يوسف، زوج مريم العذراء المباركة جداً، ومربي يسوع المسيح، ومدفون في الآخر سمعان، الرجل العجوز الذي أخذ الرب بين ذراعيه، وغنى ترنيمة: «الآن تطلق عبدك، حسب قولك بسلام»، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الثاني من انجيل القديس لوقا، وقد انحنينا بأنفسنا نحو الأرض أمام قبري هذين الرجلين المقدسين، وتلونا صلواتنا، وتلقينا غفرانات(+).

وعن مدى قداسة هذين الرجلين وعظمتهما وتميزهما، نحن نتعرف إلى ذلك من روايات الانجيل الصحيحة، وبشكل خاص مايتعلق بالقديس يوسف، ذلك أنه مامن شك أنه قد تمتع بامتيازات من النعمة خاصة، واحتل مكانة علية مع الرب، حتى عهد إليه بالعناية بمثل هذا الكنز العظيم، ومن أجل الثناء عليه، انظر كتابات ألبيرتوس، هذا وقد ورد ذكره في نص (لوقا:١/ ٢٧) قوله: «إلى عذراء مخطوبة لرجل كان اسمه يوسف»، وانظر كتابات جيرسون Gerson أيضاً، في قداسه حول الميلاد، وحول العذراء مريم، وحول تجسيد يوسف، وهنا علينا أن

لانؤمن ولانصدق الرسامين، الذين رسموا يوسف على شكل انسان مقعد صغير الحجم، انحنى ظهره طاقين، وهو يستند على عصا، ورأسه رمادي، وهو كله غير قادر على إفادة العذراء أو ابنها، فقد كان رجلاً نشيطاً وقوياً، وعاملاً قديراً، وكان انساناً ناضجاً في وسط العمر، ثم إنه قبل خطبته للعذراء وبعد ذلك بقي غير ملوثاً فيما يتعلق بهذه المسائل، وبالنسبة لهذه المسائل، انظر القداس المتقدم الذكر، الذي عمله جيرسون.

ضريح النبي زكريا، وأضرحة أخرى، وأماكن إقامة القديسين

وإثر مغادرتنا لهذين القبرين، وصلنا إلى قبر آخر قد نحت في الصخر، وهم يقولون بأن هذا القبر هو قبر النبي المقدس زكريا بن براخيا، الذي ذبحه اليهود فيما بين الهيكل والمذبح، كما ألقى المسيح بين أسنانهم ولقنهم، (متى: ٢٣/ ٣٥)، وبناء عليه انحنينا هنا على ركبنا، والتمسنا شفاعة النبي، وتلقينا غفرانات(+).

وبعد نهوضنا من هناك، تابعنا سيرنا نازلين على طرفي الجدول، ومررنا بعدد من أماكن الإقامة والزنزانات المقتطعة من جدران الصخر على طرف جبل الزيتون، حيث عاش هناك فيما مضى رجال مسيحيون أتقياء، ومتدينون، لأن جبل الزيتون وعر عند سفحه، ومليء بكهوف عميقة في الصخر، وقد استخدمت الكهوف لتكون أضرحة، وصاروا فيها بعد أماكن إقامة للرهبان والقديسين، لكنهم الآن مهجورين من قبل الأحياء والأموات سواء، باستثناء أنه يسكن في بعضهم بعض الناس التعساء جداً من الكفار، الذين بسبب كفرهم لايستطيعون الاقامة في مكان آخر بين الناس.

ونظرنا إلى هذه الزنزانات بدهشة، وعجبنا من الحياة البسيطة للقديسين القدماء، الذين صدوراً عن حبهم للرب، ورغبتهم بالأرض

المقدسة حبسوا أنفسهم بين قبور الموتى، وتحملوا العيش في كهوف صغيرة، وشعرنا بالغضب نحو أنفسنا، نحن الذين بتنا متعبين من السكنى في قصور عظيمة، وفي أديرة واسعة وجميلة، لأننا صرنا فاترين في محبتنا نحو الرب، وأهملنا واجبات الحياة الديرية.

كهف القديس جيمس الرسول
الذي تخفى فيه أثناء اعتقال الرب

ولدى متابعة نزولنا وصلنا إلى كهف كبير، مع أعمال نجر كثيرة في الصخر، وهو مليء بأماكن اختباء مظلمة، مع طبقتين من الأقبية، وحفر منجورة في الغرف العلوية مثل النوافذ، وعندما كنا نسير هناك في هذا الكهف، ورد إلى ذهني بأنني قد رأيت مكانا يشبهه من جميع الجوانب في سوابيا، قرب غموند Gmund ، وكان اسم ذلك المكان ابرستين Eberstein، فالذي رأى الأول كأنه شاهد الثاني، سوى أن الفلسطيني هو أوسع ويمتلك كهفا أعمق، وإلى هذا الكهف هرب القديس جيمس الأصغر للالتجاء، عندما اعتقل الرب وأخذ أسيراً، وقد رقد هنا متخفيا.

وأخبرنا كل من يوسيفيوس وجيروم فيما كتباه عن حياة الرجال المشهورين، أنه عندما مات الرب على الصليب، قطع جيمس على نفسه عهداً أن لايأكل طعاماً، حتى يرى الرب قد قام من الموت، ولذلك جاء الرب في يوم القيامة إليه في هذا الكهف وأعطاه طعاماً، وحول هذا الرسول انظر ص ٤٥٢، وبعد وفاة هذا الرسول جلب جسده إلى هذا الكهف ودفن، ونتيجة لذلك ومنذ ذلك الوقت فصاعدا بدأ المكان ينال الاحترام، ويرمم من قبل المؤمنين المسيحيين حتى هذا اليوم، ولهذا ربط البابا سكتوس غفرانات مطلقة بهذا المكان، وجرى الاعلان عن هذه الغفرانات أثناء حجي الأول، وقرئت فوق البقعة إلى الحجاج التائبين،

وكانت مختومـة بختم رصاصي، وبناء عليه انحنينا بأنفسنا في هذا المكان نحـو الأرض وتلونا الصلوات المعينة في كتب مسيرة الأرض المقـدسـة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++) مع روح خاشعة.

وكنت قـد قرأت في بعض كتب الحجـاج بأن هذا المكان قـد أعطي مرة إلى رهبـان طائفة المبشرين، الذين بنوا كنيسـة وديراً هناك، بحفرهم بشكل أعمق لكهـوف في الصخـر، وأنهم سكنوا هنـاك لبعض الوقت، لكنهم اضطروا أخيراً، بسبب مضـايقات المسلمين، وسرقـاتهم المستمرة وهجماتهم، مـرغمين إلى مغادرة المكان وهجـرانه، وبذلك آلت الكنيسـة مع أبنيتها الخارجيـة إلى العدم، وبعـد سفر الحجـاج، غالبـاً مازرت هذا المكان، وقـرأت صلواتي هناك، وقمت بـاستكشـاف هـذا الكهف بكل دقـة، وكنت في بعض الأوقات أتخيل نفسي أنني في وسط دير للرهبـان، وبذلك كنت أمتلىء ببهجـة قلبيـة، ولكـن عندمـا أدركت العـزلة المؤلمة للمكان، اعتدت أن أجلس آسفا، وكـان هذا المكان كثير الموائمة لرهبان تابعين لطائفـة المبشرين، وفي هذه الأيام سـوف يكون مكاناً موائماً جـداً لهم للسكنى فيـه، لو أن جميع الظروف الأخـرى كـانت موائمـة أيضـاً، وذلك لأسباب كثيرة هي كمايلي:

١ـ بسبب الاعجـاب بالمبشر الذي عمـل الكهف له، أي القـديس جيمس الرسول، الذي أثناء عمله في التبشير وعرضـه للحقيقة قد ألقي به من على حـاجـز المذبح، وصـار أعرجـاً، حتى عندئـذ لم يتـوقف عن التبشير حتى ألقى به مـن قمـة الهيكل ومـات، وعندهـا نقل إلى هنا من القـدس ودفن، والآن من هو أجـدر بأن يتملك ضريح مثل هذا المبشر المخلـص للرب غير هـؤلاء الرهبـــان، الـذين بـدايتهم، ووسطهـم، ونهايتهم، واسمهم المبشرين؟ ولهذا السبب عندما تأسست طائفتنا أولاً، منحت كنيسـة القـديس جيمس في باريس، التي نمتلك فيهـا حتى الآن ديراً فيه ثلاثمائة من الرهبـان ذوي التقوى العظيمة، ولهذا يطلق في تلك

المناطق على رهبان طائفة المبشرين اسم رهبان القديس جيمس.

٢— وسبب آخر هو أن هذا المكان مـوائم للرهبـان المبشرين، لأنه بسبب فضائل ومثابرة هذا الرسول، كان طاهرا خلال حياته، وكان معا رسولاً وتقيا طوال أيامه، وهذه أمور تتوافق كلها مع عادات المبشرين.

٣— وبسبب أن جبل الـزيتـون، هذا الجبل، الـذي كما تقـدم وقلنا مضـاء بمصـابيح هيكل الرب، وبـالشمس، وبالزيت، وبمصـابيح الكنائس، وربما يمكن أن نسمـي طائفـة الـرهبـان المبشرين بـاسم جبل الضياء، لأن هذه الطائفـة مضاءة بعلم اللاهوت، الذي جـاء من هيكل الرب، وبعلم الأخلاق الذي أشع من الشمس، وبالضوء الطبيعي الذي جـاء من صناعتهم، المرموز إليهـا بالزيت الذي ينمـو هناك، والذي هو غذاء المصابيح، وبعلم التجربة المرموز إليه بمصابيح الكنائس.

٤— وبسبب الجدول الذي فيـه يجري إلقاء جميع الفضـلات المجلوبة من المدينة، فهنا تختفي، وتجرف بعيـداً وتزال، كما تقدم بنا القـول، ومثل هذا فإن جميع قـذارات العالم تتم إزالتهـا بوسـاطة حكمة الوعـاظ، ففي الأمثال: ١٨، يقـول: «كلمات فم الانسان ميـاه عميقة. نبـع الحكمة نهر مندفق»، والكتابات المقدسـة هي نهر فائض، ولذلك يتوجب على المبشر أن يشرب، كما يقول المزمور: «هو سـوف يشرب من النهر أثناء مروره» وفي مزمور آخر: «هو سوف يشرب البهجة كما يشرب من النهر».

٥— وبسبب الأرز الذي اعتـاد أن ينمـو إلى جـانب الجدول، لأن الأرز دائم الخضرة، ومرتفع، وخشبـه لايفسد، ومثل هذا الراهب المبشر له بعهـوده الثـلاثة: خضرة الطهـارة، وسمو الفقـر، وطاعـة غير قـابلة للفساد.

٦— وبسبب أن وضع المكان مـوائم للرهبـان المبشرين، لأن الموضع قائم في وادي، خـارج أسوار المدينة، وبالـوقت نفسه ملاصـق للمدينة،

فمثل ذلك على الرهبان المبشرين أن يسكنوا دوماً في الوادي بسبب التواضع، بعيداً عن ضجيج العالم، إنما في الوقت ذاته على مقربة من بني البشر، حتى يمكن تغذيتهم بكلماتهم وبالمثل.

٧— وبسبب قسوته، لأن المكان موجود بين الصخور، وهو صعب، ووعر، ومثل هذا ينبغي أن تكون حياة الراهب المبشر، حيث يتوجب تمضيتها في المصاعب مع طهارة الجسد، حتى يصبح الراهب مطواعاً، خشية أنه بعد وعظه للآخرين أن يصبح مرفوضاً، وذلك حسب تعبير الرسول (كورنثوس:١/ ٩).

٨— والمكان منعزل يتجاوب مع الحاجة للدراسة والتأمل، التي توائم المبشر الجيد والفعال، ولأن ذلك لايمكن ممارسته بين الحشد.

٩— ولأن المكان رفيع بعض الشيء وضيق، وهو نموذجي للفكر حتى يجمع ذاته، ويبتعد عن الجولات التي بلاهدف.

١٠— ولأن المكان قريب من جبل الزيتون، ومن جبل العدوان. ومن جبل صهيون، ومن وادي هنوم، ومن حقل حق الدم، ولنلاحظ هنا تنوع الموضوعات بالنسبة للواعظ، الذي يمكنه أن يعظ إما حول جبل الزيتون، أو حول الفضائل، أو حول جبل العدوان، أو حول الشرور، أو حول حق الدم، أو حول الموت، أو حول وادي هنوم، أي حول جهنم والادانة الأبدية، أو يمكنه الوعظ حول الجبال والوديان، أي أن يكون مديوناً لكل من الحكماء والجهلاء، كما قال الرسول (روما: ١/ ١٤)، أو للتأمل والعمل، أو للمتدينين وللعلمانيين، أو للرجال المستقيمين وللمذنبين، أو للجيدين والمسيئين.

الجسر فوق جدول قدرون ووصف ضفتيه شروعاً من المكان الذي يعبره الجسر

وعندما أقبلنا من الكهف بعد فحصنا له، لم ننزل مسافة أبعد في الوادي، بل عدنا عبر الطريق الذي قدمنا عليه، وذلك حتى هرم شعفاط، الذي يوجد على مقربة منه جسر مقنطر من الحجارة يعبر الجدول، وهكذا ذهبنا إلى ذلك الجسر، وجثونا أمامه مصلين، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وحدثتنا التواريخ الاغريقية، وكاتب مصنف الـ Speculum Historiale ، ورووا لنا الحكاية التالية: عندما كان سليمان يبني بيته من خشب لبنان، وقع في أيدي العمال جذع شجرة، وجدوا أ نه غير مفيد لهم، وقام أحد الناس بجر هذا الجذع وأنزله نحو الجدول، وعمل منه جسراً لعبور الأفراد الجدول عليه في هذه البقعة، وحدث أنه عندما جاءت ملكة سبأ — التي قيل بأنها كانت إحدى العرافات — وكانت على وشك عبور الجدول، مع الملك، غدت مندهشة لدى مشاهدتها لذلك الجذع، وألقت نفسها في الجدول وتعبدته، فكشفت بذلك عن أسرار الصليب، وقالت إن هذا الجذع سوف يشكل في أحد الأيام صليب المخلص، ونتيجة لذلك حمل سليمان الجذع من هناك، وطمره في باطن الأرض قرب الهيكل، حسبما جاء ذكرنا من قبل، وفي مكان الجذع الذي أخذه، أمر ببناء جسر حجري، وفوق هذا الجسر غالباً ما عبر الرب مع تلاميذه، وذلك كلما رغب بالذهاب إلى جبل الزيتون، أو إلى بيت عنيا، وعبر هذا الجسر اقتيد إلى بيت حنان.

ومثل هذا عبر داوود جدول قدرون عند هذا المكان، عاري القدمين مع جميع الناس، عندما هرب من القدس من أمام وجه ابنه أبسالوم، وهنا أيضاً وقف الكهنة مع تابوه الرب، حتى عبر الناس جميعاً، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الخامس عشر من سفر صموئيل الثاني، وبناء عليه عبرنا بتقوى الجسر، وصعدنا فوق الجرف المنحدر لجبل صهيون المقدس، الذي إليه اقتيد الرب يسوع مغلولاً من البستان إلى بيت حنان،

الراهب الأعلى.

وحدث أننا عندما وصلنا إلى قمة الجبل،وجدنا أنفسنا غير قادرين على تحمل حرارة النهار الكبيرة، فاتفقنا أن نقوم بعد الغداء بزيارة بقية الأماكن المقدسة، من حول جبل الزيتون، التي لم نكن قد ذهبنا إليها بعد، وبناء على ذلك نزل الفرسان مسرعين إلى مشفى القديس يوحنا، لتناول طعامهم، بينما دخلنا نحن رجال الدين إلى دير الرهبان، وتغدينا معهم.

زيارة الأماكن عند سفح جبل صهيون وأولها نبع مريم العذراء المباركة

وبعد الغداء اجتمع الحجاج الذين كانوا أقوياء مع بعضهم، من أجل المزيد من الحج والتعب، وفي الحقيقة إنه ليس عملاً بسيطاً وجهداً خفيفاً الذهاب حاجاً هكذا من مكان إلى مكان، كما لاحظنا في ص٤٠١ المتقدمة، وبناء عليه عندما اكتمل جمعنا، نزلنا من جبل صهيون، من على الجانب الشمالي من الجبل، وذلك عبر طريق طويل، حيث تركنا الطريق الذي صعدنا عليه من قبل على يميننا، ووصلنا الآن ، ونحن على منحدرات جبل صهيون إلى نوع من أنواع الكهوف، وهي مغارة مفتوحة في الأرض، ودخلنا من فمها، ونزلنا إلى باطن الأرض، وسرنا فوق رمال من دون أية درجات، وبما أننا دخلنا إلى مكان كان محجوباً عن أشعة الشمس، لم يكن بإمكاننا رؤية أية شيء أو قليلاً جداً ما رأيناه، لأنه من طبيعة العين أنه عندما ينتقل الانسان إلى الظلال خارج أشعة الشمس كل شيء يبدو بالنسبة له مظلماً، وعندما كنا نازلين في هذه المغارة، قدم لمواجهتنا مسلم حاد، كان قادماً من الأعماق وهو يركض بسرعة، وكان يصرخ بشكل عجيب صرخات غاضبة، مظهراً غضبه في صوته وفي ملامحه وفي حركاته، وقد أراد اخراجنا وطردنا من

الكهف، وذلك حتى لانصل إلى الماء، ولكن بما أنه كان وحيداً، وكنا نحن كثرة، لم نهتم به، بل تابعنا نزولنا، وتجاه ذلك ضاعف من صراخه، وتعاظم غضبه، ولو كان لديه عصا، لأرغمنا جميعاً على الفرار.

وعندما رأى هذا المسلم أننا لم نهتم به، استدار بنفسه بسرعة، وتجاوزنا جميعاً نحن الذين كنا نازلين، وغرس نفسه على حافة النبع، حيث تقاتل بكل وسيلة ممكنة مع الذين رغبوا بشرب الماء، وصدهم، ودفعهم، وضربهم عندما وصلوا إلى الماء، لكن أحد الفرسان اللومبارد وكان من ميلان، صعد بشجاعة، وأمسكه بذراعه، وجره بقوة وأبعده عن النبع، وهنا صار المسلم غاضباً من الفارس وانقض عليه، وشرع يضربه بمقبض يده، ودافع الفارس من الجانب الآخر عن نفسه بقبضة يده، لأن مامن واحد منهما كان لديه سلاح، وغدوا غاضبين جداً أحدهما من الآخر، ولو لم يقم الحجاج بفصلهما لمزق أحدهما الآخر إلى قطع.

وعندما رأى المسلم أنه لن يتمكن من انزال انتقامه على الفارس، شرع يركض بسرعة صعوداً، قاصداً لجلب آخرين لمساعدته للقتال معنا، غير أننا أمسكناه، وقبضنا عليه بشدة، مع أنه صرخ وناضل بشكل عظيم، وفي الحقيقة كنا ستتعرض إلى خطر عظيم لو أنه أفلت من بين أيدينا، وكنا غير مسرورين من الفارس، وبعد كثير من الصراع، وحدّ بعض الفرسان بين حافظات نقودهم وعرضوا على المسلم بعض المال، ومنحوه له إذا بقي هناك، وتخلى عن الصراخ، ووعد بالمحافظة على السلم مع الحاج الذي ضربه، ولست بحاجة لقول المزيد، ذلك أنه ما أن رأى المال حتى تغير إلى انسان آخر، حيث أصبحت ملامحه هادئة، وصار صوته أكثر لطفاً، وزال غضبه، وقدم نفسه، مستبشراً وبدون قيود لخدمتنا حسب الطريقة التي نختارها، وهذا الرجل الذي كان من غير الممكن من قبل تهدئته بالكلمات أو بالضربات، أو بعدد الحجاج، عندما

رأى هذه النقـــود صـــار جـــاهزاً لإطاعتنا، لأنـه كما قـــال سليمان في الجامعة:١٠ «أما الفضة فتحصل الكل».

وهكذا عندمـــا استلم المال نزل إلى الخليج،ونضح الماء لنا جميعـــاً، وأعطانا ذلك بكرم، وبعـدمـا شربنا جميعـاً من ذلك الماء النقي، صعـدنا ثانية، وتلونا صلواتنا أمـام فم الكهف، وحصلنا على غفرانات(+)، لأن هذا نبع العذراء مريم المباركـة، حيث يقال أنه في اليوم الأربعين، عندما جـاءت مع يوسف والطفل يســوع من بيت لحم، وذلك بهدف تقـديم الطفل يسوع في الهيكل، وقد نزلت إلى هذا الخليج، وأقامت هناك، لأنه لم يكن لديهم مكان للإقامة به في المدينـة، وذلك باستثناء ماكان لديها في بيت لحم، وهي لم تختر الإقـامة مع الناس الفقـراء الآخـرين، في ساحـة الهيكل، لأنها كـانت تخاف من هيرود، لأن الاشـاعة حـول الملك الذي ولد منهـا كـانت قد انتشرت في أرجـاء البـلاد، وبسبب ذلك اضطرب هيرود ومعه القدس كلها.

وكـان بإمكانها — على كل حـال — الـذهاب من هذا الجسر بشكل سري، إلى الباب الذهبي، جالبـة معها الطفل يسوع، دون أن يلاحظ إلى داخل الهيكل، وممارسة جميع الطقـوس المتعلقة بقانون الطهـارة، وهو ما فعلته، لأنه لم هناك أحد سوى الذين أنذروا من قبل الروح القدس، بأن يكونوا هناك في تلك السـاعة، عـلاوة على ذلك، كانت كلما جـاءت إلى القـدس، سنة تلو سنة، كـانت تقيم في هذه الهوة، وعندمـا كانت تقـوم بحجها، اعتادت على المرور عبر هذا الطريق، وانعـاش نفسها إلى جانب هذا النبع.

الصخرة الاعجازية مع الصدع الذي حدث فيها أثناء آلام الرب

بعدمـا قمنا بواجباتنا كحجـاج عند نبع مريم العـذراء المجيدة، تابعنا سيرنا، والتففنا حول جبل صهيـون، وذلك باتجاه طرفه الجنوبي، ودخلنا

في جانبه الغربي إلى وادي سلوان، ووصلنا إلى مياه غدير تجري بصمت نحو وادي شعفاط،وذلك حسبما قال اشعيا (الاصحاح:٨): «مياه شيلوه الجارية بسكوت»، وسرنا على مجاراة هذا الجدول، الذي يجري نزولاً إلى جانب جبل صهيون، ويصل إلى صخرة عالية، ولأنها كانت عند سفح جبل صهيون، ارتفعت خارج مجرى الجدول، وفي هذه الصخرة صدع كبير ممتد من القمة حتى القعر، ويمكن للانسان، دون أن يعصر نفسه، الدخول إلى الشق في الصخرة، ويقال بأن هذا الشق قد صنع أثناء آلام الرب، فقد قرأنا في انجيل متى:٢٧/ ٥١ قوله: «والصخور تشققت»، وبناء عليه قفزنا فوق الجدول، ودخلنا إلى الشق، ومضينا فيه حتى لم نعد نجرؤ على المتابعة والتوغل أكثر، بسبب الظلام.

بركة استحمام سلوان حيث استحم الرجل الأعمى واسترد بصره

وعندما خرجنا من الشق في الصخر، قفزنا فوق مجرى جدول سلوان، وذهبنا صعوداً نحو بركة استحمام سلوان، التي إليها أرسل يسوع سيليدونيوس Celidonius (كذا)، الذي كان أعمى منذ ولادته، من أجل أن يغتسل، وقد اغتسل واسترد بصره، وحسبما قرأنا في يوحنا:٩، لم تكن بركة الاستحمام هذه اكثر من مجرد بركة صغيرة، تجمعت وتشكلت تحت نبع سلوان، فيها كان يتجمع الماء الذي تدفق من النبع، حيث أقاموا له أطراف بالحجارة والطين، مثلما يعملون برك الأسماك في بلادنا، ولايوجد في بركة الاستحمام هذه ماء، لأن مجرى الماء لايصب بها، بل يجري نحو الأسفل إلى جانبها، وقد قام واحد من المسلمين في هذه الأيام بزراعة بستان خضراوات، في داخل جدران بركة الاستحمام، وقد نمت بعض الأشجار فيها، ولم نعبأ بهذا كله، ودخلنا إلى المكان على أساس المعجزة التي صنعت هناك من قبل المسيح في الأيام الغابرة، وتلونا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات(+).

وقد قرأت في واحد من كتب الحج أن بثشبع زوجة أوريا كانت تستحم فيها عندما رآها داوود أثناء وقوفه فوق بيته، وجامعها، وأخذها لنفسه، وهذا لايمكن فهمه، لأنه ليس هناك مجال للنظر إلى نبع سلوان من جبل صهيون، وقد جاء في النص (صموئيل الثاني: ١١/ ٢) بأن المرأة كانت تستحم وتغسل نفسها في غرفتها العليا مقابل بيت الملك.

المكان الذي ينبع منه نبع سلوان وتتدفق منه المياه تحت جبل صهيون

لدى مغادرتنا لبركة استحمام سلوان، سرنا على طول مجرى الجدول حتى وصلنا إلى نبع سلوان الذي يتدفق من جبل صهيون، وعندما سرنا إلى هناك صاعدين على طرف الجدول تولتنا الدهشة تجاه قذارة المياه ولونها الذي تعافه النفس، ولكن عندما وصلنا إلى النبع اكتشفنا سبب قذارة لون المياه، فقد كان هناك مسلم يعمل بالدباغة قد وقف عند فم الصخرة التي يتدفق منها نبع الماء، وكان ينقع الجلود ويغسلها ويتعامل معها بقدميه، وهي الجلود التي سلخت مؤخراً من الحيوانات، ولذلك صار الماء قذراً ودموياً، ولهذا لم يعد بامكان أي واحد أن يشرب من الماء أو أن يغسل وجهه، أي في الماء الذي يجري من بعد مكان الدباغ.

وبعدما وصلنا إلى المكان الذي كان فيه الدباغ، دخلنا إلى شق الصخرة الذي يخرج منه النبع، وكان هذا الشق عميقاً وعالياً، لكنه لم يكن عريضاً، وهناك ينبع الماء، أي من الأجزاء العميقة من الأرض، وعندما كنا هناك، فوق المكان الذي كان فيه الدباغ، شربنا وغسلنا أعيننا، بمثابة ذكرى للمعجزة التي صنعت بهذه المياه، بالنسبة للرجل الذي ولد أعمى (يوحنا: ٢٠)، ويقول عوام الناس بأن كل من يغسل عينيه بماء هذا النبع، سوف لن يعاني بعد ذلك من أي ألم في عينيه، ولقد وضعت ثقة كبيرة في هذه الحكاية وصدقتها مثلما أصدق القول بأن كل

من يستحم في الأردن سوف لن يصبح عجوزاً، وهكذا وقفنا هنا متلاصقين ومحتشدين إلى جانب بعضنا في هذا الصدع في الصخر، وفي هذه الفتحة في الأرض، وكان هناك كثيراً من الضجة بين الحجاج، فالذين كانوا في الأمام صرخوا ضد انعدام الصبر لدى الذين وقفوا في الخلف، وهؤلاء الذين في الخلف قد صرخوا شاكين من بطىء الذين كانوا في الأمام، أما الذين وقفوا في الوسط فقد صرخوا بسبب الضغط الذي تلقوه من الطرفين، وكان هناك كثيراً من انعدام الصبر، لأنه لم يكن بامكاننا الدخول إلى الشق إلاّ بالمباعدة بين قدمينا، والسير بقدم واحد على كل جانب من جانبي الماء، ذلك أننا كنا جميعاً مرتدين لأحذية ثمينة، كانت ستتلف لو أنها تبللت بالماء، والذي حدث على كل حال، أن كثيرين دفعوا فسقطوا بأجسادهم في مجرى الماء نفسه، ولذلك أخذنا طريقنا بالصعود مسرعين للخروج من ذلك الموضع، وأيضاً من فم الكهف، حاملين معنا الماء المقدس في آنية وقوارير إلى الذين لم يتمكنوا من الدخول إلى الشق في الصخر، وجاء عدم تمكنهم بسبب حالة الحشد المتقدم ذكره والتدافع، وكان بين رفاقنا سيدات حاجات لم ينزلن بل جلسن بهدوء وسلام، وكن يقمن بتلاوة صلواتهن في الخارج، ولقد جلبنا الماء إلى هؤلاء(++)، وعندما بتنا جميعاً في الخارج، تلونا الصلوات المحددة، وحصلنا على غفرانات مطلقة.

وصف نبع سلوان ومياهه

ومما تقدم قوله من قبل، يمكن إلى حد ما فهم وصف المكان،وعلاوة على ذلك، ينبغي أن نلاحظ أن هذا الماء المتدفق يلبي علامات معجزة قائمة ومستمرة، أي بمعنى أنه لايتدفق بشكل مستمر، بل يتوقف لمدة ثلاثة أيام، ولربما لمدة أربعة أيام في الأسبوع، ثم إنه يتدفق، لكن ربما بمياه أقل، وأحياناً لايتدفق مطلقاً، وأحياناً أخرى بكميات فائضة، ولقد رأيت بنفسي الشق جافاً أحياناً، وأحياناً أخرى يجري بمياه قليلة

وشحيحة، وأحياناً أخرى مليئاً بالماء إلى حد أن مامن أحد يمكنه الدخول إليه،واسترعت انتباهي هذه المياه بشكل غريب، حيث كنت غالباً ما أنزل إلى هناك قبل شروق الشمس وحيداً، لأرى ما الذي يحدث، لأن هذا التدفق غير المنتظم ليس مرتبطاً بالطبيعة، وليس مرده لها، بل كان ذلك يحدث بوساطة معجزة في أيام النبي اشعيا.

وكان الملك حزقيا، ملك القدس، عندما سمع بأن جيش الآشوريين كان مقبلاً للعسكرة أمام المدينة المقدسة أوقف الينابيع، وملأ البرك القائمة حول القدس بالطين والحجارة، بهدف أنه عندما يصل العدو لن يجد ماء، وبذلك يرغم على المغادرة بسبب العطش، فهذا ماورد في الاصحاح الثاني والثلاثين من سفر أخبار الأيام الثاني، وعمل أمام نبع سلوان بركة، كانت المياه تتجمع فيها من أجل استعمالات شعب المدينة، الذين كان يمكنهم النزول إلى هناك من المدينة، وحمل الماء معهم عائدين، وكان بامكان العدو أيضاً القدوم إلى المكان، وحمل الماء من هناك، ولهذا صلى اشعيا المقدس من أجل أنه كلما جاء الناس ونزلوا من المدينة يجدون الكفاية من الماء، لكن عندما يأتي العدو، سيجد النبع جافاً، وبذلك لم يكن بإمكان الأعداء العثور على أية مياه، ولذلك كذكرى لهذه المعجزة العظيمة لاتتدفق المياه بشكل متواصل، بل تتدفق في بعض الأحيان، وورد ذكر هذه المعجزة لدى يوسفيوس، ولدى كاتب SpeculumHis Toriale.

وبجوار هذا النبع جرى دفن النبي إشعيا من قبل الناس، بعد ذبحه من قبل الملك ماناسيس Manasses، وحدث أنه عندما بنيت القدس من قبل نحميا، بعد تدميرها من قبل الملك نبوخذ نصر بنى حاكم البلاد ميزبا MiZpah باب النبع عالياً في المدينة، ومن خلال هذا الباب صعد الناس ونزلوا لنضح الماء، وبنى جدار بركة سلوان، الذي كان قد سقط، وذلك حسبما جاء الخبر في الاصحاح الثالث من سفر نحميا،

ودمرت جدران بركة سلوان من قبل الرومان أثناء حصارهم للقدس، وذلك مثلما جرى تدمير كل شيء، غير أن المسيحيين الذين جاءوا من بعدهم بنوهم ثانية، وبنى أناس أتقياء أماكن لسكناهم حول هذه الجدران، وبنوا نوعاً من أنواع الديرة فوق النبع، فهذا مايمكن رؤيته حتى هذا اليوم، لأنه يوجد أمام النبع بركة تشبه حماماً، وهناك قد بني حول الجدران قناطر معقودة تشبه الممرات التي تكون حول رواق، أما أقواس الأسقف فهي مستندة فوق أعمدة رخامية، وهذا البناء مهدوم جزئيا، والباقي مهدد بالسقوط والخراب أيضاً.

ويبدو أنها مهمة سهلة هي القيام بترميم خرائب هذا النبع المقدس، لكن مامن أحد يلمسهم أو يضع يده عليهم، ولهذا يزداد المكان خراباً يوما إثر يوم، مثلما يحدث بالنسبة للأبنية في الأماكن المقدسة الأخرى، وكان هذا المكان في الأيام الخوالي محل تشريف، لأنه كان ضمن حديقة الملك، وكان هناك درج يقود صعوداً من النبع إلى مدينة داوود على جبل صهيون (نحميا:٣).

وأنا لا أستطيع أن أتصور كيف عمل حزقيا ملك القدس، وتمكن من حمل مياه سلوان نحو الأعلى إلى المدينة، وعبر مثل تلك المسافة الكبيرة، وذلك كما حدثنا نيقولا دي ليرا في تعليقاته على الاصحاح الثامن والأربعين من سفر الاهيات، مشاهدين أنه من نبع سلوان صعودا حتى المدينة هناك أكثر من أربعين خطوة مباشرة، يضاف إلى ذلك أنه ليس هناك ماء كثير في النبع، ثم إنه لايتدفق بقوة قادرة على إدارة دواليب ماء كان ربما من الممكن بوساطتها رفع الماء نحو الأعلى.

المكان الذي قطع فيه النبي إشعيا إلى قطع وسبب موته

وغادرنا الآن النبع المقدس، وصعدنا إلى جبل صهيون، وعلى المنحدر هناك وصلنا إلى مكان منبسط، فيه تقوم شجرة لها أغصان غليظة

وأوراق، ولا أعرف من أي نوع من الأشجار هي، لكنها تشبه شجرة زيزفون، فهنا يوجد المكان الذي تسبب فيه الملك ماناسيس الشرير — والذي كان قد ملأ القدس بالأصنام، وسفك كثيراً من الدماء البريئة — بذبح النبي اشعيا، لأنه انتقده من أجل شروره، ففي ذلك الحين قامت هناك شجرة أرز عظيمة وعالية، وذلك فوق المكان الذي قامت عليه الشجرة المتقدمة الذكر، وعندما جلب السفاحون النبي اشعيا لذبحه هناك، انفتح جذع شجرة الأرز، ودخل النبي اشعيا في شق الشجرة، وانغلقت ثانية، وأخفت النبي فيها.

وعلى كل حال لم يهتد الملك حتى بهذه المعجزة ولم يؤمن، بل أمر بشق الشجرة، وسحب منها النبي وذبحه وأمر بتقطيعه إلى قطع بمنشار الخشب، وتلونا في هذا المكان صلواتنا المحددة، وحصلنا على غفرانات(+)، وجلسنا بعد ذلك تحت ظل تلك الشجرة، وأرحنا أنفسنا، وتحدثنا حول قداسة النبي الذي ذبح هنا، والذي عنه قال جيروم، بأنه كان في نبوءآته ينسج انجيلا، ولم يكن بالحري يتنبأ، ولذلك يستحق أن يسمى بالانجيلي أكثر من تسميته بالنبي، ولهذا السبب تقرأ نبوءاته خلال موسم قدوم الرب، وفي ليلة ميلاد المسيح، وذلك في وقت الصلاة الصباحية، وفي القداس، وكأنهم كانوا جزءاً من الأناجيل الأولى، وبسبب روعة كتابات هذا النبي طلب القديس أمبروز من أوغسطين قراءتهم بعد تحوله إلى المسيحية مباشرة.

المكان الذي فيه شنق يهوذا نفسه على شجرة

وبعدما فرغنا من الاستراحة تحت الشجرة المتقدمة الذكر، انطلقنا على طريقنا، وأثناء سيرنا أشار أحد الناس وبين لنا المكان الذي قامت عليه فيما مضى الشجرة التي عليها شنق الخائن يهوذا نفسه، وعرض علينا اقتيادنا إلى ذلك المكان، لكننا رفضنا الذهاب لزيارته، ولم نحرك أنفسنا ولا خطوة واحدة نحوه، فقد كنا نكره أن نرفع أبصارنا ونلقي

نظرة عليـه، لأنـه ليس هناك لا نعمـة، أو غفـران، بل عقـوبة، ويأس، وعار، ووقفنا على كل حال لوهلة قصيرة ننظـر نحو المكان، وقرأنا بيت الشعـر التـالي الذي هو هجـاء له: «سـوف تظهـر السماء شرور يهوذا، وسوف تثور الأرض ضده».

الكهوف التي إليها هرب الرسل أثناء اعتقال الرب، وفيها أقاموا متخفين

ولدى فـراغنا من انشـاد لعناتنـا ليهـوذا، نزلنا من على منحـدر جبل صهيون إلى الوادي الذي يفصل جبل صهيـون نفسه عن جبل جيحون، وهذا الوادي ضيق، ومتصـل بوادي سلوان في وسطه، وقـد عبرنا هذا الوادي الضيق، ووصلنا إلى سفح جبل حق الدم في الجهة المقابلة، وهذا الجبل قـائم عند منعطف جبل جيحـون باتجاه الشمال، وذلك مثلما جبل أكـرا مـوجـود عند منعطف جبـل صهيـون باتجاه الشمال، ومع هذا، إن الذي أراه هو أن ذلك الجزء صـار اسمـه الآن جبـل حق الدم، بسبب حقل حق الدم، مع أن اسمـه كله في الماضي جبل جيحـون، والمقصـود بذلك كل من منعطـف الجبل والجبل نفسـه، مثلما حـدث بالنسبـة لجبل صهيون وجبل أكـرا، كما تقدم بنا القـول حولهما، وكذلـك بالنسبة لجبل سيناء وجبل حـوريب، فهناك اسم الجزء المنخفـض جبل سيناء، واسم الجزء العلوي هو جبل حـوريب، والحال هـو نفسـه مع جبل الزيتـون، حيث أن الجزء المنخفض منه باتجاه الجنوب اسمـه جبل العدوان، واسم الجزء الأعلى هو جبل الزيتون، وهذا هو الحال نفسه مع هذا الجبل، فهو من الوادي صعـوداً حتـى الحقل، اسمـه جبل حق الـدم، ومن الحقل فصاعداً اسمه جبل جيحون.

وهكذا صعـدنـا نحـو جبل حق الدم، عبر رابيـة منحـدرة، وسحبنا أنفسنا صعـوداً عبر جروف وصخور حتى وصلنـا أخيراً إلى بساتين تين

ورمان، وأشجار فاكهة أخرى، وكان في هذه البساتين عدداً كبيراً من الصخور منتصبة شاهقة في الهواء، وكذلك جدران من الصخور، فيها محفور كهوف مفردة، ومزدوجة، وثلاثية ورباعية، عن أمثالها تحدثت في ص ٤٨٣، فقد حفر القدماء هذه الصخور القاسية وأفرغوها لتكون أماكن للدفن، حسبما قلت في ص ٦٤٣، وفيما بعد، في أيام المسيحيين، قام أناس، صدوراً عن حبهم للأرض المقدسة، باختيار هذه الكهوف لتكون أماكن سكنى لهم، لأنهم لم يرغبوا بالسكنى والاقامة في أي مكان غير أماكن الأضرحة، حيث فيها يمكنهم بسرور انتظار الموت، وكان لدى تمكن واحد من القديسين القدماء من تحصيل واحداً من هذه المساكن لنفسه، كان يعتقد أنه قد وجد كنزاً.

وإلى هذه الكهوف هرب الرسل، عندما تخلوا عن الرب في البستان، وذلك عندما أخذوه مغلولاً ليمثل أمام الكاهن الأعلى، ووقتها لم يكن بامكانهم هجر مثل هذا المعلم الرائع، ومع ذلك لم يكن بامكانهم اتباعه، كما أنه لم تتوفر بالنسبة إليهم أية أماكن أفضل للإقامة خيراً من الكهوف المظلمة، لابل أكثر من هذا، لقد بذلوا جهودهم في هذه الكهوف نفسها لشق طريقهم إلى الأجزاء الأعمق منها، وصولاً —إذا كان ذلك ممكنا — حتى أعماق جوف الأرض، فهناك كان بامكانهم، أن يجدوا، على الأقل أماكن فيها يبكون وينتحبون ويصرخون، ويرفعون أصواتهم بالعويل، لأنهم أثناء وقوفهم عند أفواه هذه الكهوف لم يتجرأوا على التفوه بتنهداتهم بصوت مرتفع، ولا أن يعجوا بالبكاء، خشية أن يسمعوا، لكن الذي فعلوه هو أنهم حبسوا صرخاتهم مع حزنهم في صدورهم بقدر ما استطاعوا، وفي الحقيقة امتلأت صدورهم كثيراً بالحزن، وتورمت حلوقهم ووجوههم بالترح، ولذلك حشوا أفواههم بملابسهم، خشية انفجار أحزانهم، وسماع الأصوات من مسافة.

ولذلك سرنا في هذا المكان المقدس بحالة حزينة من كهف إلى آخر،

ووزعنا أنفسنا بين هـذه الكهـوف ومن حـولها، مبـدين احترامنا تجاه الأماكن وحـزننا من أجل الرسل، وأثناء وقوفنا في داخل الكهـوف كان الحجاج يخاطب أحـدهم الآخر قائلاً: «تذكـر يا أخي أن الرسول أندرو المحبوب صدف وجلس هنا، وهو يبكي سـوء حظ معلمه»، وكان حاج آخر يجلس مقـابل حاج آخر ويقول له: «وهنا جلس الرسـول بارثلميو، يبكي لتخليه عن معلمـه المحبوب»، وفي كهف آخـر كان أحـدهم يقول للآخـر: «هنا جلس —كما هو محتمـل— تومـا وهو مـرتاب وحـزين»، ومن كهف آخـر كـان حـاج آخـر سيصرخ: «هنا في هذا الكهف المظلم يوجـد مكانين، أعتقد أن الرسـولين سمعـان ويهوذا، جلسا فيهما معـا»، وهكذا بذل كل واحـد جهوده مع آخـر، بحركـات خاشعة، ليقـوم كل واحد منهما بتحـديد مكان للرسـول الذي أحبه أكثر، وفي هـذا البستان دخلنا إلى كهف غريب، يشبـه إلى حد بعيـد ضريح الرب حسبما كان في وضعـه الأصيل، ولقـد تلونا صلواتنـا قـرب هذه الأمـاكن، وتلقينا غفرانات(+).

حقل حق الدم المقدس الذي شري بثمن دم الرب يسوع المسيح

وبعـدما فـرغنا من معـاينة أماكن اختبـاء الرسل، تابعنا صعـودنا إلى جبل حق الدم، وذلك عبر جـروف صخـرية شديـدة الانحدار، وكـان الممر صعباً ووعراً، وفي الوقت الذي كنا فيـه صاعدين نحو الأعلى أخذ بعض الفرسـان من ذوي النشأة المرفهة والناعمة يتمتمـون ضيقاً بسبب فقدانهم لصبرهـم نتيجـة لمتاعب الرحلة، وكنا في الحقيقـة نعاني كثيراً من أشعة الشمس المحرقة، ومع ذلك تابعنا صعودنا، ووصلنا إلى حقل حق الدم المقـدس، وجـاء الخبر في انجيل متـى:٢٦، أن اسم هذا الحقل قـد كان قبل الآلام «حقل الفاخوري» بسبب أنه كان ملكاً لرجل فاخوري، واشترى اليهود هذا الحقل مقابل الثلاثين قطعـة (من الفضة) التي كانوا قـد أعطوهـا إلى يهوذا ثمناً للرب يسـوع، وجـرى شراء هذا الحقل من

أجل دفن الغرباء فيه، الذين كانت أجسادهم ترمى من قبل في العراء من دون دفن، ولذلك ارتمينا على وجوهنا في هذا الحقل المقدس، وتلونا الصلوات المعينة وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، وعندما أكملنا هذا، جلسنا للاستراحة وللنظر إلى المكان، وفي وقت جلوسنا على هذه الصورة، جاء شاب مسلم صاعداً نحونا، ومعه سلة مليئة بالعنب، الذي شرينا بعضه، وهكذا جلسنا، وأكلنا العنب هناك في الحقل، ومتعنا أنفسنا تماماً.

وضع حقل حق الدم

حقل حق الدم قائم على منحدر جبل جيحون، في مقابل جبل صهيون، على الطرف الجنوبي منه، وقائم فوق الحقل نفسه بناء بأربعة جدران، يشبه برج مربع منخفض، وهو مغطى بقبة، مستندة على أطراف الجدران، ولهذه القبة في أعلاها تسع فتحات مستديرة، منها يجري رمي أجساد الموتى، وبما أن هذا المبنى قائم على منحدر الجبل، فإن الجزء العلوي منه، بالنسبة للقادم من أعلى الجبل نحو المبنى، يمكن للانسان أن يسير على سقفة المعقود من دون تسلق أو صعود، ومساحة السقف المعقود لهذا البناء هي خمسين قدماً من حيث العرض، واثنين وسبعين من حيث الطول، وهناك من الفتحات العلوية نزولاً حتى الأرض في الأسفل ستة وعشرين قدماً.

وليس هناك مدخل إلى هذه الغرفة إلاّ من خلال هذه الفتحات، ومامن أحد يمكنه الدخول من خلالهم مالم يتأتى انزاله بوساطة حبال، وهذا المسكن هو للأموات وحدهم، والذي أعتقده أنه منذ اللحظة التي انتهى فيها عمارة مامن انسان دخل إلى هذا المبنى، بل إن كل من دخله مرة لن يخرج منه مطلقاً حتى يوم الحساب، واستندت على معدتي، ومددت رأسي نحو الداخل، فرأيت هناك خمس جثث بين عظام جافة، ولايوجد فوق السقف المعقود الآن أي بناء، بل أعشاب نامية هناك،

وقد غطت الأعشاب في بعض الأماكن الفتحات، ولذلك فإن الذين يسيرون هناك بدون انتباه قد تنزلق قدم أحدهم فيهن، وكانت المرأة المقدسة هيلانة قد بنت كنيسة فوق هذه البقعة، وقد أمرت بتكريسها لجميع القديسين، وإليها كان الرهبان الذين سكنوا في أمكنة اختباء الرسل، قد اعتادوا على الذهاب، والقيام بالقداسات هناك.

وفيما بعد، بعد ذهاب هؤلاء الرهبان، سكن رهبان من طائفة المبشرين هناك، وامتلكوا ديراً هناك، لأنه عندما قام روبرت، ملك صقلية، المتقدم الذكر، بشراء جبل صهيون والأماكن الأخرى لصالح الفرنسيسكان، وذلك من السلطان، مقابل أموال كثيرة، وقتها قام الرهبان المبشرون وطلبوا عون الناس الأتقياء،. وبعدما جمعوا بعض المال، اشتروا حقل حق الدم، بهدف التمكن من بناء دير هناك، وكان ذلك في سنة ١٣٥٠ لتجسيد الرب، ففي هذه السنة كان لودلفوس Lu-dolphus، الذي كان كاهن أبرشية سوخم، موجوداً في الأرض المقدسة، وكتب هذا في كتابه عن حجه.

وبعد تسلمهم للمكان، احتفظوا به لبعض الوقت، لكن أخيراً أرغموا على التخلي عن المكان، بسبب هجمات المغاربة، والسرقات التي عانوا منها على أيدي المسلمين، وفيما يتعلق بهذا الأمر إن أوضاع الرهبان الفرنسيسكان جيدة في جبل صهيون، ولديهم مكان هادىء في داخل المدينة، محصن بشكل جيد بأسوار عالية وبأبواب حديدية، كما تقدم وقلنا في ص٤٦١، لكن هذه أوضاع ليست مستمرة، ذلك أنهم غالباً مايكونون في مخاطر عظيمة، من الهجمات المتواصلة للمسلمين، حتى في أوقات الليل، ولولا أنهم رجال شجعان، لتخلوا منذ زمن طويل عن جبل صهيون، بسبب المخاطر التي هم عرضة لها من هجمات هؤلاء الناس، ولهذا كان من غير الممكن بالنسبة للرهبان المبشرين البقاء في مكان غير محصن، في خارج المدينة، وذلك على الرغم من شرائهم

للمكان من السلطان، وأنهم بموافقته قد أقاموا به، ذلك أن المسلمين لايعبأون مطلقاً بذلك، ولذلك عندما تمّ اخراج الرهبان من ذلك المكان، هدم المسلمون الكنيسة والأبنية الأخرى، واجتثوا كل شيء حتى الأساسات نفسها، وذلك باستثناء مبنى الدفن الذي مايزال قائماً حتى يومنا هذا.

وبعد الرهبان المبشرين، سكن بعض الرهبان الاغريق الذين اسمهم Coloyers هناك، لكنهم أرغموا بالضرورات نفسها على التخلي عن المكان، وكان هذا ليس قبل وقت طويل مضى، لأنني وجدت في الكهوف، وفي أماكن الاختباء علامات تبرهن أن قوما سكنوا هناك قبل وقت قصير، وغالباً ما اعتدت على النزول إلى هذا المكان من جبل صهيون، وكنت أقرأ صلواتي الساعية فوق الحقل المقدس، وكنت أرغب كثيراً، أنه إذا كان ممكنا أن أنهي أيامي هناك بين الرهبان، وأن أدفن هناك، وبناء عليه اخترت هذا المكان ليكون قبراً لي، وتوسلت إلى رهبان جبل صهيون، أنه إذا حدث ومت في القدس، أن لا يقوموا بدفني في أي مكان غير هذا الحقل المقدس، وأن يلقوا بجسدي من خلال هذه الفتحات.

ويمكنني أن أقول صادقاً، إنه لو كانت الأوضاع الأخرى موائمة متوازنة، كنت أفضل اتخاذ دير هناك على اتخاذه فوق جبل صهيون، ذلك أنه هنا يمكن للرهبان زراعة بساتين، وكروم، وحدائق تين، ثم إن المكان جميل ولطيف، يتطلع نحو جبل صهيون، ونحو وادي سلوان، ويمكنه الحصول على مائه من نبع سلوان، القريب جداً، وهناك أيضاً منظر يشاهد منه وادي شعفاط، وجبل الزيتون، الخ.

وهم يروون صادقين أن أجساد الموتى، عندما يوضعون هناك، يتحولون مباشرة إلى رماد في خلال ثلاثة أيام، وتترك العظام الجافة فقط، ومثل هذا يقولونه عن الحقل المقدس الموجود في روما، إلى جانب

كنيسة القديس بطرس، الذي حملت الأتربة إليه من هنا عبر البحر، ومدت فوق ذلك الحقل، ويفعل مثل هذا أهالي بيزا، فعندما تتوفر لديم سلطة في سورية، يأخذون التربة من هذا الحقل، ويحملون ذلك في سفنهم إلى بيزا، وقد عملوا هناك مدفناً باهظ التكاليف، لدفن عظماء الرجال في بلادهم فيه، وتذوب الأجساد في هذه المدافن الثلاثة خلال ثلاثة أيام، بينما تحتاج في مقابر أخرى إلى مالا يقل عن ثمانية عشر عاماً.

وفيما يتعلق بالثلاثين قطعة من النقود، فقد قرأت حولهم حكاية طويلة متهافته، قالت بأن تارح والد ابراهيم قد ضربهم، بناء على أوامر من الملك نينوس مع نقود أخرى من السكة نفسها، وأن ابراهيم قد تسلمهم، وجلبهم إلى هذه البلاد، وأنهم منه قد آلوا إلى اسماعيل بحق الميراث، جميعا ولم يتوزعوا قط، ولم يتفرقوا عن بعضهم بعضاً، وقد أعطاهم الاسماعيليه إلى أبناء يعقوب ثمناً لأخيهم يوسف، الذين باعوهم إياه، وقد حمل أبناء يعقوب هذه النقود معهم إلى مصر لشراء قمح بهم، ومن مصر جرى حملهم إلى سبأ، ثمناً لبضائع تجارية، وقد أعطتهم ملكة سبأ إلى سليمان ضمن هدايا أخرى، وقام هو برميهم في خزانة هيكل الرب، وقد حملهم نبوخذ نصر مع كنوز الهيكل الأخرى، وعمل منهم هدية إلى غودوليا Godolia (كذا)، الذي تولى ارسالهم إلى مملكة النوبة، وعندما ولد الرب في بيت لحم قدّمهم ملكيور ملك النوبة إلى الرب، وفقدهم يوسف والعذراء المباركة في الصحراء عندما كانا فارين مع الطفل، وعثر راعي عليهم واحتفظ بهم لمدة ثلاثين سنة، وكان هذا الراعي قد سمع بشهرة معجزات الرب يسوع، فقدم إلى القدس مريضاً، ولدى استرداده لصحته على يديه، منح الثلاثين قطعة إلى يسوع، ولأنه رفض استلامهم أعطاهم إلى كهنة الهيكل، الذين وضعوهم جانباً بمثابة «قربان».

وعندما جرت خيانة الرب، ناولوهم إلى يهوذا، الذي حركته الندامة،

فطوّح بهم في الهيكل، والتقطهم الكهنة، واشتروا بهم هذا الحقل، وبذلك تفرقوا وتوزعوا في أرجاء العالم، ولقد رأيت واحداً منهم في رودس، وقام يوهانس توخر أوف نورمبيرغ، بأخذ طبعة له، وصنع قالباً على شكله، وصنع نقوداً فضية على شاكلته، قام بتوزيعها بين رفاقه، وفي الحقيقة عندما اجتمعنا مع بعضنا في نورمبيرغ في سنة ١٤٨٥، للاحتفال باجتماع رجال الدين العائدين للمنطقة، قام الرجل المتقدم الذكر، باعطاء قطعة من قطعه الفضية إلى واحد من رهبان طائفتنا، وهذه القطعة بسعة النقود التي تعرف باسم Blaffardi والتي عليها علامة الصليب، ويوجد على الوجه الأول صورة وجه انساني، وعلى الوجه الثاني زنبقة، وكان عليها فيما مضى نقشاً، لكن لايمكن رؤيته الآن، وفي الذي قلناه عن جبل حق الدم كفاية.

وصف جبل جيحون وكذلك بيت الاجتماع التشاوري الشرير

وإثر مغادرتنا لحقل حق الدم، تسلقنا جبل جيحون بعد بذل جهد كبير، ويوجد على قمته خرائب أسوار عظيمة، ويوجد بين هذه الخرائب بعض بيوت الإقامة للمسلمين، وكان يوجد في أيام الملك داوود هناك قلعة حصينة على هذه الرابية، وكانت ملكاً للملك، وتقع في مقابلة بيت داوود مباشرة، الذي كان على أعلى نقطة من جبل صهيون، وذلك حيث يقوم الآن دير الرهبان، ولكل منهما — كما في كل مكان آخر — هناك ساحتين لهذا البيت تتطلع كل واحدة نحو الأخرى، وفي كل ساحة بعضاً من أجزاء البيت، ومتعلقاته، وحسبما قرأنا في سفر الملوك الأول:١، أمر داوود ابنه سليمان أن يركب بغلة الملك، وأن يتوجه إلى جيحون، وذلك إلى حيث لحق به جميع قوات الجيش، وهناك مسحوه ملكاً على اسرائيل، وضربوا بالأبواق، وصرخوا عالياً: «عاش الملك».

وأخبرنا يوسفيوس، أنه عندما سمع داوود هذا، جلس على أريكته، وغاص فيها، وتقدم بالشكر إلى الرب، لأن أصوات البوق والصراخ

فوق جيحون، يمكن بالحقيقة سماعه من فوق صهيون، وفي ذلك الحين كان أدونيا ويوآب مع البقية يحتفلون، حيث جلسوا إلى جانب نبع عين روجل، بجوار صخرة زوحلت (الزاحفة)، وبنيتهم أن يكون أدونيا هو الملك، وسمع هؤلاء القوم أصوات الأبواق فوق جيحون، وباتوا خائفين عندما علموا بحقيقة ما حصل، فقاموا وذهب كل رجل في حال سبيله، لأنهم كانوا عند سفح جبل جيحون، في واد ظليل تحت وادي شعفاط ووادي سلوان، حيث كانت هناك بساتين، مثلما هو موجود في هذه الأيام، وكانت هناك مياه، ومثل ذلك هناك نبع ماء في هذه الأيام، كما هناك حجرة كبيرة، اعتاد الشباب على رفعها للبرهنة على قوتهم، وكان اسم هذه الحجرة الزاحفة، والمكان هناك جميل فيه عمل أدونيا احتفاله، ولكنهم عندما سمعوا الأصوات من فوقهم من الجبل تنادي «عاش الملك»، ارفض اجتماعهم، كما قلنا من قبل.

وكان بيت جيحون في أيام المسيح هو بيت الكاهن الأعلى والكهنة الآخرين، وعندما كانوا يودون معالجة أية قضية، لاسيما إذا كانت سرية، كانوا فيه يتخذون قرارهم حولها، وعلى هذا كان هذا البيت بيت اجتماعاتهم التشاورية السرية، وهنا اجتمع رؤساء الكهنة مع الفريسيين للتشاور قائلين: «ماذا نصنع؟ فإن هذا الانسان....» فهذا ما رواه القديس يوحنا في انجيله، وبناء عليه، على هذه البقعة جرى الاتفاق على قرار موت المسيح، ومن المعتقد أنه في هذا البيت قرر اليهود القتال ضد الرومان، وضد تيتوس وفاسبسيان، ونتيجة لذلك جرى تدمير القدس.

ومن المحتمل أن الرسل جرى جلدهم في هذا البيت، حسبما قرأنا في أعمال الرسل:٥، وحدث هذا الجلد بحضور أعضاء المجلس التشاوري فقط، لأنهم كانوا يخافون من الشعب، كما جاءنا الخبر في الموضع نفسه، وكان كلما توفرت قضية احتاجت إلى المناقشة، وكانوا يخشون الشعب من أجلها، كانوا قد اعتادوا على اقرارها في هذا البيت، فهم كانوا

يستهـدفـون أن يكونوا منعـزلين عن بنـي البشر، وأن يكونوا في الوقت نفســـه في مكـان حصين، ولذلـك حصل هـذا البيت على اسـم «بيت الاجتماع التشاوري الشرير»، ومازال محتفظاً بهذا الاسم حتى هذا اليوم.

وعندمـا فرغنا من مشـاهدة هذا البيت، لم ننزل إلى الوادي، بل سرنا على حـافــة جبل جيحـون إلى الطريق الذي يقــود إلى بيت لحم، الذي عبرناه بـاتجاه الشرق، وسرنا من حـــول الوادي القـــائم فيما بين جبلي صهيـون وجيحـــون، ووصلنا إلى حقل القصـار، حيث وقـف ربشـاقى يجدف ضد الرب إله اسرائيل، وذلك حسبما قـرأنا في سفر اشعيا: ٥٣٦ وقـد أطلق على هذا الحقل اسم حقل القصـار، لأن القصـارين اعتـادوا على تجفيف أقمشتهم فيــه، وهكذا عــدنا إلى القـــدس عبر طريق حقل القصـار، وعبر الحجاج الـذين أقامـوا في المشفى، إلى المدينة، من خـلال باب السمك، أمـا نحن فدخلنا على مقـربة من برج داوود، ووصلنا إلى مكاننا، حيث مررنا على طول حافة جبل صهيون.

هنا نهاية الحج خلال مدينة القدس.

كيف أخذ الحجاج طريقهم إلى بيت لحم، التي هي مدينة داوود

في عشية اليوم الذي تقدم على السادس عشر من تموز، قدم دليلانا على ظهر فرس إلى جبل صهيون، وقدم أيضاً السائقون مع حميرهم، لأخذنا إلى بيت لحم، وبعدما تجهزنا جميعاً بحمير نزلنا من جبل صهيون، وذلك من الجانب الجنوبي، وعبرنا الوادي بين البرك، وصعدنا جبل جيحون بوساطة الطريق الملكي، الذي عليه سار الملوك الثلاثة، الذين بعث بهم هيرود للبحث عن الطفل الذي ولد في بيت لحم، وهذا طريق مقدس جداً وجميل من القدس، قرأنا بأن عبره سار البطارقة المقدسين، والآباء، والأنبياء، من ذلك على سبيل المثال: ابراهيم عندما جاء من بلاد الكلدان مع زوجته ساره، وكذلك لوط مع زوجته عندما جاء من المناطق الواقعة فيما وراء الجبال، ويعقوب، وجميع الرجال المقدسين، وداوود، واشعيا، والياس، فعنهم جميعاً قرأنا بأنهم ساروا عبر هذا الطريق، وبناء عليه صعدنا جبل جيحون بسرور، وفوق القمة صرنا بين الجدران الحجرية الجافة لبساتين رائعة، فيها ينمو مختلف أنواع أشجار الفواكه الثمينة، والكروم، والتين، لأن أهل القدس يمتلكون بساتينهم هناك.

وعندما مررنا من خلال البساتين، وصلنا إلى بعض الجدران المهدمة القديمة، حيث كان النزل الذي قيل، بأن الملوك الثلاثة أقاموا به، عندما كانوا على طريقهم إلى بيت لحم ومعهم هداياهم، وتابعنا سيرنا من هناك، ووصلنا إلى مكان وعر، حيث قالوا بأن العذراء المباركة قد جلست فيه، لاسترداد أنفاسها، عندما كانت حاملاً، وقد رأينا المكان الذي جلست فيه، ولذلك ترجلنا في هذا المكان من على ظهور حميرنا، وأبدينا احترامنا للمكان مع مشاعر العجب والسرور، وهو بالحقيقة ما شعرنا به خلال الرحلة كلها، ولقد أشفقنا على الفتاة اللطيفة الحامل، بسبب طول الرحلة من الناصرة إلى بيت لحم، التي هي أكثر من عشرة

أميال ألمانية.

** ** **

(جاء هنا حوار بين حاج والقديس يوسف، أكد فيه القديس يوسف له أنه من أجله استراحت العذراء هنا، لأن العذراء كان لايمكنها الشعور بالتعب).

المكان الذي رأى فيه الحكماء النجم الذي كانوا قد رأوه في الشرق

وعندما انتهى هذا الحوار، عاودنا امتطاء ظهور حميرنا، وتابعنا سيرنا، وعندما صرنا في منتصف الطريق وصلنا إلى ثلاث برك، وذلك في المكان الذي ظهر فيه النجم للمرة الثانية، وهو النجم الذي كان الحكماء قد رأوه في الشرق، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الثاني من انجيل القديس متى، ويقال بأن هذه البرك قد حفرت في الأماكن التي وقف فيها الملوك الثلاثة، ينظرون إلى النجم، الذي كان قد اختفى عندما دخلوا إلى القدس، وسررنا في هذا المكان مع بعضنا ومع الحكماء الثلاثة، وكنا نقرأ ونغني ماهو محدد في كتب المسيرة.

المكان الذي ولد فيه النبي إيليا

وبعد مغادرتنا لهذا المكان،وصلنا إلى كنيسة تابعة للجورجيين، يقال بأنها قائمة فوق البقعة التي ولد عليها النبي إيليا، وقد دخلنا إليها، وتعبدنا الرب، وحصلنا على غفرانات لمدة سبع سنوات(+)، وشرفنا النبي إيليا، لكن هناك شك حول كيف أمكن للنبي إيليا أن يلد هنا، لأن كنيته تشير إلى أنه قد ولد في طيبة، لأن ذكره قد ورد في سفر الملوك الأول:١٧، باسم الطيبي، هذا وهناك ثلاث مدن اسمها طيبة: أولاهن في سورية، في منطقة الجليل، حيث كان هناك برج مرتفع، منه رمت

امرأة بقطع من حجر طاحـون، فحطمت جمجمة أبيمالك الذي كـان يسعى إلى لغم البرج، وكان هذاعندمـا شعر بأنه يمـوت قد طلب منهم ضربه بالسيف، حتى لايقال بأن امرأة قد قتلته (القضاة:٩).

وأمـا الثانيـة فمـوجودة في مصر، ومنهـا نالت المنطقـة كلها اسمهـا، وصار اسمها الطيبية، وكانت طيبـة هذه فيما مضى مدينة عظيمة وغنية، وذلك حسبما قـرأنا في أسطورة القديـس موريس حـول الفيلق الطيبي، ويقول بعضهم بأن هذا المكان هو القـاهرة، أو بابليون، كما سيرد ذكرها فيمابعد.

وأمـا الثـالثـة ففي بلاد الاغـريق، وقـد جـاء النبي إيليـا من الأولى، وحصل على كنيتـه منهـا، وعلى كل حـال في سبيل اعطاء مصـداقيـة لحكايتي، أقـول إن من الممكن أن مـا وقع إلى ايليـا مثله وقع للمسيح ربنا، الذي جـرى الحمل به في الناصرة، وولـد في بيت لحم، ومع ذلك اسمه يسوع الناصري، وليس البيت لحمي، ومثل هذا إيليا، حيث جرى الحمل به في طيبة قد ولد في حلبة الخيل، ومع ذلك اسمه الطيبي وليس الحلبي، هذا وكنت قـد قرأت في مكان آخـر، أنه قد قـام هنا فيما مضى بيت ريفي، كـان اسمـه أيضـاً طيبـة، وفي الحقيقـة إن مسقط رأس نبي عظيم مثل هذا النبي جـدير أن يعدّ بين الأماكن المقـدسة، لأنه كـان قد ولد منذ ثلاثة آلاف سنة مضت، ومع ذلك هو لم يمت بعـد، بل سوف يقف أمـام القـاضي، ويسترد جميع الأشيـاء، وذلك حسبما قـرأنا في ملاخي:٤ Malachi، وفي متى:١٧.

حقل النبي حبقوق

وإثر مغادرتنا لذلك المكان، تـابعنا سيرنا، ووصلنا إلى حقل حبقوق، وقـرأنا عن هذا النبي في سفـر دانيـال:١٤، بأنـه قـد طبخ كميـة من الحبوب، وبعدمـا طبخها وكان حامـلاً لها إلى الحقل للحصادين، أمسكه

مـلاك الرب بأعلى رأسه، وحمله من شعـر رأسـه، وبقوة نفخـه حمله إلى بابل،وذلك إلى المكان الذي كان فيه الأسـود، وأعطى الطعام الذي كان معه إلى دانيـال ليتغدى، ولهذا وقفنا بدون حـراك لبعض الوقت في هذا الحقل، ونحن نبـدي العجب تجاه فضـائل حكمـة الرب، التي اعتـادت ضمان أحوال عبيد الرب بعقـلانية مدهشة، ولذلك قـال غريغوري عن هذا الموضوع: «دانيال الذي لم يهتـم حول الطعام والشراب، والذي من خـلال صـدقه الملائكـي عاش بالايمان في عـرين الأسـود، بين الأفـواه المفترسة لتلـك الحيوانات المتوحشـة المرعبة، دانيـال هذا لم يهمله الرب، بل جلب له طعـامـه في لحظة من اليهـودية إلى بابل على أيدي نبي، بناء على أوامر الرب».

وتعلمنا بهذا المثل بشكل واضح جـداً أن عبيد الرب الذين يعيشـون هنا على الأرض وفقـاً لمفاهيم الانجيل، لـن يكونوا مطلقاً في عـوز، كما قال النبي: «لقـد كنت صغيراً، وأنا اليوم شيخـاً، ومع ذلك لم أشهد قط أنه تم التخلي عن المستقيمين وهجرانهم»، وقـال ثانية: «الرب لن يقصم حياة المستقيم بالجوع» ولسوف «يعطي طعاماً للذين يخشوه»، وبناء عليه لم نقـرأ في أي مكان بأن الرب قـد سمح بإهلاك نخبتـه بالجوع، لأنه عندما جرى سجن الشهداء بغـاية اجاعتهم حتى الموت، أرسل ملائكته ليجلبـوا لهم طعامـاً من السماء، حسبما قـرأنا عن ذلك في عـدد كبير من الأماكن، فقد أطعم الأنبياء بـوساطة الطيور الجوارح، وبشكل اعجازي انعش هؤلاء الآباء المقدسين من النساك.

عـلاوة على هذا نقـرأ عن أبينا العظيم جـداً، القـديس دومينيك، أنه حـدث لمرتين أن كـان الرهبـان بحـاجـة إلى الخبـز، فأرسل لهم من قبل الرب بوساطة الملائكة، وهو إذا لم يرسل حتى خبزا حقيقياً ومرئياً، متن نخبتـه بقـوة غير مرئيـة، حسبما قـرأنا في سيرة «حيـاة القديسـة كـاترين السيناوية»، وقد أذن لنا برؤية الشيء نفسه في أيامنا الحالية بأعيننا، لأنني

أعـرف ناسكاً اسمـه نيقولا، كـان يسكن في الجبـال وحيداً فـوق بحيرة Lucerne ، وقـد عاش في العشرين سنة الأخيرة من دون طعـام أو شراب، وهو أمـر عجيب أن تسمعـه، وكنت قـد رأيت هذا الرجل في سنة ١٤٧٥.

ويوجد في حقل حبقـوق المتقدم الذكر حصـا مستدير وأبيض اللون، مثل حبـات الفاصـوليـاء البيضـاء، وحول هذه الحبـوب الحصـوية التي رأيناها هناك حكاية من أنواع حكايات الأطفال، مع ذلك أنا عازم على روايتها، مثلما تعـاملت مع أشياء أخرى من النوع نفسـه: فقد حكوا بأن الرب يسـوع كـان ماراً في أحـد الأيام بهذا الطريق، وكـان هناك فـلاح يزرع فـاصوليـاء، فسأله الرب عما كـان يزرع، فأجابه الفـلاح ساخـراً: «إنني أزرع حجـارة» فقـال له الرب جـوابـاً على هذا: «ليكن ذلك كما قلت أنت»، فكان أن تحولت على الفـور جميع حبـات الفـاصـوليـاء إلى حصـا، إنما احتفظت بلونها وشكلها القـديم، وقد جمعنا بعضـا من هذه الحصا بسبب تعجبنا ودهشتنا.

وعندمـا كنـت فـوق تلك البقعـة، تـذكـرت حقـلاً على مقـربة من جيسلنجن Gislingen، فيـه مـوجـود أعـداد لاتحصى من الحصـا من الشكل نفسه، ويتحـدث الأطفال هناك ويحكون الحكاية نفسهـا حولهم، ويوجد على مقربة من هذا الحقل بركة وقد خمّن بعض الحجاج أنها بركة يوسف، التـي وضع فيهـا من قبـل إخـوته (التكويـن:٣٧)، لكن هذا لايتوافـق بشكل جيد مع الكتـابات المقدسة، التـي قالت بأن البركـة قد كـانت في القفـار، ولايوجـد هنا مكان اسمـه شكيم أو دوثيم، ولهذا غـادرنا المكان بسرعـة أكبر مما اعتـدنا أن نفعل وتوجب أن نفعل، ومع ذلك أشفقنا على يوسـف المبـارك، وتذكـرنا كم مـن الشرور تنجم عن الحسد، حيث رأينا أنه لايسمح بمحبة تقدم أي انسان وازدهاره، مع أنه قد يكون أخـاً للحاسد، وعلى هذا أحسن سقـراط القول: «يخضع الحظ

السعيد دوماً للحسد، والشقاء وحده هو الذي لايحسد».

وبعدما تابعنا سيرنا وتجاوزنا الحقل والبركة، كان هناك جدار قديم مرتفع، ممتد نحو الطريق وداخل فيه، ولقد قالوا: كان هناك بيت الأب يعقوب، حيث سكن فيه لبعض الوقت،وقالوا أيضاً بأن هذا الجدار جزء من خرائب بيت هذا الأب، ومهما يكن من أمر، حدث مرة، عندما كنت ماراً بهذا المكان أن تسلقت على هذا الجدار، واكتشفت بدون شك، أنه بني من أجل حمل مجرى مائي، عليه جرت المياه فيما مضى نازلة إلى القدس، فضلاً عن هذا، لو أن هذا كان بيت يعقوب، أية حاجة دفعت زوجته راحيل إلى حمل ولدها على الطريق، المجاور لهذا البيت؟.

قبر راحيل الذي بناه البطريرك يعقوب من أجلها

وتابعنا سيرنا، فوصلنا إلى مكان سماه جيروم في كتابه «حول مسافات الأماكن» قبراتا Chobrata حيث كان هناك قبر راحيل زوجة يعقوب، التي كانت هنا على الطريق العام، راغبة بالذهاب إلى بيت لحم مع يعقوب، وكانت حاملة ببنيامين، فجاءها المخاض، وتوفيت من خلال مصاعب الولادة، ويقوم هنا عمود قبر راحيل حتى هذا اليوم، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين (سفر التكوين: ٣٥/ ١٩ــ ٢٠).

ويقول اليهود بأن سبب عدم حمل يعقوب لزوجته المحبوبة إلى حبرون، لدفنها في ضريح آبائه، والقيام بدفنها في الطريق العام، هو أنه عرفهم عن طريق روح التنبؤ وعرف ما الذي يفترض حدوثه فيمابعد، لأن بعدما دمر نبوخذ نصر المدينة، وأحرق الهيكل، وكان يقتاد شعب الرب أسيراً نحو فارس على هذا الطريق، وأنه لدى مروره بهذا الضريح، رفعت راحيل — بمعجزة ربانية — صوتها من داخل

الضريح، وخاطبت الأعداء، وطلبت الرحمة الربانية، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الحادي والثلاثين من سفر ارميا: «صوت سمع في الرامة» الخ.

هذا، ورأى اللاهوتيون الكاثوليك وبينوا أن بكاء راحيل جاء من أجل قتل الأبرياء (متى:١)، ووفقا لما قاله جيروم قيل لراحيل أم أطفال بيت لحم وأطفال تلك المنطقة، مع أنهم كانوا أبناء ليه، لكنهم عرفوا باسم أبناء راحيل، لأن قبر راحيل هناك، وفوق هذا الضريح قد أقيم بشكل مهيب عمود، وهذا العمود هو هرم مرتفع، قد بني من حجارة بيضاء مربعة ومصقولة، وله مثل شكل البيعة الجديد القائمة في وسط المقبرة الجديدة في أولم، والتي اسمها مقبرة جميع القديسين، والفارق هو أن قبر راحيل قد بني كله من الحجارة، وليس فيه للخشب مكان خاص.

وأمام هذا القبر أقام يعقوب اثنتي عشرة حجرة، وفقاً لعدد أبنائه الاثني عشر، وعمل المسلمون إلى جانب البيعة جرناً لوضع ماء الشرب فيه، وقد قرأنا عن هذا القبر في سفر صموئيل الأول، حيث جاء الحديث إلينا بأن صموئيل وافق على أن يكون شاؤول ملكاً، من خلال علامة هي أنه وجد على مقربة من قبر راحيل رجلين يقفزان فوق خنادق عميقة، وهذا المكان موضع تقدير لدى كل من المسلمين واليهود والمسيحيين، وقد تلونا صلواتنا هناك، وحصلنا على غفرانات(+)، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى مكان هو الآن قاحل، لكنه كان من قبل جميلاً، لأنه هناك كان سليمان قد زرع احدى حدائقه، وسيأتي وصف هذه الحدائق فيما بعد وهنا رأينا بيت لحم وحييناها.

ووقفنا على طرف الحديقة المتقدمة الذكر، ومن هناك رأينا عن بعد، يقدر بنصف ميل ألماني، بيت لحم، التي هي مدينة داوود والمسيح، وكانت كنيسة العذراءالمباركة، التي فيها موضع الميلاد، مرتفعة فوق كل

شيء يمكن رؤيتـه، وعندما رأيناهـذه المدينة المجيدة، ترجلنا على الفـور من على ظهـور حميرنا، وحيينا بكل بهجـة المدينة، مع صلوات قلبيـة، ورددنا مثل هذه الكلمات: «حييت يا افراتا، أيتها المنطقة الأعظم خصباً، والتي ثمرتك هي الرب، حييت يـا بيت لحم، يا بيت الخبز، والتي فيك مخبأ ذلك الخبز الذي نزل من السماء، فيك تنبأ ميخا مرة بأنك لن تكوني الصغـرى بين الامـارات بل الكبرى، ذلك أنه منك سـوف يأتي الذي سوف يحكم العالم، ففيك ولد من أم عذراء الأمير — قبل أيام الشيطان — الذي أنجب بـوسـاطة الرب الأب، وفيك سكـن ولد داوود حتى حملت العذراء بطفل، يابيت لحم لا أعرف بأي مديح يمكن أن أطريك، فأنت احتضنـت في داخل زريبـة فقيرة الذي لم تستطـع السمـوات أن تحتضنه، حييت يا بيت لحم، فأنت قد صرت مـوضع إعجاب في الشرق والغـرب سـواء، ومثلما جـاءت الحكمـة إليـك فيما مضى من الشرق بوساطة الحكماء (المجـوس) مثل ذلك قدم إليك الآن حجـاج أتقياء من الغرب».

ولدى فـراغنا من أعمال السـلام والتحيـة عـاودنا ركـوب حميرنا، وببهجـة عـارمـة وبسرعـة بادرنـا نسير على طريقنا إلى بيت لحم، وبكى بعضنا سروراً وخشوعاً، وغنى بعضنا فـرحاً الترانيم المسيحية المشهورة: وكـذلك« Puer natis in Bethlehem, unde gaudet Je- rusalem» وكـذلك« Resonet in loudibus, Cum Jucundis plausibus« Indulci Jubilo nu signent und sind Fro» الخ.

وغنينا جميعـاً وبشكل جماعي الترنيمـة الملائكيـة «المجـد للرب في الأعـالي» الخ، ومـع أن أدلاءنا من السـادة المغـاربة المسلمين لم يتأثروا بسرورنا، غير أنهم أصغوا بصمت، وقد بـدوا بالنسبة لي أكثر سروراً مما اعتـادوا أن يكونوه، وأنا لم أشـاهد حجـاجـاً على هذا الطريق بمثل هذا

السرور، علماً بأنني سافرت عليه شخصياً ست مرات، وكنت دوماً في حالة بهجةغير معبر عنها.

ويوجد الآن بيننا وبين بيت لحم، واد عميق وكبير، وقد فصل بيننا وبينها، ولم نكن —على كل حال— بحاجة للنزول إلى الوادي، بل سرنا بفرح حول رأس الوادي، ومشينا على طول الحافة هناك حتى بيت لحم، وسرنا كذلك على جرف مرتفع للتلال، وعلى شرف تقوم المدينة المباركة عليه، وشاهدنا في وسط الوادي المكان الذي أعلن فيه للرعاة عن ميلاد المخلص، وتحدثنا أقاصيص الملوك الثلاثة، أنه عندما كان الحكماء (المجوس) مع حشودهم يعبرون هذا الوادي، من هذا المكان، بقصد الدخول إلى بيت لحم، رأى وقتها الرعاة النجم غير المعتاد، وشاهدوا الحشد الذي لحق بهم، لذلك بادروا مسرعين إلى تسلق الرابية ليروا ما الذي كان يحدث، وإلى أين كانوا ذاهبين.

وعندما عرفوا أن هدفهم الطفل الحديث الولادة، شرعوا في إخبارهم بما حدث لهم في تلك الليلة، عندما ولد الطفل، وكيف أنهم علموا بوساطة رسول من السموات، أن الطفل لابد من أن يكون مخلص العالم، وعندما سمع الحكماء بهذا تولاهم السرور بلا حدود، لأنهم وجدوا شهوداً آخرين إلى جانب النجم، وفتحوا محافظ نقودهم، وأعطوا أعطيات ثمينة إلى الرعاة الفقراء من أجل أخبارهم الطيبة، ولهذا وقفنا في هذا المكان وقدمنا الشكر للرب من أجل أعماله الرائعة، وتمنينا السرور إلى أولئك الملوك الأتقياء، وهكذا تابعنا سفرنا مع كثير من السرور.

الاضطراب الذي عانى الحجاج منه على أيدي البداة أو المدينيين قبل دخولهم إلى بيت لحم

في هذا العالم ليس هناك سرور — حتى السرور الروحي — لايمكن

إلاّ تعكيره، فهو وإن بدا لبعض الوقت صافياً غير مشوب، تراه مباشرة قد انقلب على الفور بوساطة أحداث مضادة، وقد برهنا على صحة هذا الأمر خلال رحلتنا هذه، ذلك أننا انطلقنا من القدس بسرور عارم، وكنا كلما اقتربنا من بيت لحم كلما ازداد سرورنا، كما بينا أعلاه، لكن الذي حدث بقضاء من الرب أن سرورنا انقطع ولم يكتمل بتعرضنا لخوف شديد، فلدى اقترابنا من المدينة المقدسة، فجأة، قدم نحونا حشد من البداة، وكانوا قد خرجوا من بيت لحم، ولدى رؤيتهم ارتبك أدلاؤنا وارتعبوا، وشعرنا نحن أيضاً بالخطر، ومع ذلك تجمعنا نحن الحجاج مع بعضنا في كتلة واحدة، وبعثنا بأدلائنا المسلمين وبقبطاني غليونينا فساروا أمامنا، وسرنا وفق وضعنا الحالي، وتابعنا على طريقنا، ونحن مليئين بالخوف، لقد سرنا لمواجهة قطاع الطرق الذين تحركوا ضدنا، لأنه لا الزمان ولا المكان سمحا بالفرار والابتعاد، وقد تصرفنا على هذه الصورة حتى لانعطي ظهورنا لهؤلاء اللصوص، وعندما وصلنا إليهم، لم يعد بامكان قادتنا متابعة سيرهم لأنهم أوقفوهم، واستولوا على الطريق، ولذلك لم يعد بامكان أي انسان المرور والعبور، وهناك وقفنا لمدة تجاوزت الساعة، لأن أدلاءنا مع القبطانيين انشغلوا بعمل اتفاق معهم، وتجادلوا معهم طويلاً وبصوت مرتفع، ومع ذلك لم يسبب أيا منهم الأذى إلى الآخر بأي شكل من الأشكال، لأن المشارقة لايتجهون إلى العنف الشخصي مباشرة، مالم يكرهوا على الرد على العنف بالعنف، ولم يكن هؤلاء البداة أعداء لنا، بل كانوا فقط يستخرجون بعض المال منا، الذي قالوا بأنه حقهم الشرعي، حسبما سنرى كثيراً فيما بعد، ولو أننا زحفنا بقوة ضدهم وعلى الرغم من إرادتهم لتركونا في الحقيقة نمر، لأنهم رأوا أننا كنا أكثر عدداً منهم، لكنهم وقتها كانوا سوف يستدعون إليهم جميع رفاقهم، ومن ثم سوف يحاصروننا في بيت لحم، ويسوقوننا إلى مضائق شديدة، ولعلهم كانوا يرغبون وبسرور أن نشق طريقنا من خلالهم بالقوة، فوقتها سيمتلكون

تسويغاً أعظم للشكوى ضدنا، ومن ثم لن يكون وقتها بامكاننا فعل أي شيء ضدهم، هذا وإن كنا أكثر عدداً منهم، لكنهم كانوا مسلحين بالرماح، وبالسيوف وبالقسي، وكنا نحن غير مسلحين، باستثناء أدلائنا، الذين كانوا بالفعل مسلحين.

وبعد حديث طويل ومناقشات جرى الاتفاق على أننا إذا أردنا الدخول إلى بيت لحم، يتوجب علينا أن ندفع أربعاً وعشرين دوقية، وإذا لم نرغب بالدفع، يمكننا العودة إلى القدس، وهكذا فتحنا حافظات نقودنا، ودفعنا المال كله، حيث دفع كل انسان حصته، وتابعنا سيرنا على طريقنا، بينما بقي اللصوص في المكان نفسه يتقاسمون الغنيمة فيما بينهم.

وبعدما ابتعدنا مسافة طويلة عنهم، اندفع من المدينة حشد آخر من البداة، كانوا شركاء لهم، وقد حملوا على رتل الحجاج، ومروا من وسطنا مع كثير من الصراخ والشتائم، ودفعنا وشدنا، وإلقاء قبعات الحجاج من على رؤوسهم، وقد أزعجونا كثيراً بمزاحهم الخشن، وفي تلك الأجواء المضطربة حدث لي الحادث الخطر التالي: عندما كنت راكباً على ظهر حماري بين البقية، أقبل نحوي بدوي وساق وهو على فرسه ضدي راغباً في شق طريقه بيننا، مثلما فعل بقية رفاقه، ولكي يقوم الحجاج بفتح طريق له ليمر من بينهم، شرع رمحه وسدده مباشرة نحو وجهي، وبسبب اندفاعه وضغطه لم أكن قادراً على تجنب الوقوف في طريقه، كما أنني لم أستطع رمي نفسي من على ظهر حماري، وهو ما كنت راغباً بفعله، ولذلك كنت مرغماً مع كثير من الرعب والحذر على انتظار طعنته لي وهو حامل علي، وعندما وصل انتزع قبعتي من على رأسي بطعنة شديدة بسنان رمحه الحاد، ومرّ وتجاوزني وهو يضحك.

ولقد كنت مسروراً لأنني لم أجرح، وترجلت من على ظهر حماري وأنا حزين، وكان هدفي البحث عن قبعتي في الوسط الفوضوي، والذي

حدث على كل حال، أن واحداً من الحجاج التقط قبعتي وأعطاني إياها، وكنت راضياً تماماً أن ذلك البدوي كان يتقن تماماً فن لمس الأشياء، كما يريد، بسنان رمحه، لأنه لو أخطأ بتسديده سماكة اصبع واحد نحو الاسفل، لمرّ سنان رمحه من خلال جمجمتي، وكان هؤلاء الرجال بعضاً من الخدم الأوغاد للذين تولوا تغريمنا، وكانوا منطلقين بسرور لمقابلة سادتهم، ليشاركوهم بالفرح بالمال الذي تسلموه، وللسخرية منا.

دخول الحجاج إلى بيت لحم ودخولهم إلى كنيسة مهد المسيح

وعندما بتنا على مقربة من بيت لحم، وعلى بعد حوالي رمية سهم عن بابها، وصلنا إلى مكان كان فيه جب داوود، وقد عرف باسم جب داوود، لأن —كما قرأنا في سفر صموئيل الثاني: ٢٣/ ١٤—١٥— داوود قد رغب بالشرب منه، عندما كان متحصناً، وكان البئر مطوقاً بالأعداء، فقام ثلاثة من الرجال الأشداء من جيش داوود بشق طريقهم خلال المعسكر الفلسطيني، ونضحوا ماء من جب بيت لحم الذي كان قرب الباب، وحملوا الماء إلى داوود، الذي لم يشرب منه، بل صبه في سبيل الرب.

وهذا الجب هو قبو واسع وعميق وعريض، له في أعلاه وعلى جانبه ثلاث فتحات بعيدة احداهن عن الأخرى، من خلالهن يجري نضح الماء من بركة الجب، التي تحتوي على كثير من الماء الصافي، والصحي والبارد، وقد نضح بعضنا منه وشرب، ونظر — على كل حال— عامة الناس وسكان بيت لحم بقرف إلى هذا الماء، لأنه قبل أيام قليلة مضت قبل زيارتنا، كانت امرأة مسلمة تحاول نضح الماء، وكانت تفعل ذلك بدون انتباه، فوقعت من خلال فم الجب، فغرقت فيه وماتت، واستخرجت منه.

ووصلنا من ذلك الجب إلى طرف مدينة بيت لحم المباركة، لكننا لم

ندخل إليها، بل مررنا بجانبها باتجاه الشرق، وذلك من خلال كثير من الجدران المهدمة، ثم دخلنا إلى كنيسة العذراء المباركة، حيث تخلينا عن حميرنا وأعطيناهم إلى سائقيهم، ودخلنا إلى الكنيسة المقدسة، وسقطنا على وجوهنا، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، وعندما نهضنا من صلواتنا، كنا مندهشين كثيراً، وامتلأنا بالاعجاب نحو حجم الكنيسة وجمالها، ووجدنا في هذه الكنيسة بعض الباعة ممن كانوا معنا في كنيسة الضريح المقدس، وقد عرضوا علينا شموعاً للبيع، وشرينا شموعاً منهم، لأن الدنيا كانت مظلمة في الداخل وراء الأبواب، حيث كانت الشمس آخذة بالغياب.

الزيارة إلى الأماكن المقدسة وأولاً إلى مكان دراسة القديس جيروم وقصة ضريحه

وأعد الرهبان مسيرتنا وفق الطريقة التي تقدم وصفها في ص ٤٠١، و ص ٤٥٧، ذلك أننا كنا قد جلبنا معنا جميع زينتنا وأثاثنا على ظهور الحمير من دير جبل صهيون إلى بيت لحم، وعندما أخذ كل انسان محله ووقف فيه، حمل الجميع مثل بعضهم شموعاً مشتعلة في أيديهم، وبدأ رئيس الجوقة يغني ترنيمة اعتراف هي: « Iste confessor Domini» الخ، وقمنا ونحن نغني هذه الترنيمة بالخروج من الكنيسة إلى الدير، وذلك على جهة اليسار، وقد عبرنا خلال باب إلى الدير، ونزلنا تسع عشرة درجة، إلى بيعة جميلة ذات سقف معقود، ففي هذه الغرفة كان مقر دراسة القديس جيروم، حيث فيها بذل جهوداً كبيرة، فهنا تولى ترجمة التوراة كلها من العبرية والكلدانية إلى اللاتينية، وجاءت الترجمة إلى كل من اللغة الكلاسيكية، والعامية، فهو قد ذكر ذلك في رسالته إلى صفر ونيوس حول نشرة جديدة، وفي رسالته حول مسائل عبرية، وهنا أيضاً كتب مقدماته، ورسائله، وشروحه، وتعليقاته، وهنا أيضاً قام بالتصحيح، والتوزيع، والتصنيف للمزامير، وذلك حسبما هي مستخدمة

في هذه الأيام من قبل الكنيسة الرومانية، وهو الذي أملى قصيدة: «المجد للأب، وللابن» الخ.

وقد التحق به شخصياً عدد من التلاميذ تولى تعليمهم، وفوق هذا كله حافظ على عذريته بشكل دائم، وقد جعل أسداً متوحشاً مدجناً ولطيفاً، وقد قاد حرباً بدون توقف ضد الهراطقة ورجال الدين الأشرار، والرهبان الفاسدين، وكان دوماً مشغولاً بالعمل، وكان ينهك نفسه في زنزانته حتى أنه لدى نومه كان يجر نفسه على فراشه بالقوة جراً، وذلك بأن يمسك بيديه حبلاً كان قد علقه من السقف فوقه، كما أن مارس واجباته الديرية على أحسن ما يرام، واستمر يجهد نفسه بهذه الأعمال لمدة خمس وخمسين سنة وستة أشهر. وقد صلينا في هذا المكان وحصلنا على غفرانات مطلقة(++) مع تقديم للشكر.

ضريح القديس جيروم الذي هو فارغ الآن

وهناك بيعة أخرى مجاورة لهذه البيعة، وليست بعيدة عن مزود الرب، حيث اختار موضع دفنه، وذلك كما جاءنا الخبر في رسالة يوسبيوس، فهنا، عندما كان القديس جيروم مايزال حياً، أمر بعمل ضريحه، وفيه بعد وفاة ذلك الأب المجيد للكنيسة، مدد جسده، مبجلاً بسبب آية اعجازية هو عملها، وهذا الضريح هو كامل في هذه الأيام، لكنه فارغ، وهو مزين بألواح من الرخام، فقد جرى نقل جسده من بيت لحم إلى القسطنطينية، ومن هناك إلى روما، حيث يرقد في هذه الأيام في قبر فاخر في كنيسة القديسة مريم العظيمة، وبناء عليه بعد تلاوتنا لصلواتنا في هذا المكان حصلنا على غفرانات(+).

وقد قرأنا في رسالة القديس أوغسطين إلى القديس سيرل Cyril المقدسي، أنه صدوراً عن تبجيله للقديس جيروم، قام بعبور البحر علّه

يرى هذا المكان، ولم يكن ممكناً أخذ الجسد من القبر، وكانوا كلما أخرجوه منه، وجدوه في اليوم التالي فيه، وظل الحال كذلك حتى جرى الاستيلاء على القدس من قبل الكفار، فوقتها سمح لنفسه بالنقل إلى روما، فهذا ما قرأناه في الرسالة الأخيرة للقديس سيرل.

ضريح القديس يوسبيوس تلميذ القديس جيروم

وبجوار هذا الضريح هناك قبو آخر، مدفون فيه القديس يوسبيوس، تلميذ جيروم المبارك، وكان يوسبيوس هذا من أهالي كريمونا Cre-mona ، وقد نصّب تلميذاً للقديس جيروم، وكان رجلاً عظيم الفصاحة، وكان بين ما كتبه، رواية عن حياة، ومعجزات، وموت استاذة، باسلوب قصصي فصيح، وقد وجه ذلك إلى داماسوس Dam-asus أسقف أوبورتو Oporto(البابا فورموسوس فيمابعد) وكذلك ثيودوسيوس الذي كان الشيخ الروماني المسيحي الوحيد، ووضح التواضع العظيم لهذا الرجل من خلال رسالته التي كتبها إلى الأسقف المتقدم الذكر.

ولهذا تمددنا بأنفسنا على الأرض أمام قبر هذا القديس، وتوسلنا إليه من أجل الحماية، وحصلنا على غفرانات(+)، وكان قد تلقى انذاراً باقتراب موته، من قبل القديس جيروم، وكان ذلك عن طريق الرؤيا، وأعطاه أوامر بوجوب أن يكون دفنه على مقربة من القديس جيروم، وفي الوقت الذي مات فيه، مات هناك أيضاً ثلاثة أخر، كانوا قد أقيموا من الموت من قبل القديس جيروم، ومن هنا نستخرج برهاناً حول دمار احدى الهرطقات، وذلك كما قرأنا في رسالة القديس سيرل، أسقف القدس إلى القديس أوغسطين، حيث قيل هناك كثيراً من المدح للقديس يوسبيوس.

- ٤٩٠٥ -

مكان ختان الرب حيث قيل بأنه ختن في اليوم الثامن وأعطي اسم يسوع

وبعد هذا صعدنا ثانية، وخرجنا من القبو، ودخلنا مجدداً إلى الكنيسة، وعبرنا من وسطها، وتوجهنا إلى الجانب الأيمن من الجانب المقابل له هناك،وصعدنا إلى بيعة، متصلة بذلك الجانب نفسه من السدة، وغنينا بشكل معلن هناك أمام المذبح ترانيمنا وأغانينا التجاوبية من أجل ختان الرب، وغنينا أيضاً salve Regina وهي ترنيمة للعذراء المباركة، وانحنينا بأنفسنا نحو الأسفل، وقبلنا المكان الموجود تحت المذبح، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، ففي هذا المكان المقدس، كان قد جرى ختان الرب يسوع، في اليوم الثامن لولادته، لأنه كان من غير الممكن ختانه في الكهف الذي كان قد ولد فيه، والذي رقدت فيه العذراء بعد الميلاد، بسبب الظلام، يضاف إلى هذا لعل المطهّر لم يرتض برائحة الاسطبل، ولذلك أخرجوا الطفل يسوع، وختنوه هنا.

وقد تبرهن على قداسة هذا المكان من خلال الرائحة الطيبة التي فاحت منه وانتشرت في كل مكان، لأنه عندما ينحني الانسان نحو الأسفل ليقبل المكان، تصدر نحوه رائحة طيبة غير اعتيادية، تنعشه لدى شمه لها، وتجعله يقبل على تعبد هذا المكان بقداسة غير محدودة، فقد رأينا هناك أولاً ينابيع عميقة جداً قد تفجرت وانفتحت، وعمت الطهارة فوق الأرض كلها، ليس بوساطة مياه تغرقها، بل بوساطة دم يجعلها حيه، لأنه عندما جاء طوفان نوح، مات كل ماغطته المياه وهلك، ومقابل هذا إن كل ماغطاه طوفان دم المسيح، قد منح حياة.

وتباهينا نحن الحجاج في هذا المكان، بأننا أكملنا الآن زيارة جميع الأماكن، وقبلنا جميع الأماكن التي قرأنا بأن الرب يسوع قد سفح فيها دمه الثمين جداً، أي أن تقول(١) إنه هنا بالختان تفجر أول الينابيع

العميقة جداً، والمقصود بهذا أن أوردة المسيح انفجرت وانفتحت، و(٢) ثم تبع ذلك في مكان آلام المسيح على جبل الزيتون، و (٣) تلا ذلك في المكان الذي جلد فيه وتوّج بتاج من شوك، و (٤) في المكان الذي وقع فيه أثناء حمله للصليب، و (٥) في المكان الذي صلب فيه، و (٦) في المكان الذي طعن فيه طرفه.

علاوة على هذا، إن هذا المكان مبجل، بسبب أن اسم يسوع الجميل، قد أعطي هنا للمرة الأولى من أجل خلاص العالم، لأنه لايوجد اسم آخر على الأرض يمكن أن يتم فيه خلاصنا غير اسم يسوع، فهنا تدفق الطيب وانتشرت روائحه، ولهذا قيل عن العروس في نشيد انشاد سليمان (١/ ٣): «اسمك دهن مهراق».

المكان الذي أعدّ الحكماء فيه أنفسهم بالملابس والهدايا

وعندما فرغنا من تقديم شكرنا في مكان الختان، بدأ رئيس الجوقة يغني ترنيمة « Hostis Herodes Impie » وقد تحلقنا حوله نغني على جهة اليسار من الكنيسة، وصعدنا ثانية إلى جانب السدة، ودخلنا إلى بيعة مجاورة للسدة، وهذه البيعة قائمة فوق المكان الذي ترجل عليه الحكماء (المجوس) من على ظهور جمالهم، ونوقهم الوحيدة السنام، وكان ذلك أمام النزل الذي وقف النجم فوقه، وهنا أخرجوا هداياهم من جعبهم، ونظموها وجعلوها جاهزة لتقديمها، وزينوا أنفسهم بأثمن الملابس، حتى يظهروا بكل أبهة وفخامة أمام الملك الحديث الولادة، وبناء عليه جثونا في هذا المكان، وحصلنا على غفرانات، ويوجد إلى جانب هذا المكان بئر، منه نضح خدم الحكماء الماء من أجل دوابهم، ومثل هذا ذهبنا نحن إليه، وتطلعنا نحو أسفله، وعلى هذا، تجهزنا برفقة الملوك المقدسين، للدخول إلى النزل بسرور وبالخشوع المناسب.

كهف ميلاد ربنا يسوع المسيح ومدخل الحجاج إليه وقداسة المكان

افرحوا الآن أيها الحجاج، وابتهجوا اخواني المحبوبين، لأنكم سوف ترون الآن مباشرة أعظم الأماكن قداسة وأحلاها، الذي هو موضع اجلال وتعبد من قبل المؤمنين وغير المؤمنين سواء، وأعلن لكم وأقول بأن عدداً كبيراً من الملوك، والأنبياء، لابل عدداً كبيراً من: البابوات، والأساقفة، والكرادلة، والأباطرة، والدوقات، والأعيان من النبلاء، والكهنة، والعلمانيين، قد رغبوا وتشوقوا لرؤية الذي رأيتموه، ولم يروه.

وعندما كنا الآن واقفين إلى جانب المذبح، والبئر المتقدم الذكر، شرع قائد الجوقة يغني ترنيمة مسيحية فرحة هي: «Christe , redemptor omuium, ex patre patris unice » الخ، وقد غنينا هذه الترنيمة، وفقاً للحن الذي يغنى به في طائفتنا، أي أنه في أي مكان وقعت فيه كلمة «يوم» في الترنيمة، نحن غنيناها «مكان»، ووفقاً لذلك عندما وصلنا إلى كلمات: «هذا اليوم الحالي يحمل شهادة» غنينا نحن: «هذا المكان الحالي يحمل شهادة»، وبدلاً مما جاء في الترنيمة قوله في كلمات: «لأن هذا هو يوم ولادتك»، قلنا نحن «لأن هذا مكان ولادتك»، وهكذا دواليك.

وهكذا بعدما فرغنا من غناء الأغنية، غادرنا المكان المتقدم الذكر، واستدرنا نحو جدار السدة، وعبرنا من خلال ممر مزين برخام مصقول ذي لون أبيض نقي جداً، ونزلنا بوساطة ست عشرة درجة تحت السدة، إلى كهف كان بذاته مظلماً، لكنه كان مضاء بكثير من المصابيح، وفوق الكهف تمددت الحجرة التي تحتها ولد مخلص العالم، يسوع المسيح، ولدى فراغنا من صلوات الشكر المحددة في كتب المسيرة، صعدنا واحداً بعد الآخر، إلى المذبح الموجود عند رأس القبو، فانحنينا بوجوهنا

نحـو الأرض، وقبلنا مـا تحت المذبح، وهـو المكان الأكثـر حـلاوة لأنه مكان ميلاد المسيح، ومدد في ذلك المكان لوح من الرخام الأبيض، وقد حفـر فيـه بشكل بارع صـورة الشمس، لأن من هنـا أشرقت شمس الاستقـامة، ومن هنـا نشرت العذراء الطاهرة ضـوءاً أبدياً، وهنا أيضـاً انتشر الضـوء الجديد لمجدها فعم أعين عقـولنا من خلال أسرار تجسيـد الكلمـة، ولذلك قمنا بكل خشوع ومـع دموع الفـرح بالانحناء بأنفسنا باتجاه الأرض أمـام تلك الحجـرة، وتعبـدناها، وهي تلك الحجـرة التي قيل لنا بأن الطفل الرائع قد رقد عليها بعد خروجه من رحم العذراء.

وفي الحقيقـة لقد تبرهنت صحـة هذا، بعلامـة واضحة، هي الرائحـة الرائعة والمنعشة التي يشعـر بها كل من يطبع قبله على الحجرة، والرائحة الطيبة التي تفـوح من ذلك المكان وتصل إلى مشاعـرنا، هي شيء رباني، وهي فوق أي شيء آخـر،وينظر الانسان إلى المكان فيراه فارغـاً تماماً من أي شيء ينتج الرائحة الطيبة، ومع ذلك نجد رائحة المكان يفوح شذاها وكأنه كان مخزن عطور، وواضح أن كثافـة الرائحة أعظم من أي عملية تخليق له مهما كـانت قـوية، هذا وإنني لا أقـول هذا إشـارة إلى معانيهـا السرية، بل إنني أتكلم عن حقيقة واضحة، إنني أعلن بأنني قد شعرت بها في كل مـرة انحنيت بها بنفسي لتقبيل تلك الحجـرة المقـدسـة، ثم إن هذا الشعور ليس خاصاً بأي انسان محدد، بل إن هذه نعمة أضفيت على كل من يقبل المكان، حتى المسلمون أنفسهم تحققوا من ذلك، وبناء عليه نحن على يقين أن ما جـاء في قرآن محمـد (صلى الله عليه وسلم) من أن الميلاد المقدس قد حـدث في بقعة منعزلة، داخل بستان وتحت نخلة، هو غير صحيح، وذلك حسبما جـاء الخبر لدى المعلم نيقـولادي كوسـا، في ترجمتـه للقرآن: الكتـاب الثـالث — الفصل السابع عشر، والأمـر ليس مقصوراً على هذه الأمـاكن، بل يشمل جميع الأماكن التي نقـرأ فيها بأن الرب يسـوع قـد ظهـر عاريـاً، متمتعاً بـامتيازه باصـدار رائحـة طيبـة،

ولايحتاج أي انسان أن يعجب حول هذا، بعد أن قرأنا بأن الشيء نفسه قد وقع حيث صدرت روائح طيبة من قبور وأضرحة القديسين، وبما أننا انجذبنا بتلك الرائحة الطيبة، بقينا هناك لمدة طويلة نقبل الحجرة المقدسة، وقد حصلنا على غفرانات مطلقة(++).

** ** **

مزود الرب: ماهو، وما الذي كانه

وبعدما فرغنا من ابداء احترامنا نحو مكان ولادة الرب، استدرنا بأنفسنا نحو المزود الذي هو على بعد حوالي سبع خطوات عن المكان المتقدم الذكر، وعندما وصلنا إلى هذا المزود، انحنينا بأنفسنا فيه بخشوع عظيم ، وقبلناه، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، وانتعشنا برائحة طيبة، مثل تلك التي أتينا على ذكرها، ولاينبغي أن نعجب نحو هذا، بما أن زهرة البلسم قد وضعت في هذا المعلف، لأن العذراء مريم المباركة جداً، قد لفت الطفل بقماط، ومددته في المعلف، لأنه لم يكن هناك مكان في النزل، وهنا وجد الرعاة الطفل، بعدما قادهم الملاك إلى هناك، وهذا المعلف قائم تحت صخرة ناتئة، حيث قال الحجاج القدماء بأنهم قد رأوا حلقاتاً حديدية، وأوتاداً، إليها كانت الدواب تربط، فعندما تمدد المسيح هناك كان مربوطاً ثوراً وأتانا، قد عرفا ربهما فتعبداه، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الأول من سفر اشعيا، وكان الناس يرون في قديم الأزمان الحجرة التي وضعتها العذراء الأم تحت رأس ابنها الصغير، لأنها لم تجد وسادة أو أي شيء من هذا القبيل، وقد غطت الحجرة بالقش، ولذلك تغني الكنيسة: «لقد تحمل الرقود في القش، ولم يكره المعلف ويتأباه» الخ، وكان معلف الرب من الصخر، وجرى اقتطاعه من الصخرة نفسها التي كانت ناتئة ومعلقة فوقه، وذلك مثل أحوال المعالف وأشكالها في تلك الديار حتى هذا اليوم.

هذا وأنا لم أفهم الكلام المتداول من أن القديسة هيلانة، قد أخذت معلفاً خشبياً من هذا المكان ونقلته إلى القسطنطينية، وأنه نقل من هناك إلى كنيسة اللاتيران في روما، مالم نقل بأن يوسف ربما عمل معلفاً خشبياً، ووضعه فوق المعلف الحجري، وفي هذه الحالة على الانسان أن يقول — كما يفعل كثيرون — بأن يوسف قد جلب الثور والاتان إلى ذلك المكان، معه من الناصرة.

والآن، إن المعلف القائم في هذه الأيام في ذلك المكان، هو من الرخام، ومعمول من ألواح بيضاء مصقولة بشكل رفيع جداً، وتغطي هذه الألواح المكان الحقيقي لمعلف الرب، وهي مزينة بنقوش معقدة الشكل، وهو أمر تأسف من أجله خريسوستوم Chrysos tom، الذي قال: «آه كم أتمنى أن يسمح لي بمشاهدة المعلف الذي فيه تمدد الرب، وفي هذه الأيام، بات الأمر علينا أن نبدي احترامنا ليس إلى الطين الذي أخذ بعيداً، بل إلى فضة أقيمت مكانه، والذي بالنسبة لي كان ما ألقي به وجزى الخلاص منه هو ثميناً أكثر، لأن الفضة والذهب موضع اعجاب الأمم، لكن المؤمنين بالمسيحية والأتقياء، موضع اعجابهم المعلف الطيني، لأن الذي ولد في ذلك المعلف كان يزدري الفضة والذهب، وأنا لا ألوم الذين فعلوا هذا لابداء التكريم له والاحترام، كما أنني لا ألوم الذين صنعوا آنية من الذهب والفضة من أجل الاستخدام في الهيكل، لكنني أنا معجب بالرب، خالق هذا العالم، الذي لم يلد وسط الذهب والفضة، بل في الطين».

هذا بالنسبة لخريسوستوم، لكن في الحقيقة لاتصنع المعالف في تلك الديار إلاّ من الحجارة أو من الطين، وليس من ألواح من الخشب أو من جذوع الأشجار، وطول هذا المعلف الحديث أربعة أشبار، وأقل من ثلاثة أشبار بالعرض، ولوح الرخام المصقول الذي يواجه الذي يركع أمام المعلف، هو مصقول بشكل عجيب جداً، ويشبه المرآة، وكانت

نتيجة ذلك الملاحظة التالية للوضع، هي أنك إذا ما نظرت بحرص وبدقة نحو اللوح، تظهر لك صورة رجل عجوز ملتحي، وهو راقد على ظهره فوق حصير، بثياب راهب ميت، وإلى جانبه صورة أسد، وهذه الصورة ليست نتاج فن أو عمل، بل نتاج الصقل البسيط وحده، وذلك مثلما نرى، عندما تصنع المناضد من خشب فيه عقد واضحة ففي بعض الأحيان، بعدما يقومون بالتنعيم والصقل تظهر في هذه المناضد أشكال متنوعة من دون تصميم من قبل العامل، وبناء عليه مثل هذا وقع هنا.

وعلى كل حال، هم يقولون، بأن هذه الصورة قد صنعت بوساطة ارادة ربانية، بسبب القداسة السامية للقديس جيروم المجيد، ولاتشاهد هذه الصورة من قبل الجميع، بل فقط من قبل الذين جرى اختيارهم، والذين يعرفونها، فالذي لايعرفها لن يكون قادراً على مشاهدتها أبداً، وهكذا عندما رأيتها للمرة الأولى، ظننت أن الراهب الذي كان يريني إياها، كان يمزح، عندما قال بأنه رأى صورة القديس جيروم في الحجرة، ولم أستطع أن أراها بنفسي ، حتى أشار الراهب إليها باصبعه، ووقتها رأيتها بوضوح، تماماً كما ظهرت بكل لطف، ونقرأ في رسالة سيرل إلى أوغسطين حول المعجزات التي صنعت من قبل القديس جيروم، أنه كان في الأزمان الخالية صورة منقوشة للقديس جيروم في الكنيسة على جبل صهيون، وكانت مشهورة بسبب معجزات واضحة عملتها.

المكان الذي فيه جلست العذراء المباركة مع الطفل عندما جاء الحكماء الثلاثة مع هداياهم

وبعد ما رأينا المعلف المقدس، استدرنا مبتعدين عنه إلى المذبح القائم مقابيله، على مسافة خطوتين أو ثلاث خطوات، فهناك يوجد المكان

الذي فيه جلست مريم العذراء المباركة مع الطفل يسوع في حضنها، وذلك عندما جاء الملوك الثلاثة مع هداياهم، وقدموها لها، ومثلما فعل الملوك الثلاثة سقطنا نحن بأنفسنا في هذا المكان، على وجوهنا، وقدمنا أنفسنا للرب يسوع وحصلنا على غفرانات(+)، وكنا نغني ترنيمة الملوك الثلاثة، ونتلو الصلوات المناسبة.

وقرأنا من الاصحاح الثاني من انجيل القديس متى وصفاً للاحترام العظيم والتقوى التي قدم بها هؤلاء الملوك الثلاثة هداياهم، هذا ولايجوز لنا أن نعتقد أن هذه الهدايا — إلى جانب معانيها الخفية — كانت صغيرة في أنفسها، فقد أخبرنا الكتاب، أن أولهم مليكور، ملك العرب، قد قدم نقوداً من الذهب، وقطعة قماش ذهبية صغيرة، كلها يمكن الاطباق عليها باليد، وكانت هذه القطعة قد عملها الاسكندر الكبير من جميع أنواع الذهب التي حصل عليها من البلدان التي كانت تحت حكمه، وقبض عليها بيده، كإشارة للامبراطورية، وقد وصلت هذه القطعة بعد أيام الاسكندر إلى مملكة العربية، وحدث أنه عندما وضع مليكور قطعة القماش تلك في يد الطفل، تحولت إلى رماد مباشرة، لتبرهن أن مملكة المسيح ليست من هذا العالم الفاني (يوحنا:١٨/ ٣٦)، ويقال أيضاً بأن هذا الملك قد أهدى المسيح الثلاثين قطعة من الفضة، التي جرت خيانته من أجلها فيما بعد، كما أوضحنا من قبل، وجلب الثاني وهو بلتزار، ملك سبأ كثيراً من البخور، وجلب الثالث وهو كسبر، ملك أثيوبيا مرّاً ثميناً، ويقول بعضهم بأن كل واحد منهم قد قدم هذه الأشياء الثلاثة جميعاً.

البئر الذي سقط فيه نجم الحكماء بعد انتهاء مهمته

وبعدما فرغنا من تقديم تقديماتنا في موضع تقديم الهدايا، نزلنا في القبو حتى نهايته، وأتينا في الزاوية في الجانب الأيسر من القبو إلى حفرة صغيرة، يوجد تحتها بئر عميق، هذا ومن غير الممكن نضح الماء من هذا

البئر، بسبب الأبنية فوقه، وقد كان في أيام المسيح بئراً مفتوحاً، وقد قيل فيه سقط النجم، الذي بهدايته جاء الحكماء من الشرق، ويقال بأنه تحلل هناك إلى عناصره الأساسية وهذا هو رأي كثير من اللاهوتيين من أتباع العقيدة الكاثوليكية، وكذكرى له تركت هذه الحفرة.

وقد قال القديس غريغوري، أسقف تور، في كتابه عن المعجزات، الذي كتب في أيام البابا غريغوري المبارك: «يوجد في بيت لحم بركة كبيرة، منها يقال بأن العذراء مريم المجيدة قد نضحت ماء، وقد شهد الذين اعتادوا على النظر إليها بشكل دائم حدوث معجزة، وهي رؤية النجم الذي ظهر إلى الحكماء الثلاثة، لأن الأتقياء قد جاءوا ورقدوا على حافة هذه البركة، وغطوا رؤوسهم بأقمشة كتانية ثم إن الذي لديه فضائل حصل على امتياز رؤية النجم يمر عبر البركة، على وجه الماء من الجانب الأول إلى الجانب الآخر، وذلك وفق الطريقة نفسها التي اعتادت النجوم بها أن تعبر قبة السماء، وصحيح إن كثيرين ينظرون في البركة، فقط الذين لديهم عقل سليم يرون النجم، ولقد سمعت بأن عدداً كبيراً من الأشخاص أكدوا أنهم رأوه، وكان من المتأخرين دياكيموس Dyacimus.... قد أكد بأنه رآه خمس مرات متفرقة، ولكنه قد شوهد من قبل شخصين فقط.

القبو الثاني للعذراء المباركة والذي يعرف باسم حليبها

وليس بعيداً عن فتحة البئر هناك باب، مررنا من خلاله إلى قبو آخر، هو مبجل، من خلال سكنى مريم العذراء فيه، وتحدثنا الحكايات أنه بناء على أخبار الرعاة ووصول الملوك الثلاثة، قدم كثيرون من القدس، ودخلوا إلى القبو (الأكبر) وتعبدوا الطفل ومريم أمه، وعندما تفهمت مريم ما يحدث، خافت من هيرود، وهربت بشكل سري من القبو الخارجي، ودخلت إلى القبو الداخلي، وسكنت هناك، ولسرعتها تركت وراءها في القبو الخارجي، ممدداً في المعلف، قميصاً نسوياً طويلاً، كانت

تبعاً لعادات تلك البلاد قد ولدت فيه، ومثل ذلك تركت خلفها أقمشة القماط التي فيها جرى لف الطفل للمرة الأولى، وكذلك الحجرة التي وضعتها تحت رأسه، والقش الذي رقد فوقه، وبقيت هذه الأشياء جميعاً في المعلف، وبوساطة الحكمة الربانية بقيت محفوظة تماماً ودون أن تفسد حتى أيام القديسة هيلانه، التي عثرت عليهم، كما سنتحدث عن ذلك ونبينه فيما بعد.

وحدث أنه كان في هذا الكهف الثاني، الذي إليه هربت للالتجاء، هناك حجرة كبيرة أو صخرة، عليها اعتادت مريم المباركة أن تجلس لإرضاع الطفل، وصدف في أحد الأيام أن سقطت نقطة من حليب صدر العذراء، على هذه الصخرة، ومنذ ذلك الوقت استمرت تلك النقطة من السائل على الرشح من تلك الصخرة، وهذا السائل له لون الحليب، مزيج بحمرة مثل بعض العقاقير، ومن غير الممكن ضبط تساقطه، وهم يلتقطون النقاط لدى تساقطها، ويحملونها إلى مناطق ماوراء البحر، قائلين بأنها حليب العذراء المباركة، وهذا هو السبب أن كثيراً من الكنائس يعرض فيها حليب العذراء المباركة بين الآثار المقدسة، من ذلك على سبيل المثال في كولون، عند مذبح (كنيسة القديسه مريم) الكبيرة، وفي كيركن Kyrchen، في دير الراهبات، التابع لطائفة الدومينيكان، وفي أماكن أخرى كثيرة في أرجاء ايطاليا، وفرنسا، وألمانيا، وغالباً ماكنت —قبل أن أعلم هذه الحقيقة — أتساءل من أين أتى كل هذا الحليب، أو جرى تجميعه وحفظه، حتى علمت بوساطة التجربة، أنه لم يكن سوى رشح يتساقط نقطاً من صخرة، ولقد رأيت هذه الصخرة في حجي الأول، ولكن في حجي الثاني جرى جلب أغصان أشجار وجذوع إلى داخل القبو، وجرى احداث تغييرات في المكان.

ولايمكن لهذه الكلمات الصادرة عني أن تعني مطلقاً وبأية طريقة من

الطرق، عدم تشريف مريم العذراء المباركة وفق ما تستحق، وكذلك مدحها، واحترامها، لأن من الممكن أن الحليب جرى حفظه في مكان آخر، أو أنه أعطي بشكل اعجازي لانسان ما، أو ان الصخرة التي سقطت عليها نقطة الحليب، كانت هذه النقطة كما قيل قد سقطت من الحليب السماوي، وأنها تلقت القدرة على تنقيط الحليب بشكل دائم، لأنه إذا كان الزيت كان قد استمر يرشح من قبر القديس نيقولا، ومن قبر القديس وولد بيرجس waldburgis في ستانيا Cistania، وطالما أن الرب أراد أن يظهر الفضيلة الخاصة لقديسيه، فما هو وجه العجب إذا قامت هذه الصخرة بتنقيط الحليب، حتى يبرهن بذلك على سمو وفضيلة الطهارة لدى أمه.

** ** **

الكهف الذي فيه دفنت أجساد الأبرياء

ويوجد إلى جانب الكهف المتقدم الذكر، كهف آخر، لم نستطع الدخول إليه من دون أن نحني ظهورنا، وعندما يغدو الانسان فيه يجد مكاناً واسعاً، وأن هناك كهفاً آخر على الجهة اليسرى، وفي هذا الكهف كان قد جرى القاء عدة آلاف من جثث الأبرياء المقدسين، الذين قتلهم هيرود، لدى بحثه عن المسيح بينهم، وبناء عليه تلونا هنا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات(+).

وفتش بعض الحجاج عندما كانوا في هذا الكهف بين الغبار على الأرض، معتمدين على أضواء شموعهم، وبحثوا عن بعض آثار الأبرياء المقدسين، لكنهم لم يجدوا شيئاً مطلقاً، ومرد ذلك إلى أن المؤمنين قد قاموا فيما مضى منذ زمن طويل بنقلهم، وآثار هؤلاء الأطفال الأبرياء موزعة في جميع كنائس العالم، ففي البندقية، هناك في جزيرة مورانو حوالي مائة جسد من أجساد الأبرياء في قبر واحد، وكنت

قد رأيت في الدير الدومينيكاني في نورمبيرغ جسداً كاملاً لواحد من الأبرياء، ويمتلكون في دير الدومينيكان في ستراسبورغ أيضاً واحداً من الأجساد الكاملة، ويمتلكون في بازل في دير الدومينيكان هناك يداً واحدة وعدة مفاصل عائدة لهم في وعاء قربان مقدس وثمين، ويوجد في دير الدومينيكان في أولم قميص صغير ملوث بالدم، ومخروق بضربات سيف.

وتوفر لدى النبلاء الذين يذهبون إلى القدس اهتمام خاص في آثار الأبرياء المقدسين، لسبب أنا لا أعرفه، وكان بين جماعتنا رجل نبيل غني جداً، بحث بين رمال الكهف بحثاً حثيثاً عن بعض الآثار، لكنه لم يجد شيئاً، فذهب إلى sobothytaneo الذي هو كالينوس الأكبر، المسلم الذي تولى حماية الحجاج، ووعده من خلال المترجم باعطائه مائة دوقية، إذا استطاع أن يشتري جسداً كاملاً له، وأخبره كالينوس في جوابه بأن أجساد هؤلاء الأطفال قد نقلت إلى القاهرة، حيث أن السيد السلطان محتفظ بهم بشكل خاص، وأنه كان يبيعهم لمن يختار، وأنه لايوجد انسان آخر، في المملكة كلها، غيره، مسموح له ببيع أجساد هؤلاء الأطفال، وعندما سمع هذا الفارس بهذا، فكر بالذهاب إلى القديسة كاترين مع البقية، حتى يمكنه شراء طفل عندما يصل إلى القاهرة.

وصعقتني هذه الصفقة، وجعلتني أشعر بالاهانة، وبالخداع، وبالجور، ولذلك حملت نفسي إلى رجل صاحب معرفة، وبحثت معه حول هذه المسألة، وسألته عن الذي يراه ويعلمه حول أجساد الأطفال هذه التي تباع من قبل السلطان، فتلقيت التأكيد منه بأن الحقيقة هي أن المسلمين والمماليك يتسلمون أجساد الأطفال الذين لم يلدوا بعد، أو الأطفال الذين ماتوا اثر ولادتهم مباشرة، فيطعنونهم بالسكاكين، عاملين جراحة في أجسادهم، ثم يحفظون الأجساد بضغط البلسم والمرّ

والعقارات الحافظة الأخرى في الجروح، ومن ثم كانوا يبيعونهم إلى الملوك المسيحيين، وإلى الأمراء، والأناس الأغنياء، على أنهم أجساد الأبرياء المقدسين، وبهذه الصورة كانوا يدفعون مبالغ كبيرة من الذهب والفضة، ويعتقدون بأنهم تسلموا أجساد الأطفال المقدسين، في حين أنهم تسلموا بالفعل أجساد أطفال ملعونين.

وبهذه الصورة تتم السخرية من الشعب المؤمن بالمسيح، ويسلبون أموالهم، لأن هؤلاء الناس غير المؤمنين يعرفون رغباتنا العظيمة من أجل امتلاك الآثار المقدسة، ولذلك يعرضون للبيع قطعاً من الخشب يقولون بأنها اجزاء من الصليب المقدس، ومسامير، وأشواك، وعظام، وأشياء أخرى كثيرة من النوع نفسه لتضليل غير الحذرين وخداعهم وانتزاع أموالهم، وأنا لا أمنح قيمة كبيرة للآثار التي جلبت من بلدان ما وراء البحر، ولاسيما الأشياء التي شريت من المسلمين أو من المسيحيين الشرقيين، الذين زيفاً يسمون بمسيحيين، وليس الأمر كذلك بالنسبة للحصا المقدس، من الأماكن المقدسة، الخ،وهكذا خرجنا من كهف الأبرياء المقدسين، ولم نتابع سيرنا.

ويوجد من ذلك الكهف ممر ضيق جرى حفره واقتطاعه في الصخر، وقد عمله الرهبان الفرنسيسكان خلسة، حتى يمكنهم الدخول إلى، والخروج من موضع مهد المسيح، إلى بيعة القديس نيقولا، حيث يقيمون قداساتهم، ولذلك يتخذون كافة ا لوسائل لإخفاء ذلك الممر حتى عن الحجاج، خشية أن يصل الأمر إلى مسامع المسلمين والمسيحيين الشرقيين، الذين سوف يقدمون مباشرة على اغلاق الممر، ومن ثم سيفقد الرهبان مكانهم المقدس، وقد سمح لي أحياناً بالمرور من خلال الممر السري، إلى موضع مهد المسيح الأعظم قداسة، وجاء ذلك بهبة من الرب وبلطف من الرهبان الفرنسيسكان، وكان ذلك عندما كنت أمضي الليل كله وحيداً هناك، وذلك بعد اغلاق جميع أبواب الكنيسة

والأقبية.

وهكذا خرجنا من كهف الأبرياء المقدسين، بوساطة المدخل نفسه الذي دخلنا منه إلى كهف أو قبو مهد المسيح، حيث سجدنا بأنفسنا للمرة الثانية، وقبلنا الأماكن المقدسة، التي هي موضع الميلاد، والمعلف، والمكان الذي جلست فيه العذراء عندما تسلمت هدايا الملوك الثلاثة، وعندما كنت واقفاً وسط هذه الأماكن المقدسة ورد إلى ذهني رؤيا النشوة التي رأتها الحاجة باولا الأعظم قداسة، في هذا المكان، حيث أعلنت بحضور القديس جيروم وسماعه بأنها قد رأت الطفل ملفوفاً بأقمشة قماطة، وهو يبكي في المعلف، وكذلك الرعاة وهم قادمين يحمدون الرب، والحكماء يتعبدون، والنجم يشع من فوق، وعلاوة على ذلك رأت العذراء بكلتي عينيها، وهي ترضع بشكل متواصل الطفل، ورأت أيضاً جميع أسرار وخفايا الميلاد الأخرى، وبناء عليه أقنعت فوق هذه البقعة بأن توقف نفسها على الخدمة الدائمة للرب، فهذا ما أخبرنا به القديس جيروم في كتابه «حج القديسة باولا».

وعندما أنهينا صلواتنا خرجنا من الكهف، وبذلك أنهينا مسيرتنا، وذهبنا الآن إلى الدير وتفرقنا إلى المجموعات المتنوعة، وأخرجنا جعبنا التي فيها الأطعمة، التي جلبناها معنا من القدس، وأكلنا وشربنا الماء، ومياه آبار بيت لحم أبرد وأنقى، وأصح، وأعذب من أية مياه رأيتها في بلدان ماوراء البحر، وكانت لدينا كميات عظيمة من هذه المياه مقابل لاشيء، وفي الحقيقة تبدو أية كمية من التعب محمولة بالنسبة للحاج، مادام بإمكانه الحصول على ماء جديد، فالحجاج لايهتمون بطبخ الأطعمة، أو بالخمرة أو بالفرش، بقدر اهتمامهم بالماء النقي، ولهذا بعدما أكلنا وشربنا، طوى بعضنا أطرافه من أجل النوم فوق المكان الذي أكلوا فيه، لكن الشطر الأعظم، رفض الاستراحة، وعاود الدخول

إلى الكنيسـة، وقـد مكثـوا مستيقظين بشكـل مقـدس إلى جـانب معلف الرب، وشغلوا أنفسهم بصلوات متواصلة.

إقامة صلوات ربانية في بيت لحم مع قداس عالي

ركض في منتصف الليل الحافظ لغرفـة الآثار المقـدسـة حـول الدير ومعـه لـوح (نولا nola) وأيقظ النائمين مـن أجل الصلوات الصباحية، التي يتولى الرهبان تلاوتها في كهف الميلاد، والتي بعدها بدأنا بتـلاوة الصـلاة المهيبـة: « Deminus dixit ad me »الخ، وهي الصـلاة التي يتم انشـادها في أرجـاء العـالم في الليلة المتقـدمـة على يوم الميلاد، وتوجـه الأب المناوب مع معاونيه من رجـال الدين، وهم جميعاً يرتدون ثيابهم المقدسـة، في مسيرة إلى المذبح، الموضوع فوق المكان الذي ولد فيه المسيح، وهكذا تولينا إنشاد الصلاة في القبو، وبعد الصلاة تلقى بعض الأتقيـاء من العلمانيين القربان المقـدس، وأقام الكهنة قداساً عند مذبـح الختان، وفي بيعة الملوك الثـلاثة، وفي الكنيسة العليـا، وتحت عند مـذبح ميـلاد الرب، وهكذا استمـرينـا في أداء الصلوات الربانيـة حتى أشرق الصباح.

المكان الذي ضل فيه يوسف طريقة مع مريم والطفل

وبعدمـا فرغنا من قداساتنا، امتطينا مبـاشرة ظهور حميرنا، ونزلنا من بيت لحم إلى الوادي حتى نتمكن من زيارة كنيسـة «المجد في الأعـالي»، وذلك حيث كـان الرعـاة سهـرانين في ساعـة ميـلاد الرب، ومـررنا في الطريق على بيعة مشعثـة وشبه مهدمة، وكانت هـذه البيعة قد أقيمت في ذلك الموضع كـذكـرى لما حـدث عليـه، حيث يقـال بأنـه عندمـا أنذر يوسف في المنـام وطلب الملاك منه أن يهرب مع الطفل وأمـه إلى مصر، وذلك حسبما روي لنا في انجيل متى:٢، نهض وبادر مسرعاً بالفرار من بيت لحم، ونزل إلى هذا المكان في الوادي، راغباً بالنزول عبر الوادي إلى

سدوم، ليعبر من هناك الأردن ثانية، وبناء عليه انطلق عبر الطريق الذي سار عليه بنو اسرائيل لدى قدومهم إلى البلاد، لأنه لم يكن يعرف أنه كان هناك طريقاً آخر أقصر إلى مصر، بسبب أنه لم يكن قد رأى مصر من قبل، لكنه عندما وصل إلى البقعة التي قامت فوقها البيعة، قابله ملاك، وبين له الطريق إلى حبرون، ومن حبرون إلى غزة، ومن ثم على طول ساحل البحر المتوسط إلى مصر، وبناء عليه، تلونا في هذا المكان صلواتنا، وحصلنا على غفرانات(+).

وبعدما حصلنا على غفراناتنا، تابعنا سيرنا نازلين، فوصلنا على بعد مسافة ضئيلة من هذا المكان إلى جدران مهدمة فوق رابية، وعلمنا هنا أيضاً بأن بيعة قد قامت فيما مضى، وقد بنيت بمثابة ذكرى للأحداث التالية: عندما فارق الملاك الرعيان، وكانوا على طريقهم صاعدين إلى بيت لحم لرؤية الطفل الذي قد ولد، وفيما هم صاعدين، بدأوا يترددون، لأن رهقة شديدة نزلت على قلوبهم، وتعذبت أرواحهم بشكوك غريبة، وباتوا يخشون من أن الرؤيا التي شهدوها لم تكن سوى مصيدة وتغرير، وأنهم لهذا قد يتعرضون لخطر ما، والآن فيما هم واقفون في هذا المكان يتشاور أحدهم مع الآخر حول هذه القضايا، ويصلون إلى الرب، فجأة، ظهر ملاك الرب بينهم، وأكد لهم صدق القضية، فسقطوا على ركبهم يقدمون الشكر، وتسلقوا الممر بخطوات أوسع، وبناء عليه، مثل هذا نحن قدمنا الشكر هنا، وحصلنا على غفرانات (مطلقة)(++)، ثم تابعنا سيرنا.

كنيسة «المجد للرب في الأعالي»
في المكان الذي كان فيه الرعاة يسهرون

ومضينا من هناك نازلين الرابية، خلال بساتين زيتون، ووصلنا إلى واد عريض ملىء بحقول مفلوحة ومروج، ورأينا في وسط هذا الوادي

جدراناً مهدمة عظيمة، وبقايا أبنية قديمة، نحوها استدرنا بأنفسنا، ولدى وصولنا إلى المكان، وجدنا كنيسة مهدمة ومتداعية، لكن هناك بقايا من جزئها الأمامي، وبدأ الآن قائد الجوقة يغني بصوت مرتفع ترنيمة: «المجد للرب في الأعالي» الخ، وتابعنا نغني: «وعلى الأرض السلام»، وذلك بمهابة عظيمة، ودخلنا ونحن نغني هكذا بين الخرائب، وتابعنا السير على طريقنا، ونزلنا إلى السدة، حيث مايزال قائماً فيها مذبح مزين، وغنينا هناك بحماس شديد: «المجد للرب في الأعالي»، والأغنية التجاوبية:

الخ«Angelus ad pastores ait» وكذلك، «Qucm vid- istis, pastores» الخ وبعد الغناء، صلينا بهدوء، وحصلنا على غفرانات(+).

وهذه الكنيسة قائمة فوق البقعة التي كان فيها الرعاة مع بعضهم، ساعة ميلاد المسيح، وهنا ظهر ملاك الرب، ووقف إلى جانبهم، وأشع مجد الرب من حولهم وأضاء، وقال كما جاء في الاصحاح الثاني من انجيل القديس لوقا: «أنا أبشركم بفرح عظيم» الخ، وفي هذه الكنيسة أيضاً موضع دفن هؤلاء الرعاة، لأنهم عندما كانوا يموتون رفضوا الدفن إلاّ في مكان ظهور فرح الملاك، وذلك حيث سمعوا الحشد الإلهي يغني «المجد للرب في الأعالي»، وقد بنت القديسة هيلانة الكنيسة فوق هذا الموضع، وإلى جانبها دير للراهبات، حيث من الممكن حتى الآن رؤية بين الخرائب دولاب ومغزل، وأشياء مما اعتادت الراهبات على امتلاكها، وكان هذا الدير يعرف باسم دير «المجد في الأعالي»، وكان هذا الدير من حيث الحجم واسعاً، وذلك حسبما يمكن رؤيته في هذه الأيام، وكانت جدرانه المحيطة به قد بنيت من حجارة مربعة منحوته، حسبما يمكن مشاهدة ذلك في أكوام الحجارة الموجودة هناك، وهي حجارة المسلمون غير قادرين على أخذها بأية وسيلة من الوسائل،

لأنه قيل — وما قيل هو صدق— عندما كانوا يحاولون حمل أية حجرة من هذه الحجارة، كانت تصبح ثقيلة إلى حد أن مامن انسانَ يمكنه تحريكها، لا بوساطة حيوانات الحمل، ولا بمعونة البشر، ويوجد على منحدر الجبل هناك بعض الحجارة، قد جرى حملها لمسافة ما، لكن بالأخير غلبت بثقلها، ولذلك تركت على الطريق، ولذلك لايوجد شك، أنه لو كان من الممكن نقل هذه الحجارة، لنقلت منذ مائة سنة مضت.

وكان هذا المكان قد حفر عميقاً في الأيام الخوالي، من قبل الرجال المقدسين الذين سكنوا هناك، لأنه هنا سكن البطريرك يعقوب، لأنه ورد الخبر في الاصحاح الخامس والثلاثين من سفر التكوين، أنه بعدما دفن زوجته راحيل على الطريق (إلى إفراتا التي هي بيت لحم)، حسبما تقدم الحديث عن ذلك، ارتحل من هناك، ونصب خيمته وراء هذا الممر، فقد أخبرنا جيروم، بأن هذا المكان كان قرب بيت لحم، في الموضع الذي غنى فيه الحشد السماوي «المجد للرب في الأعالي»، وهذا أيضاً ما حدثنا به كاتب Speculum Historiale، وأخبرناه عن هذا الموضع، وولد في هذا المكان رأوبين الابن الأول ليعقوب، وهو الذي ضاجع بلهة زوجة أبيه، وبذلك دنس فراش أبيه، ولذلك حصل على لعنة أبيه.

وهذا الحقل هو حقل بوعز، فيه كانت راعوث المآبية تلتقط الحبوب وراء الحصادين، الذين كانوا يودون طردها، لكن بفضائلها حركت عواطف صاحب الحقل نحوها، وقد تزوجته، وفي هذا الحقل نظر إليها على أنها جديرة أن تصبح أما في سلسلة نسب المسيح، فهذا مايمكن الاطلاع عليه بالكامل في سفر راعوث، وفي الاصحاح الأول من انجيل القديس متى، وفي حقول هذه المنطقة رعى داوود أغنام أبيه، وهنا مزق إلى قطع أسداً هجم عليه، وقتل دباً، وتفاخر داوود بانتصاراته على

الحيـوانات في حضرة الملك شاؤول، وحصل على الشجـاعة التي دفعتـه حتى إلى قتال العملاق جالوت الفلسطيني، وذلك حسبما قرأنا عن ذلك في سفـر صمـوئيل الأول: ١٧، ويمكننـا أن نفترض أنه قتل كثيراً من الأسود والدببه في هذا المكان، لأن ابن سيراخ قال في الاصحاح السابع والأربعين: «لقد لعب مع الأسود كلعبـه مع الجديان، ومع الدببة كلعبه مع الحملان».

ويمتد هذا الوادي نحو الشرق حتى سدوم والبحر الميت، حيث على مقـربة منـه — بسبب ميـاه الأردن — كثير من الحيــوانات من مختلف الأنواع تتجــول هناك، وتسير عبر الوديان أثناء الليـل، لتصطاد الشريد من القطعان، ولتخطف بعض الحيوانـات الأليفة إذا أمكنها ذلك، وبناء عليه التقى داوود بهذه الحيوانات لدى قدومها وقتلها.

وهكذا كـان الرعـاة في سـاعة الـولادة يتولون حـراسـة قطعـانهم في الليل، وفيما يتعلق بهذا الأمـر طرح التســاؤل التـالي: «كيف كـــان من الممكن للرعاة المحافظة على الحراسة في الليل أيام الشتاء، حيث الأرض كـانت متصلبة بسبـب الجليد، وكـانت أيضـاً مغطاة بالثلج»؟ وعلى هذا يجيب الشرقيون، بأن الرعاة حرسوا قطعانهم مرتين في السنة، أي في أيام الربيع، وفي أيـام الشتــاء، لأن المناطق الشرقيـــة لاتتغير بشكل عـــام، وكامل، مثلما يحدث للمناطق الغربية، ففـي الوديان الباردة جداً، قد يجد الناس هناك في أيام الصيف مـواضع باردة إلى أبعـد الحدود إلى حـد أن الناس قد يجدون هناك في شهر آب ثلجاً وجليداً في المواضع الظليلة من هذه الوديـان، فيضعـونها في أواني فخـــارية، يتــولون بيعهـــا إلى الناس الأغنياء في المدن، الذين يتولون تبريد خمورهم بها.

وهناك أيضاً بعض الجبال التـي تكون باردة إلى أبعد الحدود، إلى حد أن قممهـا تكون دوماً مغطاة بالثلج، وذلك مثل جبل لبنان، الذي قـال عنه ارميا في الاصحـاح الثامن عشر: «ثلج لبنان يستمـر بدون انقطاع»،

والخندق (كريت) جزيرة حارة جداً، ومع ذلك لاتخلو مطلقاً من الثلج في بعض الوديان وعلى بعض القمم، وهذا مايمكن مشاهدته من قبل الذين يبحرون إلى هناك في أيام الصيف، ومن جانب آخر، هناك بعض الوديان الحارة جداً، ولذلك إذا ما تساقط فيها الثلج، فانه لايبقى لمدة تزيد على الساعة، حتى في منتصف الشتاء، وتجد أيضاً جبالاً جرداء القمم، بسبب الحرارة، وليس عليها أية خضراوات مهما كان نوعها.

ووادي بيت لحم هو واحد من هذه الأودية الدافئة، فهو لهذا لايعرف لاثلجاً ولاجليداً، فيه يبدأ الشعير بالنمو بشكل كثيف، في أيام عيد ميلاد الرب، ولذلك ترسل الحيوانات إلى هناك من الأماكن الأخرى، حتى تتمكن من الرعاية، ولتسمن هناك في الشتاء، ويستأجر الناس قطعاً من الأرض لبعض الوقت، من أجل هذه الغاية، ولذلك يعرف وقت ميلاد الرب بلغتهم بأيام نمو النباتات، والأرض في الصيف جافة، وتراها مشوية بأشعة الشمس الشديدة، وفي شهر أيلول، عندما تغدو أشعة الشمس أبرد من ذي قبل، تبدأ جميع نباتات الأرض الخضراء بالنمو والازدهار مثلما يفعلون في بلادنا في نيسان، وذلك باستثناء أن الأشجار لاتزهر في هذه الاثناء، وهذا الموسم ليس حاراً، بل هو منعش ، وكثير من الناس قد يشعرون بالبرد فيه، غير أن شهر أيار هو شهر ملىء بأعمال الحصاد.

وواضح من هذا كله، أنه في أيام ميلاد المسيح، يمكن للرعاة الاقامة في العراء مع قطعانهم في هذا الوادي، لأنه دافىء وأخضر، ثم إن الأرض ليست قاسية بسبب الجليد، مثلما يصدف ويحدث في المناطق الأكثر ارتفاعاً، حيث كان مولد المسيح، فهناك كان ثلج، وجليد، وصقيع، علاوة على ذلك، إنه لمن الواضح من خلال الكلمات التي استخدمت، أنه لم يكن هناك راعيان أو ثلاثة، بل عدداً كبيراً، كانوا منتشرين في الوادي، لأنه قد كانت هناك قطعان وأسراب ليست من

بيت لحم وحدها، بل من المناطق التي من حولها، ولابد أنه قد كانت هناك أعداد كبيرة منهم، بسبب هجمات الأسود، والدببة، والخنازير البرية، وبسبب اللصوص الذين منذ قديم الزمان حتى هذه الأيام يقيمون في الأماكن المهجورة على جوانب الأردن، ويعيشون على السلب والنهب، ولابد أن الحاجة ضدهم قد فرضت وجود عدد كبير من الرعاة، الذين بامكانهم ليس فقط بأصواتهم، بل بعصيهم، ابقاء الحيوانات المفترسة والرجال الذين يشبهون الحيوانات المفترسة ، بعيداً عن قطعانهم.

وذهب هؤلاء الرعيان جميعاً إلى بيت لحم، وصعدوا إليها في ليلة الميلاد، بناء على طلب من الملاك، ووجدوا الطفل ملفوفا بأقمشة قماطة، وراقداً في المعلف، ومن الممكن أنه كان هناك بينهم ثلاثة كانوا هم المقدمين، وقد امتلكوا السيادة على البقية، وأن قبور هؤلاء الثلاثة، هي الموجودة في الكنيسة المتقدمة الذكر، وجرت معالجة هذا الموضوع من قبل بيد المبجل في عظته الدينية حول نص: « pastores loque bantur » الخ، حيث قال: «ظهرت الملائكة إلى الرعاة في مكان، عرف منذ الزمن القديم باسم «أرض القطعان» وذلك صدوراً عن اجتماع الأغنام هناك، وهذا الموضع على بعد ميل واحد إلى الشرق من بيت لحم، وذلك حيث توجد في هذه الأيام قبور الرعاة الثلاثة التي هي مشاهدة في الكنيسة».

لقد كان هذا ما قاله بيد، وبناء عليه قال جيروم في رسالة بعث بها إلى الرهبان حول قداسة السهر، بأن هؤلاء الرعاة كانوا مقدسين جداً، ولقد كنت مراراً في هذا الوادي، حيث بقيت ساهراً، خلال الأنواء الأعظم حرارة، حيث كانت جميع الأشياء الخضراء قد جفت ، ومع ذلك رأيت دوماً قطعاناً من الأغنام والماعز هناك، وفي جزء آخر من الوادي، مقابل بيت لحم هناك مزرعة قائمة في موقع جميل، حيث رأينا

هناك خرائب جدران عظيمة، ولقد قيل بأنه في ذلك المكان قد قام دير القديسة باولا ووصيفاتها.

وهكذا كان بعد أن رأينا الأماكن المتقدمة الذكر، أن عاودنا امتطاء حميرنا، وسرنا باتجاه بيت لحم، وعندما كنا فوق الجبل شاهدنا الترتيب الأصيل لمكان ميلاد المسيح، بشكل أوضح مما كان بامكاننا فعله عندما كنا في المكان عينه، وذلك مثل امكانية رؤية الضريح المقدس بشكل أفضل من البساتين قرب حق الدم، منه من كنيسة الضريح نفسها، وذلك كما تحدثنا من قبل، ورأينا على رابية بيت لحم جروفاً واسعة وصخوراً ناتئة فوق الأرض، كان تحتها كهوف واسعة، وهي أماكن سكن للناس الفقراء، الذين ليس لديهم بيوتاً موائمة، وعلى هذه الشاكلة كان مكان ميلاد المسيح في البداية، كما سأبرهن على ذلك.

وعندما وصلنا حتى سور بيت لحم، درنا حول السور، وبحثنا في أساسات ومنحدرات ذلك الجرف التي قام عليها السور، عن كهف مجوف، لكننا لم نعثر على ذلك، وكنت قد قرأت في كتاب حج قديم جداً، كتبه واحد من القديسين، أنه عندما ولد الرب، قام يوسف — كما جرت العادة — بصنع وعاء من الفخار لتحميم الطفل، وبعدما غسل يوسف الطفل، أخذ الوعاء وأخرجه من المنزل، وصب الماء المقدس بشكل عشوائي من السور على الصخور الناتئة بين الأساسات، لأن موضع الميلاد كان قائماً في مكان مرتفع، وتحته جروف الرابية وصخورها، التي فوقها قام النزل نفسه، والآن عندما سقط الماء المقدس من الأعلى، سقط في صخرة مجوفة ، فيها جرى تلقي جميع ذلك الماء المقدس، ومن ثم حفظه، وبقي هذا الماء لسنوات طوال هناك دون ضياع أو فساد، وكان الحجاج في الأيام الخالية، يقادون إلى هذه البركة، وكانوا يغسلون وجوههم هناك ويشربون منها، ويملأون قوارير مياههم، ويأخذونها إلى بلدان ماوراء البحر، كدواء للجسد، لأن عدداً

كبيراً من النـاس المرضى تحسنت صحتهـم بتـــذوقهم لذلـك الماء، هذا ومهما كـانت كميات الماء التي حملت بعيـداً، لم تنقص كمية الماء مطلقـاً، وهذه معجزة لأنه لم يكن هناك نبع للتزويد والتعويض.

وبناء عليه بحثنا عن هذا الكهف مع الماء المقدس، لكننا لم نجده بأية وسيلة من الوسائل، وهذا ليس غريباً، مشاهدين — في الوقت ذاته — التغييرات العظيمـة التي جـرت في المكان بسبب الأبنيـة الضخمـة التي بنيت هناك، ففي العصـــور المتأخـرة، عندمـــا تملك الصليبيـون الأرض المقدسة، قام ملوك القـدس بتحصين بيت لحم بأسوار عالية وبأبراج من حـولها، ولذلك زالت ترتيبـات المكان القديمـة من الوجـود، وذهبنا إلى بيت لحم، فوجدنا السادة المغاربة مع أدلائنا جاهزين للمغادرة، لأنهم لم يكونوا قـد نزلوا معنا إلى الوادي، بل جلسوا بدون حـراك ينتظروننا في الكنيسة، وكانوا منزعجين جداً منا بسبب تأخرنا، وكانوا متعجلين كثيراً للعودة إلى القدس، قبل شروق الشمس، خشية من المعاناة من الحرارة.

الوداع وتقديمات الحجاج في موضع ميلاد يسوع

وعندما حلت سـاعة مغادرتنا لبيت لحم، ركضنا جميعاً إلى قبـو ميلاد الرب، حتى نتمكن من وداع الطفل يسوع والعذراء أمه، وبسبب تقوى الحجـاج، قـامت عادة، أنـه عندما يقبـل الحجاج المكان المقـدس لميـلاد المسيح للمـرة الأخيرة، يتبرع كـل حـاج بمبلغ من المال، يضعـــه فـوق الصخرة المقدسة لميـلاد الرب، من أجل محبة الرب والعذراء، وفي سبيل ترميم الكنيسة، ودعم الرهبان الذين يسكنون هناك.

وفي أثناء التبرع بهذه الهبات من قبل الحجاج، حدث حادث ممجوج، أنا في الحقيقـة خـــائف من الحديث عنه احترامـاً للحجـــاج، ومع ذلك سـوف أتحدث عنه، ليعلم الذين لم يكونوا قـادرين على القـدوم إلى هذه الأماكن المقدسة، أن تلك الأماكن المقدسة لاتفعل خيراً، للذين هم غير

مستعدين في قلوبهم، وأن المكان غير المقدس لايشكل عائقاً للناس ذوي الارادة الطيبة، والذي أعتقده في الحقيقة، هو أنه في هذه الأماكن الأعظم قداسة يقوم العدو بإغواء غير الأتقياء ويكمن منتظراً إياهم هناك أكثر من أي مكان آخر، ذلك ان السماء العليا، والأماكن الأعظم طهارة، لم تغلب الشيطان، ثم ألا ترون أن الجنة الأعظم سمواً لم تتمكن من حفظ أبوينا الأوليين ومنعهما من الذنب، وكذلك فإن علّية العشاء الأخير، التي كانت المكان الأعظم قداسة، لم تحل دون القديس توما، ودون الشك، ولهذا جاء في المادة الأربعين من القانون بأنه «لا الأماكن ولا الأحكام تقربنا أكثر من الخالق، بل هي أعمالنا الجيدة، التي تقربنا أكثر إليه، مثلما تبعدنا أعمالنا الشريرة عنه».

والآن، وفقاً للمثل الذي ضربه الملوك الثلاثة، قام موالي الحجاج بتقديم هداياهم، في موضع الميلاد، حيث أعطوا، بعض الذهب، وبعض الفضة، وبعض الخواتم الذهبية، وبعض الشمع، وتقدم في ذلك الحين واحد من الفرسان، وألقى بدوقية على الصخرة، مثلما فعل كثيرون قبله، وبعدما قام الفارس بذلك، أقدم واحد من الحجاج الشرقيين، فانحنى بنفسه وقبل المكان، وأثناء قيامه بالتقبيل، مدّ خلسة يده المدنسة، وسحب من الكومة نحو نفسه أقرب دوقيتين ونهض، ثم ابتعد، واختلط بين فرق الحجاج.

أيها اللص والسارق، أنت جدير أن تعلق على ألف مشنقة، أيها الناهب إنك جدير بأن تمزق إلى ألف قطعة، وأن تكوى بدواليب النار، أيها الانسان الدنس، إنك ينبغي أن تحرق بالنار حتى تكون رماداً، أيها المفسد، أنت جدير أن تفقد رأسك، وأن تغرق في أعماق البحر، أي عصيان، وأية وحشية دفعت بك إلى هذا، وأي كافر أعمى أنت، حيث أقدمت في مثل هذا المكان الفائق القداسة، هذا المكان الذي يرى فيه المسيحيون بعيون عقولهم العذراء المحتاجة، والطفل الفقير، ويوسف

المتسول، في هذا المكان أقـدمت على سرقتهم، علاوة على هذا، إذا كنت لاتؤمن بهذا، ولاتبصره، لماذا انحنيت نحو الأسفل في هذا المكان؟ ولماذا أنت حامل لعـلامة الصليب؟ لماذا كنت متسرعـا بالقدوم إلى هنا؟ وإذا كنت مـؤمنـاً لماذا لم تخف من سرقـة الطفل، لأن الطفـولـة التي تلبسهـا كـانت من أجلك، وكيف أنـت لم تخف من عيني أمـه الأعظم حـلاوة، التي جلست إلى جـانب الطفل، وكـانت تراقب بدقـة كل ماكـان يجري حول ابنهـا؟ هل علينا أن نفترض أنهما لم تريا، لأنهما كـانتا تنظران بصبر أعظم، وبحكمـة أكبر، مما يراه الانســان، وإذا كنت لم تهتم بالطفل ولا بالأم بسبب لطفهما الذي لاحــدود له، والذي بسببـه لم يعـاقبـا الذنب مبـاشرة، بل انتظرا بتحمل كبير، مع هذا، من المؤكد كـان عليك الخوف من زوجها يوسف الذي كان حازما وقاسيا، فعلى عاتقه رسا أمر العناية بهما معـــا، ولذلـك حـــدق بهما طوال الوقـت ولم يصرف نظره عنهما، وعـلاوة على ذلك، إذا كـانت هـذه الأشيـاء قـد بدت لك لاقيمـة لها، وأعلنت أنه لا الطفل، ولا أمه ولا يوسف، كانوا موجودين هنا، لماذا لم تمنعك تلك الرائحة الفـائقة الطيبة ، التي فـاحت من هذا المكان، والتي تخلفت هناك من أعضـاء الطفـل يسـوع، وجسـد أمـه الأعظم طهـارة، تمنعك من اقتراف الاثم؟

إن الذي قمت بـه مثل الذي اقترفـــه أعظم الناس شروراً، أي يهوذا الخائن، الذي ازداد غضبـاً وتحرك منفعـلاً متلهفاً لبيع سيــده، ولإقتراف تلك الخيانة الوحشيـة له، بسبب الرائحة الفائقـة الطيبة من العطر الذي جـرى صبه على رأس يسـوع، ولطيب تلك الرائحـة — قيل وكتب — بأن البيت كله قد امتـلأ، واعتقد صدقـاً أنك لو كنت هنا في أيام الملوك الثلاثة، لتوليت سرقة هداياهم، ولقمت من دون حياء، أو عذر، بسلب الطفل الصغير، وأمـه اللطيفـة جـداً، ويوسف المسكين، ولكن لماذا عليّ البقاء مع هذا الموضوع مدة أطول؟ ذلك أن سرقتك لم تؤذ الطفل، لأنه

في هذه الأيام لم يأت الملوك الثلاثة معاً من الشرق، بل يسعى الناس إلى هنا على شكل حشود من أطراف الأرض الأربعة، ويقومون يوميا بأعمال استغفار، يجري تقبلها من قبل الطفل، كما أن سرقتك لم تحرم من الفضائل الذين قدموا الأعطيات، ومثل ذلك لم تؤذ الذي سرقت منه هذه السرقة، كما أنها لم تحرمه من تقواه، التي ظهرت بين الذين قدموا الأعطيات، والانتقام مخبأ لك مع الناس الأشرار الآخرين، وسيكون ذلك في وقته المناسب، ووفق هذه الطريقة حمل جيروم بعنف على عمل آخر من أعمال خرق الحرمات، جرى اقترافه في هذه الكنيسة نفسها، وجاء ذلك في رسالته القاسية التي لام فيها الشماس سابينيانوس Sab-inianus، المغوي للعذراء سوزانا.

وبعدما فرغ موالي الفرسان من تقديم أعطياتهم، وعندما كانوا يحصون ما كانوا قد دفعوه، وجدوا أنه لابد أنه قد توفر هناك لص بينهم، ونظرنا من حولنا، فرأينا ذلك الشرقي، وشعرنا بدون أدنى شك بأنه هو الذي فعل الشر واقترفه، فألقينا القبض عليه في القبو، ولدى تفتيشنا له وجدنا الذهب معه، فجعلناه يرده إلى المكان الصحيح، وعندما فعلنا ذلك طردناه من بين جماعتنا، وحدثت هذه السرقة أثناء حجي الأول، وأثناء حجي الثاني حدث الشيء نفسه من خلال واحد من المسلمين الذين جاءوا معنا، وأثناء انحنائه في المكان المقدس، وأنه يريد الصلاة قام بشكل سري بسرقة بعض المال من هناك.

وحدث، أن بعض الحجاج الذين كانوا واقفين بجانبه، أن شاهدوا ما أقدم عليه، فلحقوا به وقبضوا عليه، وسحبوه إلى داخل القبو المقدس، وذلك على الرغم من صراخه، ومقاومته، وبقوة عظيمة أرغمناه على فتح يديه، فوجدنا المال الذي أخذه، وبغضب وشدة طردنا هذا المسلم اللص من الكهف؟ وأخيراً قبّلنا المكان، وبإذن من الأم المقدسة خرجنا منه، وإثر خروجنا من الكنيسة امتطينا حميرنا، وعدنا إلى القدس، عبر

الطريق الذي جئنا عليه، وعندما بتنا هناك تناولنا الطعام، وبعد تناولنا للطعام تمددنا بأنفسنا لننال الراحة، وكنا في الليلة التي مضت قد سهرنا إلى جانب معلف الرب، ثم سهرنا في الليلة التالية إلى جانب القبر المقدس للرب.

وصف بيت لحم

أما وقد قمت بعرض أخبار حجنا إلى بيت لحم أولاً، بقي علي الآن العمل على وصف المكان نفسه، ولسوف أصف المدينة أولاً، ثم مكان ميلاد الرب.

ومدينة بيت لحم هي مدينة قديمة، كان لها في العصور الخالية اسم ما، لم تذكره الكتابات المقدسة، ذلك أنني لم أتمكن من معرفة ما الذي كان اسمها قبل ان تعرف باسم إفراتا، وأطلق عليها اسم إفراتا اشتقاقاً من اسم إفراتا زوجه كالب، التي دفنت هناك، وبذلك باتت تعرف بهذا الاسم، حسبما وصلنا الخبر عن طريق مؤلف كتاب Speculum Histortorale، ولقد قالوا بأن إفراتا هذه، زوجه كالب، كانت هي مريم أخت موسى، التي قبل أن تصاب بالجذام كان اسمها مريم، لكن بعد اصابتها بالجذام وشفائها منه، صار اسمها إفراتا، وهي التي ماتت ودفنت في صحراء صين، وذلك حسبما جاء في سفر العدد: ٢٠/ ١، ثم قام كالب بعد ذلك باخراجها من قبرها ودفنها في بيت لحم، التي لم تكن آنذاك تعرف بهذا الاسم، وأطلق اسمها على المدينة، وهكذا باتت تعرف باسم افراتا، وكون إفراتا كانت زوجةكالب فأمر متفق عليه بين الجميع، لكن أن تكون أخت موسى، فأمر أنكره كثيرون، كما جاء في تعليقات نيقولا دي ليرا على سفر أخبار الأيام الأول:٢، حيث ورد بشكل واضح بأن إفراتا كانت زوجة كالب.

والذي رآه القديس جيروم هو أن إفراتا كانت أخت موسى، فقد قال

في رسالته إلى العذراء برنسيبيا Principia: « غنت مريم أخت موسى لنصر الرب، وطبعت بيت لحمنا وإفراتا باسمها ليكون ذلك علامة للذين يأتون بعدها»، وهكذا مكثت هذه المدينة المباركة لسنوات كثيرة واسمها افراتا، حتى في أيام المجاعة التي وقعت في أيام إيليملك، وبعده، ذلك أنه بعد تلك المجاعة كانت هناك مواسم خير وخصب لذلك أطلق عليها اسم بيت لحم، ومعنى هذا الاسم هو «بيت الخبز»، وبشأن هذه المجاعة ثم الخصب الذي تلاها، يمكن للانسان أن يقرأ سفر راعوث، وتعني كلمة «بيت» في العبرية وتشير إلى «دار»، أما كلمة «ليحيم» فمعناها «خبز»، وعلى هذا إن معنى كلمة «بيت لحم» فهو «دار الخبز»، وعلينا أن نلاحظ هنا أن أسماء المدن والقرى في الأرض المقدسة، يبدأ معظمها بكلمة «بيت »، وبعد هذه الكلمة تأتي كلمة أخرى فيها إشارة إلى خصوصية المكان، مثلما جاء هنا معنا: «بيت لحم» أي «بيت الخبز»، لأنه توفرت هناك كميات عظيمة من القمح بعد مجاعة عظيمة وطويلة وقعت هناك، وبيت عنيا حملت هذا الاسم بمعنى قرية عظم الفك(١)، لأنها كانت قرية كهنة، ولأن الأغنام ربيت فيها هناك من أجل التضحية بها على المذبح، حيث يؤول الفك إلى الكهنة كحصة لهم، وعرفت بيت عنيا كذلك باسم بيت الطاعة، لأن واحداً من ملوك القدس بنى قلعة هناك، بقصد أن تكون مطيعة لبلاط الملك، وإلى مدينة القدس، وإلى جبل صهيون، ومثل هذا بيت شمس عرفت بهذا الاسم، أي بيت شمس، بسبب الهيكل الذي قام هناك فيها، حيث كانت الشمس تعبد فيه، وعرفت بيت إيل باسم بيت الرب، لأن يعقوب هناك رأى أسرار السماء وقال حسبما جاء في سفر التكوين: ٢٨/ ١٧: «ماهذا إلاّ بيت الله»، ومثل هذا أطلق على بيت أجلا اسم «بيت النواح»، لأنه هناك بكى أبناء يعقوب وناحوا على أبيهم عندما مات، حسبما جاء في الاصحاح الأخير من سفر التكوين، الخ..... ومن أجل

١ــ وهم فابري هنا، لأن بيت فاجي هي قرية الفك، ولعل الخطأ مرده إلى الناسخ.

كثير من أسماء أخرى تبدأ بكلمة «بيت» يمكنك الحصول على معناهم من خلال كتاب جيروم «حول معاني الأسماء العبرية».

ومثل هذا أسماء القلاع، والبلدات، والمدن، المنتشرة في ألمانيا، إنما باستثناء أن الكلمة التي تعني «بيت»، تأتي في نهاية الاسم، في حين وجدناها توضع في العبرية في البداية، فنحن نقول بالألمانية «أوفنهوزن offenhusen » ومعنى ذلك باللاتينية «بيت مفتوح open house، وفي العبرية Bethboforon ، ونقول أيضاً بالألمانية schafhusen، أي بيت الضأن، الذي هو بالعبرية Bethanania وكذلك Och-senhusen أي بيت الثور، وفي العبرية Bethschor، وكذلك Gai-shusen أي بيت الماعز، وبالعبرية Bethess ، ومثل هذا هناك قرية قرب أولم اسمها Dreckshusen، أي بيت الفضلات، وبالعبرية Bethsevell ، ولو أن الألمان، هم في هذه الأيام، ملاّك للأرض المقدسة، وقتها بحق ينبغي أن تسمى بيت لحم Brothusen وبيت فاجي Baggchusen، وبيتشمس Sonnohusen ، وبيت أجلا Flanhusen ، وبيت صيدا Fruchthusen و Bethaven= Abgtthusen، Bethhara= Berghusen، Bethaben= Stein-husen، Bethrama= Hochhusen ، ومثل هذا في كثير من الحالات.

وكانت مدينة بيت لحم مدينة جليلة، وكانت مسكن القوم الأجلاء منذ الأيام الخوالي، وبناء عليه لعل اسمها كان قبل أن تعرف بإفراتا وبيت لحم هو Bethtonforon ، أي «بيت النبلاء» علماً بأننا لانعرف اسمها الحقيقي من الكتابات المقدسة، ومع أنها كانت مدينة جليلة، هي لم تكن قط مدينة كبيرة، لأن شكل الموقع يحول دون ذلك، فهي قائمة على جرف جبلي، هو طويل، لكنه ليس بعريض في القمة، فضلاً عن هذا هي قائمة على قن الجبل أو حافته، بشكل أن الأرض التي تقف

عليها محاطة بوديان في الشمال، والشرق والجنوب، وتنحني رجوعاً نحو القدسْ في الجهة الغربيـة، وكان هنا فيما مضى خنادق، وأسوار، وأبراج، ذلك أن هذا من الممكن رؤيته بوضوح حتى في هذه الأيام.

ولقد سرت حول المدينة، وتفحصت بدقة متناهية موقعها، فالقرية في هذه الأيام مكتظة بـالسكان ولايهتم سكانها لا بالأسـوار أو بالخنادق، والقسم الأكبر مـن سكانها مـن المسيحيين الشرقيين، المتحـالفين مع المسلمين لابل حتى مع البـداة، وهم يعتمدون في معيشتهم على المنطقـة من حـولهم، لأن التربة من حول بيـت لحم خصبة جـداً، مليئة بالقمح، والكروم والزيتـون، والمراعـي، وفي أثناء تقسيم البـلاد بين الأسبـاط الاثني عشر، صـارت مـن حصـة سبط يهوذا، ومن نصيـب فـاسيس phases، التي كانت أبرز أسر هذا السبط.

وأظهـر جيروم المبارك، كم هي جـديرة بالثناء بيت لحم، وورد ذلك في العديد من كتاباته، وبشكل خاص في رسالته إلى مارسيلا حيث قال: «بأي كـلام يمكنني أن أخبرك عن نزل مـريم، وبأية كلمات يمكنني أن أصف لـك كهف المخلص؟ في الحقيقـة من الأفضل تشريـف المعلف الذي بكى فيـه الطفل، بالصمـت خيراً من الكلام غير الكافي، ويوجـد هنا أروقـة واسعـة، وأسقف مـذهبـة، إنما في خـارج بيت لحم، في هذه الزاوية الصغيرة جداً من الأرض، قد ولد مـوجد السموات، إنه هنا قد جـرى لفه بقماط من قماش، وهنا أيضـاً شـوهد وعبد من قبل الرعيـان والحكماء والذي أعتقـده أن هذه البقعـة هي أعظم قـداسـة من صخـرة تاربين Tarpeian، التي غالباً ما تضرب بالصواعق، الأمر الذي يبرهن على عدم رضى الرب، وهاهنا توجد في الحقيقة، كنيسة مقدسة، وشعب مـؤمن، ومدينة آهلة بالسكان، لكـن طموحـة... وتوجد في قـرية الرب حيـاة ريفيـة مضمـونـة، وهنا هدوء، إلاّ غناء المزامير أينما تـوجهت بوجهك، وأدرت نفسـك، فـالذي يمسك المحـراث يغني «المجـد»،

وينصرف جاني الثمار المتعب نحو انشاد المزامير، ويغني العامل على تقليم الكرمة وهو يعمل بسكينه المثلمة، بعض أغاني داوود، فهذه هي أناشيد هذه المنطقة، وهنا يوجد بشكل عام الذين يسمون في الأماكن الأخرى «محبي الأغاني»، هذا بالنسبة للقديس جيروم.

واحتلت بيت لحم مكانة سامية لدى باولا المقدسة، حتى أنها فضلتها على روما، وذلك حسبما قال القديس جيروم في رسالته عن حياة وموت القديسة باولا، فقد آثرت لمعان القاذورات البشعة على الذهب المطروق، وقد ألف صفرونيوس الكبير — الذي كان عالما متعمقاً — كتابا بليغاً في اطراء بيت لحم، وذلك حسبما روى لنا جيروم في رسالته عن «الرجال اللامعين»، وقد قام أيضاً بالترجمة من اللاتينية إلى الاغريقية جميع الأعمال التي ترجمها جيروم من العبرية إلى اللاتينية، ومدح القديس برنارد في قداسه إلى فرسان الداويه، بيت لحم مدحاً عظيماً، فهي المكان الذي ولد فيه الرب.

مكان ميلاد المسيح وكيف كان، وماهو عليه الآن

لم يكن موضع ميلاد الرب في البلدة، بل بجوار سور المدينة، على المنحدرات، في الجهة الشمالية من البلدة، كما هو مرئي في هذه الأيام، ويسعدني الحديث عن هذا المكان الجميل جداً، وذلك مثلما يسعدني السكنى فيه، والذي أرغب في أن أقوله: كيف كان هذا المكان:

١— قبل قدوم المسيح، وذلك في أيام قضاة، وأنبياء، وملوك يهوذا

٢— أيام ميلاد المسيح، عندما حملت مريم بالمسيح هناك.

٣— بعد ميلاد المسيح، عندما ثارت كراهية اليهود ضد عين المكان نفسه.

٤— في أيام هيلانه، التي حولت المكان، فجعلته مشرقاً بالمجد

والشرف.

٥— في أيام القديس جيروم، الذي صار مشهوراً هناك لقداسته ومعجزاته.

٦— في أيام الفساد والمسيحيين السيئين، الذين دنسوا الأماكن المقدسة.

٧— في أيام المسلمين، الذين خفضوا مكانته إلى لاشيء تقريباً، وحولوه إلى وضعه الحالي التعيس.

وفي التعامل مع السؤال الأول حول كيف كان موضع ميلاد المسيح قبل قدومه، على القارىء أن يعرف أن سليمان بن ناسون قد تزوج من راحاب، عاهرة أريحا، وكان سليمان هذا واحداً من أعظم مقدمي شعب اسرائيل، عند عبوره الأردن، والاستيلاء على البلاد بقوة السلاح، وقد تملك هو وراحاب زوجته، بيت لحم، وكان حصنه وبيته هناك، وبنى لنفسه مسكناً واسعاً في مواجهة السور، بشكل أن بيته لم يكن داخل أسوار البلدة، بل كان حصناً منفرداً، وذلك مثلما يفعل اللوردات في بلادنا، حيث يمتلكون في المدن التابعة لهم، مساكن منفصلة خاصة بهم، مجاورة لسور المدينة.

وكان هذا المسكن قد بني فوق صخرة، وكان في هذه الصخرة فجوة، أخذت شكل قبو، كان مفيداً لاستخدامه مستودعاً، توضع فيه الأشياء التي لاتحتمل الحرارة، وفي الوقت الذي ترتفع فيه الحرارة كثيراً، اعتاد الناس على النوم هناك، وكانت النساء الحوامل يلدن هناك، وبناء عليه هناك حملت راحاب ببوعز، الذي اتخذ بعد وفاة أبيه قاضيا على جميع شعب اسرائيل، وسيداً لبيت لحم، وقد اتخذ لنفسه زوجة هي راعوث المآبيه، وهي التي حملت في هذا الكهف بعوبيد، وفيه حملت زوجة عوبيد بيسي، وحملت زوجة يسي بداوود الملك، في هذا الكهف نفسه.

وبعدما صار داوود ملكاً، أخذ القطعان وأهل بيت أبيه إلى البيت الذي بناه لنفسه في القدس فوق جبل صهيون، وترك بيت ميلاده فارغاً، ومع ذلك عرفت مدينة بيت لحم باسم مدينة داوود، لأنه ولد فيها ومسح فيها ملكاً، وحدث هذا مثلما حدث لجبل صهيون، فهو عندما حكم جبل صهيون، صار يعرف باسم مدينة داوود، وغالبا ما ورد الاسمان في الكتابات المقدسة، لكن بعد نقل بيت داوود من بيت لحم، صار الاحترام الذي يقدم إليها وإلى البيت الذي فيها، أقل من ذي قبل، ولهذا السبب غدت أبواب وممرات دار بيت لحم مخربة ومهدمة، وذلك بسبب توالي العصور، وفي الحقيقة صار هذا البيت مكاناً لاجتماع تجار الخبز، والأقمشة، والفواكه، حيث كانت تباع فيه، وكان أمام البيت ساحة مفتوحة، كان الناس يلتقون فيها للتحادث، والشباب للرقص، وعلى هذا مكث هذا البيت لكثير من السنين كحانوت عام، أو محل حوانيت قامت تحت سقوف مقنطرة، وصار الموضع في الوقت نفسه نزلاً، أي مأوى للغرباء أثناء الليل.

هكذا كان الحال الأول لموضع الميلاد، وصار الوضع الثاني كمايلي: بسبب عدم الاعتناء بالمكان، والحفاظ على البناء هناك، تداعت القناطر أخيراً، وسقطت، كما أن الجدران العارية صارت مهدمة، ولم يعد فيها حوانيت ولاتجارات، ومع ذلك بقيت خرائب الجدران، حيث أقيم فوقها بناء غير كامل، وزريبة، وعند نهاية هذه الزريبة كان الكهف المتقدم الذكر، وصارت هذه الزريبة نزلاً يأوي إليه الناس الفقراء، وهناك كانوا يربطون دوابهم ومواشيهم، ويضعون هناك عرباتهم وأشياء أخرى، لايمكنهم إيجاد أماكن لها في المدنية، وعلى هذا بقي المكان حتى أيام يوسف زوج العذراء مريم، وبعد اعلان أغسطس قيصر وبسببه، قدم من الناصرة إلى بيت لحم مع مريم العذراء الحامل، وقد وجد المدينة مليئة بالناس، وجميع الغرف في النزل مشغولة، ولذلك عندما لم

يجد مكاناً في المدينة يمكنه الإقامة به، ذهب إلى خارج المدينة، وانصرف نحو هذا النـزل، الذي وقفت فيه المواشي، مع أدوات الفلاحة، وهناك تدبر مكاناً لنفسه، وعندما دنا وقت مريم العذراء المباركة، أي صار عليها الولادة، دخلت إلى الكهف، الذي ولد فيه داوود الأول وداوود الآخر، وهناك ولدت بداوود الثاني، أي بيسوع المسيح، وذلك حسبما ذكرنا من قبل، وسكنت في هذا الموضع لبعض الوقت، هذا ولسوف نصف أي نوع من النزل كان هناك، ونبين ماهو شكله.

وكان الحال الثالث لهذا المكان الأعظم قداسة كمايلي: بعدما ولد الرب، واثر فراره إلى مصر، تابع هيرود قتل الأطفال الأبرياء، وبحث بحنق عظيم في النزل، وتقصى هناك فيه بحثاً عن الطفل يسوع، لأنه سمع بأن الأم التي قدّم الحكماء لها الهدايا قد أقامت هناك، وحيث أنه لم يعثر على الطفل هناك، تولى تدمير النزل، ورمى الجدران التي كانت باقية أرضاً، وأمر أن لايبقى هناك نزل فوق ذلك الموضع، وبناء عليه بقي المكان مهجوراً حتى إلى مابعد صعود الرب، ثم إن العذراء مريم المباركة شرعت بزيارة المكان مع أصدقائها، حسبما تحدثنا من قبل، ونتيجة لذلك، قدم أناس مؤمنون أخر إلى ذلك الموضع المقدس، وقدموا التشريف له.

وبعد صعود العذراء المباركة، وعندما كان المؤمنون يظهرون احترامهم لذلك الموضع، غضب اليهود تجاه ذلك، وأصدروا حرمانا على المكان وعلى الذين قدموا إليه، وأعلنوا بأن المكان مكانا مدنساً وملعوناً، وكل من يدخل إليه مدنس، وجدير بالمعاقبة، علاوة على ذلك أغلقوا الطرق التي تقود إلى المكان بالحجارة، وبقي المكان هكذا مغلقاً حتى أيام تيتوس وفاسبسيان، اللذان استوليا على القدس عنوه، وفرقا اليهود في أرجاء الدنيا، وبعد تفرقهم بدأ المسيحيون بسكنى الأرض المقدسة، وقاموا بتنظيف موضع ميلاد الرب، وصاروا يحجون إليه حتى

أيام الامبراطور اليوس هدريانوس، الذي جعل الأماكن المقدسة مدنسة بالنسبة للمسيحيين وذلك بوضع أصنام فيها، فهو قد نصب تمثالاً لفينوس على صخرة أكرا، في الموضع الذي مات فيه المسيح، ووضع تمثال جوبتير في الكهف الذي دفن فيه المسيح، وكرس كهف ميلاد الرب ليستخدم موضعاً للبكاء على أدونيس Adonis (تموز)، وهكذا بات أدونيس المحبوب من قبل فينوس العظيمة الدنس، يبكى عليه في الكهف الذي بكى فيه المسيح، فيما مضى، وهو طفل، وحيث تولت العذراء الأعظم طهارة حضانته، وهذا ما أخبرنا به جيروم في رسالته إلى بولينوس حول ترسيم الرهبان، ومن أجل البكاء على أدونيس، انظر حزقيال: ٨/ ١٤، والقسم الثاني من هذا الكتاب، بشكل مختصر أولاً، ثم بشكل مطول بعد ذلك. وهكذا تحول هذا المكان المقدس إلى مكان غريب بالنسبة للمسيحيين، لابل ممجوج لديهم بسبب الأوثان.

وكان الحال الرابع لهذا المكان المقدس كمايلي: بقي المكان لمدة تزيد على ثلاثمائة سنة متروكاً للعبادات الشريرة للأصنام، ففي نهاية ذلك الوقت بعث الرب روح تلك المرأة المقدسة التي اسمها هيلانه، وكانت ألمانية، فبعدما صارت امبراطورة، وغدت مسيحية، ذهبت إلى القدس، وبحثت عن الأماكن المقدسة، فوجدت الصليب، والرموز الأخرى لخلاصنا، ونظفت الأماكن المقدسة وأطاحت بالأوثان، وبادرت مسرعة من القدس إلى بيت لحم، حيث نظفت الموضع العذب جداً لميلاد الرب، وألقت بجميع الأصنام المدنسة من الكهف المقدس، وأطاحت بكل شيء رأته هناك، وقد وجدت تحت الخرائب معلف الرب كاملاً، ووجدت في الكهف الحجرة التي وضعتها العذراء المباركة تحت رأس الطفل، ووجدت أيضاً القش، وأقمشة القماط، وصندل يوسف، والثوب الطويل الذي ولدت فيه، وفقاً لطرائق النساء الشرقيات، اللائي عندما يكن حاملات يرتدين ملابس طويلة عريضة مثل أثواب الكهنة،

ويحمل الغلمان أذيال ملابس سيداتهم، لكن إذا كن فقيرات، وليس لديهن غلمان، يتمنطقن، ويعلقن أذيال أثوابهن من النطاق، وعلى هذه الشاكلة كان ثوب مريم العذراء المباركة، وقد تركته في ذلك المكان، مع أشياء أخرى، بسبب السرعة التي فرت بها، وهذه الأشياء جرى حفظها بأوامر ربانية، ولم تفسد، حتى أيام القديسة هيلانة التي وجدتهم.

وبعدما نظفت الموضع، بنت فوقه كنيسة ذات جمال رائع، فقد استدعت إليها معا أفضل العاملين بالخشب وبالحجارة، وأخبرتهم بتصميمها، الذي قصد بناء كنيسة عالية النفقات كثيراً جداً، هناك، إنما وفق طريقه تبقي الصخرة التي ولد تحتها المخلص من دون لمس، وبناء عليه أعدّ الصناع المكان، من أجل بناء كنيسة عظيمة، ولم يضعوا هناك إلاّ قطعاً منتخبة من الخشب والحجارة، مع ألواح رخامية مصقولة، وأعمدة ثمينة جداً، وألواحاً من خشب الأرز والصنوبر، وإلى جانب هذا أعطت هذه المرأة المقدسة المزيد، وزودت بدون توقف رؤساء الصناع بالذهب والفضة، ومعادن أخرى بدون حدود، وغطت الجدران وجميع الأرضيات برخام أبيض ومنوع، وجعلت الأجزاء العليا من الجدران ترسم بأعمال الفسيفساء.

وهكذا بنت كنيسة عظيمة وجليلة، شكلها مستطيل، ومرتبة ترتيباً فائق الجودة، بشكل بقي فيه كهف ميلاد الرب، دونما لمس، وواقع مباشرة تحت السدة، وتحت المعبد، وبنيت هذه الكنيسة وفق طرائق بناء الكنائس الرومانية، ففي المقام الأول، كانت النهاية الغربية منها عبارة عن ساباط مغطى وذلك أمام أبواب الكنيسة، وعندما يدخل الانسان يدخل إلى صحن كبير، طويل وعريض، ووراء هذا الصحن باتجاه الشرق سدة، يصعد الانسان إليها بوساطة عدة درجات، من الصحن، ويصعد الانسان من هذه السدة إلى المعبد وإلى الجزء المخصص للكهنة الذين يقومون بالخدمات والقداسات، ويصعد الانسان من المعبد إلى

المذبح العالي بوساطة عدة درجات.

ويوجد على جانبي السدة بيع، وعلى كل جانب من جوانب الصحن أجزاء نافرة من البناء، وتحت السدة كهف ميلاد الرب، الذي يبلغ طوله مقدار طول السدة، وتحت المذبح العالي حجرة مجوفة، فيها ولد المسيح، وهناك بابين يقودان إلى الكهف، أولهما موجود على الجهة اليمنى، ويقود إلى بيعة ختان الرب، ويقود الآخر إلى البيعة الموجودة على الجهة اليسرى، والطريق نحو الأسفل، إلى داخل الكهف، هو عبر ست عشرة درجة.

وللكنيسة سقف مصنوع من الرصاص، وهو ليس سقفا مقنطراً، بل — في الحقيقة — مثل الكنائس الرئيسية في روما، ذلك أنها غير مقنطرة، وللكنيسة سدة مستديرة، مليئة بالنوافذ، وهناك في الخارج ممر فوق النوافذ، وللصحن نوافذ كثيرة، على جانبيه، والكنيسة مشرقة ومضيئة.

وكانت هذه الترتيبات العامة للكنيسة، وإليكم فيما يلي التفاصيل، فقياس الكنيسة هو سبع وثلاثين خطوة بالطول، وثمان عشرة بالعرض، وتمتلك أربعة صفوف من الأعمدة الغالية النفقات، وهي أعمدة عظيمة وطويلة، وكل واحد منها مصنوع من حجرة صماء واحدة، وهذه الأعمدة مصقولة بالزيت، لذلك يستطيع الانسان أن يرى وجهه فيهم، كما يراه في المرآة، والحال نفسه بالنسبة لألواح الرخام، التي جرى تغليف الجدران بها، وهذه الألواح نظيفة إلى حد يستطيع فيه الانسان أن يرى كل شيء موجود في الكنيسة، بشكل أوضح مما يمكنه رؤيته في المرآة، وفي كل صف من الأعمدة اثني عشر عموداً، والمسافة مابين كل عمود وآخر هي اثني عشر باعاً، ومجموع هذه الأعمدة سبعين عموداً، ثمينة جداً، وهم مرتبين حسب مقتضيات البناء، ووضع فوق رؤوس الأعمدة عوارض من خشب غير قابل للتلف، حيث يقوم من فوقهم من كل جانب جدار يصل إلى السقف.

وهذا الجدار المرتفع من الأعمدة حتى النوافذ، ليس مطلياً، بل مكسياً، حيث أنه مزين بأعمال الفسيفساء، بشكل رائع على الجانبين، وذلك مثل كنيسة القديس مرقص في البندقية، ومرسوم بالفسيفساء صور من العهد الجديد مع أخرى مماثلة من العهد القديم، والكنيسة كلها بجدرانها جميعاً، إما مكسية بألواح مصقولة من الرخام الأبيض، أو مزينة بأعمال الفسيفساء، وفي هذا المقام، نجد فوق كل شيء كهف الميلاد تحت السدة، فهو مزين برخام للأرض عالي النفقات كثيراً جداً، وبألواح للجدران، وبصور، وفي هذه القضايا جميعاً لم تقصر المرأة القديسة بالنفقات، بل أنفقت بأعظم أنواع الكرم، ولذلك كان اليهود يدعون المرأة القديسة، على سبيل السخرية بـ «امرأة الاسطبل»، لأنها بنت مثل هذا البناء الفخم فوق اسطبل متواضع، وعندما أكملت المرأة القديسة عملها، أخذت المهد الخشبي، الذي قيل بأن يوسف قد صنعه، وأخذت أقمشة القماط، وصندل يوسف، وثوب العذراء الطويل، فقد حملتهم جميعاً إلى القسطنطينية، ولم تقصد سرقة بيت لحم، بل أرادت جعل الأماكن الأخرى مبجلة أيضاً، بسبب الآثار المقدسة من بيت لحم.

وقد أودعت الآثار المتقدمة الذكر في القسطنطينية، في كنيسة آيا صوفيا، ومكثت هذه الآثار هناك حتى أيام شارل الكبير (شارلمان)، فقد حرر شارل هذا مدينة القدس المقدسة، وبطريركها من سيطرة المسلمين، وأعاد السلام إلى المسيحيين الشرقيين، وعندما عاد مع جيشه إلى القسطنطينية سأل أن يمنح مكافأة لجهوده، المهد مع القش[١]، وأقمشة القماط، والصندل، والثوب الطويل للعذراء المباركة، وقد تسلم هذه الأشياء جميعاً، وأخذهم إلى روما، ووضع القش في كنيسة مريم الكبيرة، والمهد في قدس الأقداس في كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران، أما الثوب وصندل يوسف، وأقمشة القماط، التي لف فيها يسوع، فقد

١ــ حكاية حملة شارلمان ورحلته إلى الشرق اختراع بلا أساس تاريخي.

أخـذهم إلى ألمانيا الدنيـا، ووضعهم في كنيسـة العـذراء المباركـة التي بناها في آخن(١)، ويجري عـرض هذه الأشيـاء حتى هذه الأيام هناك، كل سبع سنوات، وكنت قد رأيتهم شخصياً هناك في سنة ١٤٨٧.

وكـان الحال الخامس لموضع ميلاد المسيـح كمايلي: فبعد أيام شـارلمان المتقدم الذكر، تحول الشرق كله إلى المسيحية، وصـارت الأماكن المقدسة تزار من قبل جميع أمم العـالم، وقـام بعض الرجـال الأتقياء والقـديسين ببيع كل ما يمتلكونه، وقدموا إلى الأرض المقدسة مع المال، وقد اشتروا أمـاكن للسكنى هناك، راغبين في انهاء حيـاتهم هناك، وكـان من بينهم القـديس جيروم الذي قـدم من رومـا، واختـار أن يعيش في بيت لحم، قرب مزود الرب، وقد لحقت به الأرملة باولا المقدسة جداً، وعدد كبير آخر، وكنا قد تحدثنا عن هذا من قبل.

وبعـــد هـذا العصر الذهبي، ومـع ازدياد ذنـوب المسيحيين ، تمكن المسلمـون مجدداً من الاستيلاء على البـلاد ثانيـة في أيام بندكت الثـامن، الذي ثار في أيامه شقاق عظيم في الكنيسة، وجرى اقتراف أعمال شريرة كثرة، وتحكم المسلمـون بالأماكن المقدسـة لسنين كثيرة، عن طريق أخذ الجزية، ثم للمـرة الثـانيـة تنـادى المسيحيـون في أرجـاء العـالم من أجل الأمـاكن المقـدسـة، وتوحـد الغـرب كله مع بعضـه وذهب إلى الأرض المقـدسة، في حشـد كبير، في كل من البحـر والبر، وسيطروا عليها بعـد جهـد كبير، ونصبـوا ملكاً في القـدس، وأعـادوا بناء الكنـائس والديرة ونصبوا أساقفة وكهنة من أجل زيادة أعمال الصلوات للرب، وتمكنوا في وقت قصير من وضع جميع البلـدان التي من حـولهم تحت طاعتهم، إلى حد أن مامن أحد حرك اصبعاً ضدهم، وقام الصليبيون في الوقت نفسه بتحصين البلدات والقلاع، ومتنوا بشكل خاص مدينة القدس، وكذلك بيت لحم ضد غير الصليبيين بالأسوار والأبراج.

وكـــانت بيت لحم في هذه الآونة آهلـة بالسكان، ومشهـــورة وثرية،

وجلب المسيحيـــون من كل بلد في الأرض الهدايا إلى هنـاك، وعــاش التجار الأثرياء جداً فيها، ولذلك يوجد في هذه الأيام رواق مقنطر أمام الكنيســة، تحتـه قـامت حـوانيت التجـار، وازدهر رجـال الدين والناس سواء كثيراً في المجالات الدنيوية والروحية، وتدفق الحجاج في كل يوم، من جميع أنحـاء الدنيا، عليهـا في جماعـات كبيرة، ليس من أجل التمكن فقط من رؤية الأماكن المقدســة، والحصول على الغفرانات، بل في سبيل رؤية أمثلة للاستقامة، ولكي يـأخذوا معهم إلى ديارهم وأوطانهم تقوياً لحيــاتهم، ولاسيما في الأعيـاد الرئيسيـــة، أي في أعيـاد: ميــلاد الرب، والقيامة، فوقتها كانت تجتمع هناك حشود هائلة مع جميع أطراف الدنيا، حتى أن البـلاد كانت تجد صعـوبة في استيعابهم، وذلك بسبب التقـوى العظيمة التي أقيمت فيها العبادات المقدسة والصلوات.

وكـانوا قد اعتـادوا على الاحتفـال بعيد ميـلاد الرب، وفق الطريقـة التـاليـة: يقـدم بطريرك القـــدس عشيـة ميـلاد الرب إلى بيت لحم، مع أسـاقفته، ورعـاة الديرة، ورجـال الدين والرهبـان، وكـان يأتي برفقتهم ملك القدس مع أمرائـه، وكونتاته، وفرسانـه، ولورداته، ونبلائه، الذين كان يلحق بهم حشد لايحصى عدده مـن الحجاج، يقودهم المقدم الأعلى للاسبتـارية مع سـادة فـرسان الاسبتـارية، وعـامـة الناس من الشيـوخ والشباب كنت تراهم جميعاً مسرعين إلى بيت لحم في ذلك اليوم.

وتوجه في منتصف الليل الأجـراس المقروعـة الدعوة إلى جميع الناس للقــدوم إلى كنيســة ميــلاد المسيح، حيث يمضي أسقـف بيت لحم مع أتبـاعــه، بعـد صـلاة الصبح، في مسيرة، وهم جميعـاً يرتـدون الثيـاب المقدسة، ويتجهـون إلى كهف الميلاد، وينشدون قداسـاً في موضع الميلاد هو: « Dominus dixitadme » الخ، وبعد الفـراغ من هذا القداس، يخرجـون جميعاً من الكنيســة، في مسيرة، وهم يحملون المشاعل المضـاءة، والمصـابيح، وأدوات الاضاءة الأخـرى، وينزلون إلى الوادي، ويسيرون

حتى كنيسة «المجد في الأعالي»، حيث يقيمون قداس: «Lux Fu-lojebit cum mango gaudio » ويتولى انشاد هذا القداس واحد من كبار قادة الجوقات، والكهنة، وبعد الفراغ من هذا القداس يصعدون ثانية، وينشدون بقية أناشيد تلك الساعة الشرعية.

وفي هذا الوقت يضع بطريرك القدس عليه ثيابه المقدسة، ويتولى إقامة قداس: «Puerest natus » الخ، ويفعل ذلك في السدة، بشكل مهيب مدهش، وقد اعتادوا أن تكون لديهم نجمة ذهبية كبيرة، كان بعضهم ينزلها من سقف السدة، إلى وسطهم، وفي الوقت نفسه يقف بعض الشبان في الأعلى ويغنون «المجد لله في الأعالي»، ويحركون النجمة بشكل مستمر من الشرق إلى الغرب، ويفعلون مثل هذا في يوم عيد الختان، ففي ذلك اليوم كان يجري احتفال مهيب في بيت لحم، ومثل هذا في يوم الملوك، حيث يجتمع الناس جميعاً مع هدايا، وفي اليوم الثامن لعيد الغطاس، اعتادوا على الاحتفال بعيد التعميد، في كنيسة القديس يوحنا المعمدان على الأردن، ومن أجل هذا كان جميع الناس ورجال الدين ينزلون إلى الأردن، ويجتمعون في يوم عيد البشارة في الناصرة، ويلتقون في يوم الجمعة الحزينة، وفي يوم عيد الفصح في (كنيسة) الضريح المقدس، أما في يوم العشاء الأخير فقد كان اللقاء فوق جبل صهيون، ومثل ذلك في يوم عيد الحصاد، لكن في يوم عيد صعود الرب كان اللقاء فوق جبل الزيتون، وأما في يوم صعود مريم العذراء المباركة، فيكون الاجتماع في وادي شعفاط.

وكانت رغبة الناس الوحيدة هي إقامة قداسات بتقوى مهيبة، فقد حافظوا طوال أيام هذا الاخلاص في القلب، وتحمل التكريس التقوي للأماكن المقدسة، على الاحترام العظيم والجمال، وعاش المسيحيون بسلام وهدوء، ولو أن انسانا رأى كنيسة بيت لحم بجميع تزييناتها، لتولته وقتها الدهشة تجاه عظمتها.

ويصيب الحال السادس لموضع ميلاد الرب كل مؤمن كاثوليكي بالأسف، فياللأسف أخواني اللطفاء، إنه من أجل أن أخبركم بهذا، أنا مرغم على تغيير اسلوبي، وأن أقدم لكم للشرب كأس المرارة، التي تسلمتها أنا بأسى ونحيب، وهي مليئة حتى الحافة بفظاظه الحزن، فعندما كان المسيحيون يتعبدون الرب في الأرض المقدسة، امتلكوا الأماكن المقدسة بسلام، وخدمتهم جميع الأمم، لكن عندما جرى اهمال أعمال عبادة الرب، حدث عكس هذه الأمور، ففي سنة ١١٨٦ لتجسيد الرب، وفي أيام البابا أوربان الثالث، كان هناك ملك في القدس اسمه غي، وقد كان مهملاً، وسيء الحظ، فقد نشب بينه وبين أمرائه صراع، وفتنة، وبناء عليه كان نبلاء البلاد متخاصمين ومتحاسدين، وبات الكهنة، ورجال الدين جشعين ومتشامخين، وكان عامة الناس غير منضبطين وأشراراً، ولهذا نهض المسلمون ضدهم، وأخضعوهم واضطهدوهم إلى حد الافناء.

علاوة على هذا اقترف أحد المسيحيين ذنباً عظيماً في كنيسة بيت لحم، ولذلك تبددت جميع الشجاعة والقدرة على المقاومة وانتزعت من المسيحيين، وصاروا أضعف من النساء، وفي الحقيقة كان عاراً عظيماً ومرعباً، ان يتحدث الانسان، كيف قام المسيحيون، فحولوا دير كنيسة بيت لحم، الذي بني تشريفاً لمريم العذراء الأعظم مجداً، وأم الاحسان، وموضع اللطف، ووعاء النقاء، حولوه إلى بيت سيء السمعة، مراغمة لأم الرب، وإنني أمقت الحديث عن هذه الواقعة، لكن الخراب الذي آل إليه المكان، والوضع المحزن الذي بات فيه، والذي يتوجب البكاء من أجله بسبب هذه الجريمة، لايسمح لي بالمرور به وأنا صامت.

فقد كان هناك مسيحي في تلك الأيام، أحب امرأة مسلمة، حباً لم يكن نظيفاً، وبالحاح شديد طلبها في كل يوم لترضى به، لكنها قاومته باستمرار، وهربت منه، وفي أحد الأيام، عندما كان غاضباً، قامت المرأة

برغبـة غير اعتيـادية، فألقـت بين أسنانه اسم المسيح، وطهـارة الديانة المسيحيـة، الأمـر الذي استخف به، وأعلن أن الجريمـة ليست كبيرة كما يظن الانسـان، وقـامت المرأة فبينت فضـائل المسيحيين في أشيـاء كثيرة، وفكرت بأنها ينبغي أن تتحـرش به وتغـويه، ودفعهـا حب الفضـول، فـرغبت أن تجربـه لتعـرف هل هناك أية فضيلة أو خـوف من الرب في ذلك المسيحي، فقـالـت له في أحـد الأيام، ياهـذا لقـد هزمت أمـام إلحاحك، ورضيت بك، لكنني لن أستسلم لـك إلاّ في كنيسة القـديسـة مريم في بيت لحم.

وعن طواعية قبل بهذا الشرط، والتقيا في الساعة المحددة في الكنيسة، وكان معا لوحدهما، وعندما رأت المرأة، أنه لم يعبأ بالكنيسة ولم يهتم بها، وأنه لم يضبط نفسه هناك فيها، قالت له: إنني لن أستسلم لك هنا، دعنا نذهب إلى كهف ميـلاد ربك، فهناك ظلام وسرية، فنزل على الفـور مع المرأة، التي وضعت نفسهـا فـوق معلـف الرب، وجلست هناك، ولدى محاولته الضغط فوقها، نهضت وجلست فـوق الحجرة، التي هي موضع الميـلاد الأعظم قـداسـة، وقـالت للمسيحي هنا كـان ربك قـد ولد من العـذراء، فإذا كنت على استعداد للاضطجـاع معي هنا، فأقـدم، وذهب ذلك اليـائس والتعيس بلا حـدود، إليها دون خـوف، ودون إبداء أدنى اهتمام بالمكان.

وعندما رأت هـذا، قامت تلك المرأة، وهي رافضـة لشروره ومزدرية له، فألقته بغضـب واطاحت به وأبعدت ذلك المسيحي عنهـا، وقالت: اذهب أيها المسيحي الشرير جـداً، واعـرف ان هذا الشر لن يمـر بدون عقـاب، ومـا أن قـالت هذا حتى هـربت، ودخلت أولاً إلى بيت لحم، وقـامت وهي تصرخ وتبكي فأخبرت جميع الناس الذين رأتهم بما وقع لها، ونددت بعنف وحـرضت ضـد المسيحيين، وحثت المسلمين على القيام بالانتقام لها منهم.

ومنذ ذلك الحين غـــدت تلك المرأة نوعـــاً مـن أنواع المتنبـآت بين المسلمين، وبشرت بينهم أنه لم يعـــد هناك أية فضـــائل بين المسيحيين، وأنهم يمكنهم بلا خـوف مقـاتلتهم، وطـردهم من البـلاد، ولدى سماع المسلمين بهذا، استثيروا بـالحماس الدينـي، وثـاروا ضـــد الصليبيين، وشرعوا يكافحون بشدة ضدهم، وقهـروهم، وقاموا خلال وقت قصير بطرد جميع اللاتين من بلادهم.

وكـان الذي عمل الشر المتقـدم ذكـره، واحـداً من أعظم الصليبيين وأكثرهـم قوة، آه، لو أن مثل هذا الشر والاثم اقترف في أيام جيروم، كم من النحيب والبكاء كان سيسبب! لأنه كان في أيام جيروم شماس اسمه سابينيانوس Sabinianus ، وعذراء اسمها سوزانا، وقد شرعا بحب أحدهما الآخـر، واعتادا أن يخفيا رسائلهما إمـا في كهف ميلاد الرب، أو في كنيسة الضريح، وقد عثر القـديس جيروم عليهم، وإذا ما أراد انسان أن يعـرف أي بكاء ونحيب سببوا له عليـه أن يقـرأ رسالة الملامـة التي وجهها إلى سـابينيانوس، ووقتهـا من الصعب عليه أن يحبس نفسـه عن البكاء مع النحيب، وهكذا أصبحت الأرض المقـدسة في أيدي المسلمين وأعداء صليب المسيح، وهي مابرحت بأيديهم حتى هذه الأيام، وكانت بأيديهم من قبل لمدة مائتين وثمان وسبعين سنة، وهكذا صار واضحاً أنه مثلما بدأ خلاصنا من بيت لحم، مثل هذا بدأت عقوبتنا من هناك أيضاً.

الوضع الحالي لكنيسة بيت لحم

والحال السـابع لموضـع ميـلاد المسيح، هو الوضع الـذي أنا الراهب فيلكس فابري قـد شاهدته فيه، فبعدمـا انتصر المسلمون على الصليبيين، وأخرجوهم من البلاد، اندفعـوا أولاً نحو القدس، وإلى كنيسة الضريح المقـــدس، راغبين بهدمهـــا، لكن السريان، أي المسيحيين الســـوريين، أنقذوها، بإعطاء السلطان مبلغـاً كبيراً من المال، وقدم السلطان بعد هذا إلى بيت لحم، حيث خرق الدفاعات القوية جداً التي كانت مبنية هناك،

وهدم سور المدينة، والتفت بنفسه نحو كنيسة ميلاد الرب، وهدم أولاً الدير الملاصق للكنيسة، الذي كان عظيماً جداً وفخماً، وهدم أسوار المدينة وأبراجها، التي كان الصليبيون قد بنوها مقابل نفقات كبيرة وجهود عظيمة، وتركوا كومة من الخرائب مثيرة الحزن حول الكنيسة، وعندما خرب الدفاعات، قام بمهاجمة الكنيسة، قاصداً خرقها وتهديمها.

وعندما دخلوها، أولاً هدموا المذابح، ثم حطموا التماثيل المنحوتة، ثم إنه عندما رأى السلطان الألواح الرخامية، التي زينت بهم الأرض والجدران، وشاهد الأعمدة الثمينة جداً، أعطى الأوامر بوجوب خلعهم جميعاً ليأخذهم إلى حيث رغب، غير أن معجزة وقعت واعجوبة انتشر خبرها بين المؤمنين، فعندما جاء العمال مع أدواتهم، ولمسوا الجدار الذي هو قرب الباب الذي يقود إلى كهف الرب، وحاولوا العمل به بالعتلات، كان السلطان واقفاً هناك يراقبهم، على مقربة من الجدار الصحيح الأصم، الذي بدا أن الإبرة لايمكنها خرقه، خرج وقتها ثعبان بحجم مدهش، استدار برأسه باتجاه الجدار، وقام بعضّ أول لوح رخامي، فمزقه بلسانه الناري، وزحف من هناك مسرعاً إلى اللوح التالي، وهكذا إلى اللوح الثالث والرابع، وتابع عمله على طول ذلك الجانب محطماً كل لوح.

ثم إنه قفز إلى بيعة الملوك الثلاثة، وركض على الجدار المصقول صقلاً عظيماً، إلى حد أن العنكبوت لايمكنها أن تثبت قدميها عليه، فدمر أربعين لوحاً في صفين واختفى، ولدى رؤية السلطان لهذه المعجزة تملكته الدهشة، وكذلك الذين كانوا من حوله، ولذلك بدل مقاصده، وأقلع عن التخريب وانصرف، وماتزال آثار الثعبان على الألواح باقية حتى هذا اليوم، وكأن انساناً وضع أداة حديدية حامية وضغط بها بشدة على الأحجار، وكذلك كأن الحجارة نفسها كانت قابلة للاحتراق مثل

الخشب، ولقد رأيت آثار هذه المعجزة بسرور عظيم، وغالباً ماكنت أنظر إلى الألواح بدهشة وتعجب عظيم.

وبعد هذا، جاء مسلمون في سنة ١٣٤١، كان السلطان قد أرسلهم، لنقل الأعمدة الثمينة، لكن عندما وضعوا أيديهم عليهم خافوا خوفاً شديداً، بسبب رؤيا مرعبة، حتى أن أطرافهم انشلت ولم يعد بإمكانهم فعل شيء، ولذلك هربوا مذعورين، ولم يحاولوا ثانية وضع أيديهم عليهم، وبعد مرور بضع سنوات، أعطى سلطان آخر الأوامر مجدداً، في الحقيقة ليس بوجوب هدم الكنيسة بل بانتزاع ألواح الأرضية في كهف الرب، وكانت ألواح أرضية مزود الرب باهظة النفقات، وكبيرة وواسعة، وليست جميعها بيضاء، بل ذات ألوان جميلة مزجت مغ الأبيض، كما الحال في جلود العجول، وعندما نزلوا نحو الأسفل مع أدواتهم، لقلع هذه الألواح، تحطم باستمرار كل ما لمسوه بأدواتهم أو بأيديهم وتفتت إلى قطع صغيرة جداً، مثل خشب مهترىء، ووجدوا أنهم فيما لو اقتلعوا الألواح فذلك سيكون بلا فائدة، وعندما رأوا هذا، تركوا الألواح في أماكنها وهربوا، وقمت بقياس هذه الألواح، فوجدت كل واحد منها عرضه سبعة أقدام، وطوله اثني عشر قدما، وهي مصقولة كأنها مرايا.

وليس قبل سنوات كثيرة مضت، تلقى بعض الشبان المسلمين العقوبة عندما وضعوا أيديهم المدنسة على هذه الأحجار المقدسة، فقد ساد اعتقاد بين المسلمين، أنه يوجد تحت حجرة ميلاد الرب، وتحت المعلف كنوز لايمكن تقديرها، مدفونة هناك، غير أنهم لم يتمكنوا من العثور عليها أو رؤيتها، وتسلق بعض الشباب الفضوليين والجشعين إلى داخل الكنيسة أثناء الليل، وكان ذلك من خلال النافذة الموجودة فوق مذبح ختان الرب،ودخلوا إلى الكهف الأعظم قداسة، واقتلعوا الألواح عند موضع الميلاد، وكذلك الألواح التي هي عند المعلف، وكان كل ما

اقتلعوه يتفتت بين أيديهم، وعندما شرعوا بالحفر استولى عليهم رعب شديد، وأخذوا يرتجفون، ولذلك تركوا أدواتهم، ونزلوا من النافذة التي دخلوا منها، وتركوا منطقتهم، حتى أن مامن أحد يعرف إلى أين ذهب هؤلاء اللصوص.

ولقد قيل صدقاً، وبدون شك، بين الذين يسكنون قرب البقعة، أن مامن مسلم يمكنه أن يحمل أي شيء إلى خارج الكنيسة بنفسه بيديه، وإذا ما وضع مسلم يديه على أي شيء مع النية بأخذه هو لن ينجو دون عقاب، إنما على الرغم من هذا كله، جرى انتزاع الكثير من الألواح المصقولة من على الجدران من قبل لصوص مسيحيين، لأن الأشقياء من المسيحيين الشرقيين يسرقون مثل هذه الأشياء ليبيعوها إلى المسلمين، ولهذا السبب يستأجر المسلمون في بعض الأحيان لصوصاً مسيحيين بثمن، ليسرقوا لهم الألواح التي اشتهوها.

ومامن أحد لديه أدنى شك، أن المسلمين لو استطاعوا أخذ جميع التزيينات الرخامية، لأخذوا كل شيء منذ زمن طويل مضى، لكن الرب يتولى حراسة هذه الأماكن من أجل مواساتنا وفي سبيل مجده الذاتي، ولن يسمح لهم أن يصيروا ضحية المذنبين، ففي خلال حجي الأول، كان سقف الكينسة، الذي كان وزنه ثقيلاً، لأنه معمول من الرصاص، مهدداً بالسقوط فوق السدة وكان ممسوكاً فقط بعضائد خشبية، أقيمت فوق السدة، حيث عليها استند، ووقتها تمنيت أن يحيي الرب الملك يهو آش، الذي قرأنا عنه في سفر الملوك الثاني: ١٢، بأنه أرغم الكهنة على ترميم الفجوات في هيكل الرب، والذي غالباً ما تأسف بعمق من أجله، هو بسبب الخوف من أن تسقط الكنيسة وتصبح في وضع لايمكن ترميمها فيه، لأنها لو تهدمت، لن يكون بالامكان إعادة عمارتها، ومرد هذا إلى أن هناك أوامر صدرت إلى المسلمين في قرآن محمد (صلى الله عليه وسلم) بعدم السماح للمسيحيين

ببناء كنائس جديدة، ولابترميم الكنائس القديمة.

فلسنوات طوال رفض السلطان السماح للمسيحيين باصلاح الفجوات في تلك الكنيسة، لكنه أخيراً وافق بعد الحاح مستمر من رهبان الفرنسيسكان في جبل صهيون، فتراخى بشروطه وسمح باصلاح الفجوات ، ولذلك اتخذ الرهبان اجراءات بتأمين جميع الأخشاب المحتاجة لهذه الاصلاحات وتحضيرها في البندقية، وذلك من قبل صناع أعطيت لهم مقاييس الكنيسة، وجلبوا هذه الأخشاب بغلايين عبر البحر إلى ميناء يافا، ونقلوها من يافا إلى بيت لحم على ظهور الجمال، وهكذا تم ترميم السقف كله من قبل الصناع البنادقة، كما أن جميع التلف والأعطال التي ألمت بالأخشاب وبالرصاص جرى اصلاحها وعادت جيدة، بعد جهد كبير ونفقات عالية، لأنهم انتزعوا الأخشاب القديمة التي هي من الأرز والسرو من جبل لبنان، ووضعوا محلها أخشاب جديدة من الصنوبر من جبالنا.

وفي الحقيقة عندما كان سليمان يبني الهيكل في القدس، تسلم أخشاب أرز من لبنان، أرسلها له ملك صور بالسفن عبر البحر إلى يافا، وقام هو بجلب هذه الأخشاب من يافا إلى القدس، وذلك حسبما قرأنا في سفر أخبار الأيام الثاني:٢، وفي يشوع:٣/ ٢، ومثل هذا تسببت القديسة هيلانة بجلب عوارض خشبية، من خشب الأرز، وحملها بالسفن عبر البحر إلى يافا، وبحملها من هناك براً إلى بيت لحم، وكان هذا وقتها سهلاً، وكان من الممكن تدبره خلال عدة أيام،لكنه صعب جداً في هذه الأيام بالنسبة للمسيحيين، أن يجلبوا الأخشاب من لبنان، لأن المسلمين هم الذين يمتلكون هذه البلاد، وعلى فرض أنهم سمحوا لنا بأخذها كانوا سيثقلونها بضرائب عالية جداً، وبعشور، وبمكوس أخرى، ولذلك كان من الأسهل جلب الأخشاب من جبال الألب لدينا، من أجل ترميم كنائس المسيح، من أن تحمل من الجبال القائمة على حدود

الأرض المقدسة.

وأعتقد أنه لم يعد في لبنان نفسه المزيد من أخشاب الأرز، مثلما لم يعد هناك فوق جبل صهيون المزيد من أخشاب السرو، ولهذا قال سليمان في سفـر الحكمـة: «لقـد مجدت مثل أرزة في لبنـان ومثل سروة على جبل صهيون»، وبعد ترميم هذه الكنيسة، أصبحت هذه الكنيسة أنظف، لأن سقفهـا كان من قبل مليئاً بـالحمام والعصافير، وأعشـاش لمختلف أنواع الطيـور، التي تزرق من الأعلى، وتلوث الأرضية الثمينة، ومنذ ترميمهـا توفرت ثعـالب صغيرة (فنك) كانت تقـوم بالسعي هناك ولاتترك طائراً حيـاً، وتبقي بذلك السقف محفوظاً من جميع الأوسـاخ، وكنت في بعض الأحيـان وحيـداً أثناء الليل في تلك الكنيسـة، وكنت أسمع كثيراً من الحركة هناك، كانت تقـوم بها الثعالب في السقف، ولذلك كنت أخاف، معتقـداً بوجـود بعض محاولات الإضرار، حتـى علمت الحقيقـة حـول ذلك.

ولم يسمح سيد مصر وملكها السلطان قايتباي فقط بإعادة ترميم هذه الكنيسة، بل إنـه سمح بإعادة بناء الخرائب الموجـودة في كنيسة الضريح المقـدس، وذلك مـراغمـة لشريعـة نبيـه محمـد (صلى الله عليـه وسلم)، وأعتقد أن سلطان أيامنـا هذه هو أشبه بملك قورش جـديد، الذي وإن كان من الأمم، سمـح لليهود بإعادة بناء هيكل الـرب في القدس، الذي كـان نبوخـذ نصر قـد خربه، ونقـرأ عن قـورش ملك فارس، في سفـر أسديراس الأول، وفي سفر إشعيا:٤٦، ولم يكن قورش قد فعل ما فعله من قبل نفسـه، بل الرب هو الذي ألهم روحـه ودفعـه، حسبما قـرأنا في الاصحـاح الأخير من سفـر أخبـار الأيـام الثـاني، وفي السفـر الأول لاسـديراس، ومثله كـذلك في الحقيقـة هذا السلطان، حيث تحرك بالهام من الرب، فأعطى الإذن بترميم الأماكن المقدسة، ولسوف يعطي الإذن بأكثر بكثير، مـالم يقم أعداء المسيحية بحـرفه عن مقاصـده، مثلما حدث

لعزرا، كما قرأنا في الاصحاح الخامس(؟) من اشعيا، وفي ثنايا جميع سفري نحميا وعزرا كما علينا أن لانصدق ما يشاع — كما يفعل كثيرون — بأن السلطان تحرك بشكل رئيسي بسبب حب المال، والربح الذي جناه من الحجاج، وأنه لهذا سمح بإعادة ترميم الكنائس المسيحية، لأنه في الحقيقة فعل ذلك بدافع أساسي هو الالهام من الرب، مع أنه لم يعلم شيئاً عن ذلك.

ولولا أنه فعل ذلك، ماكان المسلمون ليسمحوا بأي حال من الأحوال للكنائس أن تقف، وما كانوا ليأذنوا بأي شكل من الأشكال للحجاج بالتجول حول المناطق كما يريدون، حتى وإن كان مبلغ المال المعطى إليهم عظيماً، ذلك أن كراهيتهم نحونا فاقت بكثير حبهم للمال الذي يتوقعوه منا، وهو مال قليل بما فيه الكفاية، ثم إن الملك السلطان لايتسلم ولافلساً من ذلك المال، بل يأخذه فقط بعض من الرجال الموظفين لديه، وهؤلاء لايمكنهم العيش حياة رفاهية على هذه الأموال، ولهذا ينبغي علينا أن نقدم الشكر للرب لأنه صرف قلب السلطان نحونا، ويتوجب علينا أن نصلي لإطالة حياة الملك والسلطان، وذلك مثل الذي قرأناه بأن اليهود قد اعتادوا على الصلاة لاطالة عمر ملوك الأمم من أمثال: نبوخذ نصر، وقورش، وأرتراكسرس، وأنطيخوس، وذلك حسبما جاء في الاصحاح الأول من سفر باروخ، وتظهر النتائج بأن السلطان قد مال نحو عقيدتنا،وأنا لا أشك بأن هناك بعض الحكماء، والفصحاء والأقوياء بين المسيحيين، هم سيوجهون نحوه تلك الصلاة التي خاطبه بها المعلم المبجل نيقولا دي كوسا، في الكتاب الثالث — الفصل السابع عشر، من ترجمته للقرآن، حتى يصرف نفسه نحو طريق أحسن، وأنه ينبغي على المسيحيين أن يصلوا له، فهذا ما أوضحته بجلاء في الجزء المقبل.

المسيحيون من مختلف الطوائف المقيمون في الكنيسة في بيت لحم

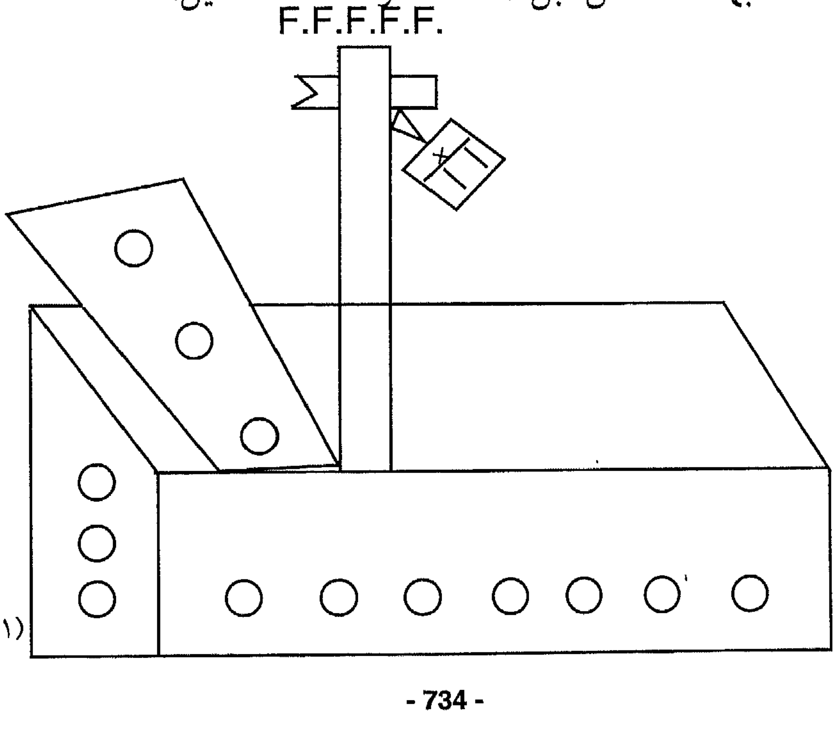
الجزء العلوي من الكنيسة في بيت لحم مدنس وملوث، وليس فيه مصباح واحد في جزئه العلوي، ولا في السدة، ولا في الصحن، ولا في البيع، بل إنه قائم مثل هري بلاقش، أو حانوت صيدلي بدون قوارير العقاقير، أو مكتبة بلاكتب، والصور الثمينة آيلة إلى السقوط من على الجدران، ولا يوجد أحد ليقوم بترميمها، ومع هذا نحن شاكرون لأن جسم الكنيسة مايزال قائماً، والكنيسة الآن موزعة بين المسيحيين تبعاً لاختلاف طقوسهم، وذلك مثلما تقدم وبينا بشأن كنيسة الجلجلة، وكذلك كنيسة العذراء المباركة، فقد امتلك الاغريق السدة، وامتلك اللاتين كهف ميلاد الرب، وامتلك الأرمن المذبح الموجود عند المكان الذي قدّم فيه الملوك الثلاثة هداياهم.

ومامن شيء في تلك الكنيسة مكرس أو مضاء بالمصابيح، إلاّ كهف ميلاد الرب، وكنت كلما وجدت نفسي في بيت لحم، أقيم القداسات في هذا الكهف كمايلي: كنت أولاً أقيم الساعات الشرعية وفقاً لاحكام كتاب صلواتنا المختصر، وبعد هذا، وفي المقام الثاني، كنت أتلو الصلوات الساعية المتعلقة بميلاد الرب، والقداسات الثلاثة التي تتلى في يوم ميلاد الرب، خلال ثلاثة أيام متعاقبة، وكنت أقرأ في الكهف في اليوم الأول عند منتصف الليل قداس: «Dominus dixit ad me» الخ، وفي اليوم الثاني «Lux fulgebit in Aurora » الخ، وفي اليوم التالي الذي هو اليوم الثالث : «In clara luce puer natus est» لأن الرب قد سمح لي بالبقاء وقتاً طويلاً في ذلك المكان، كنت قادراً فيه على القيام بالقداسات المتقدمة الذكر، وأنا شاكر للرب من أجل ذلك.

مغادرة الحجاج لبيت لحم ودخولهم إلى القدس

وعندما فرغنا من زيارتنا لبيت لحم، امتطينا ظهور حميرنا، وغادرنا

من هناك، وعندما وصلنا إلى طرف البلدة كانت هناك امرأة ميته محمولة للدفن، وقد حضر جنازتها جميع المسلمون من نساء ورجال وهم يصرخون ويولولون بأصوات عجيبة ومرعبة، وقد رفعوا أيديهم وكانوا جميعاً يضربون بها فوق رؤوسهم، وعندما رآهم أدلاؤنا، عرفوا الذي كان جاريا لذلك دفعوا بنا إلى الجانب بالصراخ وبالتهديد، وأبعدونا عن الطريق، خشية أن يحدث فنلتقي نحن والمشيعين معا لأننا كنا متميزين بعلامة الصليب، ولو صدف وقابلناهم ونحن نحمل صلباننا، لأثار الشيطان شجاراً مرعباً، ذلك أنهم بلاشك كانوا سيثورون ضدنا، ويطردوننا بعيداً عنهم بالحجارة، وذلك بسبب الاحترام المقدم للمرأة المتوفاة، لأنهم يعتقدون بأن موتاهم غاضبون بشكل خاص منا، وأن تجولنا حول الأرض المقدسة سوف يسبب لهم العذاب في العالم المقبل، وكانوا سيرضون بالسماح لنا بالسكنى بينهم، لولا أنهم يقولون بأن موتاهم لايمكنهم السكنى معنا، وهكذا دخلنا إلى القدس للاستراحة، وذلك حسبما تحدثت من قبل (لأن السفر كان أثناء الليل).



(١)

دخول الحجاج الثاني إلى ضريح الرب، رسم الفرسان هناك، واطراء تلك الفروسية

وفي اليوم السابع عشر، الذي كان يوم عيد القديس ألكسيوس المعترف، وفي المساء المتقدم، وذلك عندما قدمنا من بيت لحم، وجهت الدعوة إلينا جميعاً للاجتماع في ساحة كنيسة الضريح المقدس، ولذلك بادرنا مسرعين ونزلنا إلى الكنيسة، حيث وجدنا عدداً كبيراً من المسلمين أيضاً، ومن التجار، غير أننا لم نجد شيئاً للأكل معروضاً للبيع، مثلما حصل معنا من قبل، وانزعجنا من ذلك، لأننا كنا متعبين من رحلتنا، ولدينا وقتاً قليلاً للاستراحة، فقد نزلنا إلى هناك أسرع مما كان ينبغي، وذلك على أمل العثور على طعام في الساحة، يمكننا أن نأكله في الكنيسة، لكن مامن أحد قدم لنا ذلك.

هذا ولسبت أدري كيف حدث، أو من تدبر، قيام سادة المسلمين، والأوصياء على الكنيسة بالاعلان في المدينة، بوجوب أن لايجلب أحداً أطعمة إلى الحجاج، ولقد خيل إلي أن ذلك كان بمبادرة من الأب المحترم المسؤول، ليوقف التصرفات غير اللائقة التي صدرت عن الحجاج، حيث أن بعضهم قد جلس طوال الليل يأكل ويشرب في الكنيسة، مثل أولئك الكورنثيين الذين أثنى الرسول عليهم (كورنثا الأول:٢) في كل شيء، إلاّ أن كل واحد منهم يعمل على أكل عشائه في الكنيسة، وكان هناك خلاف بينهم، لأن أحدهم كان جائعاً، وكان آخر سكرانا، ومثل هذا حدث بين الحجاج، فبعضهم كان قد أتخم نفسه بالطعام، في حين كان آخرون صياماً، وهكذا كان إجراء أخلاقياً وجوب عدم جلب الأطعمة.

١- كلما أقحمت هذه الصورة في النص، فهذا يعني أن فابري وأصحابه قد أمضوا الليل في كنيسة الضريح المقدس.

وعندما اجتمعنا معا، فتح السادة المغاربة أبواب الكنيسة المقدسة، وتركونا ندخل وفق الطريقة نفسها التي كنا قد دخلنا بها من قبل، ودخل معنا — مثلما حدث من قبل— رهبان جبل صهيون، وكان بين الذين دخلوا معنا منهم، جون أوف بروسيا، ذلك الرجل العظيم الذي كنت قد تحدثت عنه من قبل، والذي كان مدير أعمال رهبان جبل صهيوّن، والذي وإن كان مدنيا في وضعه، لكنه كان (راهبا) نظاميا في طبعه وحياته، وهو الذي باختياره جرى استخدام رداء الطائفة الثالثة من جماعة القديس فرنسيس،مع أنه لم يقطع على نفسه العهد بإطاعة أحكام هذه الطائفة، وكان هذا الرجل من أصل نبيل، من أسرة مرتبتها مرتبة كونت، وهو ألماني من منطقة بروسيا، وكان طويل القامة، وله لحية طويلة، وله حضور ومهابة، وله شعر رمادي محترم، وكان على درجة عالية من الحكمة، وصاحب خبرة كبيرة، وهادىء الطباع، وصاحب ضمير، وكان يخاف الرب، وقد مَنحت هذا الرجل الجيد، هذا الاطراء ليس بناء على السماع بل اعتماداً على معرفة أكيدة، وكان يمتلك سلطات مولانا البابا، وسيدنا الامبراطور، وتفويض ملوك وأمراء العالم المسيحي، من أجل ايجاد الفرسان ورسمهم من بين جميع نبلاء الحجاج الذين قدموا إلى الضريح المقدس للرب، علاوة على ذلك كان معروفاً من قبل السيد السلطان، الذي عامله باحترام عظيم، وكان أيضاً محترماً لدى جانم Naylon(الأشرفي) الذي كان حاكم مدينة القدس، ولدى sobathylanco، والفحل الكاليني، ولدى التراجمة، الذين جميعاً عرفوه واحترموه، ولهذا منحه سادة البلاد الاذن لإحاطة الأماكن المقدسة بأسوار من الحجارة الجافة، وذلك بعد تحديدها وتنظيمه لها، واكتفى بهذا، ولم يتجرأ على بناء هذه الأسوار (بالملاط).

وحصل هذا الرجل على الاذن بترميم المتهدم في كل من كنيسة الضريح المقدس، وكنيسة بيت لحم، وكانت لديه سلطات عظيمة في

القدس إلى حد أن المسلمين واليهود خافوا منه، وتخبأ الأطفال بأنفسهم خوفاً منه، وأعلن صادقاً بأن هناك رجلين في القدس معمران وقد تقدمت بهم السنون، وهما على درجة عظيمة من الفائدة لكل من الأماكن المقدسة وللحجاج، ولايمكنني أن أتصور كيف سيتدبر الحجاج أمورهم في القدس بعد موتهما، ولسوف أكون آسفاً جداً في أن أكون حاجاً في القدس إذا لم يكونا هناك، والأول بين هذين الرجلين هو الأخ جون المتقدم الذكر، والثاني هو الفحل، الذي هو مسلم، ويعرف باسم كالينوس الأصغر، وهو رجل جيد، عنه سوف أتحدث في مكانه.

والآن، عندما تشكلت المسيرة واكتملت، ووصلت إلى النهاية وفق الطريقة التي كنت قد ذكرتها من قبل، قام الأخ جون المتقدم الذكر، قبل منتصف الليل بساعة، باستدعاء جميع النبلاء من الحجاج إليه، وهم الذين كانوا يرغبون أن يتسلموا الفروسية في كنيسة الجلجلة، أي في السدة حيث وسط الدنيا، وذلك حسبما تحدثت في ص ٤٩٧، وبعدما صف الكونتات، والبارونات، والنبلاء أمامه، بدأ بإخبارهم بقوانين هذه الفروسية، ففي المقام الأول، كان محظوراً على أي واحد التقدم لنيل هذه الفروسية، مالم يبرهن أنه نبيل حتى الجد الرابع، وأن يكون لديه دخلاً كافياً، وأن يكون مستقيماً وجيد السمعة، وليس موسوماً بأي عمل سيء، أو له سمعة رديئة، وأعلن أن أي شخص هو غير مناسب، وقدّم نفسه أمامه، وقام برسمه فارساً، إن هذا الرسم يعدّ لاغياً، وأن مثل هذا الانسان ينبغي أن لايعدّ بأي شكل من الأشكال فارساً، بل أن ينظر إليه كساخر، ومهين، ومستخف بالنبالة، وأخيراً استدعاهم للاقتراب منه لتلقي فروسيتهم في ظل الخوف من الرب مع الاحترام، وأن يكونوا في كل شيء مطيعين للبابا وللامبراطور، الذي بسلطان منه جرى اضفاء هذا الشرف عليهم، وأن يتولوا الدفاع عن الكنيسة الكاثوليكية، وأن يحافظوا على جميع حقوقها، وأن يتولوا حماية الأساقفة والقتال لصالحهم،

وكذلك الحال بالنسبة للرهبان ولجميع رجـال الدين واللاهوتيين، وأن يحافظوا على أراضيهم ومقتنيـاتهم، وأن يرعوا الصـالح العام بسـلام أي أن يتعـاملوا باستقامـة مع الأيتام، والأرامل، والغرباء، والفقـراء، وأن يواسـوا جميع الناس المؤمنين أثناء مصـائبهم بمنحهم المسـاعدة، عندمـا يطلبون منهم، فضـلاً عن هذا حرّم عليهم عقد أية معـاهدات مهما كان نوعهـا مع الكفـار، بل أوصاهم بالقيـام بطردهم وبإبعـادهم عن العـالم المسيحي بقـدر الامكان، وفـوق كل شيء، عليهم بذل كل مـالديهم من طاقـة من أجل انتـزاع الأرض المقدسـة، والضريح الأعظم قـداسـة من أيدي المسلمين، وأن عليهم حـث جميع الملوك والأمـراء، والدوقـات، والكونتـات، والمركيـزات، وجميع الرجـال الآخـريـن من أهل السيف، للقدوم بأقصى سرعة ممكنة بالنسبة لهم، من أجل إنقاذ الأرض المقدسة، وأن عليهم إثارة عقول جميع الناس لمساعدتها، وأن يجعلوا ذلك شغلهم الشـاغل، وأن يسعـوا بكل يقظة ونشـاط حتى يبينوا للمـؤمنين الوضع المحـزن للضريح الموجـود بالأسر، وأن عليهم أن يكـونوا مستعـدين بأنفسهم في جميـع الأوقـات للانطلاق والقتـال مـن أجـل الأرض المقدسة.

وبعدما قال الراهب هذا كلـه، لابل وأكثر، دخل إلى الغرفة الصغيرة التي فيهـا ضريح الرب، ولحق به جميـع النبـلاء، ووقف أمـام باب الضريح، وكان لديه أسماء جميع النبلاء الذين رغبـوا باستلام الفروسية، مكتوبة وفقاً لمراتبهم، ووفقاً لهذا التنظيم أضفى عليهم الفروسية.

وبناء عليه، دعا إليه أولاً اللورد النبيـل جون، كونت سولم Solms، دعـاه إلى داخل الكهف الداخلي لآبـدة الرب، حيث فيـه، القبر الأعظم قداسة، وربط سيف الفروسية حول وسطه، وشدّ مهمازي الفروسية على قدميـه، وأمره أن يركع على ركبتيه أمام ضريح الرب، بشكل كـانت فيه ركبتـاه على الأرض، وصـدره وذراعيـه مـوضـوعين على غطاء القبر،

وعندما كـان بهذه الوضعية سحب الأخ جـون المتقدم الذكـر من غمده السيف الذي ربطه حـول وسط الكونـت، وقـام بضربه بحـد السيف ثلاث مـرات على كتفيـه باسم الأب والابن وروح القـدس، وبعـد هذا نهض الكونت، وفـك نطاق السيف والمهمازين، وقبلـه، وقـال باحترام: «لعلها تكون جيـدة لك»، وبذلك صـار فارساً، واستـدعى الأخ بارونا نبيلاً، هو مولاي جون ويرنر أوف زيمرن Zimmern، وأعطى السيف والمهمازين للكونت، حتى يرسمـه فارسـاً، الأمر الذي فعله، وبعـد هذا دخل مولاي هينريخ Heinrich ، بارون أوف ستوفـل، الذي رسمه فـارساً البـارون جـون أوف زيمـرن، ومن قبل هذا المتقدم الـذكر كـان مولاي جـون التروخسيس قد رسـم فارساً، وهـو رسم فارسـاً مولاي أورسوس أوف هوهنريخبيرغ Hohenrechberg الذي دخل بعده، وعندما تسلم هؤلاء الفروسية، وغادروا المكان، تلقى بقية النبلاء أيضاً فروسيتهم تباعاً وفقاً لمراتبهم.

وفي حجي الأول، قـام الأخ جون برسم جميع النبـلاء فرسانـاً، بيده، لأنه لم يكن هناك بينهم واحد أعلى من البقيـة في مرتبة النبـلاء، بل كان الجميع سـواء، وقـد فعل ذلك لأن المسـاوي في الرتبـة لايجوز له رسم مسـاويه فـارسـاً، مثلما ليس للمسـاوي في الرتبـة سلطة أو سيـادة على مسـاويه، لكـن عندمـا يجتمع هناك أمـراء، ومـركيـزات، وكـونتـات، وبارونات ونبـلاء، وقتها يتـولى جـون بنفسه رسم الأعلى بينهم، وبعـد رسمه له، يتولى هذا رسم الذي يليه بالرتبة وهكذا وصولا حتى الأدنى مرتبـة بين الأمراء، الذين يلتمسـون أن يرسموا من قبل هـؤلاء السادة، الذين هم بـالنسبـة لهم أتبـاع، أو أنهم ينتمـون لهم بخـدمـاتهم بشكل خاص.

ولو توفـر بعض الأشخـاص الأتقيـاء ممن تلقى الفـروسيـة بسبب التقـوى، ومع ذلـك لايرغبـون بحمل شـاراتها في بـلادهم، فإن هؤلاء

الناس لايجري رسمهم من قبل الأمراء، أو من قبل الذين يلونهم، بل إنهم يمنحون أنفسهم للأخ جون، وبناء عليه إنه في تلك الساعة التي صار فيها الجميع فرساناً، يقوم كل واحد منهم إثر تسلمه للفروسية بتقديم هبة قيّمة إلى الأخ جون، ويفعل ذلك كل انسان تبعاً لامكاناته، فبعضهم يدفع عشر دوقيات، وبعضهم ثمان، وبعضهم ست، وبعضهم خمس، وذلك من أجل ترميم الضريح المقدس والكنيسة، واحتراما للأماكن المقدسة، وللانفاق على الرهبان الذين يتولون حراسة الضريح المقدس، ومن أجل ابقاء المصابيح مضاءة، ولأغراض أخرى، يعرف الأخ جون المتقدم الذكر أنها في حاجة.

إطراء فروسية الضريح المقدس وسموفرسان الضريح المقدس وتقدمهم على جميع الفرسان في العالم

منذ قديم الزمان لم تبق روح الناس النبلاء قانعة بالمناطق التي حصل عليها آباؤهم وأجدادهم، بل إنهم اعتادوا بشكل عام على اشغال أنفسهم بالحصول على ألقاب جديدة للسمو بأسمائهم، ولقد حدثنا المؤرخون القدماء كيف أن هانيبال، الذي كان أعلى النبلاء الأفارقة شأنا، قد جاء من قرطاج، ودخل إلى بلاد ايطاليا، وكيف أنه تمكن بتفوق شجاعته من جعل روما ومناطق كثيرة خاضعة لسلطانه، ومثل هذا فعل فرسوس تاشيوس (كذا)، والد النبلاء الإغريق، فطار عبر البحر على ظهر حصان مجنح، ودخل فارس، واستولى عليها، وهكذا كان أيضاً الاسكندر، الذي كان قوياً بثرواته،وعظيماً بأصله النبيل، فقد عبر خلال بلدان العالم، وأخضعها جميعاً لسلطانه الشخصي، ومع ذلك لم يجلس قانعاً، بل فكر بمدّ حدود امبراطوريته إلى ماوراء هذا العالم، ومثل هذا نقرأ عن عدد كبير آخر من الذين لم يقتنعوا ببلدانهم، وتقدموا نحو الأمام للقيام بأعمال عظيمة.

ومثل هؤلاء الناس لم يجلسوا للاستراحة، ولم يعطوا أنفسهم وقتاً

للنوم، بل عملوا جادين وصارعوا دونها توقف، وبذلوا جهوداً جبارة، هذا ولنأخذ أمثلة من نبلاء أيامنا هذه، ودعونا ننظر إلى الجيش المجيد لحجاجنا النبلاء، الذين يتنعمون الآن برتبة الفروسية، والذين — في الحقيقة — تجدهم في مدنهم، وبلداتهم، ومزارعهم، وقلاعهم، وقراهم، وممتلكاتهم، وقد امتلكوا ثروات متدفقة، ويعيشون برفاه، ويتمتعون بهدوء في اقطاعياتهم، ويسهمون في أعمال صيد بهيجة، ويشاهدون العروض في المسارح، وينخرطون في مبارزات جريئة، ويثاقفون بالرماح، ويتبارون في الصيد والرقص، أو يقيمون بعبادة هادئة لسيرس Ceres (ربة الزراعة عند الرومان) وباخوس وفينوس.

غير أنهم اعتقدوا أنه من العبث الأخذ بالكسل والتراخي، وأنه عمل شرير تكريس عقولهم لمتابعة الأعمال المتقدمة الذكر، ولذلك أطاعوا عقولهم، ونهضوا بأنفسهم برغبة شديدة وبحماس نحو أعلى المراتب المتعلقة بخدمات الفروسية، وليس أي نوع عام من أنواع الفروسية، بل أعلى وأسمى مايمكن تحصيله في هذا العالم، وهو فروسية الضريح المقدس، التي هي أفضل الفروسيات وأنبلها جميعاً، وهذا يمكن البرهنة عليه بكثير من الحجج، التي سأعرضها هنا.

أولاً: لأن هذه الفروسية أعظم قداسة، لأن تلقيها يجري لدى ممارسة أعظم العبادات، حيث أنها تسلم على ركبتين راكعتين أثناء الصلاة في الضريح المقدس، وليس هناك نبيل واحد سيقول بأنه قدم إلى القدس بشكل أساسي من أجل الفروسية، بل جاء لسبب أساسي هو احترامه للأماكن المقدسة، التي فيها عمل خلاصنا، وهذا عمل يتعلق بعبادة الرب، وعمل له فضائل مقدسة، وفي الحقيقة هم يقولون — وغالبا ما سمعت ذلك يقال من قبل الفرسان — لو أن الأماكن المقدسة لم تكن بالقدس، لما قاموا مطلقاً بعبور البحار، حتى لو كان بامكانهم الحصول على ألف فروسية هناك، بل إن الأماكن المقدسة هي التي تحركهم

وتدفعهم نحو الارتحال إلى هناك، ولهذا إن هذه الفروسية أعظم قداسة من الفروسيات الأخرى،

ثانياً: إن هذه الفروسية هي الأعظم قداسة، لأنها تمنح في أعظم الأماكن قداسة في العالم، أي في هذه البقعة التي قام فيها ربنا يسوع المسيح من الموت.

ثالثاً: إن هذه الفروسية، أعظم روحانية من الجميع، لأنها تضفى فقط على الذين يمتلكون قلوباً نادمة تائبة، من الذين اعترفوا بذنوبهم، وتمتنوا بالقربان المقدس في مكان روحاني، من قبل رجل روحاني وراهب متواضع.

رابعاً: لأنها الأعظم فضيلة بين الجميع، فهذه الفروسية غير مشوبة بأي من الشرور، ذلك أنه في الفروسيات الأخرى: غيرة، وغضب، وحسد، وتشامخ، مع كثير من الشرور الأخرى المتعلقة بها، في حين إن هذه الفروسية في ذاتها كلها فضائل.

خامساً: إن هذه الفروسية هي الأعظم لياقة بين الجميع ، وهي في الحقيقة الأعظم لياقة، لأن المسيحي الذي يرغب في أن يصبح فارساً، يتوجب عليه أن يتسلم الفروسية على أرض الميدان التي هزم عليها ملكه أعظم أعدائه قوة، بيد أنها هنا يجرى تسلمها من قبل ملكنا، وأعني به المسيح، وفي ميدان هو موضع الجلجلة، حيث هزم الشيطان.

سادساً: إن هذه الفروسية العائدة إلى الضريح المقدس هي الأنقى والأنظف، وهي أعظم براءة من أية فروسية أخرى، لأنهاغير ملطخة بأي دم بشري، مثل بقية أنواع طوائف الفرسان، التي هي من حيث المبدأ غير نظيفة، لأنها تعطى، حيث يوجد أعظم سفك للدماء البشرية، والأسوأ من هذا كله أن الناس يحصلون على الفروسية بسبب سفكهم لدماء قوم من المسيحيين، أي دماء إخوانهم، وبذلك هي فروسية ملعونة

وغير مرضية للرب.

فداوود، الملك المقدس، لم يؤذن له ببناء هيكل الرب، لأنه كان رجل حرب، وقام بسفك الدماء البشرية، وذلك حسبما قرأنا في أخبار الأيام الأول: ٢٢/٨، مع أننا ينبغي أن نتذكر أنه سفك فقط دماء الغلف غير المختونين والكفار، وأنه سفك دماءهم بناء على أمر من الرب، فإذا كانت دماء الوثنيين جعلت ذلك الرجل المقدس ملوثاً، وليس بإمكانه بناء الهيكل، ما الذي يمكن فعله بشأن الدماء النبيلة جداً للمؤمنين المسيحيين؟ وكم من الدنس سيلحق الذي تسبب بسفكها! ألا تجعل هذه الدماء الفارس دنساً وملوثاً؟ وليست فروسيتنا البريئة العائدة للقدس ملوثة هكذا بدماء المسيحيين، بل إنها تطهر الفرسان، وتوجب عليهم الدفاع عن الدم المسيحي بسبب أنهم تلقوا الفروسية في المكان الذي سفكت فيه دماء المسيح الطاهرة جداً، من أجل الناس جميعاً، ولذلك يمقتون سفك دم أي انسان، ما لم يرغموا على سفك الدم المجرم دفاعاً عن دم المسيح.

سابعاً: إن هذه الفروسية هي الأكثر عقلانية بين الجميع، لأن المنطق يوجب وجود بعض الناس بين جماعات المسيحيين للدفاع عن الايمان بسيوفهم، ولإيقاف الظلم بسلاحهم، ولإرغام الضالين على العودة إلى الصواب بالقوة، فهذا هو واجب فرسان الضريح المقدس، كما أوضحنا وبيّنا، ولا يؤتى بالعادة على ذكر هذه الواجبات، عندما يتلقى الرجال الفروسية في أماكن أخرى.

ثامناً: وهذه الفروسية هي الأكثر لطفاً بين الجميع، لأن الرجال لم يجعلوا فرسانا في القدس لإيذاء أي انسان، في حين أن الآخرين عملوا فرساناً لمحاربة أعدائهم، ولإيذاء الآخرين بمختلف الطرق.

تاسعاً: إن هذه الفروسية هي الأعظم مشقة بين الجميع، لأن من

الذي يمكنه أن يصف متاعب فارس الضريح المقدس، التي يعاني منها، ليس من أجل الحصول على الفروسية، بل إجلالاً للرب وسعياً في سبيل خلاص روحه؟

عاشراً: إن هذه الفروسية هي الأعظم خطراً بينها جميعاً، لأن التعب من دون خطر، لـه قيمـة ضئيلة، بـل ينظر إلى مشقـة قليلـة مع كثير من التعب، على أنه أمر عظيم، والآن من الممكن العثـور على هذين الأمرين في فـروسيتنا، وذلك بوجـود مشقـة عظيمـة وخطر عظيم، الأمـر الذي يبرهن على صحته رحلاتي وجولاتي كلها.

حـادي عشر: إن فروسيتنا هذه هي الأشـد إيلاماً، لأنه تمّ الحصـول عليهـا من خـلال كثير من الشقـاء وكثير من المحـن، ومع ذلك توجب على الحاج أن تكون حافظة نقوده مليئة بالمال.

ثاني عشر: إن فـروسيــة القـدس هذه أكثـر حكمــة، بسبب مختلف الخبرات التي يمـرّ بها الانسـان، فـالرجل النبيـل الذي ينطلق من دياره يريد القـدس يكسب كثيراً من الخبرة حـول طرق العـالم في البحـر، على طرفي البحـر معـا، وحـول عـادات الناس والفـوارق بينهم، لأنه يتلقى المعـرفــة من المؤمنين وغير المؤمنين، لأنه يشــاهد المسيحيين، والأتراك، والمسلمين، والمماليك، والتتار، والعـرب، واليهود، والسامـرة، والمغاربة، والاغــريـق، والأرمن، والهنغــار، والدلماش، والبـــانونيين، والآخيين، والطليان، والغـاليين، والانكليز، والتيوتـون، ويسكن بينهم، وباختصار إنه يحصل على المعلومـات حول جميع الناس والبـلاد، في كل من الشرق والغرب، وذلك إذا كان انساناً متفكراً متذكراً.

عــلاوة على هذا، يتعلم الذي يود الحصــول على هذه الفـروسيــة، بالتجربة، من هو صـديق، ومن هو عدو، ويتعلم أيضـاً، كيف يميز بين الكاذب والصادق من الناس، ويتوصل إلى معرفة الفرق بين ما هو جيد

ومــاهو سيء،ويكتشف مــاقصــد بالحظ السيء، والحظ الجيــد، ومــاعني بالشر وبالفضيلة، وكم هــو الفــرق كبير بين الرجل الجيــد، وبين الرجل السيء، ومثل هذا يتلقى خبرة أثمــن من جميع مــاتقــدم، فعنــدمــا يكون الانسان في حجــه هذا، يبدأ بمعرفــة نفسه عن قــرب، ويتعلم عن قرب حكمته وحماقاته، وعواطفه المتنوعة ورغباته ، وفضائله وشروره، وأقول صادقاً إنه في أربعين اسبوعــاً من هذا الحج، يتعلم الانسان ويتعرف على نفسه، أكثر مما فعل ذلك في أربعين سنة في موضع آخر.

وأعترف أنني لم أر مطلقــاً نقــاط ضعفي وشروري أفضل، أو أوضح مما فعلتــه ثناء جــولاتي هذه، وبشكل خــاص عندمــا كنت في البحــر في الغليون، أو في خيمة في الصحراء، لأنه في هذه الأماكن لايبقى جزء من أخلاق الانســان مخفيا، وأنا متأكــد بأن رفاقي ومــوالي النبلاء يعــرفونني ويعرفون جميع عــاداتي أفضل من اخواني في طائفتي، الذين عشت معهم لمدة ثلاثين سنة، وأنا أعرف هؤلاء الفرســان أفضل من معرفة زوجاتهم لهم، وكــذلك أفضل مما فعل آباؤهم، وأولادهــم وخــدمهم، لأنه في هذه المشاق والمغامرات التي يقدم عليها الحجاج، مامن واحد منهم يمكنه أن يصــون نفســه، بل تظهــر جميع أفكــاره السرية بشكل متتــابع، لأن هناك عمــلاً متواصــلاً يستــدعيهم إلى الظهــور، هذا ويتلقى الفــرسان الأخــر الذين يرسمــون فــرســـاناً في بلاطات الملوك، أو على جسر التيبر، أو في ميادين القتال، قليلاً من الخبرة.

ثالث عشر: إن فــروسيتنا أعلى قيمــة من الأخــريات، لأن فـــرســان الضريح المقدس يمنحون المقام الأول بين جميع الناس روحيا ومادياً.

رابع عشر: إن فـــروسيتنا أعظم قــوة وأعلى سلطة مــن الأخــر، لأنها منحت بوساطة سلطات البابا الذي هــو أبونا الأعظم قداسة، ومن قبل مولانا الأعظم جلالة الذي هو الامبراطور، وإنه عندما يتم أحياناً رسم بعض الفــرسان مــراغمة للبــابا ومراغمــة للامبراطور أيضاً، أو بمعــزل

عنهما أو من دون موافقتهما وعلمهما، فإن هؤلاء يكونون بلا سلطة.

خامس عشر: إن فروسيتنا أعظم نبلاً من أية فروسية أخرى، وتضفي النبالةعلى الفروسيات الأخرى، في حين أن العكس ليس صحيحاً، ولقد رأيت عدداً كبيراً ممن رسم فرساناً من قبل الامبراطور، وفي ميدان المعركة، ومع ذلك لم يهتموا بحمل شارات فروسيتهم حتى رسموا فرساناً في الضريح المقدس، وأعرف واحداً من النبلاء، قام الامبراطور برسمه فارساً في احدى المعارك، ثم رسمه ملك هنغاريا في معركة ثانية، وبعده رسمه ملك بوهيميا في معركة ثالثة، ومع ذلك تصرف دوما كمجرد نبيل عادي، وذلك حتى رسم فارساً للمرة الرابعة في ضريح الرب، فبعد ذلك قام بعرض شارات فروسيته، وهو في هذه الأيام فارس رائع، يركب مع أتباع كثيرين.

سادس عشر: إن فروسيتنا هي الأكثر إعجاباً بين الجميع، لأن الناس يشعرون بنوع من الاعجاب تجاه فارس الضريح المقدس، بسبب تسلمه لفروسيته بين المسلمين وفي وسطهم، وفي ضريح الرب المقدس.

سابع عشر: إن هذه الفروسية هي الأعظم تبجيلاً، لأن لفارس الضريح المقدس حق الأسبقية على الجميع في السير، والوقوف، والجلوس، والكلام، وغسل اليدين، والأكل، وهكذا دواليك.

ثامن عشر: إن فروسيتنا هي الأعظم تميزا بين الجميع، وعندما يبدأ فارس من الضريح المقدس بالحديث عن فروسيته، وعن المكان الذي نال فيه فروسيته، وعن المغامرات التي واجهها، يحدق جميع الناس بأبصارهم به، ويضغون بأفواه مفتوحة لما يقوله.

تاسع عشر: إن فروسيتنا هي الأكثر قبولاً بين الجميع، لأن فرسان الضريح المقدس مقبولين لدى كل من النبلاء والعامة، ذلك أنهم يولون أهمية ضئيلة للفرسان الآخرين، لابل أكثر من ذلك يسمونهم بالخشونة

والوحشية، وأنهم أناس مرعبين.

عشرون: إن فروسيتنا هي الأكثر رجولة بين الجميع، لأنه أمر ضئيل القيمة أن تتمكن مرة من خرق صف العدو، أو أن تواجه العدووجهاً لوجه، إنما هو شيء عظيم أن تكون مراراً في موقف رعب مميت، كما هو الحال بالنسبة لفرساننا.

حادي وعشرون: إن هذه الفروسية أعظم نشاطاً وفعالية من الآخرين، لأنها تحتاج إلى رجل شجاع في جميع الأحوال.

ثاني وعشرون: إن فروسيتنا أكثر استقامة من الأخرى، ذلك أن جميع الفروسيات الأخرى مشوبة بشيء من الظلم والشرور، ففروسيتنا هذه قائمة على العدالة، الانسانية والسماوية، وهي منظمة بوساطة القوانين التي عملها الامبراطور، والبابا.

ثالث وعشرون: إن فروسيتنا أكثر موافقة وتأسيساً من الفروسيات الأخرى، لأنها تحدث بشكل متواصل أكثر من الفروسيات الأخرى التي تعمل في مكان غير معترف به لمنح الفروسية، من قبل آخرين، لابل يسخر منها ويطلق عليها اسم فروسية السيدة أو فروسية السنور، وفي الحرب مامن أحد من الفريقين يعترف بالفرسان الذين رسموا على الطرف الآخر للقتال ضدهم، ولايوجد أي شيء من هذا النوع في فروسيتنا، بل يعترف الجميع بصاحبها فارساً.

رابع وعشرون: إن فروسيتنا هي الأقدم بين الجميع، لأنه منذ آلام المسيح، جرى رسم الذين عبروا البحر، صدوراً عن التقوى تجاه الاماكن المقدسة، وعدّوا فرساناً.

خامس وعشرون: إن هذه الفروسية مرغوب بها أكثر من الفروسيات الأخرى، ويبرهن على صحة ذلك بحقيقة، أن الذين يرسمون فرساناً في مناطق أخرى، يظلون غير راضين بها، بل يتطلعون

بشوق إلى فروسيتنا وذلك بالاضافة للفروسية التي تلقوها، علاوة على ذلك يتوهج فرسان الضريح المقدس بحرارة الحب، ولذلك يتشوقون للعودة إلى المكان الذي تلقوا فيه فروسيتهم، وفي الحقيقة، يرغب الذين زاروا الأرض المقدسة بالعودة إليها، بحيث لايمكن لأية مخاوف أن تمنعهم، وهذا ليس متوفراً في بقية طوائف الفروسية.

سادس وعشرون: إن فروسيتنا هي الأكثر تقيداً بأحكامها، لأن قانون هذه الفروسية قضى، بوجوب عدم تسلم أي انسان لها، مالم يكن نبيلاً حتى الجد الرابع، وهو مشهور في أسرته، علماً بأن هذا الشرط لايراعى الآن بدقة، حيث يجري رسم بعض الرجال من أصل منحط فرساناً مثلما يجري رسم النبلاء، وذلك مثلما الحال في الفروسيات الأخرى.

سابع وعشرون: إن فروسيتنا هي الأكثر تواضعاً من الجميع، وهي الأعظم طول معاناة، فالفرسان الآخرين لايتنازلون للتسامر مع أناس عاديين، ليسوا من أصل نبيل، ويحسدون أي حظ سعيد أصاب التابعين لهم، وفرسان الضريح المقدس ليسوا هكذا، فهم لايستخفون بأي انسان، وجميع الناس يرتحلون برفقتهم، ولايرفضون أحداً، لأنهم يبحرون عبر البحر إلى القدس برفقة، رهبان، وكهنة، وتجار، ومتسولين فقراء، لابل أكثر من ذلك، إنهم يعبرون حتى برفقة نساء، من الشابات والعجائز، ومع عقيلات وراهبات ولايعيرون اهتماماً محاولات النيل الحمقاء منهم ومن أخلاقهم، التي تقول بأن فروسية الضريح المقدس نسائية، وذلك بسبب النساء العجائز اللائي يحظين برفقتهم، وهم لايخجلون من التعايش مع هؤلاء النساء العجائز، لابل يبتهجون بذلك، ويعدون أنه لصالحهم تلقي فروسيتهم الدنيوية في المكان الذي فيه، راهبات وعقيلات، ونساء عجائز، ورهبان وكهنة، وجميع أنواع الناس الأتقياء الذين يلتمسون عونهم في قضاياهم الروحية، ومن أجل زيادة

نعمة الرب.

ثامن وعشرون: إن فروسيتنا هي الأقسى بين الجميع، لأن الفروسية التي تمنح في بلاطات الملوك والأمراء وفي ميادين المعارك، تمنح مع شيء من النصر والسرور، وتجلب معها منافع متعددة ، في حين إن فروسيتنا قاسية وفيها ندامة وتوبة، ولاتحمل معها لابهجة ولامنافع بل كثيراً من المحن.

تاسع وعشرون: تتطلب هذه الفروسية المزيد من الشجاعة، أكثر من البقية، لأن الذي يعبر البحر بجرأة يخاطر بحياته، أكثر من الذي يذهب إلى الحرب، لأن هذا الذاهب إلى الحرب ، يذهب وهو حام لنفسه بالدروع، ويمكنه أن يحرس نفسه ضد المخاطر، ويمكنه في النهاية الفرار، والبحث عن ملجأ، في حين لايمتلك فارس الضريح المقدس أي نوع من هذه المساعدات لحماية نفسه ضد المخاطر التي تحيق به في كل من البحر والبر، لأنه عندما يكون بين غير المسيحيين، عليه أن يتصرف وأن يتحمل وكأنه بلا مشاعر، وأن لايرد على الذين يضربونه، وبناء عليه يمكنه عن حق أن يردد قائلاً ماكتب في سفر الأمثال: ٢٣/ ٣٥ «يقول ضربوني ولم أتوجع. لقد لكأوني ولم أعرف»، هذا وكان قد مرّ بنا أمثلة حول هذا.

ثلاثون: وهذه الفروسية أبعد مسافة من أي من الفروسيات الأخرى، لأنهامنحت في وسط العالم، وهذا ويلمس الفرسان الذين يذهبون إلى القديسة كاترين، الأجزاء الثلاثة الرئيسية للعالم، وهي أوروبا، التي جاءوا منها، وآسيا التي اجتازوها، وأفريقيا التي يلامسونها في مناطق الاسكندرية، في حين يقيم الفرسان الآخرون قرب مواطنهم لأداء خدماتهم.

احدى وثلاثون: فروسيتنا هي الأكثر توازناً وانضباطاً، لأن الفرسان

الآخرين — حتى وإن رسموا في الحرب نفسها — يتفاخرون بأنفسهم، ويمدح أحدهم نفسه أمام آخر، ويجري تفضيل بعضهم أمام آخرين من قبل أناس على أنهم فرسان أفضل، ويستحقون شرف الفروسية أكثر مما نالوه، وغالبا ما يتخاصمون بشكل مخيف أحدهم مع الآخر في بلاطات الملوك، حول هذه المسائل، هذا وفروسيتنا المقدسية متحررة من جميع هذه الشجارات، وهذه التفاخرات الدنيئة، لأن الجميع يحصلون عليها بالوسائط نفسها، ورجل نبيل جعل فارساً هو ليس أقل من ملك رسم هناك.

ثاني وثلاثون: إن فروسيتنا هذه عالمية، من حيث أن جميع النبلاء يرسمون هناك، وذلك سواء أكانوا من الشرق أو من الغرب، أو شيوخاً أم شباباً.

ثالث وثلاثون: إن فروسيتنا هذه هي الأقل خطراً على النفس، على أساس جميع ما يعمل في القدس هو صحيح ومقدس، الأمر الذي هو غير متوفر في وضع الآخرين.

رابع وثلاثون: إنها مشرفة لدى جميع الناس، لأن هؤلاء الفرسان مشرفين لدى الامبراطور، والملوك والأمراء، والكونتات والبارونات، ومثل ذلك لدى البابا، والكرادلة، والأساقفة، وجميع رجال الدين، والمنظمات الدينية، ومن قبل عامة الناس، ومن الشيوخ والشباب سواء.

خامس وثلاثون: إن فروسيتنا هي الأعلى ثمنا من البقية، على أساس أنه يتم الحصول عليها، مقابل سعر مرتفع، ونفقات كثيرة، خاصة إذا قام الفارس بالحج إلى القديسة كاترين، ومع أنه يجري في فروسيات أخرى صرف المزيد من المال، إن هذه الأموال تنفق بشكل عابث، ووسط أبهة دنيوية وفارغة، أو في مبالغات، ليس لأي منها مكان في فروسيتنا.

سادس وثلاثون: إن فروسيتنا نظامية أكثر من سواها، لأننا نرى بشكل عام فارس الأرض المقدسة أكثر تواضعاً، وانتظاماً، وأكثر جدية، وأفضل نشأة وتربية من الفرسان الذين رسموا في الحروب.

سابع وثلاثون: إن فروسيتنا هي الأكثر ثماراً، في كثير من الجوانب والطرق، لأن الفارس في فروسيتنا، وإن كان بدون كتب، يدرس أشياء كثيرة وقعت في كل من العهد القديم والعهد الجديد، ويكون ذلك أثناء تجواله حول الأماكن المقدسة، ولهذا حدث كقاعدة عامة أن هؤلاء الفرسان غالباً ما يتحدثون بوضوح أكثر، وبمعرفة أعظم حول التواريخ الموجودة في التوراه، وحول آلام الرب، وهكذا، من كثير من الكهنة، وكنا قد بينا هذا من قبل، ويصبح الفارس في الأرض المقدسة أكثر حكمة، بوساطة كثير من الخبرات، كما أوضحنا في الأحكام السبعة والعشرين، فضلاً عن هذا هو أكثر ندامة هناك، ويعترف بذنوبه، ويتلقى غفرانات كثيرة، منها تأتي ثمار كثيرة ونتائج في كل شيء.

ثمان وثلاثون: إن فروسيتنا هي الأعظم إيماناً من الجميع، لأنه كقاعدة، فرسان الضريح المقدس هم على درجة عالية من الثبات، وهم كاثوليك جيدين، لأنهم يرون بأعينهم بأن إيماننا هو منطقي أكثر، وأكثر استقامة من أي من الآخرين، في حين ينعدم الاهتمام بالايمان المتقدم الذكر في الفروسيات الأخرى.

تسع وثلاثون: من الواضح من جميع ماقيل بأن فروستينا هي التي تستحق الحياة الأبدية أكثر من سواها، في حين نجد الفارس في الفروسيات الأخرى، لايكسب حياته فقط، بل يجعلون أنفسهم غير أهل لها، لأنه كقاعدة هناك حاجة للأعمال الآثمة للحصول على فروسيتهم.

أربعون: وأخيراً، إن فروسيتنا، فروسية القدس، هي فروسية سعيدة،

لأن فـارس الضريح المقدس هو بالفعل سعيـد، أثناء قيامـه بالحج، لأنه لومات وهو على طريقه، فسوف يطير إلى السماء مباشرة ، ولا يدخل إلى المطهـرة، وحـــول هذه المسألـة انظر القــديـس تومـــا الأكـــويني في «Qu.V.quvll,7.qr2» فضـــلاً عن هذا، هو يكون سعيـــداً مثل الذي يرى الـرب في القــدس السماويـة، التي هي في الأعلى، ويكون مثـل هذا سعيـداً وهو على طريقــه، لأنه يحاكي الأسرار السماوية في القـدس على الأرض، وسيكون سعيـــداً مثل الـذي يرى المسيح في المجــد، ومــريم العـذراء الأعظم مبـاركة، والبطاركـة والأنبيـاء، والرسل، لابل سـوف يكون سعيـداً مثل الـذي يقفـو آثار طبعـات قـدمـي المسيح، والعـذراء المباركة، والأنبياء والرسل ويقبلها، علاوة على ذلك سيكون سعيداً مثل الذي هو متأكد من أمل السعادة، لأن حتى الذي يرى القدس الأرضية هو سعيـد، لأنـه قـد كتب، أن الذين من أجل مجد الـرب زاروا مـدينة القـدس المقـدسـة ورأوها، سـوف يدخلون بشكل مـؤكـد، وبلاشك ، القـدس السماوية، ولســوف يرون هناك صـاحـب الجلالة الملك، الذي بحثـــوا عنه في المعلف، وعلى الصليـب ، وفي الضريح في القـــدس على الأرض، ولست أدري مدى مصـداقية هذا القــول، ومع هذا إنني آمل، هذا ولقـد تبرهن بـوسـاطة هذه الحجج علو مكانة فـــروسيـة الضريح المقدس، فوق جميع الفروسيات الأخرى، وكان القديس برنارد قد كتب قداسـاً طويلاً، خاطب فيه هؤلاء الفـرسان العائـدين إلى القدس، حيث وصف حيـاتهم الفـــروسيـة، وأحـاديثهم، وشجبهم لشرور الفـــرســان الشهوانيين، في الاصحاح الرابع منه.

القداس الذي يعقد في تلك الليلة في الضريح المقدس

جـرى تنصيب الفـرســان أو رسمهم في ضريح الرب، حسبما وصفنا من قبل، وكـان رسمهم جميعـاً يستغـرق وقتـاً طويلاً، ولم يكن بامكاننا الاحتفـال بالقـداسـات قبل انتهـاء الرسم، ووقفنا جميعـاً ننتظر وتجولنا

بمصابيحنا حول الأماكن المقدسة، وفي الحقيقة، لقد رتبت، أن يكون سهري في تلك الليلة، وصومي وصلواتي وجميع أعمال خشوعي — التي كانت كما هو مؤسف، فاترة، ومرهقة، وبلا فائدة تقريباً — أن تمنح لصالح الذين وعدتهم بأن أتذكرهم، عندما سأكون في الأماكن المقدسة، ولصالح أحبائي من إخواني، الذين أفادوني، وقدموا لي يد المساعدة باسهامهم بنفقاتي في الرحلة إلى هذه الأماكن المقدسة جداً.

وبناء عليه، صعدت في الوقت الذي كان فيه الفرسان يرسمون، إلى رابية أكرا المقدسة، وأشعلت شمعة، ووضعت حبراً أمامي إلى جانب الصخرة الأعظم قداسة، التي وقف عليها الصليب فيما مضى، وهناك كتبت أسماء الذين وعدتهم بشكل خاص، والذين من واجبي الصلاة من أجلهم، وبعدما كتبت جميع الأسماء في ابتهالات، ذهبت مع الورقة المكتوبة إلى الصخرة المقدسة، وجثوت هناك على ركبتي، ووضعت الورقة فوق الصخرة المقدسة، وقدمت صلاة إلى كل واحد كتب اسمه في الورقة، وإلى آخرين وردوا إلى خاطري، وبمعايير فقيرة، وحسبما يمنح الرب بكرمه مذنب تعيس جداً مثلي، التمست من الرب بشفاعة تلك الصلاة الفعالة التي قدمت هنا فيما مضى في هذا المكان على الصليب، بأن يتفضل فيقبل صلاتي غير الكاملة، إن لم يكن من أجل فضائلي، فلتكن من أجل فضائل الأحياء والأموات الذين وافقت على أن أصلي من أجلهم، ونزلت بعد هذا إلى الأماكن المقدسة الأخرى مع الورقة، ونشرتها مفتوحة فوق هذه الأماكن الأعظم قداسة، وقد صليت من أجل الذين كتبت أسماءهم فيها، وذلك بشكل عام ، وواحداً بعد الآخر.

وكان منتصف الليل قد مضى، وكانت أعمال رسم الفرسان قد انتهت أيضاً، فشرعنا نتلو قداسات في الأماكن الأربعة التي تقدم لي ذكرها، وفي ذلك الصباح تدبرت تخليق موضع الرب، وأثناء القداس

أبقيت الورقة، مع أسماء الأعزاء علي، ممددة أمامي، وعملت القداس نفسه لصالحهم، وعندما أضاء النهار، غنينا قداساً عالياً في ضريح قيامة الرب، كما سنري في المستقبل، وبذلك انتهى هذا القداس.

وعندما انتهى كل شيء، وكنا ننتظر السادة المغاربة لاخراجنا، نشب فجأة صراع وخصام بين الفرسان الذين رسموا حديثاً، وحدث اضطراب عظيم، سببه واحد من الحجاج، أقحم نفسه في الداخل، ورسم فارساً، وقد كان لأسباب عديدة غير أهل، مع أنه في الحقيقة كان رفيقاً جيداً ومرحاً، لكن قامته كانت قصيرة جداً حتى يحمل إباء الفروسية، ووجه الفرسان الحجاج، والكونتات ، والبارونات الملامة لهذا الرجل على وقاحته، في حين قام فرسان آخرون مع رفاقه بالدفاع عنه، وهكذا وقفوا يتجادل واحدهم مع الآخر في الكنيسة المقدسة، وعندما — على كل حال — جرى شرح السبب إلى الأخ جون الذي تقدم ذكره، استدعى جميع الفرسان إلى كنيسة الجلجلة، أمام المذبح العالي، وجعل الرجل الذي قام من أجله النزاع، وكذلك رفاقه ، يقسمون باسم الرب، أن يخبروه بمرتبة وبوضع ذلك الرجل، وبعدما سمع منهم الأخ جون المتقدم الذكر ما قالوه، أعلن أن هذا الرجل ليس فارساً بأي حال من الأحوال، ولايصح أن يكون كذلك، وهكذا وجدت هذه القضية حلاً لها، وانتهت بسلام، وجرى تجريد ذلك الانسان الطيب من فروسيته، وفيما نحن مابرحنا نتحدث حول هذه المسألة، جاء المغاربة، وأخرجونا من الكنيسة، وذهبنا إلى أماكننا للاستراحة، ولم أصعد في هذه المناسبة إلى جبل صهيون مع الرهبان، بل رجاني الفرسان الجدد من موالي بالبقاء معهم في ذلك اليوم في المشفى، وأن أعمل لهم قداساً في مدح الفروسية المقدسة، وقد أقمته كما يلي، وتلوته بلغة ألمانية دارجة، لأنني وجدتهم علمانيين يجهلون اللاتينية.

حث للفرسان على القيام بما تعهدوا به أنفسهم عندما تسلموا الفروسية في الضريح المقدس

خشـوع خـالص، وحب نحـو الرب، الذي أثاركم، يا فـرسـاني الجديرين، حتى جذبتم بقلوبكم العظيمة واللطيفـة، نحو قبر مخلصكم، وجعلكم ترون أنه عمل مفيـد، أن تخاطـروا بفقـدان ممتلكاتكم بترككم بلادكم التي ولدتـم بها، للقـدوم إلى هذه البـلاد الأجنبيـة والمقـدسـة، وتحركتم هنا بنواياكم التقية بتعبد وتقبيل هذه الأماكن الفـائقة القداسة، وبالحصـول على الغفـرانات، وبأخـذكم على أنفسكم عهـد الفـروسيـة المقدسة، من أجـل العبادات والخدمات المقدسة، وأن تقـاتلوا باخلاص حتى الموت ضد أعداء الايمان، والذين يزدرون الصليب، وأعداء كنيسة الرب، وبناء عليـه أرجـوكم وأتـوسل إليكم التمسك بثبـات بنواياكم التقـوية هذه، وبما أنكم عـرضتم نفـوسكم لمختلف المخـاطر، في سبيل الحصول على هذه الفروسية، كـرسوا أنفسكم برجولة، لحمل رسالتكم، وناضلوا بكل قواكم للوفاء بجميع العهـود التي أبرمتموها عندما حملتم أنفسكم لتكونوا فرسـاناً، وجددوا هذه الروح في عقـولكم يوما فيـوماً، حتى تظلوا دوما الرجال الجدد، الـذين انخلقوا وفقاً لإرادة الرب، وأن تكونوا محميين بجميع دروع الـرب، حتى تقفـوا بثبـات ضـد الشيطان الشرير.

أتوسل إليكم دعـوا قلوبكم تلتهب مثل النار، حماسـة لهذه الأشيـاء، التي هي من الرب، وبشكـل خـاص لتأمين الضروريات لضريح الرب، وأرضـه المقـدسـة، واتركـوا عـواطفكم تلتهب بحـرارة التفكير التقي، وقاتلوا معـركة الرب مع أمل النجـاح من عليين، وعلى كل واحد منكم أن يتمنطق بسيفـه الجبـار، للانتقـام لـلأخطاء التي اقترفـت بحق الرب،انتبهـوا، وانظـروا بأعينكم كيـف هو الآن في هذه الأيـام وضع الميراث الطيب لمخلصنا، إنه، ويالـلأسف، قـد سقط بين الغـرباء، وكيف

هو أيضاً، وضع المكان الأعظم قداسة، حيث ولدت العذراء الأم بملك السماء، واعرفوا أن المكان الذي تلطخ بالدم الثمين جداً لمخلصنا، والمكان الذي تشرف بتمدده فيه، أي مكان أساس ضريح الرب، والمكان الذي قام فيه المسيح من الموت، وهو المكان الذي تحول إلى الشهرة أضعافاً مضاعفة بمجد قيامته، هذا المكان صار تحت نير شعوب غريبة، إن الذي مالم يكن صدره من حديد أو قلبه صلب أصم، هو الذي هنا ولاتتشوق أحشاؤه إلى هذه الأرض، فمن هو الذي لايستثار من أعماق قلبه؟ ومن الذي لن يلتهب بالغضب، ويلهم بالشجاعة، حتى يمكنه انزال الانتقام المستحق؟ امنع يا رب أي جندي من جنود الضريح المقدس أن يترك سلاحه يأكله الصدأ، وامنعه يارب من أن يضن بحياته من أجل النصر، مشاهداً أن المنتصر لايمكن أن يخفق في نيل تاج المجد، لأنكم ترون كيف أنه بمنتهى السلام والمباركة، يقاتل جند المسيح معارك ربهم، وعروسه الكنيسة، عندما يحملون السلاح ضد الكفار،ناظرين أنهم ليسوا بحاجة لأن يخافوا في أن يذنبوا في قتلهم الأعداء، أو أن يعانوا من الخوف من موتهم الذاتي، بما أن الموت ينبغي أن يعطى وأن يؤخذ من أجل المسيح.

وأقول: إن مثل هذا الفارس، عندما يقتل عدوه يقتله بدون ذنب، وعندما يموت، يموت مع بعض الأمل، لأن ينال قبراً لذاته عندما يموت، وللمسيح عندما يقتل، ثم إنه ليس منتحراً، بل يمكنني القول: إنه منتقم، عندما يقتل مقترفي الشرور، وجدير أن يعدّ مدافعاً عن المسيحية ومنتقماً لها، فالمسيحي يمجد عن حق في موت كافر، لأن المسيح قد تمجد هناك، وبناء عليه انهضوا بأنفسكم، أيها الفرسان الأعظم شجاعة، ثوروا للانتقام للاهانات التي أنزلت بربنا، وللعار الذي لحق بشعوب المسيحية، مثلما فعل المكابيون البواسل في القديم، واجعلوا هدفكم قتل الكفار، أو الحاق الهزيمة بهم، واسترداد تراث

الرب وإعادته إلى المسيحية.

فكل انسان ينتقم للأخطاء التي اقترفت بحق أتباعه، أفلا ينتقم للأخطاء البشعة التي اقترفت بحق ربه؟ وما من انسان يسمح بوضع أيدي الآثمين على تراث عائلته، فهل ياترى سوف يصبر على رؤية تراث الرب واقعاً لمثل هذه المدة الطويلة بأيدي الغرباء؟ ويتوجب على الذين يعبدون الصليب عدم تناسي الاهانات التي لحقت بالذي صلب، ذلك أنهم عن حق سوف يرفضونها لو أنها اقترفت بحق انسان، خلوا الازدراء الذي ألقي على مخلصكم، يثير عقولكم ونفوسكم، ودعوا الغيرة على عقيدته تلهب قلوبكم، والرب يحرم أن يعيقكم الخوف ويصدكم عن القتال المجيد، حيث هناك نصر وتاج من المجد دائم يمكن نيله دوماً.

وهنا انتهى القداس، وبعدما فرغت من القداس شكرني الفرسان بشكل حار جداً، وأعلنوا أنهم على استعداد لبذل كل جهد ممكن لاسترداد الأرض المقدسة، شريطة أن يسير ملوك وأمراء وقادة المسيحية أمامهم، وهم يتقدون بالحماسة نفسها، فقد رأوا أنه مالم تتم إثارتهم أنفسهم، مامن أحد يمكنه القيام بأي تحرك مفيد في هذا المجال، لأن شيئاً عظيماً جداً يمكن انجازه فقط باجتماع جميع شعوب الغرب مع بعضها، مثلما حدث في سنة ٨٠٢ لتجسيد الرب، ففي تلك السنة قام الامبراطور شارل الكبير (شارلمان) بناء على دعوة من زكريا، بطريرك القدس، ومن امبراطور القسطنطينية، فزحف نحو الشرق، مع جميع شعب الغرب، وأنقذ جميع الأرض المقدسة من أيدي المسلمين، وعندما تمّ فقدان الأرض المقدسة للمرة الثانية، وأعيد احتلالها من قبل المسلمين جرى طرد المسيحيين ونفيهم من الأرض المقدسة لمدة تزيد على المائتي سنة.

فبعدها نهض الدوق المجيد جداً للورين، والذي لم يعرف التعب، أي

غـودفـري أوف بولليـون، وكــان ذلك في سنة ١٠٩٩ لتجسيـد الرب، حيث أنه جمع نخبـة المقاتلين من جميع بلدان الغـرب، وعبر البحر والبر بدون خـوف، وبعـدمـا أحـدث مقتلة عظيمـة بين المسلمين وصل إلى القـدس، التي كان فيهـا أربعون ألفـاً من المسلمين المسلحين، وذلك إلى جـانب عامـة الشعب، وحـاصرت عساكـرنا المدينة لمدة تسعـة وثلاثين يومـاً، وعندمـا استولوا عليهـا، حـارب الصليبيون المسلمين فيما يعـرف باسم «هيكل سليمان» (الأقصى) وفي سـاحـاته، وأحـدثوا فيه مـذبحـة بلغت حـداً أنهم سـاروا، ودم القتلى واصـل إلى ركبهم، وهكذا عــاد ضريح الرب للمـرة الثانيـة إلى أيدي مـلاكه الشرعيين، وذلك بوسـاطة هؤلاء الفـرســان الأمجاد، وبقي معهم لمدة ثمان وتسعين سنة، عندمـا توقفت المساعدات من البلدان الغربيـة، وكان الرب غاضباً على الشعب الصليبي بسبب ذنوبهم، وحسبما شرحنا من قبل، أخـذت القدس ثانيـة من قبل المسلمين، واستمرت في أيديهم حتى هذا اليوم، أي مدة ثلاثمائة سنة حتى عصرنا هذا غير السعيد، وبحـق يمكنني دعوة أيامنا هذه بغير السعيـدة، لأن مسـاء الايمان قـد اقترب لينتشر فـوق الدنيـا، وباتت الفـوضى وليل الشرور على وشـك الحلول، فنور الاستقـامـة أخـذ بالاضمحلال، والذي بقي منه لايتعدى خيال من ظله، فالشريعة لم تعد مـوجـودة مع الكهنة، والعـدالة انعـدمت لدى الأمـراء، وانعـدم الرأي الصـائب بين الشيـوخ، ولم يعـد هنـاك إيمان لدى الناس، ولامحبـة لدى الآباء، وزال الاحترام من عند الخدم، والإحسـان مـن لدن الأسـاقفـة، والتـدين من عند الرهبــان والشرف من عند الشبـاب، والنظام من بين رجال الدين، والتعليم من عند الأسـاتذة، والدراسة من عند العلمانيين، والعـدالة من عند القضاة، والدفـاع من عند الفـرسان، والوئـام من بين الناس، والخوف من عند رجـال الخدمة، والتبعيـة من عند أهل الريف، والصـدق من عند التجـار، والفضيلة مـن بين النبـلاء، والحنان من عند الوصيفــات، والعــزلة من عنـد الأرامل، والحب من بين المتــزوجين،

والاحتشام لدى النساء، والصبر لدى الفقير، وهكذا دواليك.

وهكذا ضللنا وابتعــدنا ونحن عميـان عن الطـريق المستقيم، وسرنا بعناد ومررنا من خلال كهوف الشرور، وميدان العالم في ظلام قذر، آه، كم هي غير مـؤكـدة الأوضـاع الانسـانيـة، وكم هي أيام حيـاتنا، مليئة بالمصــائـب، من دونك أيها الرب الجيــد، أيتهـــا الأوقــات الشريرة، والأخـلاق الشريرة، أيتهـا الأوقـات المضطربـة غـاية الاضطراب، أيام الفـواجع، والأخلاق الفـاسدة، والأخـلاق المهجورة، بين رجـال الدين والناس، إنك أوقات تعيسـة لذلك قيل عنك: Venit summa dies etin eluctobile tempus وبأنك أوقـات فيك، وفقاً للقول القـديم للنبي: كل رأس سـوف يكون منهكاً، وكـل قلب سـوف يكون حـزيناً، ومن أخمص القدم حتى أعلى الرأس سوف تنعدم الصحة، وإنه على هذا بسبب ذنوبنـا، وظلم آبائنا، صــارت القــدس، والأرض (المبــاركــة) والأماكن المقدسة، خاضعة لشعوب غريبة، ولإلحاق العار بنا، ولاهانتنا ديست بأقدام...، وأعجـب من هذا، أنها منذ ثلاثمائة سنة، هي مـدنسة بالخونـة، ولخزي اسم المسيح الأعظـم قـــداســـة بقيـت تحت سلطان المسلمين....، وهي ليسـت مـوضـع اهتمامنا ومهملة من قبلنـا، ومليئة بهرطقـات كبيرة وبالشرور، ولاشك أن ذلـك بسبب تجاوزاتنا واهمالنا، هذا وليس واجـب كل مسيحي تقي أن يبكـي فقط عندمـــا يفكر بهذه المصـائـب، بل أن يحمل نفســه إلى الرب بصلوات متــواصلة، وليصرخ عـالياً إلى الرب، وليلتمس منه بـدون توقف أن يكون رحيماً نحو البقيـة من نخبتـــه، وأن يشرق بنور وجهــه علينا وأن يـرحمنا، وأن يطرد غير المؤمنين من أرض المؤمنين، حتى نقـدم له ببهجـة وبأيدينا الحمـد الذي يستحقه. آمين.

وعلى كل من سيقـــرأ قـداســاً محزناً عن الوضـع المؤسف للأرض المقدسة، ومدينة القدس، والنحيب المؤلم حول الكنيسة الشرقية، والبكاء

الحزين على الوضع الشرير والتعيس جداً، للكنيسة الغربية، أو يعمل خطاباً فيه إثارة للملوك، والأمراء، والنبلاء في الغرب، عليه أن ينظر بكتاب حج اللورد بيرهارد فون بريتنباخ، عميد الكنيسة الكاتدرائية في مينز، الذي صنع بأسلوب مزين من قبل الحكيم اللاهوتي الشهير المعلم مارتن روث، وكيل مدرسة هايدبيرغ، والراهب في طائفة الرهبان المبشرين، فهناك سوف يجد معروضاً كل الذي قلته من قبل، وسيجد ماعبرت عنه بكلمات كثيرة إنما بكلمات قليلة،ولسوف يجد نسخة طبق الأصل عن كتاب حجي وجولاتي، إنما مع استثناء واحد، ذلك أنني أرغمت بخطة عملي، وعن قصد، على تغيير الأيام، قائلاً: «تمّ هذا في يوم كذا، في حين قال هو بأنه تمّ في يوم آخر، وليس في هذا عنف أو خلاف، على أساس أننا عندما نقرأ الكتابات المقدسة، نجد الشيء نفسه قد عمل، من قبل الانجيليين.

حول القداس في كنيسة الضريح المقدس واخراج الحجاج من هناك

وفي الوقت الذي كان الفرسان فيه يرسمون، شرعنا بالاحتفال وإقامة قداس، وقد أعطيت مكان الرب المخلق بالطيوب، وأقمت قداس القديس ألكسيوس، الذي كان اليوم يوم عيده، ذلك أنه كان حاجاً حقيقياً، وغنينا في وضح النهار، في ضريح الرب قداساً عظيم البهجة، هو قداس قيامة الرب، وذلك كما كان يغنى في يوم الفصح، وبعد هذا قدم المسلمون وأخرجونا وفق الطريقة نفسها التي مارسوها من قبل، وذهب كل انسان منا إلى مقر إقامته، وقد أمضينا الليلة التالية على جبل الزيتون، وقمنا بشكل سري بالصلاة، وبإراحة أنفسنا في كهف آلام مريم، ولكن قبل انتشار ضوء النهار، صعدنا ثانية إلى جبل صهيون لسماع قداسات.

رحلة الحجاج من القدس إلى المنطقة التلية في اليهودية وإلى بيت زكريا حيث سلمت مريم على قريبتها اليزابث

وفي الصباح الباكر لليوم الثامن عشر، جاء أدلاؤنا إلى الجبل مع حميرنا وسائقيهم، واستدعوا جميع الحجاج، وامتطينا جميعاً حميرنا، وسرنا خارجين من القدس باتجاه الجنوب، بسرعة كبيرة، وسرنا على طرقات منزلقة في المنطقة التلية لليهودية، وهذه المنطقة الجبلية وعرة وكثيرة الحجارة، ومع ذلك هي خصبة، ومليئة بأشجار الفواكه، والتين والزيتون، ووصلنا هنا إلى بيت قائم فوق أرض مرتفعة، وهو عظيم وطويل، لكنه مهدم، وقد قالوا بأنه بيت الشيخ المسن المقدس سمعان، الذي أخذ المسيح بين ذراعيه في هيكل الرب (لوقا:٢)، وفي هذا البيت عدد كبير من الغرف المقنطرة، ومن قمته يوجد مشهد للقدس ولبيت لحم.

وغنينا إلى جانب هذا البيت ترنيمة سمعان: «الآن تطلق عبدك ياسيد» الخ، وحصلنا على غفرانات(+)، ونزلنا من هناك إلى واد على درجة عالية من الخصوبة، ومضينا إلى مكان منحدر، قائم بين جدران من الأحجار الجافة، ففوق هذا الجبل كان المكابيون الشجعان قد عمروا حصناً حصيناً جداً، من أجل صد الغزاة من الأمم، وأطلقوا عليه اسم « بيت سورا» الذي يعني «بيت المرارة» أو «بيت الشجاعة»، وذلك حسبما قرأنا حول ذلك في سفر المكابيين الأول — الاصحاحين الرابع والسادس، وجرى الاستيلاء على هذا الحصن خدعة من قبل أنطيخيوس الأصغر، الذي لذلك أغضب اليهود كثيراً، حسبما ورد الخبر في سفر المكابيين الثاني — الاصحاحين: الحادي عشر والثالث عشر.

وعلى الجانب الآخر من الجبل يوجد البئر، حيث عمّد فيليب الخصي، الأمر الذي سوف نتحدث عنه في مكانه.

ويوجد من بيت سورا مشهد للقدس، وكان في أيام الحرب، بإمكان المقيمين في بيت سورا عمل اشارات إلى الذين كانوا في حصن صهيون، وتلقي مثل ذلك منهم، وأدرنا الآن ظهورنا لبيت سورا، ونزلنا إلى الوادي.

نبع مريم العذراء الأعظم قداسة

وبعد نزول طويل إلى حد ما، وصلنا إلى مكان قائم بين تلتين صغيرتين، يوجد بينهما نبع يتدفق بماء بارد، ونقي، وصحي، كان يجري خلال الوادي كله، يسقيه ويحوله إلى خصب، وعلى هذا هو عظيم الفائدة لتلك المنطقة، ويقال إنه من خلال فضائل مريم العذراء المباركة، تدفق هذا النبع أثناء حضورها، عندما قدمت صاعدة من الناصرة، وتولت خدمة اليزابث لمدة ثلاثة أشهر، فقد رغبت العذراء المباركة بالحصول على ماء لحمله إلى اليزابث، التي كانت حاملاً وذلك من أجل استخدامه في البيت الأعلى والأدنى، لأن زكريا كان كاهنا غنياً، ولديه مزرعة في ذلك المكان، مع بساتين من أشجار الزيتون، وأشجار التين، وكروم العنب، وكان لديه بيت على كل واحدة من التلتين الصغيرتين، وخدم يتولون خدمته كما يتولون اطعام مواشيه، وبناء عليه كان معتاداً على العيش أحياناً في البيت الأول، وأحياناً أخرى في البيت الثاني، وذلك وفقاً لأوقات السنة. وقد قام النبع في الوسط، وكان يستخدم من كلا البيتين.

وحدث أنه في الوقت الذي قدمت فيه العذراء المباركة لتحية اليزابث وخدمتها، أنهم كانوا يعيشون في البيت الذي قام على الأرض المنخفضة، لكن عندما جاء الوقت لتحمل بيوحنا المعمدان، ذهبت اليزابث نفسها وصعدت لتسكن في البيت الأعلى، آخذة معها العذراء المباركة، وقابلاتها، ووصيفاتها، غير أن زكريا مكث في البيت التحتاني مع رجاله وخدمه، لأنه في الأيام الخالية لم يسكن الرجال في بيت النساء

الحوامل في أيام ولادتهن.

المكان الذي حييت فيه إليزابث من قبل العذراء المباركة

وهكذا بعدما شربنا من نبع العذراء المباركة، تابعنا سيرنا بمعد صائمة، واتجهنا نحو اليسار، إلى البيت الأول، أو البيت التحتاني لزكريا، وعندما وصلنا إليه وجدناه مغلقاً، وقرعنا الباب بالحجارة، وبالعصي والعكاكيز، لكن مامن أحد جاوبنا، وشرع شباب المسلمون بالسير حول البيت يبحثون عن مكان، يمكنهم منه تسلق الجدار، ومن ثم فتح الباب لنا، وحدث أنه بعد طول انتظار أن كان هناك مسلم في داخل البيت، وكان بالحري وحشاً اكثر منه انساناً، وقد تظاهر بأنه لم يسمعنا، لكنه عندما رأى الشبان المسلمين الذين رافقونا يبحثون عن طريق آخر للدخول، نزل إلى الباب وفتحه على مصراعيه، ثم إنه وقف عند الباب وبيده عكاز، وزوجته ومعها آلة كي بالنار، وذلك حرصاً على عدم دخول أحد قبل دفع بعض المال لهما، وعندما أعطي المال له تخلى عن غضبه، وسمح لنا بالدخول، وما أن شرعنا بالدخول حتى بدأ قائد الجوقة يغني أغنية مريم العذراء المباركة جداً: « megnificant an-ima mea » الخ، ودخلنا ونحن نغني هكذا إلى المكان الذي حيت فيه العذراء المباركة اليزابث، حيث قفز يوحنا سروراً في رحمها، وبذلك ردت اليزابث على تحيتها وتنبأت لها، وغنت مريم تلك الأغنيات العذبة، وهي مليئة بأعمق الأسرار، حيث كل كلمة حافلة ببعض المعاني الهائلة، وسقطنا في هذا المكان على ركبنا وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وشعرنا بالحقيقة ببهجة خاصة في هذا المكان مع مريم العذراء المباركة، التي نشرت هنا بتحيتها وبأغنيتها الحلوة، وعمت البهجة التي لايمكن وصفها، والتي من خلال تحية الملاك حملتها حتى الآن مخبأة ومخفية في أعماق قلبها، فضلاً عن هذا قفز الطفلان سروراً في رحمي

أمهيهما، عند التقاء هاتين الأمين، إلى حد وكأن الأمين امتلأتا بسرور غير اعتيادي، وفي قلب مريم العذراء الأعظم مباركة، تجدد في هذا المكان جميع السرور الذي تلقته من تحية الملاك، وكأنه اكتمل، لابل قد نغامر فنقول: يبدو أنها حصلت في هذا المكان على سرور أعظم، لأنه عندما حياها الملاك في الناصرة قال: «سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك، مباركة أنت في النساء»، وصرخت اليزابث بصوت مرتفع «وقالت مباركة أنت في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك»، ونعلم الآن من هذا كله بأن مريم العذراء الأعظم مباركة قد أحبت ثمرة رحمها أكثر من محبتها لنفسها بشكل لايقارن، وابتهجت بتشريفه أكثر من ابتهاجها بتشريف نفسها، ودعاها الملاك فقط بالمباركة، لكن اليزابث أعلنت أنها هي وثمرة قلبها مباركين، وبذلك ازدادت بهجة العذراء وتضاعفت، ولهذا السبب نحن لم نقرأ بأن العذراء المباركة قد غنت أغنيتها المعبرة عن سرورها جواباً لتحية الملاك، بل جواباً لتحية اليزابث وقالت وهي مبتهجة: «تعظم نفسي الرب،وتبتهج روحي»،الخ، وبناء عليه في هذا المكان انتهت تحية الملاك وصارت كاملة، وهكذا تلقينا نحن الحجاج فوق هذه البقعة جميع البهجة التي كان من المتوجب أن نكون قد شعرنا بها في الناصرة، حتى وإن لم نكن قادرين على الذهاب إليها، وفي كلمات كل من الملاك واليزابث رددنا مراراً كثيرة Ave ma- ria ، وقدمنا قبلاً إلى العذراء، حتى مثلما حيتها اليزابث وأيضاً قبلتها، لأن بيرنهارد التقي قال: «يامريم، إن سماع قول الملاك Ave maria مثل قبلة لك، وغالباً ماقبلت، عندما حييت بالقول Ave.

وفي الحقيقة، أسقطت السماء، وقت هذه التحية، الحلاوة، وضحكت النجوم، وابتهجت الملائكة، وسعدت الدنيا، وارتعدت الشياطين، وذبلت قوى النار وتلاشت، وصار الأتقياء من الناس مسرورين، وحصل المذنبون على أمل، ومن هنا نمت العادة بين كثير من الناس على

إضافة Ave maria، إلى الصلاة الربانية، وذلك كلما وقعت، حتى في الساعات الشرعية، ومع ذلك يقول بعضهم بأن هذا يتوجب عدم القيام به، لأنه لم ترد في الأحكام، والملاحظات، ولافي العناوين، إشارة إلى Ave maria عندما جرى تعين الصلاة الربانية لتقال.

ولقد سمعت أن خلافا نشب حول هذا الموضوع بين راعي الدير والرهبان النظاميين التابعين لكنيسة باتافيا Batavia (كذا)، فقد رغب الراعي دوما بإضافة Ave maria إلى الصلاة الربانية لكن الرهبان النظاميين ورجال الدين رفضوا أن يفعلوا ذلك، حيث ادعوا بأنها لم تعين إليهم في العناوين الرسمية، وأخيراً من أجل السلام والوئام عرضت القضية على البابا، الذي اتخذ قراراً لصالح الراعي، حول الجانب الايجابي للقضية، وأصدر مرسوماً قضى فيه بوجوب قول Ave maria بعد Pater Noster.

وفي أيامنا فقط وضع حد للعادة القديمة للقديسين، الذين اعتادوا أن يصلوا للرب بخمس صلوات ربانية، وأن يحيوا مريم العذراء الأعظم مباركة بخمسين Ave maria بشكل متتابع أثناء صلوات شكرهم، من أجل أعمال خلاصنا، وهذه العادة السليمة التي صارت شبه مهملة وغير مستخدمة في مناطقنا، جرى تجديدها بفضل الجهود الكبيرة العائدة للحكيم اللاهوتي الممتاز، المعلم جيمس شبرنجر، الذي هو من طائفة الرهبان المبشرين، ومن الدير (الدومينيكاني) في كولون Co-logne ، وقد كنت أنا وهذا المعلم، كأن تقول أخوين بالنشأة، حيث ارتدينا الثوب الرهباني في الدير في بازل، في السنة نفسها، وبعد مضي سنة، عملنا احترافنا في المدارس نفسها، حيث تدربنا تحت المعلمين أنفسهم، ونحن في هذه الأيام صديقين حميمين.

والسبب الوحيد لإخباركم بهذا، هو بسبب أنني أعرف بأن هذا المعلم المبجل، قد كان منذ الصغر مكرس للعذراء مريم، ولم يتوقف منذ

صغره حتى الوقت الحالي، عن تعظيم وتقديم الشكر إلى مريم العذراء المجيدة جداً، وقد شغل نفسه مع الكرسي الرسولي، من أجل استصدار مرسوم غفرانات، وحصل على هذا المرسوم ، حيث منح فيه السيد المقدس، البابا سكتوس الرابع، غفرانات عظيمة إلى الذي يقول العدد المتقدم ذكره من الصلاة الربانية مع Ave maria، ثلاث مرات في الأسبوع.

وأطلقوا على هذه الصلاة اسم «سبحة العذراء المباركة»، ولقد رأيت هذه المرسوم، وقرأته كله، وعملت نسخة عنه، ويردد بعض الناس الصلاة المتقدمة الذكر ثلاث مرات في اليوم الواحد، ويسمونها: «مزامير مريم المباركة»، وبالنسبة إليهم هناك حصول على غفرانات عظيمة، مرة في الحياة، وأخرى في الموت، وقد سموها «مزامير»، لأن فيها مثل مزامير داوود ثلاثة خمسينات، فالخمسين الأولى معينة كصلاة شكر لحلول المسيح وطفولته، والخمسين الثانية من أجل آلامه، والثالثة من أجل تمجيده، ويضيف آخرون خمسين أخرى، ويكررون عشرين «صلاة ربانية» ومائتي Ave maria في كل يوم، لأنهم يعلنون أن كتاب المزامير هو غير كامل ما لم يضف بعد مزمور «Laudate dominum de coelis » تراتيل من العهدين الجديد والقديم وترانيم، ولهذا يضيفون خمسين رابعة إلى التراتيل والترانيم، وأنه بذلك تكون المزامير كاملة.

وهم يقدمون سبباً آخر لتلاوتهم أربعة خمسينات هو أن ذلك ليس الأقل مواءمة لمباركة العذراء المقدسة وثمرة رحمها، ومن أجل حياة الرب الأعظم فضيلة وكمالاً، ولا أقل من أجل تجسيده، وموته، وتمجيده، وبناء عليه إن في تلاوتهم للخمسين الأولى يتأملون حول تجسيد المسيح وطفولته، وفي الثانية حول أعماله وحياته، وفي الثالثة حول آلامه وموته، وفي الرابعة حول قيامته، وتمجيده هو نفسه وأمه ونحن

أنفسنا.

علاوة على ذلك حتى تكون هذه الصلاة أكثر انتظاماً وأقل اضجاراً، جعلوا كل «صلاة ربانية» مع عشر Ave maria بمثابة صلاة شكر من أجل بعض المباركات التي في أذهانهم، من ذلك على سبيل المثال هم يرددون «الصلاة الربانية» الأولى مع عشرتها من «Ave maria » بمثابة صلاة شكر من أجل مباركة التجسيد، وثاني «صلاة ربانية» مع عشرتها من« Ave maria » من أجل مباركة الميلاد، والثالثة من أجل مباركة الختان وتشريفاً لاسم يسوع، والرابعة من أجل تقدمة الملوك، والخامسة من أجل مباكرة التطهير، لأنه جرى تقديمه في الهيكل بمثابة مذنب، وتطهرت أمه وكأنها غير نظيفة، وكذلك من أجل الفرار إلى مصر والعودة من هناك، ولحضوره المتواضع في المدرسة، ولطاعته لوالديه، فهذه هي الخمسين الأولى.

وكانوا يتولون ترتيب الثانية وفق التالي: يقولون «الصلاة الربانية» الأولى مع عشرتها من Ave maria، من أجل تعميده، والثانية من أجل تحمله الإغواء في القفار، والثالثة من أجل اختيار تلاميذه ودعوته لهم، والرابعة من أجل حياته الربانية، وعقيدته الواضحة، ومعجزاته، والخامسة من أجل وضعه القداسات، ولاسيما مباركة القربان، وهكذا دواليك.

أما الثالثة فكانوا يتولون ترتيبها كمايلي: الأولى من أجل المعاناة الداخلية للمسيح، وبكائه وآلامه على جبل الزيتون، والثانية من أجل القبض عليه وتعذيبه خلال الليل كله، والثالثة من أجل اتهامه، ومن ثم ارساله إلى هيرود، وجلده، وتتويجه، والرابعة من أجل السخرية منه، واقتياده لصلبه، وصلبه مع جميع الذي فعله المسيح على الصليب عندما كان مايزال حياً، والخامسة موته، وطعن جانبه، ودفنه.

ورتبـوا الخمسين الرابعة كمايلي: رددوا «الصـلاة الربانيـة» الأولى، مع عشرتها من Ave maria وذلك بمثـابة صـلاة شكر من أجل قيـامتـه، والثانيـة من أجل عظمة صعوده، والثـالثة من أجل نعمـة ارسال الروح القدس، والرابعـة تشريفاً لصعود العـذراء المباركـة، والخامسة من أجل سلطانه كحكم، ولأحكامه العادلة. وهذه الصلاة صلاة تقوية ومواساة، عندما يصبح الانسان معتاداً عليها.

فضلاً عن هذا، ومن أجل أن يحط من مكانة الذين كانوا غيورين من مـريم العــذراء المبـاركـة، والذين أنكروا فضيلـة هذه الصلوات، وضع المعلم جيمس المتقـدم الذكــر، هذه القضيـة كلهـا، أي قضيـة السبحـة والغفرانات، لأن تكـون موضوع مناقشـات عامـة في جامعـة كولون في Quodlibetis، وفي هذه المناقشـات جرت الموافقة على أن هـذه الصلاة كانت بريئة ومفيدة، وهي الأكثر قبـولاً لدى العذراء المباركة. وليكن في هذا كفاية، في جولاتي حول هذا الموضوع.

الموضع الذي قال فيه زكريا ترنيمة «مبارك»

وبعدما أمضينا بعض الوقت في المكان المتقـدم الذكر، ذهبنا صاعدين من الكنيسة التحتـانية، وذلك عبر درجات حجـرية، فوق قنطرة، حيث قـام فيما مضى بيعـة جميلة، وعندمـا كنا صــاعـدين، كنا نغني ترنيمـة: «مبـارك الرب إله اسرائيل لأنه افتقـد وصنع فـداء لشعبـه» الخ، وهذه الترنيمـة قـد نظمت من قبل زكـريا، عندمـا امتـلأ بروح القـدس، أثناء ختان الطفل، وذلك حسبما وصلنـا الخبر في الاصحاح الأول من انجيل القـديس لوقـا، وتابعنا سيرنا ونحن نغني كـذلك حتى وصلنا إلى البناء العلوي، حيث وجدت القـاعة، التي جلس فيهـا زكريا صـامتاً، وحيث طلب لوحاً، وكتـب عليه «اسمه يوحنا»، وهنا انفتـح فمه بالحال، وتنبأ قائلاً وغنـى «مبارك الرب إله اسرائيل لأنه»الخ، ولذلك انحنينا بأنفسنا نحو الأرض، ونحن نصلي، وحصلنا على غفرانات(+).

وأخيراً بعـدمـا نهضنا من صـلاتنا،حملنا أنفسنا من أجل مشـاهدة المكان، وقـد رأينا على الجانب الأيسر كنيسـة كبيرة، بلا نوافـذ(؟) بنيت من أجـل أن تكون هري، ففي هـذا الهري أودعت اليـزابث طفلهـا الرضيع، القـديس يوحنا المعمـدان، وأخفتـه، عندما جـاء خـدم هيرود يسعون حول تلك المنطقة، يبحثون عن الأطفال من أجل ذبحهم، لابل من المعتقـد أنهم قـدمـوا، ودخلوا إلى ذلك البيت نفسـه، بحثـاً عن الأطفال، لكنهـم عندما رأوا انسانين عجـوزين هما زكريا واليـزابث، لم يتوقعوا وجـود أية أطفال معهما، وغادروا مسرعين، وبقي الطفل يوحنا دونما أذى، وعلى كل حـال يقـول ألبرتوس في تعليقـاته على الاصحـاح الأول من انجيل لوقـا، بأن زكـريا قـد قتل من قبل رجـال هيرود، لأنه رفض تسليم ابنه، كما سنرى ذلك فيما يأتي بعد.

ويوجد في هذا البيعة مذابح محطمـة، وأقواس مهدمة، وعلى الجدران صوراً قديمة، وفي البنائين العلوي والتحتاني نمت الأعشاب والحشائش فـوق القنـاطر، كما هناك بعـض الحبيبـات ذات اللـون الأزرق مثل الفـاصوليـاء، قد نمت هناك، وهـي ليست موجـودة في أماكن أخـرى، وكان هنا فيما مضى كنيسة جميلة وفخمة، وقد سكن الرهبان في قلايات إلى جوارها، ولكنها الآن — ويالالأسف — غـدت البيت المهدم لواحد من أكثر المسلمين تعاسة.

المكان الذي ولد فيه يوحنا في هذا العالم

وخـرجنا من هذا المكـان نسير على طريقنا، وعـدنا ثانيـة إلى النبع المتقـدم الذكر، وتسلقنا من النبع مكـانا منحدراً، إلى تلة، وعندمـا صرنا فوقهـا، وصلنا إلى كنيسة كبيرة، حيث غنينا فيهـا بصوت مـرتفع ترنيمة ut queat laxis، وقـد بنيت هذه الكنيسة فـوق المكان الذي ولد فيـه يوحنا المعمدان الذي كـان رائد الرب، ويوجـد الآن المكان الفعلي لميلاد الرائـد على الجهـة اليسرى في بيعـة السـدة، التي بابها مغلـق بخـرائب

الجدران، وبناء عليه تسلقنا فوق الجدار، ووضع واحد من الحجاج نفسه تحت واحد آخر، حتى يتمكن من التسلق من فوقه إلى قمة الجدار، ولكي ينزل إلى الطرف الآخر على رأس ورقبة حاج آخر، وهكذا تسلقنا جميعاً فوق الجدار، وغدونا في داخل بيعة مظلمة، لم يكن بإمكاننا أن نرى فيها شيئاً من دون مصابيح.

ويوجد هناك عند رأس البيعة قبو تحت الصخر، فيه من المعتقد بأن المعمدان الأعظم قداسة قد ولد، وبناء عليه انحنينا أمام هذا الكهف، وقبلنا المكان، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++) وشعرنا بمواساة عظيمة وبسرور كبير، بشكل منحنا بعض القوة في الايمان، لأنه بسبب فضائل الرائد فاحت من ذلك الكهف المهجور رائحة طيبة وسليمة، بوساطتها قدّم الرائد بدوره قبلاته وتحياته إلى أرض ميلاده، التي جرى تقبيلها من قبل الحجاج.

وفي الحقيقة لولا أن الرب واسانا بهذه الوسائل، لكنا في وضع أسفنا به كثيراً في ذلك المكان، بسبب حالة انتهاك الحرمة لمثل هذا المكان المقدس، لأن الكنيسة، مع أنها كانت مرتفعة ومقنطرة، وماتزال مدهونة، غير أنها مليئة بالمواشي، والحمير، والجمال، ولايوجد هناك فيها سوى الروث والقاذورات، ورائحة بشعة كثيراً، بقدر بشاعة تحويل كنيسة مقدسة إلى اسطبل للمواشي، ويوجد من حول الكنيسة خرائب كثير من البيوت، سكن فيها فيما مضى رجال دين وعبيد للرب، والذي هو موجود الآن في ذلك المكان هو فقط بيت ريفي تعيس.

صحراء يوحنا المعمدان

يقال يوجد خلف الوادي صحراء يوحنا المعمدان، حيث سكن عندما كان صبياً، حسبما ورد الخبر في الاصحاح الأول من انجيل لوقا قوله: «أما الصبي فكان ينمو ويتقوى بالروح، وكان في البراري إلى يوم

ظهـوره لاسرائيل»، ولهذا قـال جيزوم في قـداسـه: علينا أن نفهم من كلمات «انتبهوا لقد أرسلت رسولي» أن ذلك الرسول الذي بعـدما ترك المأوى في رحم أمـه، نشـد التعـرف إلى الأجـزاء السرية من الصحـراء، ولعب مع الأفـاعي هناك كطفل، وقد ورد هذا القـداس ضد الهراطقـة الشيطانيين، لأنه في سنته الخامسة أو السابعـة طلب الصحراء، فراراً من فساد العـالم، وعـاش حيـاة ناسك لمدة خمس وعشرين سنة، ولهذا يغنى عنه:

عندما كنت ماتزال صبيا

إلى الصحراء القفر

فررت، لتصلي بين كهوفها وتشكر

تاركاً حشد

الناس، خشية من أية خطيئة

يمكن أن تلوث صفحة أيامك البيضاء

وفي الحقيقة إنه تبعاً لبيرنهارد، المنطق يحض الانسـان، والعدالة تدفعه ليمنح حياته كلها إلى الذي تسلمها كلها منه، وأيضاً من أجل أن يتمكن من المحافظة على يديه نظيفتين، لأنه بهما سيلمس المسيح، وكذلك عينيه، لأنه بهما سوف يرى الروح القدس، على شكل حمامـة، وأذنيه اللتان بهما سـوف يسمع صوت الرب الآب، من أجل هذا كله ترك العـالم، ودخل إلى الصحراء، وطلب كهوفها.

وتحدث أليبرتوس مغنوس المبجل في قـداسه حـول الاصحاح الأول من انجيل القـديس لوقا، ولاسيما حـول قوله: «أما الصبـي.... كان في البراري» الخ، كمايلي: «قـال بيـد: أمضى يوحنـا في الصحـراء عشر سنوات، ولقـد دخل إلى الصحراء في سن العـاشرة، وتركها عندمـا كان

في الثـلاثين من عمـره(١)، كما هو واضح من الاصحـاح الثـالث من انجيل القديس لوقا».

غير أن انجيل النصـارى حـدثنا أنه عندمـا كـان هيرود يبحث عن الأطفال ليقتلهـم، جرى قتل زكـريا والد يوحنا، لأنه رفض تسليم ابنه، وقامت أمه بـأخذه من مكان اخفائه المتقدم ذكـره، وبصعوبة هربت إلى الصحراء، وعندمـا كان مطاردوها يلاحقونها عن قـرب، ولم تعرف أي مكان لتخفي فيـه الطفل، انشقت صخرة في الجبل، وفتحت نفسهـا، ثم انغلقت على الاثنين: هي نفسها، والطفل، وبذلك تبـددت جهود الذين كانوا يطاردونها، وحدث بعـد عدة سنوات أن توفت الأم، وبقي الطفل يعيش في القفـار، ووفـق طرائق الأطفـال تعلـم أكل الجراد، والعسل البري، الذي وجده في الصحراء، مثلما يفعل النمل.

ولقـد قيل بأن دم أبيـه أيضـاً الذي جـرى جمعـه في أوعيـة، من قبل الكهنة، وتمّ حفظه في الهيكل، كـان دوماً يفـور، لدى ظهور أي واحـد من أسرة هيرود، في الهيكل، فهـذا ماذكره ألبيرتوس، وكـان —على كل حال— لدى يـوحنا المعمدان صحرائين، لم تكن الأولى بعيـدة عن بيت أبيه، حيث الكهوف التي عاش فيها عندمـا كان شاباً، وهي المشاهدة في هذه الأيام، والصحـراء الأخرى هي إلى جانـب نهر الأردن، حيث كان يبشر بين الناس، ويعمّـدهم، granted ذكـر الصحراء الأولى في الاصحـاح الأول من انجيل القـديس لوقا، أمـا الثـانية فـورد ذكرها في الاصحـاح الثالث .

نهاية المجلد الأول

– هذا يعني أنه بقي في الصحراء عشرين سنة.

المحتوى